رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثامنة
العدد الأول

جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ
يناير ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
"قرآن كريم"





رسالة الإسلام

مجلّة اسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدّى لنشرها

مجمع البحوث الاسلامية للآستانة الرضوية المقدّسة

و

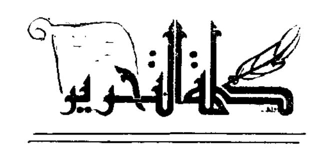
مجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية

١٤١١هـ/ ١٩٩١م

الأمور الفنّية والطبع

مؤسسة الطبع والنشر فى الآستانة الرضوية المقدّسة

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله القوى العزيز وعلى بركته ، وبحمده تعالى وفى ظل نعمته ، وبالصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وصفوته ، وعترته الطاهرة وصحابته : نبدأ العام الثامن لهذه المجلة المباركة التى أخلصناها حبَّنا ، وأصفيناها جُهدَنا ، وابتغينا بها مرضاة ربنا ، ورجوناها منبراً عالياً فى العالمين ، تُسمع من فوقه دعوةُ الوحدة على دين التوحيد « إن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون » .

اللهم إنا نَضرَع إليك فى مستهل عامنا الجديد ، أن تتولانا فى حاضرنا ومستقبلنا بما توليتنا به فى ماضينا من عون وتوفيق ، فإنه لا عونَ إلا عونُك ، ولا توفيق إلا بك . « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

* * *

أما بعد . فإن « رسالة الإسلام » فكرة ودعوة ، بدأت منذ سبع سنين بَدْأةً على غير طراز سَبَق : لا تتحدث باسم طائفة دون طائفة ، ولكن باسم الإسلام ، ولا تسير فى ركاب مخلوق ، ولكن توجه وجهها للذى فطر السموات والأرض ، ولا تنكص عن حق ، ولا تسكت على باطل ، ولا تدلس فى حجاج ، ولا تجارى فى لجاج .

وقد ضَربتْ بنجاحها المستمد من تأييد الله وتثبيته مثلا للذين يظنون أن مجلة من المجلات لا يمكن أن تنجح إلا إذا جاملت هذا أو ذاك ، فشَهَرت اسمه ، ونشرتْ رسمه ، ورصدت حركاته ، وسجلت كلماته ، كما ضربت مثلا للذين يحسبون

أن الحزبيـة أو الطائفية شرط فى الإسماع والإبلاغ ، وأن الناس لا يقبلون إلا ما يرضيهم ، فكانت لهؤلاء وأولئك أسوة حسنة شرح الله بها صدور المؤمنين ، وجمع على كلمتها قلوب المختلفين ، ووقاهم بها شر المفسدين .

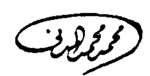
* * *

إن الله سبحانه وتعالى علم المؤمنين فيما علمهم من دعاء أن يقولوا : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » والمؤمن يكون فتنة لغيره إذا كان على نوع من الحياة أو السلوك فيها يُتَّخَذ دليلا على أنه لم يُفِد من إيمانه ، ولم تنعكس به أضواء ساطعة على قلبه ، ولا أعمال نافعة على جوارحه ، فيقول الكافر : ما بال هذا لم يصلحه إيمانه ، ولم تنفعه عقيدته وشريعته ؟ وقد أتى على المسلمين حينٌ من الدهر كانوا فتنة للذين كفروا : رأوهم ضعفاء فقالوا لم ضعفوا وقد زعموا أن دينهم دين القوة ، ورأوهم أذلة فقالوا لم ذلوا وقد زعموا أن دينهم دين العزة ، ورأوهم متقاطعين متدابرين ، فقالوا هذه حالهم على دينهم ، فكيف يدعوننا به ، ويهدوننا إليه ؟ .

ولقد سرى هذا الروح إلى بعض المسلمين ، فظنوا أن عقائدهم وأحكام دينهم ربما كانت هى السرّ فى شقائهم ، فلم يعودوا يتحمسون للإسلام ، أو يغارون على مبادئه وأخلاقه ، بل أصبحوا يجادلون فيها ، ويحاولون زلزلة الناس عنها ، وهكذا فَتَنوا ، ثم افتتنوا .

إن « رسالة الإسلام » هى دعوة لإصلاح المسلمين فى هذا الشأن وفى أمثاله : تناشدهم ألا يكونوا فتنة للذين كفروا ، بضعفهم وتخاذلهم وانصرافهم عن دينهم وجهلهم تعاليم شريعتهم ، تريدهم قادة للعالم ، مصلحين فيه ، وتالله لن يكونوا مصلحين إلا إذا كانوا فى أنفسهم صالحين .

إن عهدنا الى أمتنا فيما نستقبل من أمرنا هو منهاجنا الذى عرفوه فى ماضينا : إيمان لا يعرف الشك ، ودعوة الى الله لا تعتز إلا بالله ، وحربٌ عوانٌ على التعصب حتى يبرأ منه المسلمون .



محمد محمد المدني

تفسير القرآن الكريم

سورة الأنعام

— ٢ —

الوحي والرسالة — سر إنكارها ودليل ثبوتها — مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم — المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله — شبهتان قديمتان للمنكرين: الاستبعاد — الاكتفاء بالعقل — الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين — الرد عليها — الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين — الرد عليها — القرآن يثبت نبوة محمد والانبياء قبله — سر الاكتفاء بدليل إجمالى — أسلوب السورة مع المنكرين تلقيني إنذارى — سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول — مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار — إنما يستجيب الذين يسمعون — إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين — تسلية الرسول .

الوحي والرسالة :

كما تحدثت سورة « الأنعام » عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس إلى مظاهرهما فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم ؛ تحدثت عن حقيقة ثانية تنبنى على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم ، وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم ، فإن ربوبيته — جل شأنه — ليست قاصرة على ماهيأ لهم من أسباب الحياة المادية ، وإنما هى ربوبية ذات آثار معنوية روحية كذلك ، ولعل هذا هو المعنى المراد

فى قوله تعالى : « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فإعطاؤه الخلقَ كلَّ شىء هو مظهر النعم المادية التى أنعم بها عليهم ، حيث سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، وهدايته هى مظهر النعم الروحية التى تفضل بها عليهم حيث وهبهم العقل وأسباب العلم ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وسن لهم الشرائع .

عُنيتْ سورة « الأنعام » بهذه الحقيقة كما عُنيت بالحقيقة الأولى ، فتحدثت فى كثير من آياتها عن الوحى والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحى وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الإلهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التى رسمها الله للرسول وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه .

ومن الخير أن نعرض لهذه الجوانب التى عرضت لها هذه السورة الكريمة ، متعرفين إلى أسلوبها الذى عالجتها به ، منتفعين بهديها فيه .

سر إنكارهما ودليل ثبوتهما :

فمن ذلك أنها خصت قضية الوحى والرسالة فى صدر آية من آياتها ، هى الآية الحادية والتسعون ، يقول جل شأنه : « وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » فهذه الجملة على وجازتها تشتمل على ما يأتى :

(١) تسجيل كفر الكافرين بهذا الشأن الإلهى الذى هو إنزال الوحى على البشر .

(٢) الإشارة إلى شبهتهم الأساسية التى يتوارثونها خلفا عن سلف فى إنكار هذه الحقيقة ، وهى استبعادُهم حصولَ ذلك ، أو زعمُهم إغناء العقل عنه .

(٣) إجمال الدليل الذى يُرَدّ به عليهم ، وهو دليل صالح لكل عصر ، ولكل ثقافة ، لأنه دليل عقلى فطرى فيه ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم :

ولعل من المفيد أن نذكر فى هذا المقام أن هذه العبارة : « ما قدروا الله حق قدره » جاءت فى ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم :

الموضع الأول : هذا الموضع من سورة الأنعام ، وقد أُتْبِعَتْ بقوله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » وهو مقابلة لسلبهم العام حيث قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » بالإثبات الجزئى لرسالة مشهورة معروفة ، وفيه بيان لوجه الحكمة فى الإيحاء بهذه الرسالة ، حيث قصد بها أن تكون نوراً وهدى للناس ، ثم أتْبَع ذلك بالإشارة إلى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » وهى إشارة إلى حاضر شاهد بين أيديهم ، مصدق لما سبقه ، مع بيان الغاية منه ، والحكمة فى إنزاله ، وهى إنذار أم القرى ومن حولها .

والموضع الثانى : هو قوله تعالى فى سورة الحج : « ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير » وفى هذا الموضع جاءت العبارة نفسها معقَّبة بإثبات قوة الله وعزته ، وأن اصطفاء الله الرسلَ من الملائكة ومن الناس شأن من شئونه .

والموضع الثالث : قوله تعالى فى سورة الزمر : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » وفى هذا الموضع تفصيل لبعض مظاهر القوة والعزة التى أثبتت لله بجملة فى الموضع الثانى ، ثم ينتهى الكلام بذكر المجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بين الناس بالحق .

وهكذا تتلاقى العبارة التى صُدِّر بها الكلام فى هذه المواضع الثلاثة : « وما قدروا الله حق قدره » مع ما جاء تالياً لها فى كل موضع ، ويكون هذا التلاقى على معنى واحد مشترك هو إثبات أن الله يوحى ، لأنه قادر قوى ، ولأنه حكيم عليم .

المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله :

بعد إجمال القول فيما تفيده هذه الجملة ، نتبعه بشىء من التفصيل فنقول :

إن قضية الوحى والرسالة من القضايا العويصة التى شغلت الناس قديماً وحديثا ، لما لها من أهمية قصوى فى حياة البشر ، إذ يترتب عليها مبدأ الإيمان بالأديان ، فيعترف أهل الأرض بتوجيه السماء ، أو مبدأ « اللادينية » التى لا تعترف بهذه الصله ولا ترتبط بها وترى أن الإنسان سيد نفسه ، وسيد هذا الكوكب الذى يعيش على ظهره ، لا يتلق فى شأن من شئونه وحيا إلا من عقله وتجاربه .

ومن الواضح أن هذه القضية تأتى فى الترتيب العقلى بعد الإيمان بالألوهية فمن آمن بأن للوجود إلها مستحقا للعبادة متصفا بصفات الكمال والتنزيه ؛ أمكن أن يناقَش فى الوحى والرسالة ، إذ الرسالة تقتضى وجود « المرسل » والوحى يقتضى وجود « الموحى » وإذا انتفى الإيمان بمصدر الوحى والرسالة ، فالكلام فيهما عبث لا طائل تحته .

وقد علمنا فى الفصل السابق أن الناس فى قضية الألوهية صنفان : صنف جاءه الضلال من أنه أشرك مع الله آلهة أخرى ، فهو معترف بالله ولكنه يرى نفسه أقل من أن يتصل به مباشرة ، فهو يعبد الشركاء ليقربوه إلى الله زلفى ، وصنف أبعد من هؤلاء فى الضلال ، وهم الذين ينكرون الإله ويزعمون أن هذا الكون وجد بدون موجد ، وأنه يسير بنفسه دون مدبّر ولا مصرف .

وعلمنا أن القرآن الكريم يثبت « الألوهية » بإثبات مظاهر « الربوبية » وأن هذا الإثبات يصلح للصنفين جميعا ، فهو يصلح للذين يتخذون مع الله إلها آخر حيث يفيدهم أن الرب الذى « خلق » و « جعل » ـ أى أنشأ وصرّف ـ واحد ،

فيجب أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، وهو يصلح أيضا لمنكرى الربوبية إطلاقاً ، من حيث إنه يناشد فطرتهم الكامنة ، وعقولهم التى لا يمكن أن تتقبل محض المصادفة التى يزعمونها مع هذا الخلق الكامل ، والتدبير المحكم ، والشواهد الناطقات .

والصنف الثانى مع هذا قلةٌ من الناس فى كل عصر ، لا يؤبه لهم ولا يمكن أن يناقَشوا أو يُساق لهم دليلٌ غير الدليل الكونى الذى يصرُّون على إنكاره ، فلا حيلة فيهم غير تركهم وإهمالهم حتى تقرعهم القوارع التى تهذب نفوسهم وعقولهم فتوجههم إلى تدبر الآيات والبينات ، أو حتى تنقضى حياتهم فيعودوا إلى ربهم فيعترفوا بما كانوا يجحدون .

لهذا كله بنيت جميع العقائد الدينية وأدلة إثباتها على الأساس الأول والحقيقة الكبرى ، وهى وجود الله الخالق المتصرف المستحق للعبادة والطاعة ، ومن بين هذه العقائد ، أو هذه الحقائق ، حقيقة الوحى والرسالة ، فالبحث فيها مبنى على الإيمان بالله وبما له من صفات الكمال والتنزيه .

وعلى هذا الأساس جادل الناس قديماً وحديثاً فى قضية الوحى والرسالة ، وجودلوا فيها .

شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد :

والقرآن الكريم يبين لنا فى كثير من آياته أن هناك شبهتين قديمتين يقوم عليهما دائماً إنكار المنكرين :

إحداهما : أن ذلك مستبعد أو مستحيل ، إذ كيف يتصور العقل فى زعمهم أن يتصل الخالق بالمخلوقين فيوحى إليهم بأمره أو كلامه ؟ فالخالق له صفاته التى منها تنزهه عن المكان والصوت ، والمخلوقون لهم صفاتهم التى منها أنهم محدودون قاصرون لا يستطيعون أن يتلقوا الكلام والأمر إلا من مثلهم ، وقد جوبهت الرسالات الإلهية بهذه الشبهة منذ العهود الأولى ، فنوح يقول لقومه : « أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون »

وهود يقول لقومه عاد هذه العبارة نفسها : « أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » ، والملأ الكافرون من قوم صالح يقولون للذين آمنوا به : « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » ، وهكذا كل رسالة حتى ليقولُ القرآن الكريم فى الرسل عامة : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » . « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا » ، ويقول فى شأن خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » . « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . . الخ .

وقد جاء هذا الإنكار المبنى على الاستبعاد فى سور الأنعام حيث تقول : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك . . » . « وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير الأولين » « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » إلى غير ذلك من الآيات .

الاكتفاء بالعقل :

الشبهة الثانية : أن الله تعالى وهب الإنسانَ العقلَ ، فهو كاف لهدايته وإرشاده ، وليس بالناس معه من حاجة الى وحى أو رسول ، هكذا يزعمون .

والقرآن الكريم يشير الى هذه الشبهة من شبه المنكرين فيما يبينه من حكمة إرسال الرسل فى مثل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . « ألم أعهد

إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ».

ومن ذلك فى سورة الأنعام قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » . « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ، أنْ تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » .

بعد هذا يسهل علينا أن نفهم أن قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » فيه بيان لإنكار المنكرين ، وذلك مصرَّحٌ به فى قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شىء » وفيه بيان لأن سبب هذا الإنكار أنهم لم يقدروا الله حق قدره ، حيث كان منهم من استبعدوا هذا على قدرة الله ، مع أنه غير مستحيل بل ممكن ، وكان منهم من نازعوا فى أنه أمر تقتضيه الحكمة ، مع أنه هو عين الحكمة والمصلحة والرحمة ، وفيه إجمال للدليل الذى يرد به عليهم ، حيث يفهم منه أنهم لو قدروا الله حق قدره - أى عرفوه حق معرفته ، وأدركوا مدى قدرته وحكمته - لما نازعوا فى هذه القضية .

الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين :

بعد هذا يحسن بنا أن نقف وقفة يسيرة مع المنكرين لهذه الحقيقة الإلهية من ملحدى عصرنا ، لنعرف فى أى واد يهيمون ، وكيف ننتفع بما أرشدنا الله إليه من هذا الدليل الفطرى فى الرد عليهم ، والتحذير من فتنتهم وما يثيرون من شكوك .

إنهم يصورون الوحى تصويراً علمياً كما يزعمون ، فيقولون : إن النبى ما هو إلا إنسان مفكر له عقلية تخالف عادة عقلية أهل عصره ، وهو لا يظهر إلا فى

عصور الفساد والضعف والبغى والطغيان ، فيثور فى نفسه على هذه الأوضاع ، ويشتد مقته لها وتأمله فى طريقة التخلص منها ثم يُفضى به ذلك التأمل العميق . والتفرغ الطويل ، إلى حالة يَعْتقد معها أن العناية الإلهيه لا يمكن أن تدع أمور الناس تجرى هذا المجرى ، وأنه لا بد للناس من منقذ ، ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى هى مرحلة التطلع إلى أن يكون هو هذا المنقذ ، ثم إلى مرحلة الاعتقاد بأنه اختير فعلا لهذه الرسالة وتمتلىء نفسه بهذه العقيدة حتى يتصور أنه يسمع فيها وحياً ، وأن ملكا يغاديه بها ويراوحه ، وهو ليس بكاذب فيما يروى عن هذا الملك ، لأن خياله يجسّم له الأمر ولا يترك عنده ذرة من الشك فيه ، ثم يستغرق فى اعتقاد ذلك حتى يثبت فى نفسه ، ويوجه إرادته وجميع قواه إلى تحقيق ما اعتقد أنه رسالته التى بعث بها ، ويجد إلى جانبه من يؤمن به ويصدق كل ما يرويه عن عالم الغيب ، ويخضع لأمره ونهيه ، ويزداد هؤلاء المؤمنون يوما بعد يوم ، وتقوم إلى جانبهم معارضة فتقويهم وتجعلهم يتكاتفون حوله مخلصين غير مترددين ولا شاكين فى أنهم على الحق ، فهذا هو مايسميه الناس وحياً ورسالة ، وهذا هو تصوير العلم له — يريدون علم النفس وماله من قواعد —

الرد عليها :

ومن الواضح أن هذا الذى يذكرونه ما هو إلا ظنون ومزاعم لا تستند إلى دليل عقلى تطمئن إليه القلوب ، ويرضاه المنصفون المحايدون ، وأن الذى حملهم على ذلك هو استبعاد إنزال وحى من الله على من يصطفى من عباده ، فهى نفس الشبهة التى كانت تراود سلفهم من أهل الشك والإنكار فى عهود الرسالات وبعدها ، غير أنهم فلسفوها والتمسوا الفروض لها والتعليل لأسبابها ودوافعها كأنها ظاهرة من الظواهر المادية التى تعودوا أن يطبقوا عليها هذا المنطق الخيالى الفرضى .

وسبيلنا فى الرد على هؤلاء وبيان باطلهم أن نحجهم بما حج الله به المنكرين قبلهم فنقول لهم : على أى أساس بنيتم هذا الاستبعاد الذى أفضى بكم إلى التماس

العلل والفروض ؟ وأى ُبعد فى أن يوحىَ الله إلى أحد من خلقه بوحى ؟ وهل كل ما غاب عنا إدراكه وعجزت حواسنا عن تفهمه تنكره عقولنا ؟ إننا نكتشف كل يوم أسراراً فى هذا الكون ما كنا من قبل نتصورها ، ثم تصبح على غرابتها أموراً معروفة مألوفة ، وإننا نرى الهبات الإلهية لا تقف عند الحد الذى تقبله إدراكاتنا المحدودة ، فكم رأينا من عباقرة أفذاذ لا نظير لهم فى بيئاتهم ، ولا يجود التاريخ بمثلهم إلا فى الحين بعد الحين ، وكم رأينا من أفراد أوتوا قدرة عجيبة فى ناحية من النواحى لا تعرف أسبابها ، وأنا قد رأيت بنفسى غلاما من إحدى قرى « البحيرة » فى مصر كانت له موهبة حسابية عجيبة ، فهو يستطيع — مع أنه عامى جاهل — أن يستخرج حاصل ضرب عددين كل منهما مؤلف من عشرة أرقام فى ثوان معدودة ولا يخطىء فى ذلك ، ويقال له إن فلاناً ولد فى ساعة كذا من يوم كذا من عام كذا فما عمره بالدقائق فيجيب الإجابة الصحيحة فى أقل من دقيقة بينما يعجز الحاسبون عن استخراج هذه الإجابة إلا بعد حساب طويل ، ولست أريد أن أقول إن النبوة والرسالة شىء من ذلك أو يشبه ذلك ، ولكن أضرب هذا مثلا لما أودعه الله الإنسان من قوى ، وما يجود به على بعض عباده من مواهب لا يعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ، فالله قادر وهاب ، ولا حد على قدرته ، ولا مانع لما أعطى ، فهل يعجزه سبحانه أن يهيىء بشراً أو ملكا بقوة فوق العادة يستطيع معها أن يتلقى عنه أو عن ملك تلقى عنه ؟ إن الذى يقول باستحالة ذلك أو باستبعاده ينسى أن خلق الإنسان وتكوينه كله عجب ، ويكفى أن يفكر الإنسان فى أنه كيف يفكر ، ليعلم أن تفكيره من أعظم الآيات على قوة خالقه وقدرته وجوده الفياض ، ثم من ذا الذى كان يظن أن فى الذرة هذه القوة الكامنة ، وأن فى بعض رمال الصحراء التى ظلت ملايين السنين مهملة تذروها الرياح ؛ ما عرف لها من الخواص وما تصلح له مما هدى الله إليه أهل العلم الحديث ، ثم من ذا الذى يعرف مدى ما يصل إليه علم الناس وقدرة الناس فى المستقبل وهم َخلق محدود العلم والقدرة ، وفيهم يقول الله عز وجل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . « وما أنتم بمعجزين فى الأرض

ولا فى السماء ، فهل يجوز أن يصدر من هذا الإنسان المحدود استبعادُ شىء من الممكنات العقلية على الله ، وقد مكنه الله من الأرض ومن الحياة هذا التمكين ؟

وبذلك يجب استبعاد هذا الاستبعاد ، ويجب ألا ينسب للعلم أو العقل القول به أو الميل إليه .

الشبهة الثانية بلسان المنكرين المعاصرين :

ولننظر بعد ذلك فى الجانب الآخر من الشبهة على الوحى ، فإن بعض الناس يقول إن الله تعالى خلق الإنسان وألهمه العقل ليميز به الخير من الشر ، والنافع من الضار . وما ينبغى أن يسلكه من السبل وما ينبغى أن يتركه ، وبالعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان ، واستطاع على ما به من الضعف الجسمى أن يسخره ويستخدمه ويطوّعه ، كما استطاع أن يجوب آفاق الدنيا وأن ينفذ بنور بصيرته إلى كل شىء ، وها هوذا قد فرغ أو كاد من الأرض وما عليها واتجه بآماله إلى السماء يتطلع إلى أن يعلم علمها ويدرك أسرارها ، ويقتحم كواكبها ، فماذا بقى له حتى يحتاج إلى الوحى أو يستمد الهدى من كتاب ينزل أو نبى يرسل .

هل الأرض محتاجة إلى هداية السماء وفيها هذا القبس العلوى من نور الله وهو العقل ؛ إن هؤلاء الذين قادوا البشرية فى عهود الظلمات وسماهم الناسُ الأنبياء أو الرسل ما هم إلا عقلاء ممتازون قد صفت جواهر عقولهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم فرأوا بعين بصيرتهم ما لم يره الآخرون ، ووفروا زماناً طويلا كان على الأجيال أن تقطعه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه ، وتعلم ما علموا ، فلا شك أنهم نبغاء من نوابغ العقول ، ولا شك أن ما رسموه لأمهم هو ثمرات طيبة من أزكى الثمرات العقلية ولا شك أن ذلك كله هبة من السماء ، ولكن لا على معنى أن ملكا أوحى ، أو كتاباً نزل أو رسولا بعث ، بل على معنى أن الله وهب العقل لهذا الإنسان وجعله نوراً من نوره ، وما الكتاب إلا سطور من هذا النور ، وما الرسول إلا العقل فهو للناس بشير ونذير .

الرد عليها :

هكذا يقول منكرو الوحى اكتفاء بالعقل ، وبتعبير أدق : هذا ما يمكن أن يقولوه أو ما يُعبَّر به عن شبهتهم ، فهل أصابوا شاكلة الصواب ؟ كلا إنهم أحسنوا الظن بالعقل الإنسانى حتى جعلوه رسولا هادياً ، وقبساً منيراً ، وجعلوا أثره كتاباً وافياً ، ودستوراً شافياً ، وهذا إيمان بالعقل ، وإن العقل لجدير بأن يكرَّم حقاً وبه كان تكريم الإنسان ، ولكننا شهدنا كيف تختلف العقول وتتفاوت ، وكيف يرى بعضها الشىء خيراً ويراه بعضها شراً ، وكيف تختلف لديها موازين الفضيلة والرذيلة ، وكيف تتحكم فيها الأهواء والشهوات فتلوّن أحكامها ، وتؤثر فى إدراكها للأمور ، وكيف يعميها التعصب فترى الحق باطلا والباطل حقاً ، وكيف تخدعها العادة المألوفة كما تخدع الحواس الظاهرة فتخيّل لها الأوهامَ حقائق ، فهل يترك الله خلقه لعقولهم فحسب ، أو تقتضى حكمته ورحمته وربوبيته أن يهدى هذه العقول ، ويحكم على اتجاهاتها المختلفة حكمه الفاصل بين ما هو رشد وما هو غيّ فى ثوب رشد ؟ هل يترك الله الإنسان لعقله فحسب فيصطدم الناس بعضهم ببعض فى الحقائق والأحكام والنوازل كل يُحَكِّم فيها عقله وما رآه ، ويعتقد أنه المصيب وغيره المخطىء ، وأنه المحِقّ وغيره المبطل ، أو الخير كل الخير ، والحكمة كل الحكمة ، أن يضبط بالوحى والرسالات ما هو حق وما هو باطل ، وأن يلزم الناس حكما فصلا يدرأ الخلاف ، ويقضى على الخصومات ، ويقر الأوضاع السليمة ؟

إن الناس متساوون ، وقد ألف المتساوون ألا يخضع بعضهم لبعض خضوعا قلبياً صادقا ، فلابد من قوة عليا يخضعون لها جميعاً ، ويرضون بها جميعاً ، قوة تحسم وتحكم وتُقبَل مقاييسُها ، ويرجع إليها المختلفون ، ولابد أن تكون هذه القوة العليا إلهية ، فالإنسان خاضع للإله الذى خلقه ، خاضع له جسما ومادة وروحا ، فيجب أن يكون خاضعاً له توجيهاً وتشريعاً ، وبغير ذلك يكون الإنسان متعدياً طوره ، خارجا على طبيعته ومقتضى خلقته وبشريته . ولو ترك

الناس لعقولهم ولم تُهْدَ هذه العقول بالشرائع لاختلفوا اختلافا كثيراً ، ولما كادوا يلتقون على مذهب فى الحياة يدينون به وينزلون على حكمه ، وهذه هى المذاهب الإنسانية التى ابتكرتها العقول تحير الناس ، وتقيم المشكلات وتعجز عن الحلول ، وتدفع إلى الحروب المدمرة ثمرات البشرية من أرواح وأموال ومنشآت ، فهل أغنى عن الإنسان عقله ، وهل سعدت البشرية بعد انطلاقها من دائرة الدين والوحى والرسالات إلى دائرة النازية أو الفاشية أو الشيوعية أو الرأسمالية ؟.

والخلاصة أن العقل كما يقولون جوهرة نورانية ، وهبة إلهية وهبها الله عباده وجعلهم بها أكرم خلقه ، كلٌ ذلك مسلم ولا شك فيه ، ولا ينبغى أن ينكر العقل أو يرفض حكمه ، ولكن العقل مع ذلك محدود لأنه مخلوق وكل مخلوق محدود ، فيجب ألا نتجاوز به حدوده ، وإلا كنا مخالفين له .

وإذن فحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، تقتضيان ألا يترك الإنسان لمجرد العقل وأنه لا بد للأرض من هداية السماء ، ولو قدروا الله حق قدره ، وعرفوه حق معرفته لما أنكروا هذه الحقيقة .

القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله :

وشىء آخر فى هذا المقام يجب أن نجليه حتى ينكشف كل ظل من ظلال الشبهة على الوحى والرسالة ، فإنى لأعرف أن كثيرا من الناس تحوك فى صدورهم بعض الشبه ولا يستطيعون أن يفضوا بها ، أو يسألوا عنها ، إما حياء وإما خوفا فمن الخير أن نكاشفهم بما فى نفوسهم لنجلوه عنهم ، وتطهر منه قلوبهم ، وبالله التوفيق :

إن بعض الناس يقول : هبنا سلمنا أن الوحى ممكن ، وأنه متفق مع الحكمة ، وأن الإنسان لا يستغنى بالعقل ، فهل هذا يدل على صدق الرسل الذين ادعوا أنهم جاءوا بالرسالات ؟ هل هذا يدل على أن موسى وعيسى ومحمدا وغيرهم كانوا رسلا فى الواقع كما ادعوا ؟ إن جواز حصول الشىء لا يستلزم أنه وقع فعلا ، فيبقى أن يقوم الدليل على أن هذه النبوات واقعة .

ونقول لهؤلاء : أما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبتت بمعجزته القاطعة التى هى هذا القرآن الكريم ، فلا يمكن لعقل من العقول أن يجوّز صدور هذا الكتاب المحكم من شخص نشأ يتيما فقيراً أمياً فى بيئة مشركة جاهلية لم تُعرَفْ بما عُرفت به الأمم الكبرى فى عصرها من العلوم والنظم ، وقد كان العالم فى عهد هذا الأمىّ اليتيم مضطربا أشد الاضطراب ، وكان رجال الأديان فيه مختلفين أشد الاختلاف ، فكانت البيئة القريبة لهذا الأمى بيئة شرك ووثنية ، وكانت البيئة البعيدة منه بيئة خلاف وتنافس على السلطتين : الدينية والزمنية ، فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذى اشتمل على مبادىء الإصلاح العالمى كلها ، والذى لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها ، إن القرآن الكريم قد تحدّى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا ، ولكنه أيضاً تحدّى الزمان كله بخلوده وصحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتحدى الناس فى كل عصر ، فلم يستطع أحد أن يزعم أنه من وضع البشر ، اللهم إلا الذين لم يتذوقوه ولم يتدبروه ، أو الذين ينكرون الحقائق الواضحة تعصبا عليها

وإذا ثبت بهذا الذى أجملناه أن القرآن الكريم دليل على صدق محمد ، وآية إلهية من الله للناس ، فإن جميع النبوات تثبت به : نبوة محمد ، ونبوة الأنبياء قبل محمد .

هذا إجمال ، أما تفصيل الكلام فى دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى أنه مرسل من ربه ، فإنه يطول وليس هذا موضعه ، فإنما أردنا هنا أن نثبت الوحى ، وأن نبين أن ذلك يؤخذ من قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » .

سر الاكتفاء بدليل إجمالى :

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة ؛ ينبغى أن نتعرف السر الذى جعل القول فى دليل الوحى والرسالة يأتى مجملا مركزا على هذا النحو ، فنقول :

أجملت سورة « الأنعام » هذه الحقائق فى صدر الآية التى تلوناها ، وكان هذا الإجمال أسلوباً مقصودا لم يأت عفوا ، وذلك لأن السورة قامت على أساس أنهم قوم جاحدون ، لا تجـــدى معهم الآيات ، ولا تنفع فى إقناعهم الدلائل ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى أوائلها : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

فالسورة إذن أمام قوم يرفضون الدلائل فى إصرار ، ويتحدون فى استكبار ولا يعبأون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويطلبون ما لا يمكن أن يكون ، بينما ينكرون ما هو ممكن وما هو حاصل فعلا ، يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يؤيده وينذر معه ، بل يطلبون ـ كما فى آيات أخرى ـ أن ينزل عليهم الملك لا أن ينزل مع الرسول فحسب ، بل وصل بهم الأمر إلى أن طلبوا رؤية الرب جل وعلا ، وفى سورة الفرقان تسجيل هذين المطلبين عليهم حيث تقول : وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوْا عتوا كبيرا » .

وهم فى هذا متعنتون مستهزئون ، لأن الملائكة إذا نزلت كان فى نزولها نهايتهم وهلاكهم ، لأنهم لا يطيقون هذه الرؤية ولا يتحملونها بمقتضى تكوينهم البشرى، ولهذا تقول سورة الأنعام : « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » وتقول سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا » .

هذا مع كونهم يستبعدون على بشر أن يؤتيه الله الوحى والنبوة ، ويعتقدون الشبهة القديمة القائلة : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذن لخاسرون » فهم متناقضون فى تقدير قيمة البشر ، تارة يرفعون أنفسهم إلى درجة يطلبون معها أن تُنزَّل عليهم الملائكة أو يروْا ربهم ، وتارة يقررون أن البشر أقل من أن يوحى إليهم ويَتَلَقَّوْا عن الله بواسطة الملك ، وإنما جاء تناقضهم من أنهم عابثون مستهزئون مصرون على الإنكار غير عابئين بما يقعون فيه من خلط ، وقد بينت السورة فى هذه الآيات أن الله تعالى لو قضت حكمته بإجابتهم إلى ما يطلبون من إنزال ملك مع الرسول ، أو جعله الرسول ملكا ، لما أنزله إلا فى صورة رجل لما ذُكر من عدم الاستعداد البشرى لرؤية الملك على هيئته ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشرا ، ولا يزالون يكررون طلب إرساله ملكا .

أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى :

إن هذا الموقف الذى يقفونه من الرسالة يستدعى ألا يناقشوا أو يجادلوا ، لأن النقاش والجدال مع المعاندين إنما هو جهد ضائع ، وعبث فى غير طائل ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ـ ولهذا تجمل السورة دليل الوحى والرسالة هذا الإجمال الذى تحدثنا عنه ، وتسير معهم سيرة الإنذار والتوعد ، وتُلقِّن الرسولَ ما يقوله لهم مرة بعد مرة بلفظ : « قل » ، ولا تتركه يسترسل معهم فى حجاج ، أو يستمع إليهم فى اقتراح أو اشتراط ، أو يحزن لما يقولونه عنه وعن دعوته ، أو لما يؤذونه به ، أو يترقب من الله أن ينزل عليهم الآيات المؤيدة له ، أو أن يعجل لهم ما يستعجلون من العذاب ، تلتزم السورة فى كثير من آياتها هذا الأسلوب أسلوب أمر الرسول بلفظ : « قل » حسما للأمر ، وتلقينا للرسول ما يجب أن يقول : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله » . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

« قل أيُّ شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيدٌ بيني وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد » . « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله » . « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم » « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله » . « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم » إلى غير ذلك من الآيات المنذرة الملقية بالقول تلوَ القول فى وجوههم ، والمفضية إليهم بالحقائق والعواقب إرهاباً لهم ، وتخويفاً لكل من سار على خطتهم ، ذلك بأنهم ليسوا أهل حِجاج واقناع بالمنطق ، وإنما هم أهل عناد وإصرار ، واستهزاء واستكبار .

فهذا هو السر فى إجمال الحجة ، والاكتفاء بتقريرها موجزة مركزة كما بينا ، مع توجيه الأسلوب على هذا النحو التلقينى الإنذارى الرهيب .

سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول :

وننتقل بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التى عرضت لها سورة « الأنعام » مما يتصل بالوحى والرسالة ، فنقول .

كما وجد فى الناس من ينكر الوحى والرسالة ويرى أن البشر ليسوا مستعدين لتلقى كلام الله ؛ وجد فيهم أيضا من يسرف فى تضخيم شخصية النبى ووظيفة الرسول حتى ليكاد ينسى أنه بشر ، فتراهم ينسبون إليه علم الغيب ، وتراهم يعجبون لأكله الطعام ومشيه فى الأسواق ، وتراهم يتطلبون فيه أن يكون غنيا عنده من الخزائن ما لا ينفد ، وأحياناً يطلبون منه الإتيان بالمعجزات ، ولعلهم أيضاً لا يتصورون فيه أن يغضب أو يمرض أو يحزن أو يهزم فى الحرب ، أو يُردّ عن أمل من آماله الى غير ذلك من العوارض البشرية .

وهكذا يقف هؤلاء من النبوة موقفا مناقضاً تمام المناقضة للأولين الذين ينكرونها ، فبينما يغالى هؤلاء فى النبي حتى يوشكوا أن يخرجوه عن بشريته ؛ يغالى أولئك فى إنكار ما منحه الله من قوة غير عادية تمكنه من تلقى الوحى عنه ووعيه وتبليغه للناس .

والله سبحانه وتعالى يرشد عباده الى واقع الأمر وحقيقته ، ولا يرضى منهم أن يتجاوزوا هذا الواقع بالميل الى جانب هؤلاء أو أولئك ، وقد كان لسورة الانعام عناية واضحة بهذا الأمر ، فهى تبين شأن الرسول تارة على سبيل السلب بنفى شىء عنه ، وتارة على سبيل الإيجاب بإثبات شىء له ، وتارة على سبيل الحصر الجامع بين النفى والإثبات ، وأحيانا بتصوير ما ينتاب الرسول من العوارض البشرية كالحزن والألم وضيق الصدر والحرج ومحاولة المجاملة لجذب الأقوياء انتفاعا بهم ، ووشك الميل الى بعض ما يريدون ، وأحياناً بتعليمه ما يردّ به على المبطلين ، وارشاده الى السلوك السليم فى معاملة المخالفين والموافقين ، وتسليته واستلال بواعث اليأس الذى يتعرض له بحكم بشريته ، الى غير ذلك مما يريد الله به أن يبين للناس منزلة النبي وواقع أمره ، حتى لا يخرجوا به عن وضعه ، وحتى لا يخلطوا كما خلط الذين زعموا رسولهم ابن الإله ، ثم لم يكفهم ذلك حتى كان فيهم من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار :

تقول سورة « الأنعام » « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ، قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

بينت هذه الآيات مهمة الرسل ، وأنها لا تتعدى التبشير والإنذار : التبشير بأن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الذين يأمنون فلا يصيبهم خوف ،

ويفرحون فلا يصيبهم حزن ، والإنذار بأن الذين كذبوا بآيات الله يصيبهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عما رسم الله من حدود فى العقائد والأحكام ، فالرسول أذن لم يأت بشيء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، معرّف به ، لا مثبت ولا منشيء وليست له قوة وراء هذا الاستعداد للتلقى والتبليغ ، لم يعطه الله خزائنه ، ولم يجعلها عنده يتصرف فيها كما يشاء ، حتى يطمع طامع فى الانتفاع المادى عن طريقه ، أو يخاف أحدٌ الحرمان المادى إن حاد عن هذا الطريق ، فإن خزائن الله لم تزل عند الله ، ولم تزل خاضعة لسنة خاصة من سنن الله ، فالله يعطى من أحب ومن كره ، ويغنى ويفقر لا بسبب الدين والإيمان ولكن بأسباب أخرى ، فليس لأحد أن يتخذ الدين والرسول وسيلة إلى أمر من الدنيا ، وليس لأحد أن ينتظر من الرسول حرمان أعدائه ومخالفيه من متاع الدنيا ، ثم هو بعد ذلك بشر لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ما يكون غداً ، ولا يقول للناس إنه تخلص بالرسالة من آثار بشريته وأصبح ملكا ، وإنما هو بشر مثلهم ، وكل ما يمتاز به عليهم أنه يوحى إليه وأنه متبع لهذا الوحى لا يحيد عنه ، فعليهم أن يفكروا فى ذلك كله بعقولهم ، وأن يتدبروا هذا الوضع تدبر المبصرين المدركين ، وألا يضلوا فيه ضلال العمى المتحيرين .

إنما يستجيب الذين يسمعون :

وتقول السورة « وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولاشفيع لعلهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ اللهُ عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

تعلمه هذه الآيات — صلوات الله وسلامه عليه — أن الناس ليسوا سواء أمام الهدى الإلهى ، فمنهم الجاحدون الكافرون أو المعاندون الذين ينكرون الحياة الأخرى ، ولا يعترفون إلا بالحياة الدنيا ، فهم يسيرون على هذا الأساس ،

ولا يتقبلون إنذاراً ولا يخافون عذاباً ، إن هؤلاء قد سدّوا على أنفسهم منافذ الهداية فدعهم ولا تتجه اليهم ولا تحاول أن تضيع وقتك فى ترضيهم أو مجاملتهم أو النظر فى شروطهم التى يشترطونها للإيمان بك ، وتصديق الذى جئت به ، ومنهم المصدقون الذين يخافون ربهم ، ويعلمون أن وراءهم يوماً ، وأنهم سيحشرون الى ربهم فيسألهم ويحاسبهم ولايحول بينه وبينهم أحد بولاية أو شفاعة ، وهؤلاء هم الذين يتقبلون الإنذار ، لأنهم فكروا وتدبروا فخافوا ، فلتكن عنايتك متوجهة إليهم ، وليكن حرصك مقصورا عليهم .

وهذا المعنى الذى يذكره الله لرسوله فى هذه الآية هو إرشاد إلى سنة من سنن الله فى الخلق ، أو هو — بتعبير حديث — تعريف بخلق نفسى اهتدى اليه علماء النفس أخيراً ، ذلك أن الناس يختلفون من حيث تقبل الأفكار والتنكر لها ، وأن ذلك يرجع أحياناً فى نفس المتنكر الى عقـــدة خفية تجعله يرفض قبول مايساق اليه ولو كان بادى الصحة مؤيداً بالدليل والبرهان ، وقد تكون هذه العقدة استكباراً فى النفس لأن غيره تقبله قبله ، أو لأن الذى تقبله أقل منه مركزاً ، أو لأن فى قبوله تقيداً بما لا يحب أن يتقيد به ، أو تركا لما لا يحب أن يتركه ، الى غير ذلك ، وهذا هو الذى عناه القرآن بمثل قوله « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ، أما الذين يتقبلون فإن نفوسهم خالية من هذه العقد ، أولهم قوة عقلية ، وشخصية مؤثرة تجعلهم يتغلبون على عوامل التردد والهوى الخفى فى أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بمثل قوله « هدى للمتقين » . « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » وقد جاء فى سورة الأنعام من هذا غير الآية التى نتحدث عنها قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون » « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين :

وقوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » الخ نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الاستجابة إلى ما كان يطلبه إليه المستكبرون من إبعاد الفقراء والضعفاء الذين اتبعوه ، فقد جاء فى أحاديث السيرة وأسباب النزول أن الملأ المستكبرين من قريش كانوا يطلبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه ضعفاء المؤمنين من أمثال صهيب وعمار وخباب ، وأنهم كلموا فى ذلك مرة عمه أباطالب ، وأن عمر أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله ، فجاءت هذه السورة وفيها نهى له عن الأخذ بهذا ، فالكلام فى ذلك من أول قوله تعالى : « وأنذر به الذين يخافون » إلى قوله جل شأنه : « فأنه غفور رحيم » مراد به إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يسلكه فى هذه القضية ، وتعليم له أن صاحب الفكرة والمبدأ يجب ألا يجامل فيه قوياً لقوته ، وألا يجرح ضعيفا لضعفه ، وإنما العبرة بالإيمان ، والولاية والأولوية لأهل الإيمان .

وقد ذكَّرت العبارات الواردة فى هذه الآيات بما جاء فى قصة نوح عليه السلام حيث يقول له قومه : « وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل » وحيث يقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا » « من ينصرنى من الله إن طردتهم » .

وهكذا نعلم أن الناس هم الناس ، لا فرق بين الذين كانوا فى عصر نوح ، والذين كانوا فى عصر محمد ، وإننا لنرى خلفاً بيننا لهؤلاء السلف يحاولون احتكار مجالس الحكم والسلطان والتوجيه دائماً ، ويحبون أن تخلو لهم وجوه الحاكمين والمصلحين بحجة أنهم الأشراف والسادة والأقوياء ، وأن الآخرين هم الضعفاء والمسودون .

وتبين الآيات بعد هذا أن الله تعالى يمتحن عباده ليُظهر الذين يعرضون عن تقبل الحقائق استكباراً وغروراً وترفعاً عن قبول ما قبله المستضعفون ، أو حسدا لهم على ما آتاهم الله من فضله .

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائماً هو أسلوب المستكبرين ، وأن الحق إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمدلون بما لهم من مراتب عليا فى مجتمعهم ، فتراهم يقولون بلسان حالهم أو بلسان مقالهم مثل ما قال الأولون : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ » .

وفى هذا أيضا إرشاد لسنة من سنن الله فى الناس ، وهى أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسَدوا وأن تمتلىء قلوب المتخلفين عنهم ببغضهم والحقد عليهم ، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه ، ولا يَدَعوا سبيلا إلى الحاسدين والحاقدين تمكنهم من إقصاء العاملين المخلصين شفاء لما فى صدورهم من الحقد ، وإطفاء لنيران الحسد التى تأكل منهم القلوب .

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » .

وهذا تعليم إلهى من الله لرسوله فى مقابل ما كانوا يراودونه به من طرد المؤمنين وإقصائهم ، وإنه لأدب كريم يجب أن يجعله كل مصلح نُصب عينيه ، وأن يطبقه فى معاملته لأصحابه ومعتنقى فكرته ، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير ، إن له فعل السحر فى النفوس ، إذ يبعثها على المبالغة فى التجويد والإتقان والإخلاص ، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة ، ونُسيت الأعمال الصالحة ، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرءوسون من جهود ؛ فإن ذلك يكسر نفوسهم ، ويَفتّ فى عضدهم ، ويبدّلهم بالإخلاص والدأب تهاونا وتراخيا .

وأدب آخر فى هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير ، والابتعاد عن التنفير ، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط ، ويزيد الطاقة ، والتنفير من شأنه أن يهد القوى ، ويفسد النفوس .

تسلية الرسول :

وتقول سورة « الأنعام » فى تسلية الرسول ، واستلال عوامل اليأس والحزن من قلبه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحزن ويشتد حزنه لما يقابله به قومه من الإعراض والتكذيب ، ويخشى على دعوته أن يطول عليها أمد تكذيبهم ، وكان حزنه وإشفاقه يصلان إلى مدى بعيد حتى ذكر القرآن الكريم فى بعض الآيات أنه حزن يكاد يؤدى إلى ذهاب نفسه وهلاكها حيث يقول : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وهذا الحزن الشديد مظهر من مظاهر بشريته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك احتياجه إلى التسلية والتثبيت ، فإن الله سبحانه وتعالى كان يتعهده بذلك فيما ينزل من القرآن ويضرب له أمثال السابقين ، ويقص عليه قصص المرسلين ، فالنبوة لم تخرجه عن مقتضى بشريته من التأثر بدواعى الحزن ، والحاجة إلى التقوية والتثبيت ، وفى هذه الآيات من سورة الأنعام يذكر الله له أنه يعلم حزنه ، وأن هذا الحزن لما يقوله أعداؤه عنه وعن دعوته ، ثم سلاه وخفف عنه حزنه بتعريفه أن هذا الإعراض الذى يراه منهم ليس راجعاً إلى أنهم يعتقدون كذبه ، فقد جربوا عليه الصدق طول حياته ولم يعهدوا عليه كذبا ، ولكن هذا الإعراض راجع إلى شأن عام لجميع الظالمين من أعداء الحقائق فى كل زمان ومكان ، فقد جرت عادة الظالمين أن يجحدوا بآيات الله ، والجحود هو نفى ما فى القلب إثباته ، أو إثبات ما فى القلب نفيه ، فهم يعلمون أن آيات الله حق ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك ،

وهذا كما جاء فى موضع آخر حيث يقول الله عز وجل : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » ومصداقه من السيرة ماروى من قول بعض هؤلاء الجاحدين : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسَىْ رهان قالوا منا نبىٌّ يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » .

ثم ضرب الله تعالى لنبيه مثل الرسل من قبله حيث صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، فكان ذلك بشارة قرت بها عينه ، وثلج لها صدره وعقب ذلك بأن هذه سنة الله فى الرسل وكلماته التى لا مبدل لها « ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » وشبيه بهذا قوله تعالى فى آيات أخرى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » .

وقد جاء فى مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذه السنة ليست خاصة بالرسل ، وإنما هى عامة فى المؤمنين المصلحين ، إذ يقول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فكما أن هذا كان تبشيرا للنبى ، واستلالا لبواعث الحزن من نفسه ، ينبغى أن يأخذه كل مصلح مؤمن داع إلى الله ، بشرى يثبت بها فؤاده ، ويقوى بها عزمه ، ويسير بنورها وهداها فى طريقه منتظراً النصر من ربه وإن تحالفت عليه الأعداء وكثرت فى سبيله العقبات ، فإن الإخلاص يذلل الصعاب ، ويفتح الأبواب ، وإن الله مع الصابرين .

ولقد شاء الله تعالى أن يحسم كل أثر من آثار حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ينقذه من ترقبه لآية من الآيات التى كانوا يطلبونها ليؤمنوا به ، حيث كانوا يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » فقال له عز وجل : « وإن كان كبر عليك إعراضهم . . . » الخ . والمعنى لسنا بمجيبى هؤلاء إلى ما يطلبون من الآيات فإن كان إعراضهم قد كبر عليك وأهمك إلى هذا الحد ، فانظر ما ذا تستطيع أن

تفعل ، أتبتغى نفقا فى الأرض تتعمق فيه حتى تأتيهم بآية أم تبتغى سلما فى السماء تصعد به حتى تحقق لهم ذلك ، فإن الله لن يحققه ولن يجيبهم إليه ، ولو أنه أراد منهم إيمان الإرغام والإلجاء لكان جمعهم على الهدى ، وهيأهم على استعداد يجعلهم يتقبلونه خاضعين ، كما خلق أصنافا أخرى من خلقه مثل الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا تكونن من الجاهلين ، فتطلب أو ترقب ما لم تقتضه حكمة الله .

كل هذا فيه تسلية للنبي ، وفيه مع ذلك تصوير بليغ لمقتضيات بشريته ، ودليل على أن الله تعالى يعالجه كما يعالج البشر ، ولو شاء لطبعه على طبيعة أخرى يكون معها بعيداً عن التأثر بالعواطف البشرية التى يعالجه منها .

* * *

وليس هذا كل ما فى سورة « الأنعام » من حديث عن الوحى والرسالة ، وإرشاد الرسول وتثبيته ، ولكننا نحسب أن ما ذكرناه يفتح الطريق - إن شاء الله - لمن أراد المزيد ، والله المستعان .

المجتمع القرآنى

— ٢ —

الأسرة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة
وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

---

١ — إن المجتمع فى القرآن يعم كل أنواع الاجتماع ، فهو يبتدى من الأسرة ، فالأمة ، فالمجتمع الإنسانى عامة ، وله قوانين ثابتة مستقرة لا تتغير فى أى جماعة ، ولا تتبدل فى طائفة عن طائفة ، وقد أشرنا إلى هذه القواعد الحاكمة التى تقيد المسلم فى كل معاملاته وفى كل روابطه ، وحكمها عام ، فالمسلم مقيد بالعدالة فى كل معاملاته ، سواء أكان الذى يعامله ولياً أم كان عدوا ، ومقيد بالفضيلة ، سواء أكان الذى يعامله أبيض أم كان أسود ، فالمعانى الإنسانية العالية لا تفرق بين إنسان وإنسان .

ولذلك نذكر هنا أن كل ما قررناه فى مقالنا الماضى يطبق على المجتمعات كلها ، فلا فرق بين مجتمع بدائى ، ومجتمع متحضر ، إذ الجميع أمام الحق والعدل والفضيلة سواء ، هذا منطق القرآن ، وهدى الإسلام ، لا يكون ما هو عدل وفضيلة عند المتمدين غيره عند غير المتمدين ، فإن ذلك منطق الأثرة الظالمة ، لا منطق الهداية التى تنزل من السماء ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

٢ — وإنه إذا كانت ثمة مبادىء عامة للمجتمع القرآنى ، فإن تحقيق هذه المبادىء يختلف فى كل مجتمع باختلاف المجتمعات من حيث الوسائل ، لا من حيث الحقائق ، ومن حيث تقوية الروابط ، وطرق تقويتها ، فتحقيق العدالة وتقوية

الروابط فى المجتمع العام للأمة بالمودة والنظم القانونية التى تحد العلاقات بين الناس فلا يعتدى أحدهم على الآخر ، وحكم القانون هو الأوضح الأظهر ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وتحقيق العدالة الدولية بين الأمم بعضها ببعض تكون بالمعاهدات المنظمة ، والوفاء بالعهد فيها هو الدعامة التى يقوم عليها البناء الاجتماعى الإنسانى العام بين الدول ، وإلا كانت قوانين الغابات هى الحاكمة ، وتكون علاقة الدول بعضها ببعض كعلاقات الآساد فى الأجمة ، أو الذئاب فى الفلاة ، كل يبيت للآخر الافتراس ما أمكنته الفرصة ، وبمقدار ما تمده به قوته .

ومجتمع الأسرة لا يحكم بقوانين بمقدار ما يحكم بالمودة الرابطة ، والرحمة العاطفة ، والمحبة الواصلة ، وتدخل القوانين قد يفسدها ، وأحكام القضاء قد تقطع أوصالها ، فإن المودة لا تنفذ بحكم ، والرحمة لا تكون بحكم القضاء ، والمحبة لا تكون بزجر القانون .

٣ — وإن الأسرة هى وحدة البناء الاجتماعى ، وهى الرابطة الأولى التى تقوى بها كل الروابط الإنسانية ، فالمجتمع القوى هو الذى يتكون من أسر قوية إذ الأسرة هى الخلية الأولى التى تتربى فيها كل العواطف الاجتماعية التى تجعل من الشخص امرأ يألف ويؤلف ، وإن بناء الوطن يتكون من روابط اجتماعية تكونها عواطف الإلف والإحساس الاجتماعى ، والمشاركة الوجدانية التى تجعل المجتمع الواحد كأنه جسم واحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وقديماً توهم بعض الفلاسفة ان الأسره تعوق الآحاد عن العمل فى البناء الوطنى ، فوضع نظاماً لجمهورية زعمه نظاما مثالياً يقوم على أن تمحى الأسرة فى المجتمع لتكون كل العواطف الإنسانية للوطن ، فلما محا الأسرة محا معها عواطف الإلف والائتلاف التى هى الروابط التى تربط آحاد المجتمع بعضه مع بعض ، وإنه إذا محيت هذه الروابط المكونة من أحاسيس لم تكن آمال وطنية جامعة ،

ولا أهداف نحو غايات إنسانية عالية ، وصار المجتمع آحاداً منتثرة ، لا وحدات مجتمعة . فإن الطفل تنمو عواطفه ، وتستيقظ مشاعره بالغذاء العاطفى الذى يتلقاه من أبويه وإخوته ، وعمومته وخئولته ، فإن ما يمد به من ينابيع العاطفة التى تنبعث من هؤلاء هو البذور الأولى التى تنمو فيكون منها التعاطف الاجتماعى ، وقد لوحظ أن الشذاذ فى المجتمعات الذين يصولون على الأرواح فيقتلون الأنفس ، أو على الأموال فيسرقونها أو يغتصبونها هم من الذين لم تكن لهم أسر يتربون فيها على روح الائتلاف ، إما لأنهم نشئوا يتامى لم يجدوا من يؤويهم ، أو لأنهم لفظتهم أسرتهم ، أو لم يجدوا بين أحضان أمهاتهم العواطف القوية التى تغذى عواطفهم وتنميها ، وتربى فيهم الإلف الاجتماعى ، فالأسرة لهـــذا ضرورية لكل إصلاح اجتماعى ، وصلاحها هو صلاح المجتمع إن لم تكن ثمة عوامل فساد أخرى تنخر فى عظامه .

٤ — والأسرة لا يحكمها القانون الزاجر ، ولا القضاء الرادع ، ولا الأحكام القانونية ، إنما ينظمها ثلاثة أمور : مودة واصلة ، ووجدان قوى يتكون منه ضمير لائم ونفس لوامة ترجع إلى الحق إن تجانفت لإثم ، وهدى دينى يكون الحكم فيه للديان .

فإنه إذا تكونت هذه الأمور الثلاثة ، وامتلأت نفس كل آحاد الأسرة بها استقامت أمورها ، وما تسامع أحد بأمرها إلا متعاونة متوادة متراحمة ، وإن فقد أحد هذه العناصر ، واحتاجت إلى الترافع بين يدى القضاء لا يصح أن يكون القضاء فصلا رادعا من أول الأمر ، بل يستعين بالرحمة يثيرها ، وبالمودة يصل بها المقطوع ، ويستعين على ذلك بأعضاء الأسرة الآخرين الذين لم تنقطع حبال المودة بينهم وبين المتخاصمين ، يفعل ذلك ما وسعه أن يفعل ، فإن يئس كان عدل الله هو الفيصل بين المختصمين ، وهو خير الحاكمين .

٥ — وإن القرآن لعنايته بالأسرة نظم الحقوق والواجبات فيها تفصيلا ، فإن المتتبع لنصوص القرآن الكريم ليرى أن القرآن لم يبين الصلاة تفصيلا ، بل دعا

إليها وحث عليها ، ورغّب فيها بكل وسائل الترغيب ، ولكن لم يبين أحكامها بالتفصيل ، بل ترك ذلك لنبيه الأمين ، وكذلك كان الأمر فى الزكاة ، وكذلك كان الأمر فى الحج ، وإن كانت النصوص القرآنية قد خصته من بين الصلاة والزكاة ببعض التفصيل القليل فى بعض أجزائه ، وترك بيان سائر أحكامه للنبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يقول : « خذوا عنى مناسك دينكم » ، وهكذا كل العبادات كان التكليف فى القرآن فيها إجمالياً ، والتفصيل إلى الرسول الأمين ، كما قال تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » .

أما الأسرة فإن أحكامها مفصلة مأخوذة من القرآن بالنص فى أكثرها ، وبالحَمْل على النص فى قليل منها ، وببيان النبى صلى الله عليه وسلم فى قليل آخر ، فأحكام الزواج مبينة بالتفصيل ، قد بينت المحرمات تفصيلا ، حتى رَدَّ فخر الدين الرازى كل المحرمات إلى النص القرآنى ، وأحكام الطلاق مفصلة تفصيلا دقيقاً ، وأحكام الميراث تولى المولى العلى القدير بيانها ، وأحكام النفقات بين آحاد الأسرة قد ربطها القرآن الكريم بالميراث ، فقال سبحانه : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . . . وعلى الوارث مثل ذلك » ، وهكذا .

٦ — وإن هذه العناية الواضحة فى النصوص القرآنية تدل على أن الإسلام ينظر إلى الأسرة نظرة خاصة ، ويعتبرها بناء المجتمع ، وأنها إذا صلحت صلح المجتمع ، وأنها إذا فسدت فسد المجتمع ، فإن انهيار الفضيلة فى المجتمعات التى انحلت فيها الفضيلة ، إنما أساسها انحلال الأسرة ، فالأسرة رباط الجماعة المقدسة وفيها حماية الفضيلة وحماية الأخلاق وتنشئة الناشئة على حلية من الأخلاق والمودة والرحمة بالناس ، وإن كل طرائق التهذيب قديمها وحديثها لابد أن يكون بينها وبين الأسرة تناسق وتناسب ، فإن كانت غير متناسقة معها لم تكن قائمة على قواعد ثابتة آمنة من الزوال ، فإن ماتلقيه الأسرة فى نفس الناشىء لايقبل الزوال ، وغيرها ما لم يرتبط بها ـ أمرُه إلى زوال .

٧ — وإن القرآن الكريم اتجه أول ما اتجه فى تكوين الأسرة إلى الركنين

اللذين تقوم عليهما الأسس الأولى ، وهما الزوجان ، فلم يفرض أن الزواج له رباط غير المودة والرحمة ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فالمودة والرحمة هى الصلة التى تربط بين الزوجين ، واعتبر العلاقة الزوجية ارتباط قلبين يكون كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة الشعار والدثار له ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى العلاقة الزوجية : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » وقد اعتبر القرآن الزوجة قطعة من نفس الزوج بإشارته إلى أن المرأة خلقت من نفس الرجل ، إذ قال سبحانه : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

وإذا كانت المودة هى المعنى الأول الذى يربط بين الزوجين ، فإنه لابد أن تلاحظ عند اختيار الرجل عشيره وأليفه ، فلا يتزوج المرأة لغناها ، ولا لجاه أبيها ، ولا لشرف أسرتها ، ولا لعزة قومها ، بل يتزوجها لما يرجوه من مودة تربط بينهما ، ويجب أن يكون للدين دخل فى الاختيار ، فإن الدين من شأنه أن يربى بواعث الرحمة ونوازع المودة ، فإن المؤمن مألف ، كما ورد بذلك الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك ورد فى الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تزوج امرأة لمالها زاده الله به فقرا ، ومن تزوج امرأة لحسبها زاده الله به ذلا ، ومن تزوجها لدينها بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » .

وإن الجمال قد يكون مردياً ، فينبغى عند الاختيار ألا تكون له المنزلة الأولى ، فإن المرأة قد يرديها جمالها إذا لم يكن لها دين ، ولذا ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم وخضراء الدمن » قالوا يارسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت سوء .

وإنه لأجل هذه المودة التى تصل القلوب كان الصحابة لا يحبون الاشتراط عند عقد الزواج ، وكان الإمام مالك يقول : « لا تزوجوا على الشروط ، ولكن تزوجوا على الدين والأخلاق والعقل » .

٨ — وإنه يبقى الزواج مابقيت هذه المودة الواصلة ، فإذا تقطعت أوصالها وحل محل المودة البغضاء والشحناء ، ولم يمكن إعادة حبال المودة المنصرمة ، لا يقول عاقل إن الزوجية تبقى ، ولذلك يقول بنتام فى كتابه « أصول الشرائع فى العلاقة الزوجية » :

« إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان ، والملائم لحاجته ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى بالأخذ لحفظ النوع الإنسانى ، ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه ، ولو حلت فى قلوبهما الكراهة محل الحب لكان ذلك أمراً منكرا لا يصدقه أحد من الناس ، على أن هذا الشرط موجود دون أن تطلبه المرأة ، إذ القانون ـ أى القانون الكنسى ـ يحكم به ، فيتدخل بين العاقدين حال التعاقد ، ويقول لهما أنتما تقترنان لتكونا سعداء ، فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم غلق بابه ... ولن أسمح بخروجكما ، وإن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء . إن أقبح الأمور وأفظعها عدم انحلال ذلك الاتفاق ، لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أمر بعدم الدخول فيها ، لا فرق فى ذلك بين زواج وخدمة ، وبلد وصناعة وغيرها ، لو كان الموت وحده هو المخلص من الزواج لتنوعت صنوف القتل ، واتسعت مذاهبه » .

٩ — ولم يفرض الإسلام إن كل علاقة زوجية علاقة مثالية لا يمكن أن يرنِّق جوَّها الصافى نزاع أو خصام ، بل فرض النزاع والخصام ، مادام الإنسان هو الإنسان ، وهو الذى نزل إلى الأرض وفى طبيعته السمو والرفعة ، والهوى والشهوة ؛ وإن العداوة قريبة الاحتمال فى علاقاته ، ولو كان بساط المودة ممدوداً ، وسماء المحبة تظل حياة الزوجية ، بل قد تكون المحبة الشديدة سبباً للتشكك الشديد ، ووراء التشكك الخلاف والنزاع ، وفى ظل النزاع تبذر البغضاء بذورها ، ويحصد الزوجان حصادها ، والله وحده هو مقلب القلوب ، العالم بما تخفى الصدور ، وما تختلج به النفوس .

ولهذا الاحتمال الذى يفرض عروضَ النفرة بعد المودة ، والبغضاء بعد

المحبة وضع القرآن العلاج الذى يطب به للقلوب النافرة ، وأول هذا العلاج أنه أمر الزوجين أن يصلحا شأنهما بإثارة دواعى الرحمة عندما يعرض النفور ، والعمل بالعدل عندما يستحكم ، فإن لم يُجْد هذا ، لأن القلوب قد تنافر ودها ، فعلى المتصلين بهما أن يحاولوا الإصلاح بينهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فالصلح خير دائماً ، وخصوصاً فى العلاقة بين الزوجين ، فإن لم يجد الإصلاح ، وتحكم الشقاق ، وتفاقم أمره . فإنه فى هذه الحال يكون تحكيم حكمين يدرسان الأمر بينهما ، يحاولان الإصلاح مرة أخرى ، فإن عجزا كان التفريق الذى لا مناص منه ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » .

هذه مراتب أربع ـ قد نص عليها القرآن الكريم فى محكم آياته إذ قال سبحانه وتعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » .

وقال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ؛ إنه كان عليما خبيرا » .

١٠ ـــ وهكذا نجد الإسلام يعالج قلوب الزوجين ، فيطب لها قبل أن تحل البغضاء محل المودة والرحمة والمحبة ، فإذا استحكم النفور ، ولم يكن ثمة سبيل إلى إعادة الصفاء إلى القلوب شرع الطلاق ، وجعله بيد الزوج من غير تدخل قضاء ؛ لأن الزواج اقترنت به تكليفات مالية كثيرة عليه ، والطلاق يستتبع تكليفات أخرى عليه وفوق ذلك ما يستتبعه من واجبات نحو أولاده منها ، وهى تفرض عليه أيضا تكليفات مالية لم تكن عليه قبل الطلاق ، إذ كان يؤويهم جميعا بيت ، فكل هذه التكليفات تجعله يفكر ويقدر قبل الإقدام على الخطوة الحاسمة القاصمة ، فلا يقدم على الطلاق حينئذ إلا إذا كانت النفرة قد استحكمت ، ولم يكن

ثمة سبيل لمعيشة تقام فيها حدود الله تعالى ، وتصان فيها الحقوق ، ويقوم كل منهما بما عليه من واجب .

ولم يجعل الطلاق بيد القاضى إذا كان النفور من جانبه ؛ لأنه إذا كان النفور وحده هو السبب فماذا يقضى القاضى ، وحسب الرجل ما عليه من تكليفات تجعله يفكر ويقدر ، وإن الأسباب التى تكون بين الزوجين ليس من السهل بين يدى القضاء إثباتها ، وإن كان الطلاق لابد له من سبب يمكن إثباته ، فإن استمع القاضى إليها وأثبتها ، فإن قضى بها فهو العار اللاحق بالمرأة الذى يعوقها من أن تستأنف حياة زوجية أخرى ، وإن لم يقض بمقتضى هذه البينات فإنه العار أيضا يلحقها من جراء ما تردد فى دور القضاء ، فيكون الضرر لاحقا بها .

أما إن كان النفور من الزوجة فإنه لا يكون الطلاق إلا بحكم القضاء ؛ لأن المرأة سريعة الانفعال والاندفاع ، ولأنه لا معوق يعوقها من تكليفات مالية أو نحوها ، ولأن الرجل قد أنفق فى هذا الزواج ما أنفق فحق عليها أن تعوضه عما أنفق إن كان سبب النفور من جانبها ، ولأن الرجل لا يلازمه العار ولا يضره ، بل سيجد على أى حال من ترضى به زوجا .

وإن إجابة المرأة الى الطلاق إن كان النفور من جانبها على أن تدفع للزوج المهر الذى دفعه ، ويكون التفريق خلعا منصوص عليها فى مذهب مالك ، وهو عدل فى ذاته .

١١ — وقد يقول قائل إن الزوج قد يقدم على الطلاق فى نوبة غضب جامح من غير تدبر ولا تفكر ، ونقول فى الإجابة عن ذلك : إن الشارع الحكيم قد سنّ طريقاً لإيقاع الطلاق بالنسبة للمدخول بها من النساء ، وذلك الطريق ألا يطلق إلا واحدة ، وفى حال طهر لا فى حال حيض ، وفى طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق فى هذه الحال يكون والنفس من شأنها أن تكون مقبلة فى العادة لولا النفور ، فإقدامه على الطلاق فى هذه الحال دليل على استحكام النفور ، واستغلاق

القلوب على العداوة ، ويكون له حق المراجعة نحو ثلاثة أشهر ، فإن لم يراجعها فى هذه المدة يكون هذا دليلا على أنه لا سبيل إلى إعادة المودة إلا بأمر من الله يحدثه « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

ويعجبنى هنا أمران فى مذهب الإمامية :

أولهما : أن الطلاق إذا لم يكن مقيداً بهذه القيود التى أشرنا إليها لا يقع ، فلا يقع الطلاق فى حال الحيض ، ولا يقع الطلاق فى طهر دخل بها فيه عندهم ، ولا يقع إن كان أكثر من واحدة فى لفظ واحد ، وقد اختار ابن تيمية نظر الإمامية فى هذا ، ولكنه قال إن الطلاق المتعدد يقع واحدة ، وهو رأى عندهم ، وبه أخذت القوانين المصرية .

الأمر الثانى : أن الإمامية يشترطون لإيقاع الطلاق شهادة اثنين عدلين ؛ لأن الله قال بعد الطلاق والرجعة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » ولأن الزواج لا ينعقد صحيحاً إلا بشهادة اثنين ، فلا ينتهى إلا بشهادة اثنين أيضاً ، ولو أخذ بهذا لكان فيه صلاح وإصلاح .

والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

القافلة تسير

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الاستاذ محمد تقى القمى
السكرتير العام لجماعة التقريب

التطور سنة من سنن الخليقة يقول به كل مفكر ، فالموحدون فى توحيدهم ، والمتصوفة فى تعبيراتهم ، وأرباب السلوك فيما يرون من التدرج فى المنازل ، والطبيعيون فى فلسفتهم الطبيعية ؛ كل أولئك يقرون التطور ، وهل ما دار فى مسألة قدم العالم وحدوثه ، وما قام بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف معروف ، إلا ألوان من التفكير القديم يرجع كثير منها إلى نظرية التطور ! .

على أن هؤلاء وأولئك رغم اختلافهم فى آرائهم تبعاً لآفاقهم الفكرية ، يجمعون على أن التطور سير إلى الكمال . . . فبعضهم يقول : إنه السير إلى الخير ، وبعضهم يقول : إنه السير إلى الإنسان الكامل ، وبعضهم يقول : إنه السير إلى الله .

والديانات السماوية كلها كانت أخذا بيد الإنسانية نحو الكمال وسموّا بها من كامل إلى أكمل ، وتلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والأمم كالأفراد لا بد أن تخضع لسنة التطور ، وإذا كان الأصل فى الإنسان أن يتطور نحو الكمال ، فإن الأمم كذلك تتحرك بطبيعتها فى مدارج الرقى ، وتسمى بفطرتها نحو الكمال المنشود .

وإذا قيل : إن الفرد يتطور من طفولة إلى صبا فشباب ورجولة ، ثم إلى شيخوخة وهرم ، أى ضعف ووهن ؛ قلنا : إن تطور الأمم يكون فى المعنويات

لا في الماديات، لأن ما يربط الأفراد بعضهم إلى بعض بحيث يكوّنون أمة، إنما هي روابط معنوية. فما يقال إذن من أن للأمم شبابا وشيخوخة غير صحيح، لأن المعنويات لا تضعف في الإنسان إذا تنفس به العمر، بل إنها تبلغ أقصى درجات الرقي في الفرد حين يشيخ.

إلا أن العوائق قد تعترض الأمم فتحولها عن السير في طريق الكمال، وتنحرف بها إلى السير نحو الانحلال، وهذه حركة قسرية تكره فيها الأمم على غير طبيعتها.

والأمة الإسلامية سارت في طريق التطور سيراً طبيعياً، فامتصت الثقافات القديمة التي أوشكت أن تزول، وحملت علم الحضارة، وقدمت للعالم زاد العلم والمعرفة، وغزت بمبادئها الإمبراطوريات القديمة، ورفعت علم التوحيد في البلاد الوثنية والثنائية، وأوجدت للإسلام عصراً ذهبياً كانت السماحة أكبر عون على ازدهاره، ولا ندري إلى أي درجة من الرقي كانت تصل بالبشريه لو تركت في طريقها تسير.

لكنها ابتليت بأدواء وعوائق لم تعطلها عن السير فحسب، بل حولتها عن مجرى التطور، ودفعت بها إلى طريق الضعف والتفكك. وحين فقدت كثيرا من مقوماتها الشخصية، لم تقو على صد أهواء حكامها، فحطموا وحدتها، وفرقوا كلمتها، ثم جاء الاستعمار فزادها فرقة، وعجل بها إلى الانحلال، فأصبحت هزيلة ضعيفة يجتاحها التعصب الأعمى بعد أن كان يسيطر عليها التفكير الحر السليم، وأصبحت بمرور الزمن تقدس الآراء وتعتبرها من المعتقدات، وويل لأمة تتحول فيها الآراء إلى معتقدات.

وهكذا توقفت الأمة عن السير في طريق الكمال، وغشيها سبات عميق، وتركت معاول الهدم تعمل عملها في بنائها الشامخ، رغم أن دينها هو بطبيعته دين الكمال، جاء ليأخذ بيد الإنسانية نحو الوحدة والقوة والخير للبشر أجمعين.

وعوامل الهـدم فى الأمم كمثل المخدر لا يمكن أن يدوم مفعوله ، ولا بد من تجديده ، والطريقة التى اتبعت فى تجديد تخدير أمتنا الإسلامية هى تقوية الخرافات والاهتمام بالقشور لصرف الناس عن الدين الصحيح (١) .

قلنا إن المخدر لايمكن أن يدوم أثره ، ولا بد من فترة تنبه تعقب كل تخدير ، ومن هنا بدأت الشعوب تحس أن بها أمراضاً ، وتدرك أنهـا تخلفت عن الركب ، وتلمس أن فى العالم أقوياء وضعفاء ، وأن الضعيف لا وزن له ، وأن القوى يتحكم فى مصير الضعيف ويرسم له خطته ، وأن التقاطع بين الشعوب الإسلامية حرمها الانتفاع بما فى أخوة أربعمائة مليون من قوة .

والتنبه للمرض أول خطوة نحو العلاج . ومن هنـا بدأ المفـكرون يحاولون إيقاظ الأمة من سباتها ، ويكافحون للرجوع بها إلى التطور الطبيعى ، وكثرت المحاولات وظهر الوعى ، ثم جاءت فـكرة التقريب ، وهى تتفق مع طبيعة التطور والعقل السليم وأسس دين الأخوة والتوحيد .

التقريب بين أرباب المذاهب الإسـلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمـان بها .

وحمل لواءها علماء من مذاهب أهل السنة الأربعة ومذهبى الإمامية والزيدية من الشيعة ، وبدأت تعالج التفرق بين أخوة فى الدين ، كتابهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، وحجهم واحـد ، يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولا ، وبأنه أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وبأن ما جاء به لا بد أن يؤخذ به ، وبأن سنته من المصادر الحتمية للأحكام .

وسارت فـكرة التقريب هادئة مطمئنة ، يؤيدها الفاهمون فى كل شعب ، وحملة الأقلام الذين يعتقدون أن لأقلامهم رسالة ويترفعون عن الدجل فيما يـكتبون .

وكان طبيعياً وقد تركت الفـكرة أثرها فى النفوس أن يقف فريق من الناس يسألون أنفسهم : ماذا كسبنا من الماضى بما فيه من تخاصم وتطاحن ، وماذا جرّت

(١) راجع مقالنا : « الدين فى معترك السياسة » العدد الثانى من السنة السابعة من هذه المجلة .

علينا النعرات الطائفية ، وأن يرغب المثقفون عما يقال لهم عن الطوائف ، ويميلوا إلى الاطلاع بأنفسهم على ما عند كل طائفة .

أما فريق المتزمتين فشأنهم ألا يعجبوا بمثل هذه الفكرة ، لأنهم لا يودون الرجوع إلى النهج السوى ، ويفضلون البقاء على ما هم فيه . وهؤلاء هم دعائم التفرق فى كل عصر ، لأنهم يصورون كل مذهب بالصورة التى يرونها لا بصورته الحقيقية ، وما الشقاق بين المذاهب الإسلامية بنتيجة اختلاف على عقائد وآراء فيها ، بل من نتيجة مفتريات تقال عن أربابها .

ألم ينسب المتزمتون إلى خمس المسلمين عقائدَ هم براء منها ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقد بالحلول ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقد بأن الرسالة كانت لعلى وأن محمداً أخذها ؟ ألم يقولوا أن للشيعة قرآنا غير هذا القرآن ؟ .

ومثل هذه المفتريات كانت تقال عن الشيعة بينما أسانيد الشيعة فى متناول اليد وكان بالإمكان الاطلاع على أى كتاب شيعى أو السفر إلى أى بلد شيعى للتأكد من أن هذا كذب وبهتان .

وها قد جاء دور الإصلاح ، ووقف رجال باسم التقريب يتحدّون أى إنسان أن يأتى بسند واحد يثبت أن مذهباً واحدا من المذاهب الإسلامية المعروفة يقر أمثال تلك الخزعبلات .

نحن لا نتكلم عن القرامطة والباطنية ولا عن غيرهم من الفرق البائدة التى يقال أنهم كانوا كذا وكيت ، ولا نقف منهم موقف الدفاع ، وإنما نتكلم عن الشيعة الذين يبلغون خمس المسلمين عددا ، ويسكنون بالعراق وسوريا وإيران والهند واليمن وغيرها من البلاد ، ولهم فقهاؤهم وآراؤهم واجتهادهم ، ولهم مراكزهم الدينية وجامعاتهم العلمية ، وكتبهم تملأ المكتبات .

لقد جاء التقريب على أساس فكرة التعارف العلمى ، وأوجد مركزاً لمن يريد أن يعرف كثيراً أو قليلا عن المذاهب الإسلامية المعروفة ، ولكن المتزمتين يحكمون على أى مذهب دون أن يتعبوا أنفسهم بالاطلاع على كتبه ،

ويجحدون كل ترابط ثقافى ، ويلعنون كل اتصال يؤدى إلى التعارف ، ويحرصون على البقاء فى أبراجهم العاجية وسط أوهامهم وظنونهم ، ويتناسون أنهم فى عصر أبرز مظاهره سرعة المواصلات واتصال أجزاء العالم بعضها ببعض ، ويتجاهلون أن البشرية لم تعد تكتفى بالتعرف على ما فى كرتنا الأرضية ، بل إنها تتطلع إلى اكتشاف فى الأقمار والنجوم .

فهل يصح فى مثل هذا العصر أن يقف جامداً فى وجه التطور ، ويأخذ عليه عن الطوائف من قصص أشبه ما تكون بالأوهام والخرافات .

أن المتزمتين ـ ومن حسن الحظ أنهم قلة فى كل شعب ـ من دأبهم أن ينفروا مما لم يألفوا ، وأن يقفوا فى وجه مالم يعرفوا ، وأن يحتفظوا بقديمهم لأنه تغلغل فى نفوسهم فهم لا يرضون به بديلا ، ولا يطيقون له تحويلا ، كما أن من دأبهم أن يتلمسوا الأوهام فى المعارضة إذا لم تسعفهم الحقائق . أليسوا يصرون إصرارا عجيباً على أن التقريب محاولة لإدماج مذهب فى مذهب ، أو تغليب مذهب على مذهب ، على الرغم من أن كل صوت من أصوات التقريب ، وكل نشاط يصدر عن التقريب ينادى بغير ذلك ؟ .

إن التقريب لأسمى من هذا وأجل شأنا ، إنه ـ على العكس مما يتخيلون أو يريدون أن يخيلوا للناس ـ ينادى بوجوب أن تبقى المذاهب ، وأن يحتفظ المسلمون بها ، فهى ثروة علمية وفكرية وفقهية لامصلحة فى إهمالها ولا فى إدماجها، لكن شتان بين هذا وبين إيجاد جو من الهدوء والثقة والصفاء بين المسلمين يرتفعون به عن الضغائن والجدل العقيم ، ويتفرغون بسببه إلى ما هو أولى بهم من مشاركة الركب العالمى ، بل من قيادة هذا الركب وتوجيهه لو استطاعوا .

ذلك ما يريده التقريب . وإن القافلة تسير ، تسير مع ركب الحضارة والعلم الصحيح ، تسير مع التطور إلى الحق ونحو الحق ، إنها فى الواقع تسير إلى الله ، وإن الله معنا « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

— ٢ —

كتبنا فى تفرق المسلمين واختلافهم شيعا ومذاهب ، وكيف يعودون إلى أمرهم الأول من محبة واتحاد وتعاون ، ووعدنا أن نتوسع فى هذا الموضوع ونزيده جلاءً وبيانا ، وها نحن أولاء نفى بما وعدنا فنذكر أسباب الفرقة والاختلاف ، لأنه ما لم يعرف سبب المرض لا يمكن الطب له والبرء منه .

انتشر الإسلام سريعاً فى قليل من الزمان ، وامتد فى رقعة من الأرض متلاصقة تجمع جزءاً من آسيا وإفريقية وأوربة ، واشتدت شوكة المسلمين وقوى سلطانهم ، وأصبحوا لا يرهبون العدو الخارجى لسقوط مقاومته أو لبعد داره ، وكل هذا حسن يدعو إلى اغتباط محبى الإسلام ، ولكن الله خلق الدنيا مختلطة منافعها بمضارها وممتزجاً شرها بخيرها ، فهذا الخير العظيم ، وهو اتساع رقعة المسلمين ، وامتداد سلطانهم ، والأمن من أعدائهم أضعف الأواصر بينهم وجعلهم يعيشون فى هذه الأرض وكأنه لا مالك لها سواهم ، فانصرفوا إلى منافسة بعضهم بعضا ، إذ انقطع ذلك الخوف الذى يحفز الى التضام والالتصاق ومراعاة أسبابهما وتوخى كل ما يوجب الألفة والمحبة ونبذ كل ما يوجب الشقاق والتباعد ، وانظر فى ذلك الأمة إذا تكونت من عنصرين مختلفين : أقلية ، وأكثرية ، فإنك تجد الأقلية لخوفها من الأكثرية تدفعها غريزة حب البقاء إلى التضام والتعاون ، أما الأكثرية فلعدم هذا الباعث تكون أقل تضامنا وتعاونا .

بل انظر إلى أيام المسلمين الأولى أيام كانوا قليلا وكان المخالفون لهم كثيراً فقد كانوا كالشامة فى الثور الأسود وكانوا يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم فاتجهت قوة المقاومة فيهم إلى الخارج ولم يكن لهم عدو من أنفسهم بل كانوا وحدة يرمون عن قوس واحدة ويشعرون بالتعاون وأن كلا عون لصاحبه وأنه لولا تعاطفهم وتساندهم لكانوا أكلة الآكل ونهزة المنتهز، فى ذلك الوقت والشمل جميع، لم يلبسهم الله شيعا ولم يفرقهم أحزابا ولم يقطعهم مزقا بل كانوا كالجسد الواحد إنْ حادث ألم بعضو منه تألم له الجميع .

فلما عاش المسلمون أحقاباً طوالا من الزمن وكأنه لا ساكن للأرض سواهم تنافسوا فيما بينهم فانصرفت قوة المقاومة التى خلقها الله فى الكائن الحى إلى الداخل إذ لا منصرف لها فى الخارج فأصبحوا يتعاملون وكأنهم وحدات مختلفة لا أمة واحدة .

تركوا الخلاف يشجر بينهم ، وأعانوا هم على حدته وانصرف كل إلى تقويته : العالم بعلمه وجداله ، وذو السلطان بقوته وسلطانه .

وإنك لتقرأ كتب علماء المسلمين : المتقدمين منهم والمتأخرين ، فتجد ما كتب فى الرد على الفرق المختلفة من المسلمين أكثر مما كتب فى الرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والملل المختلفة ، حتى كأن الأرض كانت خالية منهم .

وإن المرء إذا أراد أن يطلع على مجادلة المسلمين لأصحاب الأديان المختلفة ليعرف الروح الجدلية فى هذا التاريخ الطويل لا يكاد يجد إلا القليل بجانب ما يراه من السيل الدافق من كتب المناظرة بين الفرق الإسلامية يجد بعض الرسائل القصيرة للجاحظ فى الرد على النصارى وبعض فقرات قصار تنسب إلى المأمون فى كتب الأدب كالبيان والتبيين ويجد رسالة تنسب إلى بعض علماء المسلمين والرد عليها من بعض علماء النصارى .

ولا أظن إلا أن الرسالة الأولى موضوعة لضعفها ، وضعت لتبين ضعف حجج المسلمين وقوة حجج النصارى .

والذى عرض لذلك باستيعاب ، كتابُ الفصل فى الملل والنحل لابن حزم فقد رد على الملل والنحل المختلفة ، وكتاب ابن تيمية فى الرد على النصارى وهو فى الحق كتاب نافع يقرؤه المرء فيعتقد أن مؤلفه كان خبيرا بمذاهبهم وطقوسهم وخفايا دينهم ، يعرضها عرضاً جلياً ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، ومثل ذلك كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى .

ولا أقول إن ما ألف فى الرد على الملل المختلفة هو ذلك فحسب إنما أقول إنه قد ألف غير ذلك ولكنه بلغ من القلة إلى حد أنه لم يتداول منه إلا هذا القليل أما كتب جدال الفرق الاسلامية بعضها بعضا فلا تكاد تحصى حتى إنك تجد كتابا ككتاب الحيوان للجاحظ ـ وهو فى علم غير علم الفرق والديانات ـ يعرض لبعض هذه المناظرات .

ومن ألفوا فى الرد على الفرق لا يكادون يحصون ، منهم الإمام أحمد بن حنبل رد على الجهمية وابن جرير الطبرى ، وابن قتيبة ، والأشعرى له كتاب مقالات الإسلاميين والإبانة ، والمعتزلة لهم كتب فى الرد على غيرهم كالانتصار لابن القصار. وكتب الكلام مشحونة بالرد على الفرق كالمعتزلة والمجسمة ، واقرأ فى ذلك المواقف وتهذيب المنطق والكلام لسعد الدين التفتازانى والمقاصد له والعقائد النسفية والمحصول للرازى والأربعين فى أصول الدين ، حتى ان بعض كتب التفسير والحديث شغل فيها واضعوها بالرد على الفرق كالتفسير الكبير لفخر الدين الرازى شحنه مؤلفه بالرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق . وكتاب الكشاف لجار الله محمود ابن عمر الزمخشرى قد نصر فيه صاحبه آراء المعتزلة ، وحمل آيات القرآن على مذهبه .

كل ذلك يدل على أن كتب المناظرات والمجادلات منشؤها الحاجة ، ولم تكن الحاجة ملحة كثيراً إلى مجادلات الملل لسقوط مقاومتهم ، ولكن الحاجة كانت شديدة لمناظرات الفرق الإسلامية لأن المقاومة انصرفت إلى الداخل فنشأت الفرق واحتيج فيها إلى المناظرة والجدال فألفت الكتب الكثيرة فى مناظرات الفرق والرد على آرائها ومذاهبها .

نعم إن فلسفة اليونان ترجمت إلى اللغة العربية ، وانتشرت واعتنقها نحلةً بعضُ المسلمين ، ورأى فيها علماء المسلمين خطرا عظيما على الدين ، فانتهض قوم لمناهضتها والرد عليها ، وانتهض آخرون للتوفيق بينهما وبين الدين ، ومن القبيل الأول أبو حامد الغزالى درس الفلسفة حتى حذقها ، وألف فيها كتاب مقاصد الفلاسفة ، ثم رد عليها فى كتاب تهافت الفلاسفة ، ومن القبيل الثانى ابن رشد الحفيد درس الفلسفة الإغريقية بعامة وفلسفة أرسطو بخاصة ، فأتقنها وألف فيها ولخص كتب أرسطو وشرحها ، ولم يكن تلخيصاً فحسب ، بل كان تصحيحاً لما علق بها من أخطاء الناسخين ، وبيانا لمراد الفيلسوف منها الذى استعجم واستبهم ، وقد لخص كتاب الكون والفساد والسماء والعالم وكتاب النفس وكتب أرسطو المنطقية الثمانية حتى كتاب البرهان والخطابة ، والشعر والجدل والسفسطة .

وإن من يشتغل بالفلسفة لايجد معيناً له مثل ابن رشد حتى ليخيل إلى دارس الفلسفة أنه لم يفهم أرسطو مثلُ ابن رشد من عهد أرسطو إلى الآن .

وقد حاول ابن رشد الجمع بين الدين الإسلامى والفلسفة ، فألف فى ذلك كتاب فصل المقال فيما بين الحقيقة والشريعة من الاتصال ، وألف كتاب تهافت التهافت فى الرد على الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة ، وكان إذا ما غضب وظن أن الغزالى يتجنى على الفلاسفة فثأنار غضبه بقوله : ما أحرى هذا الرجل أن يسمى كتابه ـ التهافت ـ بإطلاق .

وكان إذا رأى الغزالى يتنقل فى المذاهب المختلفة يتمثل بقول الشاعر :

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـشّـآم يوما ويوما بالخليصـاء

أو بقوله :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدنانى

* * *

مما تقدم كله نعلم أن الخلاف والحجاج وليد الحاجة وأن عوامل طبيعية تدعو إلى الاجتماع وعدم الفرقة وعوامل أخرى تدعو إلى الانقسام والفرقة

وأن الشعور بالخطر الآتى من الخارج يدعو إلى التجمع والوحدة ، والشعور بالأمن الخارجى قد يدعو إلى التهاون فى هذه الوحدة ، وقد مر بالمسلمين هذان الدوران وكان تفريطهم فى الوحدة وإهمالهم للاجتماع نتيجة شعورهم بالأمن من أن يتسلط عليهم عدو خارجى ، أما الآن فقد تغير الوضع وظهرت أمم على وجه البسيطة ذات قوة ومنعة ، وهى وان كانت بعيداً عن مواطن المسلمين فهى قريب منهم بما أنشأه العلم الحديث من سرعة فى المواصلات فأصبحت كأنها أو ليس بينهم وبينها الا قيد خطوات . هذه الأمم قد استولت على كثير من بلاد المسلمين ، وأصبحت طامعة فيما لم تستول عليه فلابد أن ينتج هذا الوضع الجديد وضعاً آخر وتنصرف المقاومة إلى الخارج ولا يحتاج الأمر إلا إلى تنبيه الأذهان ولفت الافكار والضرب على وتر واحد وهو أن الأمم الإسلامية كلها أمة واحدة قد اشتركت فى العواطف والميول والنظر إلى الحياة وتقديرها للأشياء بما اشتركت فيه من الدين ، وهى فوق ذلك تشترك فى الألم والجرح ، مرضها واحد ، وألمها واحد ، وأسرها واحد وأغراضها فى الشفاء والخلاص واحدة ، وليس يجمع بين القلوب ويؤلف بين النفوس مثل الاشتراك فى المصائب والاتفاق فى الآلام .

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه فى عمانه
نحن فى الفكر بالديار سواءٌ كلنا مشفقٌ على أوطانه !

الفرق بين الدين والمذهب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

نريد من الدين ـ هنا ـ الإسلام ، ومن المذهب أى مذهب من المذاهب الإسلامية السُّنية أو الشيعية ، والفرق بين الإسلام وبين أحد مذاهبه من وجهين ، أو أن كلامنا فى هذا المقام يقع فى وجهين من الفروق :

الأول : أن الإسلام أعم ، لأنه يشمل جميع المذاهب ، والمذهب أخص ، لأنه واحد ، ومن ثمرات هذا الفرق أنه إذا قال أتباع مذهب بأن الإسلام يأمر بكذا ، ورأى أتباع مذهب آخر العكس فلا يحق لأحدهما أن ينكر على الثانى وينفى عن قوله الصفة الدينية الإسلامية .

لقد انفرد كل مذهب بقول لم يوافقه عليه أحد من سائر المذاهب ، كقول الشيعة بأن البنت تختص بالميراث مع عدم الولد الذكر ، وقول أبى حنيفة بأن الصلاة تصح بغير الفاتحة ، وقول مالك بأن الحامل إذا بلغت ستة أشهر فليس لها أن تتصرف فيما زاد عن الثلث ، وقول ابن حنبل بأن من تزوج امرأة وشرط ألا يتزوج عليها ، يلزمه الوفاء بالشرط ، وقول الشافعى بأن شرط الخيار لا يصلح فى الإجارة ، فكل واحد من هذه الأقوال تخالفه أربعة مذاهب مجتمعة ، ومع ذلك لا يسوغ لأحد أن يدعى بأنه ليس من الإسلام ، ما دامت المذاهب بكاملها تنتمى إلى كتاب الله وسنة نبيه بنسبة واحدة ، وإن نفى الإسلام عن مذهب يستتبع نفيه عن الجميع ، وثبوته

لمذهب يستدعى ثبوته للجميع بدون أدنى تفاوت ، وهـذا بديهى كالقول بأن المساويين لثالث متساويان .

وكما لا يسوغ نفى الإسلام عن مذهب إسلامى ؛ لا يسوغ أيضاً نسبة حكم فى مذهب إسلامى إلى الإسلام بنحو الإطلاق ، فلا ينبغى أن يقال : ثبت فى الشريعة الإسلامية أو فى الفقه الإسلامى كذا ، إذا لم تتفق عليه جميع المذاهب السنية والشيعية ، بل لا ينبغى أن يقال : السنة تقول كذا إذا خالف أحد مذاهبها ، وإنما يقال : ثبت فى المذهب الإسلامى الحنفى ، أو المذهب الإسلامى الجعفرى .

الثانى : أن الإسلام هو الدستور الذى بُينت مواده وأحكامه فى الكتاب والسنة ، وهى أحكام واقعية ثابتة لا تختلف باختلاف علم المكلفين بها أو جهلهم ، أما المذهب فهو عبارة عن رأى صاحبه وفكرته عن الإسلام أو بعض أحكامه ، فإذا كانت فكرته انعكاسا حقيقياً عن حكم الله فهى صواب ، وإلا فخطأ يعذر صاحبه إذا كان قد أفرغ الوسع فى البحث والتنقيب عن الدليل ، وعليه يكون الفرق بينهما كالفرق بين الوجود الخارجى والوجود الذهنى ، بين الحقيقة الواقعية وتصورها .

ومن ثمرات هذا الفرق أن مخالفة المذهب ليست دائماً مخالفة لواقع الإسلام وحقيقته ، بل لفكرة صاحب المذهب والصورة الذهنية التى تصورها عن الإسلام ، لذا يعدل الفقيه عن رأيه متى تبين له الخطأ .

إن أفكار الإنسان عالما كان أو جاهلا تتصل اتصالا وثيقاً بحياته وظروفه الخاصة فحياة الأديب تنعكس فى أدبه ، وحياة الفقيه تنعكس فى أحكامه وفتاويه ، ومن هنا تعددت الأقوال والمذاهب ، ومن هنا قال الإمام أبو حنيفة بجواز التكبير فى الصلاة بغير العربية ، لأنه فارسى الأصل ، وتعددت المذاهب واختلفت ، أما الإسلام فواحد لا اختلاف فيه ولا تعدد ، كان قبل المذاهب ، وسيبقى إلى الأبد .

ليست آراء الفقيه ظلا حقيقيا للأحكام الشرعية الواقعية ، وإنما هى اجتهادات تعبر عن الحكم الواقعى فى نظر المجتهد ، وليس من شك أن الاجتهاد يقبل الجدال والنقاش ، وإن بلغ دليله من القوه ما بلغ ، غاية الأمر أن قوة الدليل تضعف احتمال الخلاف ، ولا تلغيه بالمرة ، وإلا فيخرج عن كونه اجتهاداً ، ويصبح ضرورة دينية يشترك فى معرفتها العالم والجاهل .

وعلى أى الأحوال فإن الاجتهاد حجة فى حق صاحبه يجب عليه اتباعه والعمل به ، أو قل كما قالت الشيعة الإمامية : إن الحكم الشرعى على قسمين : حكم واقعى ، وهو الذى شرع بالتشريع الأولى فى حق جميع المكلفين ، ولم يقيد بعلم أو جهل . وحكم ظاهرى ، وهو الذى شرع فى حق المجتهد عند ما تقوم لديه الأمارة من ظواهر الكتاب ، أو السنة الثابتة بنقل الثقات ، أو إجماع العلماء ، أو دليل العقل ، وقد يتفق الحكم الظاهرى مع الحكم الواقعى ، فيكتب للمجتهد أجران ، أحدهما على العمل بالواقع ، والثانى على ما بذله من جهد ، وأحكام المذاهب كلها ظاهرية ليست بحجة إلا فى حق القائلين بها ، حتى هؤلاء يجب عليهم أن يعدلوا عنها إذا انكشف لهم العكس .

وبالتالى فإن التعصب لمذهب هو تعصب للفرد ، تعصب لصاحب المذهب بالذات لا تعصب للإسلام ، ولا لمبدأ من مبادئه ، وإذا كان لابد لنا من التعصب فلنتعصب للدين ، للإسلام لا لمذهب من مذاهبه ، على أن يكون تعصبنا للإسلام الحرص على تعاليمه ، واحترام شعائره ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، نتعصب للإسلام ببث روح الألفة والتآخى بين المسلمين جميعا .



قال شيخي

لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخي :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حُوَّل إذا سُد منه منخر جاش منخر
أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابى ، ويومى ضيق الجحر معور
هما خطتا : إما إسار ومنة وإما دم ، والقتل بالحر أجدر
وأخرى أصادى النفس عنها وإنها لمورد حزم إن فعلت ومصدر
فرشت لهم صدرى فزل عن الصفا به جؤجؤ عبل ومتن مُخَصَّر
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
فأبت إلى فهم وما كدت آيبا وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

كان له كهف فى جبل يشتار منه العسل فعرفته لحيان وهم عدوه ، فأخذوا عليه الطريق وقالوا استأسر ، ولكنه كان قد أعد للأمر عدته ، واتخذ له أهبته بأن فتح فى الجبل نافذة إلى السهل صب منها العسل على الصخر المنحدر ، وهكذا نزل تجذبه الأرض ويمسكه العسل إلى الصخر ، فما زال بين بين حتى تسلمه السهل سليما لم يندق له عنق ولم ينكسر له ضلع .. وعاد إلى قومه وما كاد يفعل ، فقد كان الموت يترصده ، وكان حرياً أن يموت ، لولا أنه حُوَّل قُلب متبصر صاحب حيل لا تنفد ... إذا سد منه منخر جاش منخر ، فهو قريع الدهر حازم أبدا لا يرد موردا إلا عالما كيف يصدر .

لقد كان أمره ـ لو أنه كان من عامة الرجال ـ واحدة من اثنتين : ذل الأسر والمنة إن عفوا عنه ، والثانية أن يقتلوه وهي الأولى بالرجل الحر الكريم ، على أن ثم ثالثة يصادى عنها نفسه ، وتا لله إنها لمورد الحزم ومصدره : يلصق أو يلسق أو قل يلزق بالعسل إلى الجبل كي يسلمه إلى السهل إلى آخر ما عرفت .

قلت : فمن يكون هذا الحول القلب الذى إذا سد منه منخر جاش منخر : وإن كان التعبير يجلب الغثيان ، فما كانت المناخر لتجيش بما تستريح إليه النفوس .

قال : إذا أسلمتَ ما يجيش به منخراك ومنخرا شيخك وما شئت من مناخر صحيحة أو معتلة الى كيائى تحلله الى عناصره الأولى ؛ فإنه لن يأتيك إلا ببعض ما تأكل أو تشرب ... فليكن عيشك إذن غثيانا فى غثيان على غثيان ما طعمت طعاما أو شربت شرابا أو فكرت فيما تطعم وتشرب .

قلت : فقد يقرأ حديثنا هذا بعض ذوى الذوق السليم ، ولا أحب أن أسبب لهم ما سببته لشاب ظريف أنشدته قول الشماخ :

وعرفت رسما دارساً تخلوقا فوقفت واستنطقته استنطاقا

فكانت « استنطقته استنطاقا » هذه وجع قلب أرهقه ارهاقا :

قال : فليته أحرقه احراقا ، وليتك سميت الأشياء والذوات بأسمائها ، فقلتَ قد يقرأ حديثنا بعض ذوى الذوق المريض ، وإنك أنشدت شابا عليلا قول الشماخ فليس من سلامة الذوق أن تنفر من واقع الحياة ، إلا أن يكون شذوذاً غير متوقع ولا منتظر .

قلت : توقع وانتظار أى فرق بينهما ؟ ومتى أحب شيخى التزيد أو الحشو أو التكرار لمجرد التكرار ؟ .

قال : الفرق بينهما كالفرق بين الليل والنهار ، فأنت تتوقع (الواقعة) وتنتظر الفرج ، فهذا للخير وذاك للشر .

قلت : فإنى أحيل شيخى على غير واحد من زملائه الكبار الذين (يتوقعون الخير) فيما يقولون .

قال : فلعله بدل غلط : أرادوا أن ينتظروا فتوقعوا غلطاً ، كما تقول : اللهم أدخلنى جهنم الجنة . أردت الجنة فقلت جهنم ، أو كما يقول النحاة : رأيت زيداً الحمار : أردت الحمار فقلت زيدا .

قلت : هم يفرقون بين بدلى البداء والغلط ، فبدل البداء هو ما لا تناسب فيه بين الاثنين ، بل هما متباينان لفظاً ومعنى نحو مررت برجل امرأة : أخبرت أولا أنك مررت برجل ، ثم بدا لك أن تخبر أنك مررت بامرأة دون إبطال الأول ، فكأنهما إخباران ، ويمثلون لهذا البدل بحديث أحمد وغيره : « إن الرجل ليصلى الصلاة وما كتب له نصفها ثلثها » أخبر أنه يصليها وما كتب له نصفها ، ثم أضرب وأخبر أنه يصليها وما كتب له ثلثها . . . وأما بدل الغلط فهو ما ذكر فيه الأول دون قصد وإنما هو سبق اللسان ، وبهذا يفارق بدل البداء الذى يعنى كلا الجزءين فقولنا رأيت رجلا امرأة ؛ صالح لأن يكون بدل بداء إن قصدت الخبرين ، ولأن يكون بدل غلط إن أردت الإخبار بأنك رأيت امرأة ولكنك غلطت فقلت رجلا .

قال : بخ بخ لك فهذا كلام له مدلول ؛ وهو لعمرى لغة القوم ، وما أدراك ما القوم على أن منهم من أنكر بدل البداء وبدل الغلط كليهما ، فقالوا فى الأول إنه مما حذف فيه حرف العطف ، وفى الثانى إنه لم يوجد . قال المبرد : بدل الغلط لا يكون مثله فى كلام الله ولا فى شعر ولا فى أثر ولا فى كلام مستقيم ، وقال خطاب لا يوجد فى كلام العرب لا نثرها ولا نظمها وقد عنيت بطلب ذلك فى الكلام والشعر فلم أجده ، وطلبت غيرى به فلم يعرفه ، وادعى محمد بن السيد أنه وجد فى قول ذى الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

قال : فلعس بدل غلط ، لأن الحوة السواد بعينه ، واللعس سواد مشرب بحمرة ، ورد بأنه من باب التقديم والتأخير ، وتقديره فى شفتيها حوة وفى اللثات لعس ، وفى أنيابها شنب ، وشيخك من هؤلاء الذين لا يعرفون بدل الغلط ولا بدل البداء . . على أنه قد يبدو لك ، وقد تغلط ، فقد شاء الله أن تغلط الناس وأن يبدو لها ما لم يكن قد بدا ، ولكن ذلك شىء ، والبدل فى النحو واللغة شىء آخر .

قلت : ولكنكم أثبتم بدل الغلط إذ كان حديثنا عن زملائكم الكبار الذين يتوقعون منتظرين .

قال : وما على إذا لم تفقه البقر . فأنا لم أشأ أن أرمى إخوانى بما لا يحبون ، لم أشأ أن أخبرك بأنهم يغلطون فلم أجد لهم درعا واقية خيراً من بدل الغلط فهم يغلطون علما لا جهلا . أو قل هم يغلطون وفقاً للقواعد . ولأن تخطىء بناءاً على القاعدة خير من أن تصيب على خلافها .

قلت : توارد خواطر . . . ولو كان المتكلم غير شيخى لقلت سرقة من (موليير) الشاعر الفرنسى الذى أبدأ وأعاد فى هذا المعنى على ألسنة أطبائه الذين كان يسخر منهم ومن طبهم . . . فهذا مريض يقررون أنه مائت دون شك فى أجل موقوت ، إلا أن الأجل يفوت ، والرجل لا يموت ، فكيف وقد قضت القواعد العلمية بأنه قد مات ؟ نعم مات وإن حياته لكاذبة فما دام العلم قد قضى بأن الرجل مقضى عليه فهو لا محالة مقضى عليه ولو شبه له ولغيره أو خيل إليهم أنه حى يرزق . . كلا وأنف الحقيقة فى الرغام . . ذلك بأن العلم لا يكذب ؛ فإذا ناقضه الواقع فهذا الواقع غير واقع . ويجوع مريض (موليير) فيغضب الطبيب العالم لأن الأموات لا يأكلون ولا يشربون فما بال هذا الميت يريد أن يأكل . . اسكت يا رجل فإنك ميت هكذا قرر العلم ومن أنت حتى تريدنا على أن نكذب صدق العلم ونصدق كذبك . . لقد مت وانقضى على وفاتك زمن طويل . . .

قال : على رسلك فما ابتكر (موليير) ولا سرق شيخك وليس بمستغرب أن يكون للعلم منطق غير منطق الواقع أفلسنا فى باب البدل أو ليس ثم شىء اسمه بدل الكل من البعض ، إن بدل بعض من كل يتصوره العالم والجاهل على حد سواء . فأما أن تبدل كلا من بعض فذلك شأن النحاة أو العلماء وحدهم . . أعرب :

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

فأنت تجدك تقول (طلحة) بدل من (أعظما) أو قوله تعالى : « يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا جنات عدن » فجنات وهى كل ، بدل من جنة ، وهى بعض .

قلت : ولم لا تكون جنات عـدن بعضا من الجنة فهى جنس يشمل جنات عدن وغيرها من الجنات .

قال : وهل (أعظما) جنس بعضه طلحة ؟

قلت : أجل فكلنا — أعنى الأحياء جميعا — أعظم أو عظـام متى غادرتنا الحياة أو غادرناها فطلحة الطلحات بعض الأعظم أو بعض العظـام إن لم يكفك جمع القلة .

قال : وهكـذا نستطيع أن نمضى قدما (فى المحيط الفارغ) إلى حيث شاء العلم وإلا فما ميزة العالم إذا لم يستطع أن يجعل من العدم وجوداً .

قلت : فليتنا لم نمض فى باب بدل الغلط .

قال : مضيت فيه وفاتك منه أبدع ما فيه فأنت تعلم أنه يغتفر فى الشعر مالا يغتفر فى النثر إلا فى بدل الغلط فإنهم أو بعضهم يبيحونه فى النثر لا فى الشعر :

قلت : وسؤالى الأصلى قائم لم تعرضوا له فما كنت لأنسى أنى سألت عن ذلك الحول القلب الذى إذا سد منه منخر جاش منخر ، هذا هو الأصل ولست أدرى كيف تفرعت بنا الفروع فخرجنا عن الموضوع .

قال : وأى عجب فى هـذا ، إنها السنن الموروثة مذ كان فى العالم علم وعلماء وفقـه وفقهاء ومذاهب تتفرع عنها مذاهب . . فهل تريدنى على أن أخرج على الأوضاع التى قررت فاستقرت فتقدست فألزمت فاستلزمت أن نحرص عليها أن يعبث بها العابثون الجاهلون الذين لا يعرفون كيف يفرعون من الأصل الواحد عشرات بل مئات بل ألوفاً من الفروع التى تنمو فتصبح أصـولا ضخمة ذوات فروع لا تلبث أن يلتف حولها فروعها ، وهكذا حتى يوم الدين .

قلت : فمؤدى هـذا أن ينقلب الوضع فيصبح الفرع أصـلا يطغى على الأصل الأصيل .

قال : فدع الأصول والفروع وعد معى الى ما كنا فيه ، أما كنت تتساءل عن الحول القلب الذى اذا سد منه منخر جاش منخر ؟ إنه ثابت وكنيته أبو زهير :

واسماً أتى وكنية ولقبا   وأخرنْ ذا إن سواه صحبا

أو كما قيل :

. . . .   وذا اجعل آخراً إذا اسماً صَحبا

فأنت تعلم أنهم أخذوا على ابن مالك قوله وأخرن ذا إن سواه صحبا ، لأن اللقب والكنية عدلان من حيث التقديم والتأخير ، ولا كذلك فى اللقب والاسم فللأخير الصدارة ، فأما قول الشاعر :

بأنّ ذا الكلب عمراً خيرهم حسبا   ببطن شريان يعوى حوله الذيب

قلت : أنا فى غنى عن جواب أما .

قال : ولكن غيرك قد يطلع على حديثنا ، وقد يعنيه أن يعرف تفصيل مسألة الاسم والكنية واللقب ، فقد تجتمع جميعاً ، وقد يجتمع الاسم والكنية ، وقد يجتمع الإسم واللقب ، وقد تجتمع الكنية واللقب وقد . . .

قلت : قد أستطيع أن أؤكد لكم - وقد للتحقيق - أن أحدا ممن يطلع على حديثنا لا تعنيه هذه المسألة . ذلك بأنه إما أن يكون من طرازكم عارفا لا يعرف ، وإما أن يكون من طراز آخر يشغله أمور كثيرة عن الاسم والكنية واللقب .

قال : وعمرو ذو الكلب قتيل بطن شريان ، إنه ليس نحواً ولا صرفاً ، وقد يكون من الخير أن تعرف ويعرف غيرك خبره . . ما خطبه وكيف ولماذا قتل ؟ وقبل هذا وذاك ما هويته ؟ وبعد ذلك كله تلك المرثية المقولة فيه التى مطلعها :

أبلغ هذيلا وأبلغ من يبلغها   عنى حديثاً وبعض القول تكذيب

أشعر نسائى هذا أم رجالى ؟ وأيا كان قائله ذكراً أو أنثى فما قيمتها من حيث الفن .؟ وشىء آخر له خطورته : أثابتة هى لمن نسبت إليه أم مقول إنها منحولة ؟

قلت : كلها أمور ذات خطر ، ولكنى قبل أن نعرض لها أحب أن نعود إلى ثابت هذا الذى يكنى أبا زهير فالله يعلم أن اسمه وكنيته لم يغنيا فى تعريفنا إياه ،

أفليس له لقب فقد يكون هذا المتأخر لفظا ورتبة أحرى أن يعرفه مما تقدمه اسما وكنية أصليين فى التعريف قولا لا فعلا ؟ .

قال : فكنيته ـ كما شاءت أمه بمشيئة الله ـ تأبط شرا . ذلك بأنها سئلت عنه وكان قد خرج متأبطا سكينا : فقالت لا أدرى ، إنه تأبط شراً وخرج . هذه رواية ، وفى أخرى أن أمه عاتبته إذ كان لا يأتيها بخير على خلاف لداته من الغلمان الذين كانوا يجنون الكمأة لأمهاتهم . قال لها : اعطنى وعاءً أملاه لك كمأة فأعطته كيساً ، فخرج وملأ كيسه أفاعى صادها . قالت أهذا كله كمأة ؟ قال نعم ، ففتحت الكيس فرحةً فخرجت الأفاعى تسعى فى دارها . فصرخت وجلة فاجتمع عليها نساء الحى يسألنها ما خطبها فقصت عليهن قصص ابنها . قلن وكيف حمل كل هذه الأفاعى ؟ قالت لقد تأبطها . قلن لقد تأبط شرا . فكذلك نشأ لقب ثابت أبى زهير وغلب عليه حتى صح « كما استنبطت بحق » لا يعرف إلا به . فكثيرون أولئك الذين يعرفون تأبط شرا ، وقليل منهم الذين يعرفون ثابتاً أبا زهير ، أو أبا زهير ثابتا ، فقد آن لنا فيما يبدو أن نرجع إلى ابن مالك والاسم والكنية واللقب .

قلت : بل ثم أمور كثيرة تشغلنا عن ابن مالك ، وعن النحو بعامة ، وعن الاسم والكنية واللقب بخاصة . فقد سقتم روايتين فى منشأ تأبط شرا أيتهما الأصح ؟ أو بعبارة أصح ، أيتهما الصحيحة إذ ليس فى المسألة من حيث المنطق صحيح وأصح ، وإنما هى صحة أو عدمها .

قال : قد تكون الصحيحة هذه الرواية أو تلك أو أخرى لم يعرفها شيخك ولا غيره . ألا فلتعلم إن لم تكن علمت أن شيخك يعوزه اليقين فى أسباب نزول القرآن المبين ، وأنت تعلمُ أن كتاب الله قد خدم خدمة ما كان الشعر ولا غيره من الأثر ليخدمها ، ومع هذا لو سألتنى مثلا لماذا نزلت : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » فإن إجابتى لن تتعدى حدود الحكم أو السبب العام المتحقق أبدا فى كل زمان

ومكان ، أما لماذا أو فيمن نزلت خاصة فقل ماشئت أو شاء لك أصحاب الرواية : أنزلت فى المشركين ، أم فى أهل الكتاب ، فى هؤلاء جميعا ، أم فى اليهود وحدهم ، أم تراها نزلت فى المسلمين أهل الضلال والبدع ، وجماعات الأحزاب والشيع التى تفرق الكلمة وتمزق الوحدة ، أم تراها نزلت فى كل من تقدم . فهو وصف متى تحقق فى فرد أو جماعة فهو أو هى من جملة الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وليس منهم صاحب الرسالة عليه صلوات الله ، ليس منهم ، ولا يجتمع بهم فى شىء ، فأنت ترى براءته منهم حازمة كاملة شاملة كل شىء .

قلت : تريدون متعلق (فى شىء) فهى حال من الضمير . . .

قال : صه وقل إن شيئاً كائنا ما كان لا يمكن أن يجمع من أنزل عليه القرآن بأولئك الذين فرقوا دينهم فكانوا فرقا أو شيعاً أو وحـــدات متميزة من تلك الوحدة الدينية التى جمعت ما وصى به نوحا والنبيين من بعده حتى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه صلوات الله والملائكة والناس أجمعين أما متعلق الجار والمجرور وكونه حالا فشىء يعنى النحاة وحدهم .

قلت : فما أنتم أولاء ترجحون قولا على أقوال شتى أو لعلكم تقطعون بأنها إنما نزلت فى أصحاب الضلال والبدع والأحزاب والشيع من المسلمين .

قال : انطباق الحكم عليهم لا ينفى أنه انطبق على غيرهم فأنا لا يعنينى المناسبة أو الغرض أو السبب المباشر فى نزول الآية وإذا عنانى فلست أملك الوسائل أو الوثائق التى تقطع بصحة هذا السبب أو ذاك .

قلت : فأنتم إذاً تصرفون أو تحاولون صرف العلماء وأصحاب البحث والدرس عن دراسة أسباب النزول . . وإنها لمحاولة — لو أنجحت — فسلام على دراسات وبحوث واعتراضات وإجابات يعلم الله وحده كم كلفت الرؤوسَ الكبيرة والقلوب الذكية من جهد وعناء وإذاً فعلى آثار من ذهب العفاء .

قال : صبراً قليلا ولا أقول جميلا فأنت تستصرخ غير مستصرخ وتندب وتلطم فى غير جنازة وإلا ففيم الويل والثبور وعظائم الأمور ، ومن عرض

لقداسة الآثار وأصحاب الآثار الذين تأبى إلا أن تهيل عليهم التراب أو تعفى عليهم وعلى آثارهم بالطريقة التى ترتضى؟ إن شيخك هذا الذى يحاورك قد يؤلف سفراً أو أسفاراً فى أسباب نزول القرآن ولكن ذلك شىء والأمر الذى نعالجه شىء آخر.. فأنا أزعم لك أن لا وسيلة للقطع بأن ثابتا أبا زهير إنما لقب تأبط شراً لأنه تأبط سكينا أو أفاعى أو شيئاً آخر، ثم أضفت أنه أمر عسير المنال أو متعذر أن تقطع بصحة رواية مادام ثم روايات أخر حتى فى أسباب نزول القرآن المبين بله أحاديث الشعراء وقصص المتصعلكين . . ادرس ما اتسع لك حقل الدرس وابحث ما تراكم أمامك كثبان البحث ولكنك قبل هذا مكاف أن تعلم وتعتقد أنه صلى الله عليه وسلم براء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا براء منهم من أقوالهم ومن أفعالهم ومن كل شىء يمت إليهم بسبب .

وإنه ليبدو أن أسباب النزول ما زالت قائمة أعنى أنها أحداث مستمرة فلقد فرقت الناس مثلا الذين قبل بعثة خاتم الرسل وعلى عهده وبعد انبعاثه عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حتى فى الأمور التى تعينت بذواتها وصفاتها فلقد تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب.. وتبت يدا غير أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ، وهو وغيره ممن سبق واجتمع ولحق سواء فى التب ، وصلاء النار ذات اللهب .

قلت : وفى المرأة حمالة الحطب مغلولة الجيد بحبل المسد .

قال : وفيها دون أدنى ريب فأنت واجد أبالهب وامرأته حمالة الحطب فى كل بيئة من البشر وفى كل فترة من الفتر، فتر هذا الدهر الطويل الدائم الممدود على حد تعبير لبيد .

قلت : إن الذين فرقوا دينهم قرئت (فَرَقوا) بالتخفيف .

قال : وفارقوا بالألف ، ولا عليك فسواء فرّقوه أو فرَقوه بالتخفيف أو فارقوه بالألف فكلها مؤدية إلى الفرقة أو كلها من (فرق) مصدراً أو (فرق) فعلا فلست أدرى أموثر أنت أصلية المصدر أم موثر أصلية الفعل الماضى ؟ .

قلت : نعم إن صيغة الفعل لا تهمنا من حيث الجوهر ولكن من المهم أن تكون نزلت فى أهل الكتاب أو فى غيرهم ، فلو سلمنا أنها نزلت فى الأولين لكان حكمها غير منصب على المسلمين .

قال : منطق يجهله صاحب المنطق ومن جاء بعده ويجيء من المنطقيين حتى يوم الدين ، فأنت بمنطقك هذا غير المنطقى تعنى ضرورة أن المسلمين إذا فرقوا دينهم وكانوا شيعا غير مؤاخذين أو غير مأخوذين بهذا العقاب عقاب أنه عليه الصلاة والسلام منهم براء براءة كاملة شاملة كل شيء ، فأنا وانت ومن نهج نهجنا مثلا مسلمون على طريقتنا طريقة شيخك .. أنا على رأس الفرقة وأنت والأتباع والأشياع تحت لوائها نحارب فَنَتَقَتَّل ويقتلنا غيرنا من الشيع الأخر ، فكل مسلم على طريقه من الحق له أو عليه أن يقتل غيره من المسلمين مادام على طريقة أخرى ، ويكون معنى الآية مزدوجا ، فهى من وجه تفيد أن الرسول برىء من أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ومن وجه آخر تفيد أن للمسلمين أو عليهم — فلست أدرى أتراه أمراً واجبا ام جائزاً — أن يفرقوا دينهم وأن يتشكلوا شيعا على رأس كل شيعة منها شيخ أو زعيم أو رئيس أو أمير أو سمه ما شئت فتلك مسألة شكلية أو إسمية لا تثير إشكالا وإنما المهم أن يحرض كل شيعته على قتال الشيع الأخر . . . وكذلك تتحقق الفرقة التى اجازتها الآية الكريمة متى فسرناها بمقتضى منطقك هذا العجيب .

قلت : واضح أنى لا أقصد إلى هذا المنطق . فلو ثبت أن النص إنما نزل مخبراً عن أهل الكتاب فلا أكثر من أنه أعلن براءة الرسول من قوم هذا شأنهم .

قال : بل ثم أكثر من هذا وهو أنه سبحانه وتعالى ينهى المسلمين أن يكون هذا شأنهم . ذلك إنْ ثبت كما قلت أن الآية نزلت فى أهل الكتاب ، لأن القرآن لا يقص علينا قصص غيرنا إلا واعظاً ومذكراً . . إنى لأبدىء وأعيد وأكرر ثم أعود مبدئا ومعيداً أومكرراً أن أسباب النزول المباشرة لا تعنينا بوصف كوننا

مسلمين وإنما تعنينا بوصف كوننا من أصحاب البحث والدرس . والله وحده يعلم مؤدى البحث والدرس فى أمور مضى عليها قرون تلو قرون .

قلت : يعرف أصحاب القانون شيئاً اسمه الأعمال التحضيرية ، فالنص وليد ملابسات شتى تعين على فقهه . . . والقرآن هو النص المقدس الأعلى افتريدونه مجرداً عن السوابق؟ وما عسى أن يكون علة نزوله ؟ .

قال : إنه لم يتزل لينظم حياة قوم عاشوا فى القرن السادس الميلادى لايتعداهم بل نزل لينظم حياة الآدميين إلى يوم الدين ، فأسباب نزوله قائمة ما قامت الحياة الآدمية . . . ومع هذا ليكن لك ما أردت وليكن لسبب النزول كما رواه زيد أو عمرو قوة الأعمال التحضيرية للقوانين الوضعية فهل هذه الأعمال التحضيرية ملزمة ؟

قلت : إلا تكن ملزمة فلا أقل من الاستئناس بها .

قال : أو كما قال صاحب القاموس :

« الإنس : البشر كالإنسان الواحد إنسى ، وأنَسِى جمعه أناسِىُّ وقرأ يحى ابن الحارث وأناسىَ كثيراً بالتخفيف ، وأناسية وآناسٌ ، والمرأة إنسانٌ وبالهاء عامية وسمع فى شعر كأنه مولد :

لقد كستنى فى الهوى ملابس الصب الغزِل
إنسانة فتّانةٌ بدر الدجى منها خجِل
إذا زنت عينى بها فبالدموع تغتسِل

والأُناسُ الناس ، وأنَس بن أبى أُناس شاعر ، والإنسى الأيسر من كل شىء ومن القوس ما أقبل عليك منها ، والإنسان الأنمُلة وظل الإنسان ورأس الجبل والأرض لم تزرع ، والمِثال يُرى فى سواد العين جمعه أناسى وإنسُك وابن إنسك صفيك وخاصتك ، والأنوس من الكلاب ضد العقور جمعه أُنُس ، ومئناسُ ، امرأة ، وابنها شاعر مُرادى والأغرّ بن مأنوس اليشكرى شاعر جاهلى ، والأنيس الديك والمؤانس وكل مأنوس به ، وبهاء النار كالمأنوسة ، وجارية آنسةٌ طيبة النفْس والأنس بالضم وبالتحريك ، والأنَسَةُ محركةً ضد الوحشة ، وقد أنس به

مثلثة النون ، والأنَس محركةً الجماعة الكثيرة والحى المقيمون ، وبلا لامٍ خادمُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وآنَسه ضدُّ أوحشه ، والشيءَ أبصره كأنَّسه تأنيسا فيهما وعلِمَه وأحس به ، والصوتَ سمعه ، والمؤنَسة بلدة قرب نَصيبين ، والمؤنِسية بلدة بالصعيد ، ويونس مثلثة النون ويهمز، علم ، واستأنس ذهب توحشه ، والوحشيّ أحس إنسياً ، والرجل استأذن وتبصّر ، والمتأنِّس الأسد أو الذى يحس الفريسة من بُعد ، وما بالدار من أنيس أحد والمؤنِسات السلاح كله أو الرمح والمغفر والتسبِغة والترس ، ومؤنِّس كمحدث ابن فضالة صحابى ، وكزبير علم وكأمير ابن عبد المطلب جاهلى ، ووهب بن مأنوس من أتباع التابعين ، وأبو أناس عبد الملك من جؤبة أخبارى ، وأم أناس بنت أبى موسى الأشعرى وبنت قُرط جدةٌ لعبد المطلب وجدةٌ لأسماء بنت أبى بكر وغيرُهن » .

قلت : نحن مع تأبط شرا ، وكانت المناسبة تقتضى أن تنتهى إلى مادة « وحش » لا إلى مادة « أنس » فصاحبنا ـ كما سلف ـ كان يرى فى « الوحشة » الأنس الأنيس .

قال : وهل خلصنا من تأبط شرا فننتهى إلى الوحشة أو غيرها ..؟ إن حديثنا عن « ثابت أبى زهير تأبط شرا » مازال وسيظل مستمرا . فلا تتعجل النهاية ونحن فى البداية ، فإلى فرصة أخرى نعرض فيها لمادة « وحش » فى شعر لتأبط شرا يمدح به ابن عمه « ابن مالك » وهو غير صاحب الألفية ، أما اليوم فحسبك « الأنس » و « الإنسانة الفتانة » التى خجل منها البدر . ولك أن تحقق : أهو شعر مولد كما يبدو لصاحب « القاموس » أم شعر عربى يحتج به فتكون « إنسانة » بالهاء غير عامية ؟ .

الحرية في الإسلام

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور محمد البهى

أستاذ الفلسفة فى كلية اللغة العربية (*)

إذا درس الإسلام من أصوله ـ وهى القرآن والسنة الصحيحة ـ لا من تأويل ضعفاء المسلمين أو أصحاب الغرض منهم أو من غيرهم ، وجدنا أنه هيأ مكاناً فسيحاً « للحرية » وأنه أنزلها فى تعاليمه وفى الاعتقاد به نفسه منزلة كريمة . إذ أنه لم يفرق بين الإنسانية والحرية . لأن الطبيعة نفسها التى أوجدها الخالق جعلت الحرية مظهر الإنسانية وخصيصتها التى يفرق بها بين الإنسان وغيره من الكائنات فى هذا الوجود . والإسلام نفسه ينادى بأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

(ا) لم يضيق الإسلام فى الدعوة إلى مبادئه وتعاليمه على من دعاهم إلى هذه المبادىء والتعاليم ، ولم يقسرهم على الإيمان به ، بل وضع أمامهم آراءه فى الوجود وفى الحياة الإنسانية على وجه خاص ، وناشدهم أن يحتكموا فقط إلى عقولهم الإنسانية فى الأخذ به ، أو فى رده ودفعه ، ولكن فى غير تحيز فى ذلك أو تأثر بالإلف والعادة ، أو بتوجيه سابق لفكرة معينة أو عقيدة خاصة .

طلب إليهم الاحتكام إلى « العقل العام » فى فحصهم لتعاليمه المبلغة إليهم والحكم عليها .

(*) الدكتور كاتب المقال هو الآن أستاذ زائر لدراسة الفلسفة الإسلامية بجامعة مونتريال بكندا .

وما طلبه الإسلام ممن وجه إليه دعوته من عدم التأثر بتوجيهات معينة فى الحكم على قيمته الذاتية لم تزل تتنازع احتضانه المذاهب الفلسفية المثالية للآن . يقول الله جل شأنه فى كتابه الكريم : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » ويقول أيضاً : « لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميع عليم » .

وهكذا قدر الإسلام الإنسان الحر ، وقدر الإيمان الحر عند ما دعا البشر إلى الأخذ بمبادئه وتوجيهه . وأولى هذه المبادىء : الاعتراف بالله وحده لاشريك له إلهاً وخالقاً لهذا الكون كله .

(ب) وإذا اعترف الإسلام للإنسان بتمام حريته فىالإيمان بالله ، وفى تقدير الرسالة التى جاء بها ـ فقد قدر حريته فى التعامل مع غيره ، وبالتالى يحكم ببطلان كل عقد بين طرفين شاب الإكراه أحدهما ، أو قام على الخديعة لواحد منهما أو كليهما . وعقد الزواج واحد من العقود التى يسرى عليها هـذا المبدأ العام . فقد قرر الفقهاء عدم قيام الزوجية إذا دخلها الإكراه ، وقرروا تبعاً لذلك أن لكل من طرفى هذا العقد حق فسخه إذا ظهر فيا بعد عقده أن الخداع كان عنصرا فى إتمامه . وهنا يذكر هؤلاء الفقهاء كثيراً من أمثلة عدم الكفاية الزوجية التى تعطى لأحد الزوجين حق طلب الفسخ .

(ﺟ) وفى الزوجية : ـــ وهى أساس بناء الأسرة ـــ أعطى الإسلام المرأة أن تكون العصمة بيدها إن رأت وطلبت ذلك . أما الرجل فأسند إليه حق الطلاق دون الحاجة إلى تنبيه خاص عليه فى العقد . ويستعمله إن رأى ما يدعو إلى الفرقة وتضرر بالبقاء فى زيجته .

وفى حال قيام الزوجية بين المرأة والرجل لم يلغ الإسلام وجودهما الشخصى بل أبقى لكل منهما الحق المطلق والحرية التامة فى تصريف المال الخاص به على النحو الذى يراه .

(د) وفى تصريف شئون الدولة : لم ير الإسلام فى رئيس الدولة إلا راعياً عاماً لشئونها . يصرفها حسبما يرى أهل الرأى والخبرة فى الأمة .

ولكنه لم يرسم صورة محددة للشورى ؛ بل وكل ذلك إلى الجماعه نفسها . إذ أن الذى رمى إليه من تقدير الشورى واعتبارها أساساً للحكم أن يطمئن أفراد الجماعة إلى مساهمتهم فى تصريف أمورهم حتى يكون اتباعهم لما يرونه من تدبير أو يذهبون إليه فى تشريع صادراً عن نفس راضية . وبذلك تكون خطوات سيرهم فى الحياة خطوات إيجابية وإلى الأمام دائما .

* * *

والإسلام فى تقديره لحرية الفرد فى الإيمان ، وفى التعامل ، وفى قيام الأسرة وحلها ، وفى تصريف أمور الجماعة ـ يحدد هذه الحرية بما لا يضر الغير ولا يزعجه فى حياته وفى وجوده الخاص :

١ ـ فقد نصح المسلمين نصحاً أقرب إلى الإلزام العينى بوجوب المحافظة على حرية أهل الكتاب من المسيحيين واليهود فى ممارستهم لعبادتهم الخاصة ، وبصيانة أماكن هذه العبادة وجعل ذلك من أمور الولاية العامة التى تخص رياسة الدولة الإسلامية . وبهذا حافظ الإسلام على مبدئه فى حرية الاعتقاد عند مايوجه دعوته إلى النظر فى تعاليمه والأخذ بها .

والجزية التى كانت تفرض على أهل الكتاب لم تكن نوعا من أنواع العقوبة ـ كما يصورها بعض المستشرقين ـ وإنما كانت فى مقابل الزكاة التى فرضها الإسلام على المسلمين . إذ الإسلام شرط أساسى فى التكليف بالزكاة ووجوب أدائها .

٢ — كما قرر بطلان كل عقد فى التعامل يؤدى إلى إضرار أحد المتعاقدين. فمثلا ارتفاع الأثمان ارتفاعا مفاجئاً وواضحاً يؤدى فى نظر الإسلام إلى عدم إلزام الطرف الذى سيقع عليه الغبن بالاستمرار فى إنجاز العقد على النحو الذى تم عليه التعاقد بين الطرفين وهكذا بصفة عامة كل ما يؤدى إلى الإضرار فى التعامل جعله الإسلام سبباً فى فسخ التعاقد.

٣ — كما أعطى الأمة حق عزل الوالى العام إذا جنح فى تصريف الأمور على نحو لا يحقق المصلحة العامة، أو إذا لم يأخذ برأى أهل الخبرة والرأى. وأعطاها فى الوقت نفسه حق تولية من هو أصلح لمهمة الحكم.

٤ — وفى الوقت الذى حرص فيه الإسلام على أن يأخذ كل فرد من أفراد الجماعة حقه وحريته فى إبداء الرأى طلب من الجماعة الإسلامية أن تحافظ على حريتها بالنسبة لدولة أجنبية. وأكد إثم المسلمين عامة إن هم قبلوا ضياع حريتهم بولاية أجنبى عن دينهم عليهم.. وطالبهم فى حال ما إذا تولى عليهم غيرهم بالقوة أن يقاوموا ولايته وحكمه جيلا بعد جيل، وينتهزوا كل فرصة لإبعاده. ولكنه مع ذلك منع المسلمين من أن ينتهكوا عرضه أو يعتدوا على أطفاله ونسائه واليتامى والعجائز من أهله.

« الحرية » ركن أساسى فى تعاليم الإسلام: للفرد، وللجماعة فى داخلها، وبالنسبة لغيرها من الجماعات والأمم الأخرى.

* * *

هذا هو نظام الإسلام فى حال سير الجماعة سيرها الطبيعى.

فإذا أساء الفرد فهم « الحرية »، وأساء بالتالى استخدامها فللوالى العام المولى من الجماعة عليها حرصا على المصلحة العامة للجماعة نفسها أن يوجه الأفراد بالتدابير التى يراها نحو الفهم الصحيح للحرية ونحو الطريقة المثلى لاستخدامه إياها.

وعمل الوالى إذن ليس كبتا للحرية الطبيعية وإنما هو تنظيم لاستخدامها؟

الحرية الفكرية في اليمن
في القرن الحادي عشر الهجري

للأستاذ الفاضل القاضي محمد بن اسماعيل العمراني
المدرس بدار العلوم العليا بصنعاء اليمن

— ١ —

لقد ظن كثير من العلماء أن العلوم الإسلامية قد ضعفت فى العصور المتأخرة ضعفاً عظيماً ، وأنه سادها الجمود وعدم الابتكار كما سادها التقليد بتحريم الاجتهاد المطلق فى مسائل الشريعة المحمدية وأصحاب التقليد لأحد الأئمة المتقدمين ولا سيما فى العصر العثمانى الذى يبتدىء بالاستعمار التركى للعالم العربى فى ربع القرن العاشر وينتهى بالاستعمار الفرنسى للديار المصرية الذى أعقبه استقلالها عن تركيا استقلالا ذاتياً ، ثم كانت النهضة العلمية الحديثة الذى كان من أبطالها السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من العلماء والمصلحين الذين قاموا بتنبيه الأفكار إلى الحرية الفكرية وترك التقليد للأسلاف فى كل مسألة علمية بدعوتهم الإصلاحية .

هكذا ظنوا ، لعدم وقوفهم على ما أنتجته أقلام علماء اليمن فى العصر العثمانى الراكد ، فهم فى ظنهم معذورون ، والواقع أن اليمن - وهى التى أنجبت السيد محمد ابن إبراهيم الوزير مؤلف « إيثار الحق على الخلق » ذلك المجتهد المطلق وأمثاله من العلماء المستقلين - قد أنجبت فى العصر العثمانى الراكد جماعة من علماء الإسلام المجتهدين وفقهاء شريعته المجددين ، ولا سيما فى عصرها الذهبى الزاهر بعد أن تم لها الاستقلال التام أيام الدولة القاسمية التى ولدت دعوتها فى فجر القرن الحادى عشر من الهجرة بهمة مؤسسها البطل الخالد الذكر (القاسم بن محمد بن على) والتى شبت وترعرعت فى بحر ذلك القرن نفسه عند ما تولى الإمامة المتوكل على الله إسماعيل ،

وذلك عقب انتهاء الحكم التركى الأول فى بلاد اليمن بجلاء جميع القوات العثمانية المستعمرة فى آخر مدة أخيه الأكبر الإمام (المؤيد بالله محمد بن القاسم) .

ولقد كان الحامل للواء هذه النهضة العلمية التى كان مبدأها الأول (الحرية الفكرية) والاجتهاد المطلق هو الإمام (القاسم بن محمد نفسه) فقد كان من دعاة الاجتهاد كما كان من أبطال الجهاد ومكافحى الاستعمار ، وقد كان من جملة مؤلفاته القيمة كتابه الذى سماه : (الإرشاد إلى تيسير الاجتهاد) وقد شاركه فى دعوتيه الإصلاحيتين — الدعوة إلى الاجتهاد فى العلم والدعوة إلى الجهاد فى سبيل الاستقلال — جميع أولاده الأشبال . وأحفاده الأبطال . فقد كانوا جميعاً رجال علم وجهاد وأرباب سيف وقلم ، وهل ينسى التاريخ اليمنى ورجال التاريخ اليمنى (أن الحسين بن القاسم بن محمد) أخرج لأمته أعظم كتاب ألف لهم فى علم الأصول أيام جلوسه بقرية (حدة) أثناء محاصرته للقوات العثمانية المستعمرة التى كانت يومئذ محتلة احتلالا عسكريا للعاصمة اليمنية صنعاء ، فهلا تسمع التاريخ الإسلامى فى عصوره المتأخرة مثل هذا أو قريبا من هذا .

ولقد كان من نتائج هذا النشاط العلمى العظيم الذى ظهر فى شباب هذه الدولة العظيمة وكهولتها حركة علمية عظيمة سارت على مبدأ الحرية الفكرية فى جو يسوده التسامح والإنصاف ، استمدادها من الكتاب والسنة ، وغايتها رضا الله تعالى فى طلب الحق ، وخدمة الإسلام ، ونشر العلم .

وقد كان من أبطال هذه النهضة العلمية ذات الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق السيد الحسن بن أحمد الجلال ، والشيخ صالح المقبلى ، والسيد محمد بن اسماعيل الأمير الصنعانى ، والقاضى محمد بن على الشوكانى (١) . وغيرهم من المصلحين الذين

---

(١) توفى الجلال سنة ١٠٨٤ ، وتوفى المقبلى فى القرن الثانى عشر ، ولكنه كان قد أخرج بعض مؤلفاته التى أعلن فيها اجتهاده المطلق كالعلم الشامخ فى آخر القرن الحادى عشر سنة ١٠٨٨ ، ولهذا نقلت أنموذجا من أفكارها فى آخر مقالى هذا ، أما الأمير فهو من رجال القرن الثانى عشر توفى سنة ١١٨٢ ، وأما الشوكانى فهو من رجال القرن الثالث عشر توفى سنة ١٢٥٠ ، وسأفرد لها مقالا مستقلا إن شاء الله ، وأنقل أنموذجا من أفكارها كما نقلت هنا نموذجا من أفكار الجلال المقبلى .

لا يَعرف قدرَ علومهم واجتهادهم إلا من درس مؤلفاتهم، ولا يعترف بحريتهم الفكرية إلا من شرب من معين علومهم .

وحسب القارىء الكريم أن يطلع على ماقد طبع من مؤلفاتهم ليعرف أن شمس الحرية الفكرية قد طلعت على اليمن فى العصر العثمانى بعد أن غربت عن سائر الأقطار تاركة علماءها يتخبطون فى ظلمة التقليد وديجور الجمود تحت كابوس الاستعمار العثمانى الذى ظل جاثماً على الأقطار العربية حوالى ثلثمائة عام ، وليعرف أيضاً أن علماء اليمن قد قاموا بدعوة الإصلاح فى هذه العصور الراكدة قبل أن تحلق النهضة العلمية الحديثة التى أشرقت على العالم الإسلامى فى بحر القرن الثالث عشر وكان من جملة أبطالها السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من المصلحين .

أنموذج من روح العلم اليمنى فى بحر
القرن الحادى عشر من الهجرة :

أحب الآن أن أقدم للقراء أنموذجاً لروح العلم اليمنى فى وسط القرن الحادى عشر ، وذلك بعرض موجز لأصغر كتاب أخرجه العلامة الجلال ، وهو : « فيض الشعاع الكاشف للقناع عن أركان الابتداع » وهو الكتاب الوحيد الذى أخرجته المطابع من مؤلفات عالمنا الجلال ، إذا ما استثنينا كتاب : « العصمة عن الضلال » الذى سأقدمه للقراء فى فرصة أخرى إن شاء الله « وفيض الشعاع » هو شرح صغير لقصيدة الجلال البائية الرائعة التى قال ناظمها فى مطلعها :

الدين دين محمد وصحابه   يا هائماً بقياسه وكتابه

وهو بالرغم من كونه كتاباً صغيراً فهو يصلح أن يكون مثالا صغيراً من أمثلة أفكار عالمنا الجلال التى دبجها قلمه السيال والتى هى أكبر مثال من أمثلة الحرية الفكرية فى بلاد اليمن قبل ثلثمائة عام ، وأحسن نموذج لروح العلم اليمنى فى بحر القرن الحادى عشر ، وذلك فى أيام الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ، وهى أول فترة من عصور العلم الذهبية فى بلاد اليمن فى العصر العثمانى الراكد ، وذلك حينما بدا السيد الجلال يخرج لليمنيين مؤلفاته القيمة التى لا تزال فى عالم

المخطوطات بالرغم من أنها المثل الأعلى فى الجدل والتحقيق ، ومثالٌ صادق للحرية الفكرية والاجتهاد المطلق فى بلاد اليمن ، فى عصر التقليد والجمود .

والقارىء لكتاب « فيض الشعاع » لا يكاد يتصفح أول ورقة من هذا الكتيب حتى يرى مؤلفه قد وثب وثبة سريعة نحو الموضوع ، فذكر الدليل على تحريم البدع التى وقعت فى الدين الإسلامى ، فكانت أكبر حائل بين المسلمين وبين الفهم لأصول الدين وأدلته الشرعية الصحيحة ، وعقبه بذكر الأدلة الدالة على تحريم التفرق فى الدين الذى كان أكبر مانع للاستضاءة بنور القرآن ، ثم يأسف كثيراً لتفرق المسلمين فى الدين ، ويعلن اجتهاده المطلق بقوله : « لو وقف كل إنسان على فهم نفسه فيما يتفاوت فيه الفهم لهان الأمر ، ولكن حاول إلزامه الغير فحصل الجدال وتشيعت الشيع ، ثم لو اكتفى المتبعون للأحياء لانقطعت الفرقة بموت المتفرقين ، وفنى من أقوال المتفرقين ما كان بدعة ، ولكن حفظها الجاهلون بتقليد الأموات ، وقطع نفيس الأوقات بكتب أقاويل الرفات ، فحرموا بذلك مباشرة بصائرهم لأنوار التنزيل ، وخذلوا عن البلوغ إلى شىء من حقائق التنزيل فاستبدلوا الأدنى بالذى هو خير ، وكان حظهم من سيول الحقائق هو الزبد الذى يذهب جفاء لا غير .

ولقد سحبت دوامس هذه البدع أذيالها على مسالك أصول الدين والفروع ، وحالت دونها فرسان طعن يكشف عن سواهدها الدروع ، لولا جرأتى على أسنة تلك البهم بقلب أصم وعضب حطم » ، ثم يراه القارىء قد دخل فى شرح القصيدة فأنكر الابتداع فى الدين ، كما أنكر ما كان ذريعة إلى الابتداع فى الدين فكان سببا فى هجر أدلة الدين الحنيف ، وذلك كالقياسات الفاسدة ، والجدال بالباطل ، وتأصيل الحكم النظرى للغير ، وتقليد الأموات ، بقلم سيال وفكر وقاد وحرية فكرية لايعرفها ذلك العصر الجامد ، وانظر إلى آخر هذه القصيدة الرائعة ، وقارن بينه وبين أقوال علماء ذلك العصر الراكد ، إنه يقول :

يا راكبا يهوى لقبر محمد	عرج به متمسحا بترابه
واقرا السلام عليه من صب به	يبلغ إليه القدس فى محرابه

وقل ابنك الحسن الجلال مباين	من قد غدا فى الدين فى تلعابه
لا عاجزاً عن مثل أقوال الورى	أو هارباً من علمهم لصخابه
فالمشكلات شواهـد فى أننى	أشرقت كل محقق بلعابه
لولا محبة قـدوتى بمحمد	زاحمت رسطاليس فى أبوابه
لكننى أولى الورى بمقامه	فأنا ابنه وأسير فى أعقابه

هكذا قال عالمنا الجلال : إنه سيزاحم ارسطاطاليس على أبواب الفلسفة الإغريقية وعلى أبواب المنطق اليونانى ، لا يمنعه من المزاحمة له عجز ولا قصور ، ولكن حبه الاقتداء بجده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « نعم » لولا حبه الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزاحم حكيم اليونان وواضع علم الميزان .

هكذا بلغت الحرية الفكرية بعالمنا الجلال فى العصر الذى جمد فيه الفقهاء جموداً كان من نتائجه السيئة أن هابوا مزاحمة أسلافهم بمعارضة أقوالهم هيبة جعلتهم يؤولون لأجلها النصوص الصريحة من الأحاديث الصحيحة ، بلا حجة نيرة ولا دليل صحيح ، بعد أن استحبوا المقام فى ظلمات القال والقيل ، وحرموا على أنفسهم ـ بلا دليل صحيح ـ الاستضاءة بأنوار التنزيل .

وأرجو أن يكون القراء قد تصوروا بهذا الموضوع الموجز ، موضوع هذا الكتيب الذى ما هو بالنسبة إلى سائر مؤلفات الجلال التى لا تزال مخطوطة إلا قطرة واحدة من بحر عجاج متلاطم الأمواج ، كما لا يخفى على من قد اطلع على مؤلفات الجلال المخطوطة التى لا يسبح فى محيط بحور علومها إلا العلماء المحققون ، ولا يرتاض فى ميادين أفكارها الحرة إلا طلاب العلوم المتحررون المستقلون ، وذلك « كضوء النهار المشرق على حدائق الأزهار » وبتصور مؤلفات الجلال القيمة قد تصوروا حركة النهضة العلمية اليمنية الحرة قبل الثمانمائة عام ، وتكيفوا (روح العلم اليمنى فى بحر القرن الحادى عشر من الهجرة) ؟

في التاريخ والأدب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى الأستاذ فى كلية اللغة العربية

— ٢ —

(تتميم لتمهيد البحث عن الأخوين)

خندف — حلوان :

ساقنا إلى الاسترسال فى الكلمات السالفة مطاوعة المناسبات المتقبلة فى النفوس ، فالحديث عن اليأس جد النبى صلى الله عليه وسلم مدعًى للقول فى زوجه : خندف ، وختنة : حلوان أخيها .

وعند ما ظفقنا نروى بعض مآثرهما أطل علينا المنادى بابتغاء تقديم الحديث عن أبويهما : عمران وضَرِية ، فألممنا بعض الإلمام بشىء من أخبارهما وما تركا من مخلفات لا تمحى على مر الدهر ، لنفرغ لابنيهما على حسب اتجاهنا الأولى المقصود لنا بالذات .

غير أننا ما كدنا نردد آيات التمجيد لهما من ناحيتى الأصل والفرع ، وأنهما قُيِّض لهما ما استأثرا به فى دنياهما ، حتى بدا لنا الالتفات إلى النظرة العامة فى أصول الناس وفروعهم بالقياس إلى كل من يكتنفانه منهم .

وحينئذ لاح لنا أنها لا تخرج عن نطاق أنواع أربعة ، جمعها الشيخ المحدث القسطلانى فى بيتيه السابقين آنفاً .

النوع الأول : طيب الأصل والفرع ، وهذا النوع أسمى الأنواع وأقنها بالثناء والذكر الحسن ، وإنه لينطبق على خندف وحلوان ، ومن على شاكلتهما ممن واتاه القدر لحفه من ورائه وأمامه من يُتغنى طرباً بالقربى لهم .

وإذا أريد المثل الكامل الذى لايتمارى فيه إثنان ، ولا ينتطح أمامه عنزان ، فليس ثمة أحق وأوفى ممن فضله ربه على سائر خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الله له الحسنيين : حسنى الأصل وحسنى الفرع ، أوكرم المنبت ورواء الثمر ، فأما الأصل فقال فيه الصادق المصدوق : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم . فأنا خيار من خيار من خيار — وأما الفرع فها هى ذى العترة الزكية من آل البيت رضى الله عنهم أجمعين ، وإنه ليطيب لى أن أتمثل بقول من يناديهم ويفخمهم :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

النوع الثانى : خبيث الأصل والفرع . وهذا النوع أخسها فلنضرب عنه صفحا.

النوع الثالث : طيب الفرع دون الأصل ، ونسل هذا النوع حرى بالتبوء للمنزلة التى تلى منزلة نسل النوع الأول الأعلى ، لأنه وإن لم يسنده ثبات الأصل وعظمة الجِذْم إلا أنه تدارك ما فاته واستجلب ما لم يجد له أثرا بعد عين ، فكفاه أنه حاول فأفلح وتناول بيده البعيد عنه ، هذا هو العصامى الحقيق بالاحتفاء به ، ومن الأمثلة البارزة فيه : قتيبة بن مسلم الباهلى ، فليس كثيراً عليه أن يعده الشاعر فيما سبق أبا لباهلة قبيلته التى نشأ منها ، ولا عجب من إعتبار الفرع أباً للأصل ، فالأبوة فى المكارم والمفاخر لا فى الأنساب والأشخاص .

ويقرب من هذا الاعتبار مع الاختلاف : ما قاله ابن الرومى فى مدح أبى الصقر سيد بنى شيبان ، فإن شيبان منيعة الجانب مرهوبة المكانة ، موفورة الكرامة ، وباهلة مهيضة الجناح كسيرة الخاطر . وفرع شيبان أبو الصقر باسق ، اختصه ابن الرومى بإطرائه وانساق فى حلبة مديحه فعرض لهذا المعنى ، وجعل أبا الصقر أصلا لشيبان مع قوة نفوذهم وشدة شكيمتهم آنئذ ، بل تجاوز

ابن الرومى هذا الاعتبار إلى التصريح بوجوب التعديل فى الأبوة والبنوة ، فأنكر أبوة شيبان لأبى الصقر وحسبهم فروعا له وأبناء ، حيث يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم : كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

ولما كان يظن فى ابن الرومى الاشتطاط فى هذا الرأى ، والخروج به عن مألوف الناس ، ومجابهة الوقع المحس الذى لا يجادل فيه - اضطر إلى تلمس معتمد يتكىء عليه مما يقبله الناس ، حتى يسلم له قوله ، ويعترف له به .

فضرب المثل بعدنان إذ سما قدرها وتألق نجمها أن كان منها أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام . وكان جد موفق فى تأييد نظريته بما لا يستباح بعده الارتياب .

نعم لا نحاول جعل المواءمة بين البيتين تامة ، فإن الثانى مع سوقه دليلا للأول صريح فى استبقاء الأبوة والبنوة كل فى مرتبته ، وإن أفاد بمنطوقه الواضح أن الآباء يتسنمون الذروة برفعة أقدار الأبناء ، وأن الأبناء الأمجاد أضفوا على الآباء أردية مجادتهم ، لكنه على أى حال يسعفنا فى الاعتماد عليه باعتبار النتيجة المعمود إليها .

ولهذا البيت الثانى شأنه فى البلاغة ، فإنهم فى مبحث التشبيه ذكروا أغراضه المرادة منه ، وأن منها بيان إمكان المشبه ، فاستشهد بعضهم ببيت ابن الرومى ، وبعضهم ببيت أبى الطيب المتنبى .

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ولكن جمهرة البيانيين رجحوا الأول على الثانى فى تحقيق الاستشهاد

المفاضلة بين بيتى ابن الرومى والمتنبى :

استشهد السكاكى فى المفتاح ببيت ابن الرومى ، والتشبيه فيه صريح لا تعقيب عليه ، واستشهد الخطيب ببيت المتنبى . فقال السعد فى شرح التلخيص معلقا عليه : (وهذا التشبيه ضمنى ومكنى عنه) (١) .

(١) راجع جـ ٣ صـ ٣٩٧ طبع الفروح .

وأراني قد أطلت في هذا النوع مع أن مقابله مما يتطلب حديثا عنه مختصراً حتى ينتهي المقال الذي عرض المناسبة لنعود إن شاء الله تعالى لموضوعنا .

النوع الرابع : طيب الأصل خبيث الفرع . وهذا النوع يحزن الحديث عنه بما جرَّه من الشر الوبيل على أصله ، وأخلف الآمال المترقبة منه ، وأضاع تليداً من المكارم بانحطاطه وتنكبه الجادة التي سلكها سلفه العظيم ، ولئن كان النوع الثاني ؛ خبيثُ الأصل والفرع ؛ ملوما إن هذا النوع ألوم . إذ كانت الأسباب له مهيأة ، ومقاليد السعادة ماثلة في يديه ، فقد غمص نسبه العريق وغمطه ، حتى كأن لم يغن بالأمس .

إن خمول الفرع ينقض البناء العالي المكين بل يعفي آثاره ويزيل معالمه ، وأمثلته حولنا مالئة البقاع والأصقاع ، وفيما مضى منذ كان الوجود والمجتمعات ، وسأذكر مثالا فيه عبرة لأولي الألباب .

يروي التاريخ أن أحمد بن أبي دواد الإيادي بلغ قمة المجد ، إذ صار قاضي القضاة في عهد المعتصم بالله ، ورجل المشورة في الدولة ، وذ الرأي المسموع فيها .

قال ابن خلكان : « وقال لازون بن إسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم بالله لابن أبي دواد ، وكان يُسأل الشيءَ اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دواد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلمه يوما في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليَّ من هذا النهر ؟ فقال : يأمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها » (١) .

كانت له مواقف خالدة ، ولو تحدثنا فيها لامتدَّ المقال وما نفي بها ، وما انفك مرموق المنزلة مرفوع الجانب طيلة خلافة المعتصم بالله ، وابنه هرون الواثق بالله ، حتى أصيب بالفالج في أول خلافة المتوكل على الله ، فلم يجد الخليفة بداً من

(١) وفيات الأعيان (ابن أبي دواد) .

مكافأته على ماقدم من صنائع للخلافة العباسية ، لتخف عنه ويلات الكارثة المفاجئة. فاستخلف محمداً ابنه فى منصبه ، لكن ابنه كان مضعوفا قصر عن شأو أبيه وتخلف عنه ، فأذهلت المفارقة بينهما الناس ، فكلاهما بلغ الغاية فى العمل على شاكلته ، ولذا قال إبراهيم بن العباس الصولى فيه :

عفّت مساو تبدت منك واضحة على محاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت ابناء الكرام به كما تقـــدم آباء اللئام بكا

قال ابن خلكان : « ولعمرى لقد بلغ الغاية فى طرفى المدح والذم ، وهو معنى بديع » (١) .

واقد خطر على بالى لهذه المناسبة مقاولة جرت مع المرحوم الشيخ المهدى العباسى شيخ الأزهر فإنه لما تولى مشيخة الأزهر الشريف وتلألأ نجمه وملأ الأسماع ذكره حقد عليه كبار معاصريه . والمعاصرة عضة مقصية بين الأنداد ، موهنة حبل الوداد ، إذا خدم أحدهم الزمان وفرقت بينهم فى المناصب الأيام ، فكان العلماء يتهامسون فيما بينهم مشدوهين بحكم القدر ، والعجب من رياسته عليهم مع أن جده الأدنى أو الأعلى كان من مياسير اليهود فى مصر ، وفاتهم أن الشيخ تبوأ الصدارة بكفاءته الممتازة ، وسمو شخصيته الفذة ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

حكى لنا بعض مشايخنا ملاحاة هادئة عرّض فيها بعض مناهضيه به فعرض هو به أيضاً بما استخذى بعده وبهت .

التعريض بين الشيخين

روى لنا ذات يوم شيخنا أن المصادفات ـ جمعت بين الشيخ المهدى وبين الشيخ العروسى أو البيلاوى ، ـ والشك من الراوى على أنهما معاً شريفان يمتان بصلة النسب العالى ــ فى زيارة الضريح الحسينى ، فبينما كانا بجوار المقصورة استلفت الشريف نظر المهدى وأشار بيده إلى المقصورة ثم تمثل بقول الفرزدق .

(١) وفيات الأعيان (ابن أبى دواد) .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع (١)

فرد عليه المهدي من فوره وعلى البداهة :

يفاخرون بآباء لهم سلفوا ... نعم الجدود ولكن بئس من خلفوا (٢)

لقد بغت الهاشميَّ المهديَّ بهذا التعريض الذي لو وجه لغيره لاستثاره إلى السباب ، ولكن المهدي الحليم في ساعة الغضب اقتدر أن يلقمه الحجر وأن يرد عليه بما يدخل معه القبر ، والعجيب في الرد أنه أصاب المحز وقطع المفصل حتى لا يلتفت من فاته الحسب إلى النسب بعد ذاك .

وقد أجاد في التشبيه من ندد بالمتهافتين على القديم دون حفاظ منهم على رعاية ماله من حقوق في المسايرة له إذ يقول :

إن القديم إذا ما ضاع آخره ... كساعد فله الأيام محطوم (٣)

وفي هذا البيان السالف إجمال في القول عن الأنواع الأربعة حسبما يقتضيه الاختصار لنلحق به الموازنة بينها لتفاوتها في المنزلة والتقدير .

الموازنة بين الأنواع الأربعة :

إن الأنواع الأربعة متفاوتة الموازين متغايرة المقادير ، ينظر المجتمع إلى بعضهم شزرا ، وإلى بعضهم مهابة مع خفض الطرف ، ومرجع النظرتين إلى ما يصدر من الأشخاص وعنهم من أعمال يدور وراءها تكييف المجتمع لمنازل الناس في درجاتهم المتنوعة ، وما من شك أن المجتمع مأخوذ في تقديره بحاضر الأشخاص غير ذاكر قديمهم وغير متطلع إلى ما سوف يكون .

---

(١) البيت من قصيدة طويلة ناقض بها قصيدة لجرير على رويها ، فبعد أن عدد مفاخر الآباء أشار إليهم معرفا للمسند إليه باسم الإشارة للتعريض بغباوة السامع ، وبه استدل الخطيب في الإيضاح والتلخيص على تعريف المسند إليه باسم الإشارة ، والقصيدة مشروح بعضها في خزانة الأدب الشاهد ٧٠٦ ، والكامل شرح الرغبة جـ ١ ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) لا أدري قائل البيت ، أفمن إنشاء المهدي أم إنشاده .

(٣) من أبيات في هجاء بني تغلب راجع الكامل شرح الرغبة جـ ٢ ص ١٧٦ .

وعلى هذا المقياس الحاضر فإنه يحقر النوعين : خبيث الفرع سواء أطاب أصله أم خبث ، ويحفل بالنوعين الآخرين : طيب الفرع أطاب أصله أم خبث ، فالنوعان الأولان فى المجتمع من الجراثيم الفتاكة التى يفر منها خيفة إيذائها ، وإذا داهنها فى الخلاط فإنه يرائيها تقية شرها بينما يتربص بها الدوائر ويكن لها البغضاء ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنا لنكشر فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم » .

أما النوعان الآخران فهما مناط الأمل للمجتمع ومهبط الرجاء فيه ، فطيب الأصل والفرع جَدّد قديمه وحديثه ، وطيب الفرع غطت مآثره مآسى سلفه « إن الحسنات يذهبن السيئات » والناس أبناء يومهم لا أمسهم ولا غدهم . على أن هذين النوعين ليسا سواء عند ذوى الخبرة فى الاحتفاء بهما ، فمن نصر قديمه لم يرهق بالتكاليف الشاقة وإنما أضاف مجداً إلى مجد ، ومن خذله قديمه كدح وكد وسعى سعيه وناضل وحده حتى أوفى على الغاية ، فذاك متبع وهذا مبتدع ، وليس التشييد كالتأسيس ، فالتأسيس أثر قوة الحزم ، وصدق العزم . لكريم النفس أبى الضيم :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوما على من يتكل

كان كثير ممن واتاهم القدر فى طيب المحتد يأبون احتماءهم بهذا المستند العالى ويأنفون من تدثرهم بالحلل المستعارة منه ، مزهوين بحللهم نسيج أيديهم لا غير .

ومن هؤلاء على سبيل المثال : عامر بن الطفيل العامرى الذى مكن له ما لم يمكن لغيره ، حتى أطمعه جبروته ألا يسلم حتى يشاطر المصطفى صلى الله عليه وسلم فضل ربه عليه ، أو يبرم فيه ما انطوت عليه نفسه الشريرة من جرم تناجى به مع أربد بن قيس العامرى أخى لبيد بن ربيعة لأمه ، فلما وفدا إلى الرسول قال له عامر : يا محمد ما لى إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين ، قال : تجعل لى الأمر من بعدك ، قال : ليس لى ذلك ، إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء ، قال : فتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ، قال : لا ، وانقضى

المقال بينهما مع إيعاد وتهديد من الطاغية ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : « اللهم اخسفهما بما شئت » فأرسل الله صاعقة على أربد أحرقته ، ورمى عامراً بغدة فى بيت امرأة فقال : « غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية » ونزل فى ذلك قوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » .

هذا العاتى الذى زين له الشيطان سوء عمله قد سوده قومه فسخر العرب من حوله . يأبى فى مقام التباهى والتفاخر أن يبنى تسويد قومه له على أصله وأبيه وأمه ، ويقصره على حوله وطوله فحسب يقول :

وإنى وإن كنت ابن فارس عامر	وسيدها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة	أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى	أذاها وأرمى من رماها بمنكب
وأتركها تسمو إلى كل غاية	وتغلب حَيّيْ مشرق بعد مغرب (١)

مغزى أبيات العامرى :

يعلن فى البيت الأول أنه نسل فارس الهيجاء ، وسيد المواكب فى الصدارة الجامع بين البطولة والرياسة ، وفى الثانى أن تسويد قبيلته إياه ليس مستعاراً من ورائثه السادة ، فالله أبى له العوز إلى السمو من أبيه وأمه ، وإنما وهبه السيادة من عزمه وبعد همه ونفوذ سلطانه ، وفى الثالث أنه لم يك تسويد قومه له حباء وإنما هو ناشىء لما يحوطهم به : يحمى حماهم ويتقى أذاهم ويرمى من رماهم بمنكب يدْفع ، وفى الرابع أنه صيَّر قبيلته تسمو إلى أوج العز وتُعز حى المشرق وحى المغرب فتبسط سلطانها على الجميع .

(١) الشطر الثانى من البيت الثانى من شواهد النحاة على نصب الواو بالسكون ضرورة ، والأبيات من قصيدة شرح بعضها فى الكامل مع الرغبة ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها ، وخزانة الأدب الشاهد ٦٣٢

وموطن القصد فى الأبيات عند البيت الثالث المبدوء بالاستدراك الجميل موقعه المبين أن الناس لاينزعها وتدين له بالانقياد إلا من يسدى إليها النفع فيذود عنها الضرر، ويجلب إليها الخير، فكيف به إذا جعلها عالية المنزلة نافذة السلطان على من حولها. وهكذا الناس لا تلق مقاليدها إلا لمن ترمقه بعين المهابة والتقدير.

ونظير ابن الطفيل فى التعويل على الشخصية وحدها دون تلمس رافد آخر يقوى من شأن المرء عند الخلق ـ المعز لدين الله الفاطمى. وإن كان ثمة اختلاف بينهما على ما نرى، مما لا يؤثر فى المشابهة بينهما وجعلهما المثل المضروب فى التمسك بأهداب العصامية.

المعز لدين الله الفاطمى:

لما تم له فتح مصر ودخلها فى حفل حاشد راجت الشواعى فى مصر حول نسبه، وانتماء أسرته إلى السيدة فاطمة الزهراء، وتقدم إليه أحد علمائها بالسؤال عن نسبه وحسبه، وكان المتوقع أن يترتب اختلال كبير بعد هذا النصر الخطير، لكن المعز أجاب بما فيه مقنع، وكأنه ينظر إلى المعنى الذى يجده ابن الطفيل، قال ابن خلكان: «وكان ـ المعز لدين الله ـ يطعن فى نسبه، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلسنا ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم، وقال: هل بقى من رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر، فسل عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبى، ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال: هذا حسبى، فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا» (١).

وقد حاول ابن خلكان تحقيق القائل للخليفة وردّد النسبة بين من عرف عنهم الجرأة فى هذه المواقف الخطيرة فلم يسعه إلا أن يختم مقاله بالتفويض لمن عنده العلم، وليس لهذا دخل فى الموضوع، فسواء أكان السائل ابن طباطبا أم غيره، الواقعة فى ذاتها صحيحة، وجواب المعز لا شك فيه، والعبرة فى هذا الجواب،

---

(١) وفيات الأعيان (ترجمة بن طباطبا) عبد الله.

فقد تحلل من تلبس النسبة التي بنيت عليها الدولة الفاطمية في مصر ، وأرأم ما أرهبهم ، وأرجع نسبه إلى سيفه وكأنه يقول :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

ولا نرمي من وراء ضرب المثالين الماضيين ـ وغيرهما كثير ـ أن نغض من شأن العراقة أصلا ، كلا ثم كلا ثم كلا ، بل نريد أن النفس الطموح للعلا لا تركن أبداً إلى تكأة الأصل وتتواكل معتمدة عليه ، فإذا ما احتذت حذو سالفها فإنها تتبوأ مكانته ، وتملأ فراغه الكبير . ولقد أجاد (رحمة الله عليه) عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديثه عن نفسه وعن نظرائه :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الآباء نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا (١)

فأعمال الفروع الزكية تنم عن أصولهم السنية ، ومنها يعرف الناظر حالهم ، إذا لم يدر أخبارهم . ولله در صفي الدين الحلي إذ يقول :

إذا غاب أصل المرء فاستقر فعله فإن دليل الفرع ينبي عن الأصل
فقد يشهد الفعل الجميل لربه كذاك مضاء الحد من شاهد النصل

أما بعد فما علينا بعد هذا كله إلا أن نحتكم إلى منطق الصواب ، الذي يرجع فيه إلى حسن المآب . فحكمه الفصل العادل .

الموازنة بالقسطاس المستقيم .

لقد أرسلنا هذا المقال على وفاق العرف الجاري بين الناس في تقاديرهم ، وانتحينا فيه وجهة المألوف عندهم في موازينهم ، فإن معيارهم بفطرتهم مستمد من نزعتهم الدنيوية المبتناة على ما استقر عندهم من احترام من تحبوه الحياة جاها إما لأنه مع الجد كريم الجد في زعمهم ، أو لأنه اقتدر أن ينهض فيمتاز على أترابه حتى يتخذوه المثل المقتدى به فيصبح سيدهم وقائدهم وإن نفسوا عليه في دخائل

(١) البيتان في الكامل شرح الرغبة حـ ٢ ص ١٧٥ .

أنفسهم ، وهم فى معيارهم متجنبون الميزان الحق الذى لا معدل عنه عند الله ، والقسطاس المستقيم ، فما للنسب ولا النشب ولا الجاه عنده جل جلاله التكريم ، إنما المكرم عنده سبحانه وتعالى ذو المنزلة والزلفى التقى النقى قال عز من قائل : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وورد فى السنة المطهرة التوجيه كثيراً إلى تقديس التقوى فحسب ، وأنها السبيل الأوحد إلى التكريم ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ويطيب لى أن أردف الآية والحديث بقول الشاعر الملهم بالحق الذى ضاق ذرعا بمقاييس الناس فى دنياهم الزائلة لأنه ربما حملهم مقياسهم على التبديل فى الأنساب تعلقاً بأذيال العصبيات ذات العدد والعدة ، وعلى مر الزمان تختلط الأنساب ، وفى هذا الخطر الداهم ، ذلك الشاعر : نهار بن توسعة اليشكرى فى قوله :

أبِى الإسلامُ لا أب لى سواه ... إذا هتفوا ببكر أو تميم

دعىٌّ القوم ينصر مدَّعيه ... فيلحقه بذى النسب الصميم

وما كرم ولو شرفت جدود ... ولكن التقى هو الكريم (١)

وأرانى قد استرسلت فى هذا المقال تبعا لما تدعو إليه المناسبات وما خططت صحيفة كاملة فى جوهر الموضوع الرئيسى للعنوان ، حتى ألجأنى هذا الاسترسال إلى الاستئناء به إلى المقال التالى إن شاء الله .

(١) نهار بن توسعة شاعر أموى ، والأبيات فى ترجمته فى كتاب « الشعر والشعراء » .

تحقيق جديد
في نصر النبي بالرعب

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، فبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدى ، قال أبو هريرة : وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها » .

وقد روى البخارى هذا الحديث فى كتاب الجهاد فى باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم . « نصرت بالرعب » وروى فيه : « بعثت بجوامع الكلم » وروى « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » وفى رواية « شهراً أمامى وشهراً خلفى » وفى أخرى « ونصرت على العدو ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر » .

وهذا الحديث يتضمن ثلاث خصائص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إيتاؤه جوامع الكلم من القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة ، ليؤدى رسالته بأفصح لسان ، ويدعو إليها بأبلغ بيان ، بين قوم اشتهروا بالفصاحة ، وامتازوا بالبلاغة . ونصره بالرعب وهو الخوف ، ليقل فيها سفك الدماء ، ويدخل الناس فيها أفواجا فى أقل زمن ، مما لم يتحقق لشريعة قبلها من شرائع الرسل الذين بعثوا قبله . واستيلاؤه على ممالك الأرض ، لتكون شريعته دينا ودولة ، وتحقق للناس المثل العليا فى الحكم ، وتضع لهم أساس حضارة جديدة يقوم فيها الحكم على أساس التقى والعدل والعلم ، ولا يكون فيها طغيان ولا ظلم ولا جهل .

والذى يهمنا هنا من هذه الخصائص الثلاث الخاصة الثانية ، وهى نصره صلى الله عليه وآله وسلم بالرعب ، فالرعب : الخوف والفزع ، وكان كثير منا معشر المسلمين يفهم خطأ أن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن يفهم هذا يفهم خطأ أيضاً أن الرعب الذى نصر به النبي صلى الله عليه وسلم كان رعباً من ذلك السيف الذى نشر به دينه ، لأن هذا لازم لذاك ، والحقيقة أن الإسلام لم ينشر بالسيف ، وإنما نشر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس فى القرآن الكريم إلا أخذ الناس بهذه الدعوة الكريمة ، فمن شاء آمن بها فنجا من عقاب الله فى الآخرة ، ومن شاء كفر بها فاستحق عقابه فيها ، وقد جاهد المخلصون من المسلمين فى عصرنا حتى أثبتوا هذه الحقيقة ، وقضوا على ما كان شائعاً بين المسلمين فى أعصر الغفلة والجمود ، من أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، وقد أراد أعداء الإسلام أن يستغلوا هذا فى عصرنا ، فطعنوا فيه بأنه لم ينتشر لأنه حق ، وإنما أكره الناس عليه بالسيف ، وأخذوا يخوفون الناس من ظهور أمر المسلمين بعد ضعفهم ، ويزعمون أنهم لو عادوا إلى الظهور لشنوها حرباً شعواء على الناس لإكراههم على دينهم ، فقضى المخلصون لدينهم بذلك على هذا الاستغلال الماكر من أعداء الإسلام ، حتى حملوا كثيراً من المنصفين فى أوربا وأمريكا على الشهادة للإسلام بأنه دين سلام لا حرب ، وأنه إنما يحمل السيف ليحمى دعوته ممن يريد فتنة أهلها عنها ، لا ليكره الناس على الإيمان بها .

وإذا ثبت أن الإسلام لم ينشر بالسيف فإنه يثبت تبعاً لهذا أن السيف لم يكن له أثر فى نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرعب ، لأنه كما لم يبعث لينشر دينه بالسيف ، بل لينشره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، لم يبعث أيضا ليثير رعباً بالسيف بين الناس ، وإنما بعث لينشر بينهم سلاما وأمنا ، فيدخلوا فى دعوته لا عن فزع ورعب ، وإنما يدخلون فيها عن طمأنينة وأمن .

على أن القرآن الكريم قد أتى ببيان سبب ذلك الرعب الذى نصر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب أن نقف عند ما ذكره لذلك من سبب ،

ولا نجاوزه إلى سبب آخر نخترعه من أنفسنا ، ولا سيما إذا كان يسيء إلى الإسلام ويشوه محاسنه بين الناس ، ويجعلهم يفهمون أنه دين يأخذ بالشدة ، ويثير بينهم الرهبة ، فلا تكون الحياة فيه حرة كريمة ، وإنما تكون حياة رعب وخوف .

وقد جاء بيان ذلك السبب فى قوله تعالى فى الآية - ١٥١ - من سورة آل عمران « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » وقد نزلت هذه الآية فى غزوة أحد ، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعد بإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا خاص بها ، لأن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية واردة فى هذه الغزوة ، وذلك أن الكفار استولوا على المسلمين فيها وهزموهم ، فأوقع الله الرعب فى قلوبهم حتى تركوا المسلمين من غير سبب ، وفروا منهم بعد أن هزموهم ، ولولا هذا الرعب الذى ألقاه الله فى قلوبهم لثبتوا ولم يفروا إلى أن يقضوا عليهم ، وقد روى أنهم لما كانوا فى طريقهم إلى مكة بعد أن فروا ندموا على تركهم للمسلمين ، وقالوا : ما صنعنا شيئا ، قتلنا الأكثرين منهم ، ثم تركناهم ونحن قاهرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم . فلما عزموا على هذا ألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فمضوا فى طريقهم إلى مكة ولم يرجعوا إليهم .

والحق أن ذلك الوعد غير خاص بيوم أحد ، بل هو عام فى جميع الأوقات ، ولجميع الكفار ، لأن ما ذكره له من سبب لا يختص بوقت دون وقت ، ولا ببعض الكفار دون بعض ، وقد قال القفال رحمه الله : كأنه قيل إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أحد ، إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل .

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن ذلك الرعب خاص بأولئك الكفار ، ولكن ظاهر الآية يفيد العموم ، والحق إجراؤه على ظاهره كما سبق ، لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفى قلبه ضرب من الرعب من المسلمين ، إما فى الحرب ،

وإما عند الجدال والمحاجّة ، وقوله تعالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » لا يقتضى وقوع جميع أنواع الرعب فى قلوب الكفار ، وإنما يقتضى وقوع هذه الحقيقة ، ولو من بعض الوجوه دون بعض .

فصريح هذه الآية أن إلقاء الرعب فى قلوب الكفار لم يكن بسبب تسليطه للنبي صلى الله عليه وسلم على الناس بسيف أو نحوه من آلات الحرب ، وإنما كان لأن أولئك الكفار أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، والسلطان ههنا هو الحجة والبرهان ، لأن السلطان فى اللغة هو الحجة ، وإنما قيل للأمير سلطان لأن معناه ذو الحجة ، وقيل إنه مأخوذ من السليط وهو الذى يضاء به ، وقيل إن السلطان هو القدرة بناء على أخذه من التسليط ، لأن فى البرهان سلطانا لقوته على دفع الباطل .

قال الفخر الرازى : وتقرير هذا بالوجه المعقول هو أن الدعاء إنما يصير فى محل الإجابة عند الاضطرار ، كما قال : « أمْ مَنْ يجيب المضطر إذا دعاه » ومن اعتقد أن لله شريكا لم يحصل له الاضطرار ، لأنه يقول : إن كان هذا المعبود لا ينصرنى فذاك الآخر ينصرنى ، وإن لم يحصل فى قلبه اضطرار لم تحصل الإجابة ولا النصرة ، وإذا لم يحصل ذلك وجب أن يحصل الرعب والخوف فى قلبه ، فثبت أن الإشراك بالله يوجب الرعب .

والأمر أسهل من تكلف هذا الدليل المنطق الذى يسوقه الفخر الرازى ، وإنما ذلك الرعب لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحق فى أصول الدين وفروعه ، وأن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فكانت هناك حرب معنوية بين هذا الحق الذى جاء به الإسلام ، وبين الباطل الذى كان عليه أعداؤه ، وهذه الحرب المعنوية هى التى كانت تثير الرعب فى قلوب الكفار ، لأن الباطل لا يقوى أمام الحق ، بل يضعف ويزهق ، كما قال تعالى فى الآية -٨١- من سورة الإسراء : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

والحقيقة أن أعداء الإسلام حينما بدأهم بالدعوة بالحجة والبرهان عجزوا عن

مقارعة الحجة بالحجة ، ولم يكن عندهم إلا حجة التقليد لآبائهم ، كما قال تعالى فى الآية - ٢٢ - من سورة الزخرف : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » وهى أوهى من حجة العقل التى كان يقرعهم بها ، ولهذا ذمهم لعدم استعمالهم عقولهم ، كما قال تعالى فى الآية - ١٧٠ - من سورة البقرة : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

ولما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة رموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة بالسحر ، ومرة بالكذب ، ومرة بالجنون ، ومرة بالكهانة ، وكل هذا من شأن العاجز المعاند ، بل كانوا لمزيد عنادهم يقولون ما حكاه القرآن عنهم فى الآية - ٣٢ - من سورة الأنفال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

ثم انتهى أمرهم بالقتال ، فشرعوا السيف فى وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقامت الحرب بين الفريقين ، ولكنهم لم يحاربوا إلا بعد أن شعروا بضعف باطلهم فاستمر شعورهم بهذا الضعف بعد حربهم ، ومن يكون هذا شأنه لا تطمئن نفسه فى القتال ، بل يكون دائما فى خوف ورعب ، لشعوره بضعف ما يحارب فى سبيله ، فيخاف سوء العاقبة فى دنياه وأخراه ، ويتملكه من الرعب والخوف من ذلك ما يتملكه .

ولم يكن هذا الشعور بالضعف خاصاً بالمشركين وحدهم ، بل كان يشاركهم فى التهيب من شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كما يتبين من قصة وفد نجران ، فقد وفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ، فأورد عليهم الأدلة ، وأقام عليهم الحجج ، ولكنهم أصروا على دينهم ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم . ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم إلى مباهلتهم ، وعليه مرط من شعر أسود ، وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، ثم قال لهم : إذا دعوت فأمّنوا . فلما رآهم أسقف نجران

قال : يا معشر النصارى ، إنى لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة ، فأدركهم ما أدركهم من الخوف حين سمعوا كلامه ، وامتنعوا عن المضى فى مباهلة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وصالحوه على أن يؤدوا إليه الجزية ويبقوا على دينهم .

أما المشركون فكان أمرهم فى ذلك الرعب أشد ، حتى إنه كان يفوت عليهم ثمرة ما يدركونه أحيانا من نصر ، كما سبق فى غزوة أحد ، ومثل هذا حصل فى غزوة الأحزاب ، فقد جمع المشركون فيها جموعا كثيرة للاستيلاء على المدينة ، لحاصروها حصاراً شديدا ، حتى ضاق الأمر بالمسلمين ، وزاغت منهم الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، ولم ينجهم إلا ما ألقى فى قلوب المشركين من الرعب حين طال عليهم الحصار ، وأرسلت عليهم ريح باردة فى ليلة مظلمة ، فأدركهم فيها من الخوف ما أدركهم ، وأجمعوا على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، ولولا ذلك الرعب الذى كان يلازمهم فى حروبهم ، لأدركوا فى هذه الغزوة ثمرة كثرة جموعهم ، ولصبروا حتى يسلم لهم المسلمون إذا طال الحصار عليهم .

وقد اختلف فى ذلك الرعب : أكان خاصا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أم كان لأمته أيضا من بعده ؟ والحق أن ذلك الرعب استمر بعده لخلفه الصالح من صحابته وخلفائه الراشدين ، حتى فتحوا به مملكتى الفرس والروم ، مع أنهم كانوا أقل منهم جندا ، وأضعف منهم آلة حرب ، لحققوا بهذا وعد الله لهم ، وانتقلوا خزائن الأرض ، واستخرجوا ما فى ممالكها مما أفاء الله عليهم من خير ، ومنحهم من فضل .

وقد بقى ذلك الرعب لأمته ما بقوا متبعين هديه ، متمسكين بسنته ، فلما انحرفوا عن ذلك الهدى ، وفرطوا فى أوامر دينهم ونواهيه ، وأساءوا التصرف فى دينهم ودنياهم ، وأعمتهم الشهوة ، وغرهم سعة السلطان ، أدركهم من الضعف ما أدركهم ، حتى استبد فيهم الحكام ، وساروا فيهم بالطغيان ، فزال الرعب الذى كان فى قلوب أعدائهم منهم ، بل حل الرعب فى قلوبنا من أعدائنا ، حتى استولوا على بلادنا ، وقضوا على ممالكنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؟

التسابق الهيدروجينى

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية ـ ليسانس العلوم الحرة ـ دبلوم المهندسخانة

سُئل العالم الكبير « أينشتاين » صاحب النظرية النسبية عن رأيه فى الحرب العالمية الثالثة ، فأجاب أنه يستطيع إبداء الرأى عن الحرب الرابعة لا الحرب الثالثة ، ذلك أنه على ثقة أنها ستكون بقذف الطوب والحجارة ، ومعنى ذلك أن الحرب العالمية الثالثة أو الحرب الذرية إن قدِّر لها الوقوع سيكون من شأنها زوال المدنيـة وعودة الإنسان إلى البدائية لا يعرف من وسائل الحرب غير العصىِّ والزلط والحجارة .

وفى السنين الأخيرة توصل العلماء إلى معرفة القنبلة الذرية ، وكانوا لا يجزمون إذا كانت القنابل الهيدروجينية ستصبح فى مقدور العلم التجريبى مع ما له من قوة أم أنها ستظل معادلات رياضية على الورق ومتساويات نووية من باب العلوم النظرية ، كتلك التى عرضها « جان بيران » سنة ١٩٢٩ عند ما فسر لأول مرة أن الحرارة والضوء اللذين يصلان من الشمس نتيجة الاحتراق العادى الذى تعلمناه فى دروس الكيمياء ، إنما هو تحول نووى فى الذرة ، الشىء الذى أكده « هانس بيته » سنة ١٩٣٨ ، من أنه تحول من عنصر الهيدروجين إلى عنصر الهيليوم على حساب طاقة كبيرة تفقدها الشمس ويصلنا منها القدر الذى هو المصدر الرئيسى لحياة الإنسان والحيوان والنبات .

وكنت أود ويود القارىء معي أن يظل التحول الهيدروچيني مادة للرياضيين وفرضية عند الطبيعيين ، ولا تصبح يوما آلة في يد المحاربين ، وذلك لما لها من آثار فتاكة يعجز عن وصفها المقال ، ونتائج خطيرة تتعدى كل خيال ، ولكن حدث أن جاوبت الطبيعة القاسية العلماء فيما تخيلوه ، وشاء القدر أن يحقق العلم مارسموه ، وولدت القنبلة الخطيرة ، وأصبحت بين أيدى المحاربين وَوُجد السلاح السلاح الرهيب وأصبح طوع أمر الطامعين .

وفجّر الأمريكان أول قنبلة هيدروچينية فوق مياه المحيط فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، كما فجّروا قنبلتهم الهيدروچينية الثانية فى أول مارس سنة ١٩٥٤ ، وكانت قوتها تعادل ستمائة مرة قدر قنبلة هيروشيما الذرية ، بمعنى أنه إذا كانت قنبلة هيروشيما الذرية تعادل عشرين ألف طن من أقوى المواد المتفجرة فإن هذه القنبلة تعادل ١٢ مليون طن منها ، وعم الذعر العلماء وأهل الرأى بعد أن علموا ما وقع من آثار مروعة على مركب الصيد اليابانية التى كانت تبعد أكثر من مائة كيلو مترا لا من مكان الانفجار إنما من طرف الدائرة التى حددتها السلطات الأمريكية أنها دائرة الخطر ، وكان ذلك أثر الغبار الذرى المشع الذى أصاب هؤلاء الثلاثة والعشرين صياداً وبحاراً ، ومنذ ٨ أغسطس سنة ١٩٥٣ أعلن مالنكوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين أن روسيا تملك بدورها القنبلة الهيدروچينية ، وقد فجرتها فعلا فيما بعد ، وقد بلغ عدد ما فجرته روسيا وأمريكا من القنابل حتى أوائل سنة ١٩٥٥ عشر قنابل ، وذلك وفق أحدث الأنباء ، ويراجع فى ذلك تقرير هام للأستاذ مارتان والعالم لويس دى بروى السكرتير الدائم للمجمع العلمى الفرنسى ، وهو التقرير الذى ذكرناه فى مقالنا السابق فى رسالة الإسلام : العدد الثانى من السنة السابعة .

* * *

ويقول البروفسور « روتبلات » البريطانى أن القنبلة التى فجرتها أمريكا فى الباسفيك عام ١٩٥٤ لم تكن سوى قنبلة هيدروچينية « فوق العادية »

ذات قوة مروعة فتاكة ، ومُغلَّفة بغلاف من الألومنيوم غير النقى ، وقال إنه استدل على ذلك من دراسته للتقارير الخاصة بكمية الإشعاع الذى خلفه الانفجار - وإن إضافة الألومنيوم غـير النقى إلى القنبلة يجعل منها سلاحا رهيبا لا تقتصر قوة فتكه على مساحة حوالى ألف كيلو متر مربع بل تتعدى هـذه المساحة الكبيرة وتهدد حياة الملايين من الناس بخطر التسمم المباشر من الإشعاع الذرى ، كما تهدد الجنس البشرى بأسره من الاضمحلال مع مرور الزمن ، وقال إنه يعتقد أن قلب هذه القنبلة يتألف من جهاز مُفجِّر وتحيط بهـذا القلب قنبلة الهيدروچين الثقيل المغلفة بالألومنيوم غير النقى ، وهذه الطريقة تتيح إنتاج أسلحة أكثر فتكا وأشد تدميراً بتكاليف أرخص مما كان يعتقد العلماء من قبل .

وصرح البروفسور « كومتون » عالم الذرة الأمريكى المعروف صاحب الظاهرة الطبيعية المعروفة باسمه بأنه لن يفكر فى بناء مخبأ فى فناء منزله لاتقاء خطر القنبلة الهيدروچينية فليست هذه هى الطريقة العملية لمعالجة المشكلة - إذ أن فرصة الشخص للاحتماء بمخبأ عند سقوط القنبلة ستكون ضئيلة جداً ، وانتقد إنذارات أمريكا المستمرة بأن لديها من الأسلحة ما يكفى لمسح روسيا من الوجود ووصف هذه التهديدات بأنها تافهة وغير مجدية ، وقال إنه لا محل لها ما دامت أمريكا لا تعتزم تنفيذها ، فهى لا تؤدى إلا إلى إثارة الفزع فى روسيا واندفاعها الجنونى فى التسلح لاتقاء الهجوم الأمريكى المحتمل .

ولقد جاء فى الأنباء بعد الذى طالعناه من آراء العالم كومتون وما طالعناه من تقارير علمية عن الآثار السيئة المترتبة على التفجيرات الأمريكية فى الباسيفيكى ، أن الروس فجروا منذ حوالى شهرين أقوى انفجار هيدروچينى عرف فى العالم حتى وقتنا هذا ، وأنه كان أكبر من أى تفجير هيدروچينى قام به الأمريكيون ، وقد اعترفت بذلك غالبية محطات الرصد القريبة والبعيدة .

* * *

وفى البرقيات الخارجية طالعنا فى الصحف فى يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٥٦

أن عضو الشيوخ الأمريكى « جون بريكر » وهو عضو اللجنة المشتركة للطاقة الذرية ذكر أن الولايات المتحدة لديها عدد من القنابل الذرية قال عنه العلماء إنه يكفى لفناء الجنس البشرى ، وقال إن عالما أدلى بشهادته أمام اللجنة فذكر أنه إذا فجر عدد معين من القنابل فإنها ستمحو الجنس البشرى بأسره من جراء الغبار الذرى الذى يتساقط ، وقال عالم آخر إنه يلزم عشرة أمثال المقدار الذى قدره العالم الأول ، وعلمت اللجة أن لدى الولايات المتحدة المقدار الأخير أى أن لديها العدد اللازم لفناء الحياة على الأرض .

وفى برقية من لندن أن رئيس وزراء بريطانيا أذاع خطاباً فى التلفزيون قال فيه إن الحكومة البريطانية ماضية فى صنع القنبلة الهيدروچينية ، وقال إنه يأمل أن يتفق الشرق والغرب على تنظيم اختبارات القنبلة الهيدروجينية ، وكنت آمل أن يشير بإيقاف جميع التجارب الخاصة بهذه القنابل وقصر استخدام الطاقة الذرية على أعمال السلام وإسعاد بنى الإنسان .

* * *

لقد ذكرت فى محاضرتى بالكلية الحربية بالقاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ وفى كلية الهندسة جامعة القاهرة فى الشهر ذاته أن أربعة قنابل هيدروجينية تكفى لإبادة الحياة للإنسان والحيوان والنبات من منطقة واسعة كالوجه البحرى بما فى ذلك القاهرة والإسكندرية ، وشعرت خلال هذه المحاضرات وخلال المناقشات التى تبعتها بدهشة الحاضرين لما ذكرت ولكن الأيام والأنباء المتوالية لم تزدنى إلا يقينا فيما ذهبت إليه ، بل إن ماذكرته هو أقل من الواقع ، ولقد صححت ذلك فى نشرتى التى ألقيتها فى ندوة الذرة التى أقامتها لجنة الطاقة الذرية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية والتى انعقدت فى أيام ١٦ ، ١٧ ، ١٨ يونية سنة ١٩٥٥ بأن قنبلة هيدروجينية واحدة تكفى لإبادة الحياة كلها من الوجه البحرى ومصر والإسكندريه حيث يعيش ١٥ مليونا من البشر .

ولقد ذكر بعد ذلك فى الأنباء هذا الشهر بأن القنابل التى جربتها روسيا والتى

ستجربها أمريكا فى إبريل القادم تعادل الواحدة منها خمسين مليون طن من أقوى المتفجرات ، ومعنى ذلك أن القنبلة الواحدة تعادل (٢٥٠٠) مرة قدر قنبلة هيروشيما الذرية ، إذ كانت قوتها تعادل عشرين ألف طن من الديناميت .

وواضح أن كل هذه التقديرات لا يمكن أن يكون لها نهاية فى العظم ، بل ستزداد على مر الأيام طالما يظل هذا التسابق الهيدروجينى جارياً ، ذلك أنه بينما للقنبلة الذرية العادية كقنبلة هيروشيما حجم حرج لا تنفجر إلا فى حدوده ، بمعنى أنه إذا قل حجم القنبلة عن قدر معين فهى لا تنفجر ، وإذا زاد عن حجم آخر معين فإن التفاعل الذرى المتسلسل المسبب للانفجار يقف فى الداخل ، ولا يتم الانفجار ، فليس للقنبلة الهيدروجينية حجم حرج ، وكلما زادت المادة المعدة للانفجار (ويغلب على الظن أنها النظير الثانى للهيدروجين ويسمونه الديتريوم ، ويحضرونه بكمية كبيرة ويفجرونه بقنبلة ذرية عادية مع كمية صغيرة من النظير الثالث للهيدروجين الذى يسمونه التريتريوم) كلما كانت قوة الانفجار عظيمة .

وعلى هذا الأساس فليس هناك من فضل لدولة على أخرى فى هذا المضمار ، فقد أصبح طريق الهلاك معروفا لا حدود له ، بل يبدو أنه سهل وأقل تعقيدا من القنبلة الذرية العادية ، وليس المجال هنا لندخل فى تفاصيل القنابل الهيدروجينية والقنابل الذرية ، أو نشرح ما نسميه التجمع النووى والانفلاق النووى ، أو نشرح ما هو جار فى الشمس مصدر حياتنا من وجود نوع من تجمع أربع ذرات هيدروجين لتكوين ذرة واحدة من الهيليوم ، فإن المطلع يجد ذلك فى كتابى الأخير الذى صدر فى أغسطس سنة ١٩٥٥ (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن وجود غلاف من مادة الألومنيوم ، أو مادة الكوبلت أو غيرها حول هذه القنبلة يجعل منها عند انفجارها وجود مواد تكتسب نشاطا إشعاعيا خطيرا يبقى أثره مدة طويلة تودى بحياة الإنسان وتدمر

(١) وعنوانه : « الذرة ومستقبل العالم » وهو كتاب قيم فى هذا الموضوع الهام يقع فى ١٣٠ صفحة مزود بالرسوم الضرورية لفهم موضوعه .

كل تراث المدنية ، بل إن الاستمرار فى التجارب الهيدروجينية بتفجير عدد آخر من هذه القنابل له أثر مدمر على حياة الإنسان .

إن هـذا التسابق إن دل فـلا يدل إلا على انحدار الدول القوية المتمدينة كأمريكا والروسيا إلى طريق البربرية والهلاك ، وكم نخشى أن تجرف فى تيارها دولا عريقة فى المدنية ، دولا انبعثت منها أقدم المدنيات وأعظم الحضارات كمصر والشام والعراق وإيران والهند والصين ، كم نخشى أن تتطور المدنيات الحديثة إلى مدنيات مادية تخلو من الناحية الروحية التى تأثر بهـا الشرق منذ القـدم ، والتى تأثرت بهـا مصر وجاراتها مهبط الأديان ، حيث غلبت فى هـذه البقاع روح البساطة والعدالة الاجتماعية ، وهما روح الديانة الإسلامية ، وكذلك التسامح روح الديانة المسيحية .

وماذا ياترى سيسمى الناس فيما بعدُ ، الجيلَ المادى الذى نعيش فيه ؟ أسيكون جيل التسابق الهيدروجينى الذى لا يحمل فى طياته فى عملية التسابق هذه أى ذكاء وأية مروءة وأى علم حقيقى أو أى فن رفيع ؟ .

* * *

فى حقبة الزمان الخالية ، ولا أتكلم هنا عن فلسفات الصين القديمة ولها قدرها أو آثار الهند فمعرفتى بهما ما زالت قليلة ، بل نتحدث قليلا عن مصر وعن أحـد الآثار الخالدة القريبة منـا ، فى حقبة من أحقاب الزمان الخالية أقام المصريون القدامى آثاراً باقية ، ولعل أهمها هرم خوفو فى الجيزة (يرجع تاريخه إلى ٤٦٥٠ سنة) بدعة الزمن ، ومن عجائب الدنيا السبع ـ كما اتفق الناس أن يحصوها ـ دليل علم غزير ومدنية عريضة ، حيث يجد الناس دائمـا فيه وعلى مر الأحقاب ملاحظات جديدة تدل على علم راسخ ومعرفة حقة ـ دعك من ملاحظات الأب « موريه » الذى تخيَّـل أنه يتوسط اليابس من الكرة الأرضية ، كما تخيَّل أن لارتفاعه علاقة مع ارتفاع الشمس ، فهذه ١٤٦ مليون كيلو متراً ، والأهرام ١٤٦ مترا ، فإنى اعتبر ذلك من قبيل الاجتهاد من ناحية « موريه » ومن قبيل المصادفة ، ودعك من خرافات معهد « فلسفة الأهرام » ومركزه لندن ، حيث

يدعون أنهم وجدوا هجرة موسى ومولد المسيح فى أقيسة الأهرام الداخلية ، الشىء الذى لا يجوز بحثه أو تصوره ، ولا يجوز بأية حال كتابته ، ولكن ما ذا تقول فى أن الأهرام تم بناؤه على سطح مستو بلغ الاستواء فيه دقة تبلغ سنتيمرين أو ثلاثة فى مساحة تُربى على ١٣ فدانا ، وأنه بُنى مواجها للقواعد الأصلية الأربعة وأن الخطأ فى ذلك لا يتجاوز فى الزوايا دقيقتين ، باعتبار أن الدرجة الواحدة ٦٠ دقيقة ، وأنه يُكمل فى ابعاده تربيع الدائرة ، بمعنى أنك تجد فى هذه الأبعاد النسبة التقريبية للدائرة المعروفة فى نسبة أضلاعه مع الارتفاع ، مما يؤكد أن المصريين عرفوا أهم ما فى هندسة إقليدس قبل مدنية الإغريق بحوالى ألفى عام ، بل إن أغرب من ذلك كله أنه وجد به ثقبان يخترقانه إلى الخارج ، بحيث إن شعاع نجم الشعرى اليمانية (سيريوس) يتجه عمودياً على سطح أحدهما ، ويصل خلال هذا الثقب حتى الغرفة الملكية بينما شعاع النجم القطبى يقع على سطحه البحرى ويدخل خلال فتحة أخرى فى الأهرام فيصل إلى الغرفة السفلى فيه ، وهذا ربما دل مبلغ علمهم بأهمية النجم القطبى باعتباره واقعا على المحور الذى تدور عليه الأرض - هذه الهارمونية الرفيعة فى الفكر والتقدم العظيم فى العلم يقف أمامهما المرء حائراً لما تنطوى عليه هذه الحقائق من عظمة ورفعة وخلود .

وهكذا سارت البشرية فى طريق العلم من ذلك الزمان الغابر البعيد ولم يفت العهود المختلفة والمدنيات المتتابعة أن يكون لها آثارها الخالدة دليل العلم والذكاء ، وإذا اختصرنا هنا الحديث فتركنا جانبا مع أهميته ما تركه الإغريق والفرس والرومان وغيرهم من آثار ناطقة بعلو كعبهم فإننا نجد للفرنجة أهل المادة البعيدين عن أن يكون لهم إلى حد ما روح الشرق ومع ذلك فلهم آثارهم الأخيرة تجدها فى فرنسا وانجلترا وألمانيا ، تركوا فى كل قرن من القرون الأخيرة آثاراً جميلة آية فى الفن والروعة ، وهى إن لم تدل على العظمة والجهد كما يدل الأهرام فهى دليل على الذوق السليم - وهذه كنيسة القديس بطرس فى روما ، ونتردام فى باريس والأخيرة من القرن الثانى عشر يقومان دليلا على مابلغه القوم من الكفاية والذوق ، بل إن الزائر ليعجب من قصر فرساى من عهد لويس الرابع عشر

عند ما يقف فى مسرحه العظيم أو يدخل فى صالة المرايا المعروفة فإن أعجزه الذهاب إلى هناك رآه فى تلك الأفلام التى تعرض علينا هذه الأيام ، وهذا برج إيفل شيده الفرنسيون من الحديد وأقاموه فى معرضهم الدولى الذى أقيم منذ ٨٠ سنة يرتفع ٣٠٠ متر عن سطح الأرض ويصعد إليه الزائر فيحس مدى مابلغه الإنسان فى ذلك الزمان من علم ومدنية .

ترى ماذا تترك مدنية القرن العشرين من آثار ومن ذكريات بل ومن آثار خالدة ؟

أتكون تلك القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية التى يصرف الإنسان من جهد فى صناعة الواحدة منها أكثر مما صرف فى بناء مسجد القلعة الجميل بالقاهرة والكاظمية فى بغداد وسيدنا على فى النجف الأشرف بالعراق . نرجو ألا يكون الأمر كذلك وإننى أرجو مخلصاً أن تتغلب نزعة العلماء على نزعة العسكريين وأن ينبذ الساسة تلك النظرية الخاطئة التى يرددونها كل يوم والتى تقول إنه يجب أن تتسلح لكى تتجنب الحرب وأن يكون هناك رأى عام للبدء بنزع السلاح والسلاح الذرى على الخصوص فلا نرى حرباً ذرية ولا نرى حرباً عامة ثالثة على الإطلاق ولا نشهد زوال المدنية ولا نشهد فناء الكتب والنشرات العلمية . بل تزداد العلوم وتزدهر وتتتابع النشرات العلمية وتكثر المصنفات التى تحوى علماً عميقاً وأدبا رفيعاً لترى الدنيا فى صفاء والعالم يسعى بفعل الذرة إلى طريق الخير والهناء مبتعداً عن طريق الشر والفناء ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية[١]



— ١٨ —

د ل ك

دلك يدلك دلوكا (من باب دخل) أى مال ، ومنه : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » ٧٨ / الإسراء . أى لميلها . وأصل التركيب للانتقال ، ومنه : الدلك وهو الدعك لأن الدالك لا تستقر يده بل تنتقل ، وربما يكون أصل المادة (الدليك) وهو ثمر الورد الأحمر ، أو هو الورد الجبلى كأنه البسر كبراً وحمرة ، ثم استعمل فى حمرة الشمس أو صفرتها عند الظهيرة أو الغروب ، ولما كان دعك الجلد يورثه حمرة ، أخذ له (الدلك) واختلف المفسرون فى تفسير دلوك الشمس فقال بعضهم إنه ميلها عن كبد السماء وقت الزوال ، وقال البعض الآخر إنه غروبها ، وفى المعاجم فسر دلوك الشمس بما يشمل القولين ، وهو الأولى ، لأن أغلب الصلوات المفروضة تتلاحق من الزوال إلى الغسق ، قال الأخفش : « دلوك الشمس من زوالها إلى غروبها » وفى القاموس : دلكت الشمس دلوكا : غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت ، وفى النهاية : « ويراد به زوالها عن وسط السماء وغروبها أيضا ، وأصل الدلوك الميل » .

---

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

د ل ل

دل — دل على الشيء وإليه يدله دلاله (وبثلث) : سدد إليه ، فهو دال ودليل ، والدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ، ودلالة الإشارات والرموز ، والكتابة والعقود فى الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أم لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حى ، ودلهم فى : « مادلهم على موته إلا دابة الأرض » ١٤/سبأ . من الدلالة بغير قصد من الدال .

دليل — والدليل اسم فاعل أو صيغة مبالغة وهو المرشد ، ومنه : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » ٤٥ / الفرقان ، والمعنى : جعلنا الشمس مرشدا ومنبها إلى وجود نعمة الظل بما فيه من المنافع واللذات . وقد وردت المادة أيضا بالمعنى السابق فى ٤٠ ، ١٢٠ / طه ، ١٢ / القصص ، ١٠ / الصف ، ٧ / سبأ .

د ل و

دلى — دلى الدلو وأدلاها ودلاها يدلوها دلوا : أرسلها أو نزعها وجذبها ، والمعنى العام المادة : إرسال الشيء إلى أسفل مع تعلقه بما أرسل منه ، والمعنى فى : « فدلاهما بغرور » ٢٢ / الأعراف . لحطهما عن درجتهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المخالفة ، أو فنزلها إلى الأكل من الشجرة ، أو فأطمعهما ، من تدلية العطشان شيئا فى البئر فلا يجد ما يشفى غليله ، وقيل : هو من الدالة وهى الجرأة أى لجرأهما ، أبدل حرف التضعيف باء .

أدلى — وفى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام » ١٨٨/البقرة أى تلقوا أمرها والخصومة فيها إلى الحكام ، أو تلقوا ببعضها إليهم على سبيل الرشوة .

دلو — وفى : « فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه » ١٩ / يوسف .

أدلى دلوه : أرسلها ، والدلو ما يستقى بها . مؤنثة ومذكرة وتأنيثها أكثر ، وجمعها أدل ودلاء ودلى .

تدلى — وفى : « ثم دنا فتدلى » ٨ / النجم . تدلى : استرسل مع تعلق ، كتدلى الثمر ، والدوالى : الثمر المعلق ، والمعنى : ثم دنا فقرب ، أو تعلق عليه فى الهواء ، أو تحرك من المكان الذى كان فيه فنزل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو تعلق به ، وهو تمثيل لعروجه بالرسول .

د م د

دمدم — الدمدمة إهلاك باستئصال ودمدم الشىء ألزقه بالأرض ، والدمدمة الغضب والكلام الذى يزعج ، وأصلها من الدم وهو اللطخ من كل جانب يقال : ناقة مدمومة ، أى أطبق عليها الشحم وألبسها من كل جانب ، فإذا كرر الإطباق على الشىء قيل : دمدم عليه على التضعيف مثل فكبكبوا ، والمعنى فى « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » ١٤ / الشمس . يحتمل السابق كله : من الإطباق المكرر على الكفار بالعذاب مع الإزعاج بالصيحات وإرجاف الأرض بهم وطحنهم وتسوية الأرض عليهم واستئصالهم .

د م ر

دمر يدمر دمورا ودمارا : دخل بدون إذن وهجم هجوم الشر . والتدمير إدخال الهلاك ، ومنه : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ١٦ / الإسراء . أى خربناها وطمسنا آثارها .

ودمّر عليه : أى أهلكه وأهلك عليه ما اختص به من نفسه وأمواله وأولاده ومنه : « دمر الله عليهم » ١٠ / محمد . وقد وردت المادة أيضاً بهذا المعنى فى ١٣٧/الإعراف ، ١٧٢/الشعراء ، ١٣٦/الصافات ، ٣٦ / الفرقان ، ٥١ / النمل ٢ / الأحقاف .

د م ع

دمع — الدمع : ماء من العين من حزن أو سرور والدمعة القطرة منه ومصدر دمعت عين تدمع من باب منع وفرح دمعاً ودمعانا ، والمعنى فى : « ترى أعينهم تفيض من الدمع » ٨٣ / المائدة . تمتلىء منه حتى تفيض وكذلك فى ٩٢ / التوبة .

د م غ

يدمغ

دمغه كنعه ونصره : شجه حتى بلغت الشجه الدماغ وهو مخ الرأس . وهو في : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ١٨ / الأنبياء بمعنى يمحقه بالكلية ، استعارة للقذف والدمغ تصويراً لإهدار الحق للباطل وإبطاله ومحقه لجعل الحق كأنه جرم صلب كالصخرة قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه .

د م و - ى

دم

الدم : السائل الأحمر الذى يملأ الشرايين والأوردة جمعه دماء وأصله من دم الثوب والشيء يدمه (باب قتل) دما : إذا صبغه وطلاه بالصبغ ، وقدر دميم : مطلية بالطحال ، ودم البيت : طينه ، وفى القاموس : الدم ما طلى به ، وأصله الصرف : دمو أو دمى ، فذهبت منه الواو أو الياء ، ونقل الإعراب إلى الميم ، وقد يقال دم بتضعيفها . وجمعه دماء . ومنه : « إنما حرم عليكم الميتة والدم » ١٧٣ / البقرة . وقيد بالمسفوح فى سورة الأنعام .

واستدل بعمومه على نجاسة دم الحوت . وهو فى « فأرسلنا عليهم الجراد والقمل والضفادع والدم » ١٣٧/الأعراف . قيل إنه كان الرعاف ، وقيل سال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياهه دماء ، ولعله دم البلهارسيا (البول الدموى) الذى يسببه استعمال ماء النيل بدون تطهير وتصفية ودم كذب فى : « وجاءوا على قميصه بدم كذب » ١٨/يوسف : أى دم ذى كذب ، أو وصف بالمصدر للمبالغة وهو فى معنى مكذوب فيه . والدماء فى : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ٣٠ / البقرة . المراد بها هنا الدماء المحرمة بقرينة المقام ، وقيل التعميم يقتضى جميع أنواعها المحظورة وغيرها ، والمقصود عدم تمييز الإنسان بينها ، ودماؤها فى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ٣٧ / الحج . المراد بها المهراقة بالنحر من حيث إنها دماء ، وقد وردت المادة أيضاً فى ٣ / المائدة ، ٦٦ ، ١١٥ / النحل ، ١٤٥ / الأنعام ، ٨٤ / البقرة .

د ن ر

دينار

الدينار : فارسى معرب ، قيل أصله بالفارسية دين آر ، أى الشريعة جاءت به . وقيل أصله دنّار ، فأبدل من أحدى النونين ياء لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب ، أو لوقوعه بعد كسرة ، ويدل على ذلك جمعه على دنانير ووزنه فى المشهور أربعة وعشرون قيراطا ، والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير ، فوزنه اثنتان وسبعون حبة . قالوا ولم يختلف جاهلية ولا إسلاماً ، وفى المصباح وزنه إحدى وسبعون شعيرة ونصف شعيرة تقريبا ، بناء على أن الدانق ثمانى حبات وخمسا حبة ، وإن قيل الدانق ثمانى حبات فالدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبة والدينار هو المثقال . وقد ورد فى موضع واحد : (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، ٧٥ / آل عمران .

د ن و

دنا

دنا منه وإليه يدنو دنوا : قرب بالذات أو بالحكم ويستعمل فى المكان والزمان والمنزلة فهو دان وهى دانية ، والدنو فى : « ثم دنا فتدلى » ٨ / النجم . دنو بالحكم إن كان الضمير لله تعالى ، ودنو بالذات إن كان الضمير لجبريل عليه السلام .

ودان . فى : (وجنى الجنتين دان) ٥٤/ الرحمن . قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ولا يرد أيديهم عنه شىء .

ودانية . فى : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » ٩٩/الأنعام : سهلة التناول . وقد وردت الكلمة أيضا بهذا المعنى فى ٢٣ / الحاقة .

وفى : « ودانية عليهم ظلالها » ١٤/الإنسان . بمعنى مرخاة مسدولة عليهم ، وقد ضمنت دانية معنى مرخاة ولذلك عديت بعلى . وأدنى . فى : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ٦١ / البقرة . أدنى : من الدنو أو مقلوب دون ، وعلى الأول استعير الدنو للخسة كما استعير البعد للشرف ، ويحتمل أن يكون

مهموزاً وأبدلت الهمزة ألفا من دنأ يدنأ ودنؤ يدنؤ دناءة إذا لؤم فعله وخبث . وقد قرىء بذلك . وقد ورد (أدنى) يحتمل المعنيين أيضا فى : « يأخذون عرض هذا الأدنى » ١٦٩ / الأعراف . فهو بمعنى الأقرب أو الأرذل . وقد ورد (الأدنى) بمعنى الأقرب أو الأقل فى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » ٢١ / السجدة وورد بمعنى : الأقل فى : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » ٧ / المجادلة . وفى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه » ٣٠ / المزمل . أى زمناً أقل منهما ، وقد استعمل الدنو بدل القلة لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وفيه مجاز مرسل من استعمال الشىء فى لازمه ، وقد وردت أدنى بمعنى أقرب غير ما تقدم فى ٢٨٢ / البقرة ، ٣ / النساء ، ١٠٨ / المائدة ، ٣ / الروم ، ٥١ / الأحزاب ، ٥٩ / الأحزاب ، ٩ / النجم .

دنيا والدنيا فى : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا » ٨٥ / البقرة . بمعنى : الأولى مقابل الأخرى وسميت الدنيا لدنوها وهى تأنيث أدنى بمعنى أقرب وأصلها دنوى ، ومن قواعدهم أن فعلى من ذوات الواو إذا كان اسما تبدل واوه ياء كعليا ؛ بخلاف ما إذا استعمل وصفا فتبقى الواو ، وقد وردت الكلمة فى ١١٥ موضعاً بالمعنى السابق .

يدنى وأدنى يدنى إدناء : قرب ومنه « يدنين عليهن من جلابيبهن » ٥٩ / الأحزاب وقد ضمن الفعل هنا معنى السدل والإرخاء ولذا عدى بعلى وفسر (عليهن) بجميع أجسادهن وقيل على رءوسهن أو على وجوههن .

د ه ر

دهر الدهر فى الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ثم يعبر به عن كل مدة طويلة ، وهو خلاف الزمان فإنه يقع على المدة القصيرة والطويلة ، وفى الكلام الفلسفى : الدهر وعاء الزمان ، وعن الخليل : الدهر هنا مصدر يقال : دهر فلانا نائبة دهرا : أى نزلت به ، وعن بعضهم يقال : دهره دهرا : غلبه ،

وقد ورد فى موضعين : « وما يهلكنا إلا الدهر » ٢٤ / الجاثية . « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ١ / الإنسان .

د ه ق

دهقا

دهق الحوض يدهقه دهقا وأدهقه : إذا ملأه ، ودهق أيضا بمعنى أفرغ لشدة امتلاء الوعاء ، يقال : دهق الماء دهقا : إذا أفرغه ، والدهق أيضا ضغط الشىء وشده باليد ، وتفسر على ذلك « وكأسا دهاقا » ٢٤ / النبأ . بالممتلئة أو التى يفرغ مافيها لشدة امتلائها أو المضغوطة لكثرة الامتلاء وقيل متتابعة .

د ه م

ادهام يدهام ادهياما فهو مدهام : مفعال : إذا ضرب إلى سواد من الدهمة ، وهى سواد الليل ، ويعبر بها عن الخضرة الكاملة ، ومنه : « مدهامتان » ٦٤/الرحمن أى خضراوان تضربان إلى سواد من النعمة والرى ، هذا هو المشهور ، وقد تطلق الدهمة على خلوص الحمرة فيقال : شاة دهماء ، خالصة الحمرة .

د ه ن

تدهن

دهن يدهن دهنا من بابى نصر وقطع ، وأدهن : نافق . ومنه : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ٩ / القلم أى تلاينهم وتنافقهم وتتهاون معهم فيلاينونك وينافقونك ويتهاونون معك وأصل الدهن والأدهان جعل الأديم ونحوه مدهونا بشىء من الدهن ، ليلين لينا محسوسا ، وهو هنا اللين المعنوى ، ويتجوز به عن مطلق اللين إذا استعير له ولذا سميت المداراة مداهنة ، وشاع هذا حتى صار حقيقة عرفية ، ولذا تجوز به عن التهاون أيضا لأن التهاون فى الأمر ألا يتصلب فيه .

ومدهنون . فى : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » ٨١ / الواقعة مكذبون لأن التكذيب من فروع التهاون .

والدهن : عصارة كل ما فيه دسم والمراد به الزيت . فى : « وشجرة تخرج من

طور سيناء تنبت بالدهن » ٢٠ / المؤمنون . والدهان الأديم الأحمر . ومنه : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » ٣٧ / الرحمن : ومنه قول الأعشى :

وأجرد من كرام الخيل طرف كأن على شواكله دهانا

دهن أو الدهان فى الآية : جمع دهن كقرط وقراط والمعنى : فكانت كالدهان المختلفة لأنها تتلون ألواناً .

دهان أو الدهان : إسم لما يدهن به كالحزام والأدام . والمعنى حينئذ ، فكانت كدهن الزيت ، كما قال تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » والمهل دردى الزيت ، وهو ما يكون فى قعره .

د ه ى

أدهى الدهى والدهاء : النكر وعظم الأمر وجودة الرأى وسعة الحيلة دهى يدهى دهيا ودهاء ، ودهاء ودهاء : أصابه بداهية ودهاه الأمر ، نزل به ، ومنه : « والساعة أدهى وأمر » ٤٦ / القمر . أدهى : أعظم داهية وهى الأمر المنكر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه .

أنباء وآراء

القافلة تسير :

هـذا عنوان مقال يراه القراء فى هذا العدد من « رسالة الإسلام » تحدث فيه الأستاذ العلامة صاحب السماحة الشيخ محمد التقى القمى - بمناسبة افتتاح العام الثامن لهذه المجلة - عن بعض الجوانب المتصلة بالتقريب ، وعن العزيمة الصادقة المصممة التى تسير بفكرته ، معتمدة على حول الله وقوته ، نحو الغاية المنشودة من تأليف قلوب المسلمين ، وجمعهم على كلمة سواء فى الإيمان والعلم والعمل والأخوة الصادقة فى الله ، المتآزرة على إعلاء كلمة الله ، حتى يتبوءوا مكانهم اللائق بهم فى الركب العالمى ، وإنه لمكان الصدارة والتوجيه ، والأخذ بيد البشرية إلى حياة الأمن والسلام والصلاح والإصلاح .

وإن باب « الأنباء والآراء » ليرى فى هذا العنوان تعبيراً دقيقا عن المعنى الجامع الذى يؤلف بين ما يقدمه اليوم مما يبدو فيه حقا أن « القافلة تسير » :

* * *

بين جلالة الملك سعود
وقطب من أقطاب التقريب :

علمنا أنه قد تمت مقابلة هامة بين حضرة صاحب الجلالة الملك سعود ابن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ، وقطب كبير من أقطاب التقريب ، وقد تمت هذه المقابلة الهامة فى طهران ، حيث كان جلالته يزور إيران ، وكانت الشخصية الكبيرة هناك .

ولا شك أنه يسر المسلمين جميعا أن يعلموا أن هذه المقابلة الخاصة كانت خطوة موفقة نحو التقريب ، ففيها شرحت فكرته وأهدافه ، والأسس التي يمكن بها توطيد دعائم الأخوة الإسلامية بجعل كل مسلم يحترم رأى أخيه فى إنصاف وسماحة . وكان اهتمام جلالته بفكرة التقريب حديث الصحف فى ذاك الحين .

* * *

جلالة الملك سعود وكبير علماء الشيعة بإيران
هدية من جلالته ، ورسالة فى شأن الحج من سماحته :

وقد بلغنا أن جلالة الملك المعظم سعود بن عبد العزيز قد أرسل بهدية سنية إلى السيد الجليل العلامة الأكبر الحاج أقا حسين بروجردى كبير مجتهدى الشيعة ، وعلمنا من مصدر وثيق أن سماحة السيد الجليل قد بعث بكتاب منه إلى سفير المملكة السعودية بطهران ، واستطعنا أن نحصل على نصه ، ونحن نسجله مغتبطين بما فيه من روح الأخوة والحفاظ والكرامة العلمية .

قال سماحته : « بسم الله الرحمن الرحيم . سلام الله عليكم ورحمته ـ أما بعد : فقد بلغنا كتابكم مع السيد يوسف بو على ، ومعه حقيبة كبيرة ذكرتم أنها تحتوى على خمس عشرة نسخة من القرآن الكريم ، وعلى قطع من حزام ستار الكعبة الشريفة ، وعلى ... ... وأن جلالة الملك أمر بإرسالها إلىّ ، فتحيرتُ فى الأمر لأن سيرتى عدمُ قبول الهدايا من الملوك والعظماء ، ولكن اشتمال هذه الهدية على القرآن الكريم وستار الكعبة الشريفة ؛ ألزمنى قبولها ، فأخذت نسخ القرآن الكريم والقطع من حزام ستار الكعبة الشريفة ، وأرسلت الحقيبة « بما بقى فيها » إلى جنابكم هدية منى إلى شخصكم ، لأكون على ذكر منكم فى أوقات الصلوات والدعوات ، ولما كان أمر الحج فى هذه السنين بيد جلالة الملك ؛ أرسلتُ حديثاً طويلا فى صفة حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، رواها مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه ويستفاد منه أكثر أحكام الحج إن لم يكن كلها ، لترسله الى جلالة الملك

(١) عن الإمام جعفر الصادق ع .

هدية منى إليه ، وتبلغه سلامى وتحياتى ، وأسأل الله عز شأنه أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويجعلهم يداً واحدة على من سواهم ، ويوجههم إلى أن يعملوا بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، وأن يجتنبوا التدابر والتباغض واتباع الشهوات الموجبة لافتراق الكلمة ، وأن يلتزموا بقول الله . « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

وفى جامعة مونتريال « بكندا » :

بعث فضيلة الدكتور محمد البهى الأستاذ الزائر من الأزهر فى جامعة مونتريال بكندا ـ وهو عالم باحث من المتحررين المؤمنين بفكرة التقريب ـ بكتاب إلى « دار التقريب » يتضمن حديثاً مفصلا عن صدى دعوة التقريب فى الأوساط العلمية الجامعية بكندا ، « وانها أدخلت فى منهاج الحركات الإسلامية الحديثة ذات النشاط الإيجابى فى بناء الجماعة الإسلامية المعاصرة » وأن الباحثين هناك يبحثون كذلك فى بعض حلقات التقريب حين كان السيد جمال الدين يبث فكرة الوحدة بين المسلمين ويهاجم التعصب والمتعصبين .

وقد ختم فضيلة الدكتور كتابه بقوله : « إن رسالة جماعة التقريب اليوم أوضح من ذى قبل ، ومكانها أوسع مما مضى ، والغرب يريد أن يعرف كثيراً عنها ، وقد كتب إليكم مدير المعهد الإسلامى منذ مدة ـ كما أخبرنى ـ راجيا إرسال نشرات الدار ومنهاج الجمعية ، وقد أودعت المكتبة هنا صورة من المنهاج وسأعمل على أن أمد الباحثين فى هذه الشئون بما يمكن لهم من النظر الواسع ، ويحدد لهم فكرة التقريب تحديداً واسعا ، كما يوضح إمكانياتها العملية والمصادر التى تعتمد عليها فى فهم مذهب الشيعة الإمامية والزيدية الذين هم أحد الطرفين فى التقريب مع تصحيح ما يراه بعض المشتغلين بالدراسات الإسلامية هناك من أن

فكرة التقريب من الوجهة النظارية ممكنة ، أما من الوجهة العملية فعسيرة ، ولعل ذلك كله ينشر فى كتاب باللغة الإنجليزية إن شاء الله » .

* * *

وفى معهد الدراسات الإسلامية :

وقد افتتحت الدراسات العليا فى معهد الدراسات الإسلامية منذ أكثر من شهرين ، وهو معهد حديث أنشأته جمعية الدراسات الإسلامية لينتسب إليه خريجو الجامعات الدينية والمدنية الراغبون فى التزود من الثقافة الإسلامية العالية ومعرفة أحوال المسلمين فى مختلف بلادهم وشعوبهم ، ولا تَقيُّدَ فى هذه الدراسات بمذهب ولا طائفة ولا شعب ، وإنما هى لمن يشاء من المسلمين جميعا على شرط أن يكونوا حاصلين على إجازة عليا من أية جامعة .

والروح الذى يسير به هذا المعهد فى دراساته وصلاته وبحوثه العلمية والعملية ؛ يلتقى مع التقريب فى أهدافه ووسائله ، ويتسم بالطابع الحيادى المنصف الذى يعتمد البحث الحر ، ويستقبل مشكلاته بالرزانة والسماحة والهدوء والمثابرة ، التماسا للحقيقة من أى أفق ظهرت .

والأساتذة الذين عهد إليهم بهذه الدراسات هم من كرام العلماء وصفوتهم فى مختلف النواحى من دينية ومدنية ، وهم يسيرون على منهاج متميز بطابعه الخاص على غيره من مناهج الدراسة فى غير هذا المعهد .

والتقريب يسعده ويقويه ويؤازره كل مسعى كريم إلى غايته الشريفة ، وأهدافه السامية التى هى أهداف الإسلام لمن عرف رسالة الإسلام .

فنحيى هـــذا المعهد أساتذته وطلابه والقائمين عليه ، ونسأل الله لهم جميعا التوفيق .

* * *

وفى ندوة الأصفياء :

وهى ندوة تجمع فريقا مستنيرا من ذوى العلم والأدب ، منهم العالم الضليع ،

والشاعر الجيد ، والكاتب المبرّز ، والخطيب المصقع ، والسياسى المجرب ، والمجاهد المناضل ، لا يعرفون لهم جنسية على تعدد شعوبهم وبلادهم إلا جنسية الإسلام ، وقد اختاروا مقرراً لندوتهم رجلا من فحول الأدب هو الشاعر محمد على الحوماتى ، وكانت باكورة الثمرات التى أثمرتها ندوتهم كتاب أصدرته باسم « الأصفياء » وهو كتاب جامع لكل المحاضرات والمناقشات التى دارت طول العام الماضى فى جلساتهم ، وفيها المعجب المطرب من البحوث العلمية والشرعية والاجتماعية والأدبية ، وفيها الكثير مما يهتم به التقريب ، ويدعو إليه أقطابه ، وإن رسالة الإسلام لتحيي هذه الندوة وتحيي أعلامها الكرام ، وترى فى مسلكها الحميد تآزرا على ما يرفع شأن الإسلام والمسلمين .

وفى مؤتمر الخريجين :

وكان من القرارات التى أصدرها « مؤتمر الخريجين » فى دورته المنعقدة بالقدس فى شهر سبتمبر الماضى الموافقة على توصية لجنته الثقافية بأن تعمل الحكومات والشعوب على تهدئة الخلافات الطائفية ، والحد من آثارها المنبعثة عن التعصب المذهبي ، كى يقف المسلمون فى مختلف البلاد العربية ـ والإسلامية ـ صفاً واحداً يقاوم الاستعمار ، ويفسد خططه وماله من أساليب تعتمد على بث دعوة الفرقة والقطيعة فى مقدمة ما تعتمد عليه .

* * *

وهكذا يتردد صدى التقريب فى مختلف الأوساط ، وتسير قافلته فى ظل من رعاية الله تعالى وتوفيقه .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

كلمة التحرير	. . . .	٣
تفسير القرآن الكريم	لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير	٥
المجتمع القرآنى	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة	٢٩
القافلة تسير	لحضرة صاحب السماحة الأستاذ محمد التقى القمى	٣٨
كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة . .	٤٣
الفرق بين الدين والمذهب	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه	٤٨
قال شيخى	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى	٥١
الحريه فى الإسلام	للدكتور محمد البهى	٦٣
الحرية الفكرية فى اليمن	لحضرة الأستاذ القاضى محمد بن إسماعيل العمرانى	٦٧
فى التاريخ والأدب	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	٧٢
تحقيق جديد فى نصر النبى بالرعب . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى	٨٣
التسابق الهيدروجينى	للدكتور محمد محمود غالى	٨٩
معجم ألفاظ القرآن الكريم		٩٧
أنباء وآراء		١٠٥
رجاء من التقريب		١١٠
من القانون الأساسى لجماعة التقريب		١١١

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة ـ تليفون : ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣



رمضان ١٣٧٥ هـ
ابريـــل ١٩٥٦ م

السنة الثامنة
العدد الثاني

إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكم أمَّةً وَاحِدَةً
وَأنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونْ

«قرآن كريم»

بسم الله الرحمن الرحيم



مما وصف الله به المؤمنين أن بعضهم أولياء بعض ، وأنهم يؤلفون مجتمعاً واعياً له إرادة لا يروج معها إلا الحق ، ولا يستطيع الباطل أن يعيش تحت سمعها وبصرها . وذلك حيث يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

إن الولاية صفة تجمع المحبة والتكافل والتناصر ، ففلان وليٌّ لفلان أي حبيبٌ وصديق حميم ، وبين فلانٍ وفلان ولايةٌ أي تكافل وترابط ، كلاهما يرى لصاحبه من الحق ما يراه لنفسه ، وكلاهما يفرح لفرح الآخر ، ويألم لألمه .

والمؤمنون متصفون بهذه الصفة الجامعة ، فالأساس فيما بينهم هو المحبة الصادقة الصافيه ، والقاعدة عندهم هي التكافل في الخير والشر ، في الغنى والفقر ، في الحرب والسلم ، مصلحتهم واحدة غير متجزئة ، وأهدافهم واحدة غير متفرقة ، وبينهم تناصر ، فإذا اعتُدِيَ على طرَف من أطرافهم هبَّتْ جميع الأطراف تنتصر له ، وتدافع عنه ، وتشاركه في بأسائه حتى تنكشف عنه البأساء ، وتقاسمه ألوان ضرائه حتى تزول عنه الضراء .

هذا هو شأن المؤمنين وطابعهم الذي طبعهم الله به « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم » .

* * *

والولاية بين الوليين تقتضي النصيحة ، وأن تقوم العلاقات على أساس المكاشفة والإخلاص ، لا على أساس المخادعة والمصانعة ، فالولي ينصح لوليه : يأمره بالمعروف فيؤدي بذلك حق ولايته ، وينهاه عن المنكر فيؤدي بذلك حق ولايته .

وهذا يدلنا على أن المجتمع الصالح ـ وهو مجتمع أهل الإيمان أو أهل صفات الإيمان ـ هو المجتمع الذى يكون فيه رأىٌ عام حساس غيور قوى مسموع الصوت نافذ الكلمة ، ذلك أن المجتمع الذى ينطوى فيه كلُّ إنسان على نفسه ، وينقطع عن الآخرين ، ولا يهمه أن يَصْلحَ الأمرُ فيه أو أن يَفْسُد ؛ إنما هو مجتمعٌ منحلٌ لا يمكن أن يستقر أمرُه ، ويكون مجتمعاً سعيدا ، ولا بد أن يَسْتَشْرى فيه الفساد ، ويكثر المنكر ، ويقل العمل الصالح .

فالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فى مجتمع ما : هو صمام الأمن ، وميزان الصلاحية والاستقامة ، ولذلك يخطئ من يظن أن الإسلام يكتفى من المؤمن بأن يرعى شئون نفسه ، غير عابىء بما حوله ، وأن يعيش فى مجتمعه عيشة المنكمش المنطوى على نفسه تمسكا بما قد يُفهم خطأ من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » نعم لا يضرنى من ضل إذا اهتديتُ ، ولكن ما معنى اهتديت ؟ أليس أن آخذ بتعاليم الحق ، وأن أؤدى واجبى حقَّ الأداء ؟ وهل أكون « مهتدياً » إذا فرطت فى ذلك ، وعشت على جانب الحياة إمَّعة ؟ هل أكون مهتدياً إذا عطلتُ مواهبى ، وحرمت الأمة قواى التى هى جزءٌ من قواها ، وحقٌ من حقوقها ؟ هل أكون مهتدياً إذا اعتزلتُ المصلحين فلم أعاونهم ، والضالين فلم أحاول ردهم ، ولم أتحايل لإبلاغ كلمة الله إليهم .

كلا ! ولذلك أجدنى دائماً حريصاً على أن أفهم المعنى فى قوله تعالى : « ولتكن منكم أمةٌ يَدْعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون » على أنه أمرٌ للأمة حاسمٌ بأن تكون أمةً هذا طابَعُها ، وهذا لونُها ، أمةَ دعوة إلى الخير ، أمةَ إحساس بالحق ، أمة غَيْرة على المعروف تريده وتحب أن يُفعَلْ ، أمة ثورة على المنكر تمقته وتمقت أن يُفعلْ ، فهذه الأمة هى التى تفلح ، وهى التى تَقْتَعِد منزلة العزة .

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة الأنعام

— ١ —

منهجنا فى دراسة السورة ـ عود على بدء فى شأن ما سبقها من السور : سورة الفاتحة تتضمن الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن ـ السور المدنية السابقة على « الأنعام » متفقة فى الهدف الأصلى مع اختلاف فى التفاصيل ـ سورة البقرة فى أسلوبها وأهدافها ـ سورة « آل عمران » بين حجاج أهل الكتاب وإرشاد المؤمنين ـ سورة النساء وعنايتها بتنظيم جماعة المسلمين ـ سورة المائدة وما تضمنته من التشريعات الداخلية ـ رجع إلى بيان المنهج ـ سورة الأنعام متميزة فى أهدافها عما قبلها ـ أهداف السورة إجمالا .

منهجنا فى دراسة السورة :

سورة الأنعام ، هى السورة السادسة من سور القرآن الكريم فى الترتيب المصحفى ، ولها بحكم مكيتها ، وبحكم الأسلوب الذى عالجت به قضاياها الأصلية ، منهج خاص يخالف منهج السور الأربع المدنية التى سبقتها فى الترتيب ، وقد شاركها فى البدء بإثبات الحمد لله ، أربع سور مكية ، وهى : سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ،

وسورة سبأ، وسورة فاطر. ومن هنا رأينا زيادة فى تشخيصها وتوضيحاً لمنهجها أن نعود فنضع أمام القارىء صورة إجمالية لما عرضت له كل سورة من السور الأربع المدنية السابقة عليها فى الترتيب. ثم نضع بإزاء ذلك صورة إجمالية لما عرضت هى له، وبذلك يتضح سبيل الموازنة بين المنهجين، ثم نقفّى ثانياً ببيان سبيلها مقارناً ذلك بسبيل السور الأربع الأخرى التى شاركتها فى المكية والبدء بإثبات الحمد لله.

* * *

عود على بدء فى شأن ما سبقها من السور:

سورة الفاتحة تتضمن الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن:

أما سورة الفاتحة، فهى ـ وإن كانت مكية ـ قد أخذت باعتبار ما تضمنته من الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن، وبذلك اختيرت فاتحة للكتاب، وأطلق عليها « أم القرآن » أخذت بهذا الاعتبار، شخصية تكاد تكون مستقلة فى المنهج وفى المقصد عن سائر سور القرآن مكية ومدنية، وصارت نسبتها إلى جميع سور القرآن بهذه الشخصية واحدة، يدل كل ما فيها على كل ما فيه، ذلك أنها تشير إلى جانبي الحق والخير، متعلَّقَى العقيدة والعمل، والعقيدةُ والعمل هما عنصرا الكمال الإنسانى الذى نزل القرآن لرسم طَرقه والدعوة إليه؛ ففى العقيدة بالنسبة للبدأ، جاء قوله تعالى: « الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم » وفى العقيدة بالنسبة إلى المعاد، جاء قوله تعالى: « مالك يوم الدين » وفى العمل، جاء قوله تعالى: « إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم » وقد توجت عقيدة الحق، وعمل الخير بصورتين:

إحداهما: صورة تبشيرية لمن سلك الصراط المستقيم الذى يهدى إلى الإيمان بالحق وعمل الخير: « صراط الذين أنعمت عليهم ».

والأخرى: صورة انذارية لمن حاد عن طريق الحق والخير: « غير المغضوب عليهم، ولا الضالين ».

ولا ريب أن كل ما تضمنه القرآن فى آياته المفصلة ، وأحكامه الواضحة ، وقصصه الحق ، يدور على محور من بيان الحق والإرشاد إلى الخير ، لافرق فى ذلك بين مكية ومدنية « يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » . « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا » .

وهكذا نجد كثيراً من آيات القرآن الواضحة فى مكيه ومدنيه ، تعلن أن الأمر فى شرائعه وأحكامه يدور حول هذا المحور ، محور « الحق والخير » .

هذا هو وضع سورة الفاتحة من القرآن كله .

* * *

السور المدنية السابقة على « الأنعام » متفقة فى الهدف الأصلى مع اختلاف فى التفاصيل :

أما السور الأربع المدنية التالية لسورة الفاتحة ، وهى سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ؛ فهى بحكم مدنيتها تشترك كلها فى هدف واحد ، وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة ، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، وإلى الأساس الذى يرجعون إليه ويحكمونه فى التعامل معهم فى حالتى السلم والحرب ، وقلما تعرض هذه السور المدنية إلى شىء من شئون الشرك ومناقشة المشركين ، وهذه السور مع اشتراكها فى أصل الهدف العام ، تختلف قلة وكثرة فيما تتناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين ، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين .

* * *

سورة البقرة فى أسلوبها وأهدافها :

ومن ذلك نرى سورة البقرة بدأت فذكرت أوصاف الذين ينتفعون بهذا الكتاب وينتسبون إليه ويضاف هو إليهم ، ثم عرضت لأوصاف الجاحدين

الذين يعلنون الإنكار ، والمنافقين الذين يترددون بين المؤمنين والكافرين بإيمانهم الظاهرى وكفرهم الباطنى ، واقرأ فى ذلك من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير » الآية ٢٠ ، ثم توجه الخطاب إلى الناس جميعا باعتبار إنسانيتهم العاقلة ، إلى توحيد الله فى العبادة والألوهية ، وإلى الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتضمن ذلك الإيمان بالجزاء الأخروى : العذاب لمن جحد واستكبر ، والنعيم لمن آمن وعمل صالحا ، وتشير إلى أن الإيمان بالحق شأن الفطر السليمة التى لم تدنس بمتابعة الهوى والشهوة ، والتى لم تجر على سنن الآباء الضالين ، وتنتقل من تصوير الدعوة والمجيبين لها ، والمعرضين عنها على هذا الوجه ، فتذكر لهم قصة الإنسانية الأولى وتشير بها إلى أن الإنسانية وقعت فى الخلق والتكوين بين عاملين ، يدفعها أحدهما إلى الخير والطاعة والامتثال ، ويزيّن لها الآخر إغراء الشهوة والهوى ، وأن الله لهذا ، وهو الرحيم بخلقه ، قد أخذ على الإنسانية ـ بما ركبّ فيها من قوى الخير ـ العهد والميثاق باتباع الحق الذى يبْعث به إليها ، واقرأ فى كل ذلك من قوله تعالى : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » الآية ٢١ ، إلى قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » الآية ٣٩ .

كان كل هذا فى فاتحة البقرة بمثابة تمهيد ، يصل به القارىء إلى الهدف الأصلى الذى عالجته السورة فيما بعد بحكم الوقت الذى نزلت فيه .

* * *

إن سورة البقرة قد نزلت فى أوائل الهجرة ، وقد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص ، وبذلك كان أمامها هدفان :

الأول : نظم يأخذ بها المسلمون أنفسهم فى عباداتهم ومعاملاتهم : شخصية ومدنية وجنائية .

والهدف الآخر : إرشاد إلى طرق المناقشة فيما كان مجاوروهم يثيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات . وقد تجلى هذان الهدفان بصورة واضحة فى سورة البقرة ، برز أحد الهدفين فى نصفها الأول ، وبرز الهدف الثانى فى نصفها الأخير ، واقرأ فى الأول على وجه عام من قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » الآية ٤٠ ، إلى قوله تعالى : « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » الآية ١٧٦ ، واقرأ فى الهدف الثانى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » الآية ١٧٧ ، إلى نهاية الآية ٢٨٣ : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة » .

وقد عرضت فى هذا السبح الطويل بعد أن أجملت أوصاف الصادقين فى إيمانهم المتقين فى أعمالهم ، لجملة من الأحكام التى تسوس الأمة فيما بينها :

عرضت للقصاص ، والوصية ، والصيام ، وعرضت لحكم القتال فى الأشهر الحرم وبعض أحكام الحج ، وعرضت لحكم الخمر والميسر ، وبعض أحكام اليتامى ، وعرضت لحكم مصاهرة المشركين ، وأحكام الأيمان ، وكثير من أحكام الطلاق وما يتبعه من رضاع وعدة ومتعة ، وعرضت للإنفاق فى سبيل الله وأدبه الذى يحقق فى الأمة ثمراته الطيبة ، وقارنت بينه وبين استغلال حاجة الفقير بالربا ، وهو بفقره يستحق الرحمة بالإنفاق فى سد حاجته .

وأخيرا ، ذكرت آية فذة ، عرضت فيها لطرق الاستيثاق فى الديون وحفظها من الجحد والإنكار ، فأشارت إلى الكتابة ، والإشهاد ، والرهن . وبعد هذا كله تختم كما بدأت ببيان أصول الإيمان الحق ، وبيان أساس التكليف عند الله ، وأن ليس القصد منه الإرهاق ولا الإعنات ، ويجىء ذلك الختام فى قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، إلى آخر السورة .

* * *

سورة «آل عمران» بين حجاج أهل الكتاب وإرشاد المؤمنين :

ثم تجيء سورة آل عمران ، فتصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى فى قضية الألوهية ، وإلى كشف بعض صور التزييف التى كان يصطنعها أهل الكتاب إخفاء لحق الإسلام ودعوته .

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، ويقيهم شر الوقوع فى مخالب الأعداء وترسم لهم فى ذلك الطرق الحكيمة التى تجعل منهم، قوة الكفاح فى تأييد الحق ، وهزيمة الباطل .

وفى سبيل الهدف الأول تبدأ السورة ببيان أن الكتب السماوية كلها إنما نزلت لغاية واحدة هى هداية الناس للحق . ثم تقرر خاصة الألوهية الحقة من العلم الشامل والقدرة التامة ، وترشد إلى منشأ الشبهة المهلهلة التى تعلقوا بها فى ألوهية عيسى ، فأضلتهم ، واقرأ فى ذلك من أول السورة ، إلى نهاية قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات . الآية ٧ » . ثم ترشد فى هذا الهدف إلى السبب الحقيقى الذى يرجع إليه تمسكهم بالباطل وأعراضهم عن دعوة الحق ، وهو حرصهم على زخارف هذه الحياة الدنيا التى ظنوا أنها تفوتهم إذا آمنوا بمحمد ودعوته ، وتذكر ذلك فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار . الآية ١٠ » ، وعلى هذه الأسس تسير السورة فى حجاجهم وتفنيد شبههم . فتقص ولادة عيسى ، وولادة أمه ، وتدعوهم إلى الكلمة المشتركة فى الرسالات السماوية كلها : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . الآية

٦٤ » . ثم تذكر شيئاً عن حيل اليهود وصور زيفهم ، وتلبيسهم الحق بالباطل . إلى أن تقول : « قل يا أهل الكتاب ، لم تصدون عن سبيل الله ، من آمن ، تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » .

وفى سبيل الهدف الثانى ، وهو إرشاد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، تتجه إليهم بوصف الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا » فتحذرهم عن إطاعة أهل الكتاب والتأثر بشبههم الباطلة والوقوع فيما وقعوا فيه من الاغترار بزخارف الدنيا التى حالت بينهم وبين الإيمان بالحق وتأمرهم فى ذلك بالاعتصام بحبل الله والتضامن فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى لمن المنكر ، وتغريهم بالانفاق فى سبيل الله ، وتحذرهم الوقوع فى مخالب الأعداء واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين . واقرأ فى كل ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . الآية ١٠٠ » إلى قوله تعالى : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط . الآية ١٢٠ » .

ثم تنتقل السورة إلى تذكير المؤمنين بحادثتين عظيمتين من حوادثهم مع المشركين لهم فى كل حادثة منهما ، أكبر العظات والعبر : تذكرهم بغزوة بدر وما كان لهم فيها من النصر والظفر بسبب الصبر والتقوى مع قلة العَدد والعُدد : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » وتذكرهم مع هذا بما أصابهم فى غزوة أحد ، أثراً للتنازع والفشل ، وتضع أمامهم بالحادثتين ، صورتى و الصبر وآثاره . والطمع وآثاره : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

ولا يفوت السورة أن تبرز لهم فى أثناء التذكير بهاتين الحادثتين عن شىء من صفات المنافقين . اتقاء لها ، وتحذيراً منها ، ويستغرق كل ذلك على وجه

عام الآيات ابتداء من قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . الآية ١٢١ » إلى قوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير . الآية ١٨٩ » . ثم تختم السورة بالإرشاد إلى الطريق الذى يصل بالإنسان إلى الإيمان الحق الذى ختمت به سورة البقرة ، والتى مهدت به سورة الأنعام : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . وتذكر جزاء المؤمنين الصادقين الذين اتقوا ربهم ، والذين لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . وتكون خاتمة المطاف فى سورة آل عمران تلك النصيحة الغالية التى هى بحق أساس كل تركيز . وعماد كل عزة وسمو : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء وعنايتها بتنظيم جماعة المسلمين :

وعلى أساس من مشاركة النساء لزميلاتها المدنيات فى أصل الهدف ، تناولت الأمرين : تنظيم جماعة المسلمين ، ومناقشة أهل الكتاب فى موضوع الألوهية والرسالة ، غير أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة .

ففى جانب التنظيم شرعت فى الأموال وبخاصة أموال الضعفاء : « واليتامى والسفهاء والنساء » ، وشرعت فى الأسرة من زواج وميراث وحقوق ، واقرأ فى ذلك كله من أول السورة إلى قوله تعالى : « إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » الآية ٣٥ .

وذكرت أساس الحكم ومصادر التشريع « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا ، يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » الآيتان ٥٨ ، ٥٩

وعرضت للذين يحاولون الخروج عن تشريع الله ، وصرف الحاكم عن العمل

بالحق « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » الآية ٦٠ ، مع الآية : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » الآية ١٠٥

ثم عرضت للتنظيم الخارجي فى الحرب والسلم ، ابتداء من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » الآية ٧١ . إلى قوله تعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » .

أما فى جانب المناقشة ، فقد عرضت لغلو بعض أهل الكتاب فى قولهم على مريم وولدها عيسى ، وغلو البعض الآخر فى شأن الألوهية . ثم تتجه إلى دعوة الناس جميعاً إلى الحق الذى أوحاه الله إلى محمد ، وأوحاه إلى النبيين من قبله « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » .

* * *

سورة المائدة وما تضمنته من التشريعات الداخلية :

ثم تجىء سورة المائدة ، فتأخذ سبيل أخواتها أيضا ، فتشرع للمسلمين فى خاصة أنفسهم ، وفى معاملة من يخالطون من أهل الكتاب ، مع الإرشاد إلى طرق محاجتهم والتنبيه على أخطائهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتذكيرهم بسيئاتهم مع أنبيائهم ، وقد استغرق ذلك معظم السورة .

أما فى التشريع للمسلمين فقد وجهت إليهم ستة عشر نداء بوصف الإيمان ، لم توجد فى سورة غيرها . قررت فيها مسئولية التعاقد والمحافظة على الشخصية الدينية ، وما يجب القيام به حين إرادة الصلاة ، كما بينت علاقة الإنسان بطيبات الحياة وأوجبت المحافظة على العقل ، وحددت موقف المسلمين مع من يعبث بحقوقهم ويتخذ دينهم هزواً ولعبا . كما عرضت إلى تشريعات جزئية فى حلال الطعام وحرامه ، وفى الاستقسام بالأزلام ، وحكم الصيد بالحيوانات المعلمة ، والتزوج

من أهل الكتاب ، وعرضت لعقوبة الاعتداء على الأمن العام الذى تقوم به عصابات الشر والفساد ، كما عرضت لعقوبة السرقة ، وقصت بعض التشريعات التى كانت فى كتب السابقين ، وأشارت إلى المبدأ الطبيعى الذى يقضى باختلاف الشرائع نظراً إلى اختلاف الأجيال والعقليات ، وحذرت العدول عن الحكم بما أنزل الله ، واتباع أهواء المضلين .

ولم يفتها فى أثناء ذلك كله أن تشد أزر النبى صلى الله عليه وسلم فيما يختص بموقفه من أهل الكتاب ، وعصمة الله إياه من الناس وتوجه إليه فى ذلك الخطاب مرتين بصفة الرسالة ، منبع العصمة والتأييد : « يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » . ثم تذكّر الجميع بيوم الجمع الذى تحدّد فيه المسئوليات ، وتذكّر أهل الكتاب بوجه خاص بشأن يجرى فيه بين عيسى وربه فيما يختص بعقيدة النصارى فيه : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » الآيات . ثم تختم بهذه الآية الكريمة التى ترد الأمر كله لله ، ملكا وتدبيراً وتصريفا : « لله ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو على كل شىء قدير » .

* * *

رجع إلى بيان المنهج :

أما بعد ، فهذا عرض وجيز ، نستحضر به أصول ما تضمنته السور الأربع المدنية التى سبقت سورة الأنعام فى الترتيب المصحفى ، ومنه يتضح أنها اشتركت فى هدف واحد ، هو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة لها كيان خاص ، وسبيل فى الحياة خاص ، وبإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، ومعاملتهم فيما يختص بالسلم والحرب . وقد جاءت بعد هذه السور الأربع المدنية سورتان مكيتان ، هما أطول المكى فى القرآن ، وهما : الأنعام والأعراف . والذى يهمنا الآن بيان منهج سورة الأنعام

على وجه عام ، وسيتضح لنا فيا بعد حينما نصل إلى الأعراف إن شاء الله تعالى ، أن منهجها يخالف منهج الأعراف رغم اشتراكهما فى وقت النزول ، وفى الهدف الذى رمت كل منهما إليه .

* * *

سورة الأنعام متميزة فى أهدافها عما قبلها :

وسورة الأنعام ، لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التى تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها :

فهى أولا : لم تعرض لشىء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج فى العبادات ، والعقوبات فى الجنايات ، والمداينة والربا فى الأموال ، وأحكام الأسرة فى الأحوال الشخصية .

وهى ثانياً : لم تذكر فى قليل ولا كثير شيئاً يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام .

وهى ثالثا : لم تتحدث فى شىء ما ، عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكذلك لم تتحدث عن طوائف المنافقين ولا عن أخلاقهم السيئة ومسالكهم المظلمة .

وهى رابعا : لا نجد فيها مع ذلك كله نداء واحداً للمؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان ، لا نجد فيها شيئاً من هذا كله كما وجدناه جميعا فى السور الأربع السابقة .

* * *

أهداف السورة إجمالا :

وإنما نجد الحديث فيها يدور بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة ، ونجد سلاحها فى ذلك ، الحجج المتكررة والآيات المصرفة والتنويع العجيب فى طرق الإلزام والإقناع : تذكر توحيد الله فى الخلق والإيجاد وفى العبادة والتشريع وتذكر موقف المكذبين . وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم فى الرسالة . وتذكر يوم البعث والجزاء . وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل

فى الأنفس والآفاق ، فى الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . وتذكر إبراهيم وجملة من أبنائه وترشد الرسول إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم فى احتمال المشاق وفى الصبر عليها . وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر ، وتفيض فى هذا بألوان مختلفة . ثم تعرض لكثير من تصرفاتهم التى دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم ، وتقضى عليه بالتفنيد والإبطال ، وتبين خصوص ما حرّم الله من الأطعمة ، وتعرض إلى تقرير الشبهة البشريه التى علقت بالعقل الإنسانى من قديم الزمان فيما يتعلق بالإيمان والشرك ، والطاعة والمعصية ، أمام التكليف والقدر .

ثم تختم السورة بعد ذلك فى ربع كامل : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، إلى آخره » ببيان أن مايدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام ، هو الوصايا التى نزلت فى كل الكتب السابقة ودعا إليها كل الأنبياء السابقين ؛ فهو لم يأت بجديد ، ولا بما يناقض ما جاءت به الرسل إن كنتم طلاب إيمان وحق . وتنتهى إلى آية فذة ، تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه فى هذه الحياة ، وهو أنه خليفةٌ فى الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأنه سبحانه قد فاوت فى المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية ، وحكمة عظيمة ، وهى الابتلاء والاختيار فى القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن تحقق المقصود من هذا الخلق وذلك النظام : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

* * *

ولعلنا بعد هذا نلمس الفرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام ، ومنهج السور الأربع المدنية قبلها ، وهذا هو إحدى الخطوتين اللتين أردنا التمهيد بهما للحديث عن سورة الأنعام .

أما الخطوة الثانية وهى المقارنة بينها وبين السور الأربع الأخرى التى شاركتها فى المكية ، والبدء بإثبات الحمد لله ، فموعدنا بها العدد المقبل إن شاء الله ؟

المجتمع القرآنى

— ٣ —

المجتمع الصغير

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة
وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

---

١ — قررنا فى مقالين سابقين أن الإسلام جاء لإنشاء مدينة فاضلة ، تقيم الفضيلة بين آحادها ، وترتبط مع غيرها بقانون الأخلاق ، فالفضائل فى الإسلام ليس لها موطن ، ولا يحدها إقليم ، ولا يحاجز دونها حصون .

وإن الدولة الفاضلة يجب أن يكون بناؤها فاضلا فى كل أجزائه وعناصره ، فإن الكل يتكون من الجزء ، ولا يمكن أن يكون الكل فاضلا إلا إذا كانت أجزاؤه وعناصره فاضلة .

ولذلك اتجه الإسلام إلى إصلاح المجتمع الصغير ، ليبنى منه المجتمع الكبير ، والمجتمع الكبير إنما يقوى بقوة الاتصال بين عناصره كالصرح المشيد المرتفع إلى عنان السماء لا يمكن أن يرتفع ويشمخ إلا إذا كان الرباط الذى يربط بين أجزائه وثيقا محكما ، والدعائم التى يقوم عليها قوية الأركان ، وثيقة البنيان ، وذلك كله لا يكون إلا إذا تكونت المجتمعات الصغيرة التى تدخل فى بناء المجتمع الكبير على أسس فاضلة .

٢ — وإن الإسلام قد عنى بالمجتمعات الصغيرة أبلغ عناية ، فعنى بالأسرة كما نوهنا من قبل ، وقد بين ذلك القرآن ببيان تفصيلى كما أشرنا .

ثم انتقلت عناية الإسلام من الأسرة إلى القبيلة ، وهى فى حقيقتها ومعناها أوسع مدلولات الأسرة شمولا ، فجعلها مترابطة الأجزاء أمر لابد منه فى الإسلام ، وذلك بأن يحمى قويها ضعيفها فى غير عصبية جاهلية ، ولا تعاون على الإثم والعدوان .

ولقد انتقلت عناية الإسلام من القبيلة إلى القرية ، وإن شئت فقل إن القرية مجتمع صغير فى السواد يقابل القبيلة فى البادية بيد أن القرية يقوم الاتصال فيها على الجوار والبيئة الواحدة ، والقبيلة يقوم الاتصال فيها على النسب واتحاد الأرومة ، وقد يتلاقيان ، فتكون القرية من القبيلة ، أو تحتاز القبيلة مكاناً خصيباً تبنى فيه وتحل فتكون القبيلة هى القرية .

ونظام القرية على العموم يكون فى البلاد الزراعية كريف مصر ، فإن الأهلين المنبثين فى ذلك الجناب الخصيب فى القرى لا يجمع بينهم نسب جامع فى كثير من الأحوال ، إنما تجمعهم القرية ومصالحها المشتركة ، وجوارهم الطاهر العف النزيه ، وإنه إذا صلحت القرية صلح الإقليم .

٣ — وإن كل إصلاح اجتماعى فى الإسلام أساسه الأخوة والتعاون على الخير والفضيلة ، وقد دعا القرآن الكريم إلى التعاون ، فقال سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » فالتعاون والإخاء هما الأساس لكل إصلاح اجتماعى فى المجتمع الصغير ، وقد ذكرنا فى صدر بحثنا فى مقال سابق أن التعاون والإخاء هو العلاقة الرابطة بين آحاد كل مجتمع ، وإلا كان التدابر والتنابذ ووراء ذلك الفساد ، ولا يمكن مع الإخاء والتعاون فساد قط .

٤ — ولقد ضرب لنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلا فى إصلاح المجتمع الصغير بالتعاون والإخاء ، فقد جاء الى يثرب وكانت مدينة متنابذة متنازعة ، مع أنها فى مجموعها لا تزيد فى سكانها عن قرية كبيرة من قرى مصر ، كانت ثلاث

طوائف : الأوس ، والخزرج ، واليهود ، كان الأوس فى نزاع مع الخزرج ، وكان كلاهما فى نفرة مع اليهود الذين يجاورونهم ، وجاء رسول الله الى هذا المجتمع المتنافر بعنصر رابع ، وهو المهاجرون الذين هاجروا معه .

فكان لا بد من عمل لهذا المجتمع الصغير الذى سيكون نواة لحضارة فاضلة تعلن أهل الأرض أن فى الإمكان أن توجد مدينة فاضلة تحكم بالفضيلة ، وتحارب بالفضيلة ، وتعاهد بالفضيلة ، وتمكث فى الأرض تحكم بأمر الله ونهيه ، وأن ابن الأرض لا يعجز عن أن ينفذ أحكام السماء جملة وتفصيلا إن كان معه إرادة تقية فاضلة ، وأن الدولة الفاضلة ليست حلماً من الأحلام ، ولكنها حقيقة من الحقائق يستطيعها ابن آدم إذا أرادها ، واعتزم مخلصا أن يوجدها .

ابتدأ محمد فى إصلاح هذا المجتمع الصغير بالإخاء والتعاون ، فآخى بين كل واحد من الأوس ، وكل واحد من الخزرج ، وآخى بين المهاجرين ، وكانوا من بطون مختلفة ، وآخى بين المهاجرين والأوس والخزرج ، وهم الذين أطلق القرآن عليهم اسم الأنصار فى مقابل كلمة المهاجرين ، وبذلك ترابطت الجماعة كلها بمواثيق الإخاء والتعاون ، وكان الأخ بحكم هذه العلاقة التى ربطها محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحل له فى مال أخيه ما يستحله الأخ من النسب ، وبمقتضى هذا الإخاء والإدماج زال ما كان بين الأوس والخزرج من نفرة ، وزال ما بين القرشيين من تفاخر بالأنساب ، واعتزاز بما كان عليه الآباء .

وكان ذلك التآخى قوياً بحكم الإسلام حتى إنه كان يجرى بسببه التوارث بين المتآخيين ، فتألفت به القلوب ، واجتمعت على الحق نفوس كانت متنافرة بالباطل وفى الباطل ، وكان هذا أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل يثرب التى صارت من بعد : المدينة الفاضلة ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى هذه النعمة التى أنعم بها عليهم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

٥ — وإن هذا العمل النبوى يشير إلى أن أول ماينبغى عمله فى إصلاح المجتمع الصغير هو بث روح التعاون والإخاء، وإذا كان الذى أوجده النبى صلى الله عليه وسلم بوضعه الإسلامى الأول لا يمكن تحققه على الوجه الذى صبغه النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه عمل نبى وأنَّى لأحـــد من البشر أن يعمل ما يعمل الأنبياء ، إلا بقبسة من نورهم ، ولأن التوارث بالإخاء قد نسخ وبذلك فقد الإخاء المحمدى عنصراً من عناصر قوته ، ولكن إن تعذر إخاء على النحو المحمدى فإخاء على نحو إنسانى يليق بمجتمعنا ، فيكون إخاء على نحو منه ، وإن لم يكن مثله وذلك بإيجاد إخاء اقتصادى واجتماعى ، ويكون بجماعات تعاونية تنظم الموارد ، وتنظم المصادر ، وتمد المحتاج وتعين على نوائب الدهر وتخفف ويلات المكلومين ، وتنظم العلاقات المادية والأدبية تنظيما يجعل الضعيف قوياً بجماعته التعاونية ، والفقير غنيا بأسرته الاقتصادية ، وغير ذلك مما ينشئه التعاون الفاضل .

وإن ذلك التعاون الاقتصادى كان بعض ما تضمنه الإخاء المحمدى ، فإن الأنصار الذين آخوا المهاجرين آووهم إلى منازلهم وأعانوهم حتى وجدوا لأنفسهم مرتزقا ، بل عاونوهم فى إيجاد هذا المرتزق ، ويروى فى ذلك أن عبد الرحمن بن عوف عندما نزل على أخيه الأنصارى بمقتضى ذلك الإخاء الموثق المقدس أراد أن يشاطره الأنصارى ماله ، فأبى ابن عوف ، وأخذ قدرا من المال على أنه دين ، وكان تاجراً ماهراً يعرف كيف يكون الصفق فى الأسواق ، وقد اتجر فيما أخذ من مال واكتسب منه كسبا وفيراً ثم رد لأخيه الأنصارى ما اقترضه من فضل المكسب الذى كسبه ، والخير الذى أدره الله عليه فى تجارته .

٦ — هذا عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى الإخاء وما يصح أن يقبس منه ، وليس الإخاء المحمدى إلا عقد تعاون روحى يصح أن يبنى عليه عقد التعاون المادى والروحى الذى يجب أن يسود القرى ، وسائر المجتمعات الصغيرة .

وإن القرآن الكريم لم يدع أمر إصلاح المجتمعات الصغيرة إلى عقود التعاون والإخاء فقط ، بل أوصى بوصايا وقرر أحكاما فيها ما يدل على عناية

الإسلام بالمجتمعات الصغيرة وتقوية الروابط بين آحادها ، ثم تقوية الروابط بينها وبين المجتمع الإسلامى الأكبر ، وذلك لكيلا تكون المجتمعات الصغيرة طوائف يضرب بعضها بعضا ، ويكون التنافر بين الطوائف بدل أن يكون بين الآحاد وهو أشد فتكا وأذى .

ومن هذه الوصايا التى من شأنها تقوية الروابط بالمجتمع الصغير ، الوصية بالجار ، فإن الإسلام جعل من تلك العلاقة المادية ما هو طريق لعلاقة روحية بين المتجاورين ، لا فرق بين جار مسلم ، وجار غير مسلم ، بل لا فرق بين جار موحد ، وجار مشرك ، وذلك لقوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

وإن الجار ليس هو القريب الملاصق فقط ، ولكنه يشمل الحى كله ، ولقد روى أن عائشة رضى الله عنها سألت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما بابا » .

وإن الإحسان إلى الجار بالمودة والتعاون لا يفرق بين جار مسلم وجار غير مسلم كما ذكرنا ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضل الجيران حقا ، فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » .

وإن حرص الإسلام على ملاحظة حقوق الجوار ، واتساع معنى الجوار حتى يشمل الحى كله - فيه دلالة على أن أهل كل حى يجب أن يكونوا متعاونين بحكم الجوار الذى كان من الدين وجوب رعايته ، فيكون الارتباط بالخير بين الجيران ، ومن مجموع الجيران يتكون مجتمع صغير يربطه التعاون والمودة .

٧ — ومن النماذج الرائعة فى تكافل المجتمع الصغير والنهوض به : ما قرره الفقهاء بالإجماع من أن الزكوات والصدقات كلها لا تنتقل من بلد إلى بلد ما دام فى البلد الذى وجبت فيه الزكاة فقير ، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم » ، ولقد قال فى ذلك الامام أبو يوسف : ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة فى أهلها ، ولا يخرج منها فلا يتصدق بها على أهل مدينة أخرى » .

وإن هذه صورة حية قائمة لعمل الشارع الإسلامى على النهوض بالمجتمعات الصغيرة من ناحية التكافل الاجتماعى ، ومعالجة الفقر وتخفيف ويلاته ، وإن الفقر هو الداء الأول الذى تتربى فيه كل الأدواء ، ولا يمكن أن يتحقق رقى لمجتمع صغير أو كبير إلا إذا عولجت مشكلة الفقر ، ولا يمكن النهوض الثقافى أو الصحى أو الاجتماعى من غير معالجة مشكلة الفقر .

فإذا كان الإسلام قد أوجب صرف زكاة البلد فيه ، فقد وضع الأساس للنهوض بالمجتمع الصغير .

٨ — وإن فقهاء المسلمين يتجهون إلى وجوب التعاون بين أهل القرية أو المدينة الواحدة ، حتى إنه يجب عليهم إذا كانت أموال الزكاة لا تكفى لسد حاجة الفقراء أن يعملوا على سد الحاجة ، ويجبرهم ولى الأمر على ذلك إن لم يقوموا به . ولقد جاء فى المحلى لابن حزم : « إن الله فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات ، ولا الفىء ، ولا سائر أموال بيت مال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة » .

وإن هذا النص الذى يتفق مع منطق الفقه الإسلامى كله قاطع فى مقدار عناية الإسلام بالنهوض بالمجتمع الصغير .

٩ — وإن المسلمين عند الفتح الإسلامى ، وضعوا نظام الخراج على أساس

سليم بين أهل القرية بعضها مع بعض ، وبين القرى فى علاقاتها بعضها ببعض فى مجموعها ، وقد ذكر لنا ابن عبد الحكم فى تاريخه صورة للقرية المصرية بمقتضى النظام الذى وضعه عمرو بن العاص ، فقال :

« يجتمع عرفاء كل قرية ، ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب ، ثم يجتمعون هم ورؤساء القرى ، فيضعون الخراج على احتمال القرية وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمها ، وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيها ، ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد للضيافة للمسلمين ، ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ... ثم ينظرون فيما بقى فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع على حسب طاقتهم ، فإن عجز أحد أو شكا ضعفه عن زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطِىَ ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تشاحوا قسم ذلك على عدتهم » (١) .

١٠ — هذا مجتمع القرية كما وضعه عمرو بن العاص على النظام الإسلامى ، ونرى فيه التعاون الصادق والعمل على إنتاج أكبر قدر ممكن ، والتوزيع بالعدل وعلى قدر العمل ، ويبدو من ذلك التوزيع ما يأتى :

(ا) أن القرية كلها تتعاون فى القيام على شئون معابدها ، فيخصص قدر من الأطيان لخدمة المعابد ، والقيام بشعائرها ، وهذا القدر يؤخذ من أرض القرية كلها ، لا من حصة بعضها .

(ب) أن القرية كلها تتعاون أيضاً فى الضيافة ونزول المسلمين وذوى الأمر وذلك بتخصيص جزء من الفدادين لذلك .

(حـ) أنهم يقسمون الأرض على العاملين كل على قدر احتماله وعمله ، على أن يكون فيها ما خصص للمعابد والضيافة ، ولكن لا يقسم ما تنتجه الأرض كله ، إنما يقسم الصافى بعد الضيافة ونفقات المعابد والخراج .

---

(١) تاريخ ابن عبد الحكم ص ١٥٢ ، ١٥٣

(د) أنهم يقسمون بعد الخراج والكنائس صافى الثمرات بين العاملين ، كل بقدر عمله ، وبنسبة ما عمل وأنتج ، والضعيف تؤخذ منه الأرض وتعطى القوى القادر ، وعلى الجماعة أن تسد حاجة الضعيف ، وتغنيه عن السؤال .

١١ — وإن هذا نوع من التعاون لا نظير له ، فهو ارتباط معنوى ومادى وهو نظام اشتراكى عادل ، لا يحرم العامل من ثمرات عمله ، وما يصل إليه الجميع يشتركون فيه بمقدار جهد كل واحد وما أنتج .

وإنهم بذلك يتعاونون على العمل ، وعلى تخير خير الأعمال انتاجا ، وأقواها إثمارا ، ألم تر أهل كل قرية يجتمعون ويتناظرون فى العمارة والخراب ، فيحاولون إصلاح الخراب ، والانتفاع بالعامر ، وفى هذه المناظرة يكون التفكير فى محاولة الانتاج وتزكية ثماره .

وليست كل قرية منقطعة عن جاراتها ، بل إنه ليجتمع رؤساء القرى المتجاورة فيتشاورون فى الوصول إلى خير الطرق إنتاجاً ، وأكثرها خيراً .

١٢ — ولما أراد السيد محمد بن على السنوسى وخليفته محمد المهدى أن ينشئا مجتمعات إسلامية صغيرة فى وسط الصحراء الليبية ، أنشئا الزوايا ، وهى مجتمعات صغيرة تقوم على التعاون فى كل شيء : فى أسباب العيش ، وفى العلم ، وفى التدريب العسكرى ، فالزاوية مركز العلم والتعلم والانتاج ، والجندية . ولكل زاوية (مقدم) هو القائم بأمورها ، يفصل فى الخصومات بين أهلها ، ويضع كل شيء فيها بالقسطاس المستقيم ، ويجلب ما تحتاج إليه من بذور وغروس ، ويتولى فى الجملة الإشراف على كل شيء ، سواء أكان اقتصادياً ، أم كان اجتماعياً ، أم كان دينياً . وللمقدم إثنان يعاونانه (أحدهما) معاونته اقتصادية ويسمى وكيلا ، وهو يقوم بشئون الدخل والخرج ، ويدبر أمر الزراعة ، وما تحتاج إليه من أيد عاملة ويعمل على توزيعها توزيعاً عادلا تحت إشراف المقدم مستعينا به فيما يحتاج إليه من خارج الزاوية من بذور وغروس غير موجودة بها تجدد أشجارها ونباتها .

(والثانى) شيخ يتولى تعليم الصبيان ، ويحفظهم القرآن ، ويعقد عقود الزواج ، ويصلح بين الأسر ، وغير ذلك مما يجب أن يضطلع به رجل الدين المثقف . . .
وكان السيد محمد بن على وخليفته يجلب أصناف الأشجار الغريبة التى لم تكن بالشرق وتصلح لواحات الصحراء .

وكل من فى الزاوية يكون عاملا مجداً دءوبا ، فكان السيد السنوسى يقول لهم : « إن الخير كل الخير تحت سكة الموات ، وفى كد اليمين وعرق الجبين » وكان يحث على تعلم الصناعات المختلفة ، والحرف المتباينة ، ويعهد بتعليمها إلى صناع مهرة ، وكان رضى الله عنه يجعل يوما من أيام الأسبوع للتدريب على الفروسية ، والتصويب بالبنادق ، ويوما آخر يتولى فيه كل قادر العمل لغيره ، فيعمل القادرون للعاجزين فإذا كان صاحب أرض عاجزاً عن زراعتها تولى عنه القادرون ، وفى هـذا اليوم كان يعمل المقدم معهم (١) .

١٣ — هذان مثلان لمجتمعين اسلاميين صغيرين من المجتمعات التى نظمها الحكام المرشدون تحت ظل الإسلام ، وأولهما كان ومصر دخلت فى حكم المسلمين ولم تكن قد دخلت فى الإسلام ، وترى فيه صورة المجتمع الصغير المثالى يشرف عليه وينفذه حاكم مسلم ، وفيه أخرج الظلم الرومانى ليحل محله عدل إسلامى .

والمثل الثانى مجتمع صغير إسلامى خالص قد حدث فى القرن الماضى ، وهو صورة مثالية للتعاون الصادق على الفضيلة الدينية والعمل على الوصول إلى أسباب الحياة فى رفق وهدوء واطمئنان ، وانتاج مستمر ، وتعاون على البر والتقوى ، وأخذ بيد العاجز ، وتمكين له من الحياة العزيزة الكريمة من غير ذل ولا هوان .

١٤ — وإن الإسلام يعنى أشد العناية بتهذيب المجتمعات الصغيرة وتثقيفها ، وقد سلك لذلك طريقين كلاهما موصل للغاية محقق للهدف .

أولهما : أن يرسل ولى الأمر إلى القرى والمدائن هداة مرشدين يعلمونهم أمور دينهم ، فكان الإمام العادل يرسل إلى كل قبيلة وقرية من يعلمها دينها ويرشدها ،

(١) راجع نظام الزوايا السنوسية فى كتاب حاضر العالم الإسلامى والتعليق عليه للأمير شكيب أرسلان .

ويقوم أخلاقها ، فلم يكن عمال الخليفة جباة صدقات وخراج فقط ، بل كان معهم علماء مرشدون ، ولقد كان عمر بن الخطاب الإمام العادل يقول لعماله : « إنى لا أرسلكم لتضربوا أبشار الناس ، ولكن لتعلموهم دينهم » .

والطريق الثانى : أن يرسل أهل كل طائفة أو قبيلة إلى مهد العلم نفراً يتفقهون فى دينهم ، ويعودون إليهم هداة مرشدين ، ولذلك قال سبحانه : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

١٥ — وهكذا نجد التعاون على العلم والهداية بجوار التعاون على الحياة والعيش .

وهناك فى نظم الإسلام مايقرر وجوب التعاون على منع الجرائم ، وذلك بأن جعل على القبيلة غرما مالياً تشترك به مع الجانى من الجناة إذا وجبت عليه الدية ، ولم يكن عنده مال يكفى لسدادها ، إذ أن عصبته تشاركه فى أدائها ، وهى ملزمة فى ذلك غير مخيرة .

وإن هذا بلا ريب يربى فى القبيلة والأسرة شعوراً بالتعاون لمنع الجريمة لكيلا يكون غرمها عليهم ، إذ أن شعور كل واحد من القبيلة بأنه ملزم بجزء من الدية فى كل جرم يرتكبه واحد منها يدفعه إلى الحرص على تجنب ذلك ، ومنع غيره من ارتكاب ما يؤدى إلى هذا الغرم المالى ، وهكذا تتضافر القوى كلها على منع الإثم ، والتشجيع على البر ، فيكون الخير عميا ويختفى الشر ، ولا يظهر .

١٦ — هذه صور واضحة للمجتمع الإسلامى الصغير ، وعمل الإسلام على النهوض به بالتآخى بين آحاده ، ثم التعاون على العمل الجدى المثمر ، ثم بالتهذيب وبث روح الدين والأخلاق الفاضلة الكريمة التى تربط القلوب ، وتوحد النفوس ثم بتطهير المجتمع من الآثام ، ومنع الظلم مطلقاً ، فإن الظلم أقبح خلائق الإنسان وأكثرها جمعاً للشر .

ولو أن المجتمعات الصغيرة قامت على هذه المبادىء فى عصرنا لكانت أهدى سبيلا ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ؟

من فقه الإمامية :

صلاة التراويح

لسماحة العلامة الاكبر السيد شرف الدين الموسوى – لبنان

التراويح : هى النافلة جماعة فى ليالى شهر رمضان ، وإنما سميت (تراويح) للاستراحة فيها بعد كل أربع ركعات .

ونحن الإمامية لا تفوتنا نوافل رمضان والحمد لله ولكننا نؤديها كما كان يؤديها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كمّا وكيفا ، عملا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

وموضوع هـذا البحث بيان وجهة نظر الإمامية فى الاجتماع على صلاة التراويح : فنقول :

شرع الله الاجتماع فى الصلوات الواجبة كالفرائض الخمس اليومية وفى صلاة الاستسقاء والعيدين والآيات وعلى الجنائز .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقيم ليالى رمضان بأداء سننها فى غير جماعة ، وكان يحضّ على قيامها ، فكان الناس يقيمونها على نحو ما رأوه صلى الله عليه وآله وسلم يقيمها .

وهكذا كان الأمر على عهد أبى بكر حتى مضى لسبيله سنة ثلاث عشرة للهجرة (١) وقام بالأمر بعده عمر بن الخطاب ، فصام رمضان من تلك السنة لا يغير من قيام الشهر شيئاً ، فلمّا كان شهر رمضان سنة أربع عشرة أتى المسجد ومعه بعض أصحابه فرأى الناس يقيمون النوافل وهم ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وقارىء ومسبح ومحرم بالتكبير ومحل بالتسليم فى مظهر لم يرقه ، ورأى

(١) وكان ذلك ليلة الأربعاء لثمان بقين من جمادى الآخرة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام .

من واجبه إصلاحه فسنّ لهم التراويح أوائل الليل من الشهر وجمع الناس عليها حكماً مبرماً ، وكتب بذلك إلى البلدان ونصب للناس فى المدينة إمامين يصليان بهم التراويح إماماً للرجال وإماماً للنساء. وفى هذا كله أخبار متواترة .

وحسبك منها ما أخرجه الشيخان فى صحيحهما (١) من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قام رمضان ـ أى بأداء سننه ـ إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وأنه صلى الله عليه وسلم توفى والأمر كذلك ـ أى وأمر القيام فى شهر رمضان لم يتغير عما كان عليه قبل وفاته صلى الله عليه وسلم ـ ثم كان الأمر على ذلك فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر اهـ .

وأخرج البخارى فى كتاب التراويح أيضا من الصحيح عن عبد الرحمن ابن عبدٍ القاريّ (٢) قال : خرجت مع عمر ليلة فى رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون . إلى أن قال : فقال عمر : إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد كان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبى بن كعب [قال] ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم . قال عمر : نعمت البدعة هذه . الحديث .

قال العلامة القسطلانى فى أول الصفحة الرابعة من الجزء الخامس من إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى عند بلوغه إلى قول عمر فى هذا الحديث : نعمت البدعة هذه . ماهذا لفظه : سماها بدعه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنّ

---

(١) فراجع من صحيح البخارى كتاب صلاة التراويح ص ٢٣٣ من جزئه الأول . وراجع من صحيح مسلم باب الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح من كتاب صلاة المسافرين وقصرها ص ٢٨٣ والتى بعدها من جزئه الأول .

(٢) عبد القارى بتنوين عبد وتشديد ياء القارى نسبة إلى قارة وهو ابن ديش بن ملحم ابن غالب المدنى . كان عامل عمر على بيت المال وهو حليف بنى زهرة . روى عن عمر وأبى طلحة . وأبى أيوب . وأبى هريرة . وروى عن ابنه محمد ، والزهرى ، ويحيى ابن جعدة بن هبيرة . مات سنة ثمانين . وله ثمان وسبعون سنة .

لهم الاجتماع لها ، ولا كانت فى زمن الصديق رضى الله عنه . ولا أول الليل ، ولا هذا العدد الخ . وفى تحفة البارى وغيره من شروح البخارى مثله فراجع .

وقال العلامة أبو الوليد محمد بن الشحنة حيث ذكر وفاة عمر فى حوادث سنة ٢٣ من تاريخه ـ روضة المناظر ـ : هو أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد وجمع الناس على أربع تكبيرات فى صلاة الجنائز ، وأول من جمع الناس على إمام يصلى بهم التراويح . الخ . ولما ذكر السيوطى فى كتابه ـ تاريخ الخلفاء ـ أوليات عمر نقلا عن العسكرى (١) قال : هو أول من سمى أمير المؤمنين ، وأول من سنّ قيام شهر رمضان ـ بالتراويح ـ وأول من حرم المتعة ، وأول من جمع الناس فى صلاة الجنائز على أربع تكبيرات . الخ . وقال محمد بن سعد ـ حيث ترجم عمر فى الجزء الثالث من الطبقات ـ : وهو أول من سن قيام شهر رمضان ـ بالتراويح ـ وجمع الناس على ذلك ، وكتب به إلى البلدان ، وذلك فى شهر رمضان سنة أربع عشرة ، وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئا يصلى التراويح بالرجال ، وقارئا يصلى بالنساء . الخ . . .

وحسبنا فى حكمة عدم تشريع الجماعه فى سنن شهر رمضان وغيرها : انفراد مؤديها ـ جوف الليل فى بيته ـ بربه عز وعلا يشكو إليه بثه وحزنه ، ويناجيه بمهماته مهمة مهمة حتى يأتى على آخرها ملحا عليه ، متوسلا بسعة رحمته إليه ، راجيا لاجئا ، راهبا راغبا منيبا تائبا ، معترفا لائذاً عائذاً ، لا يجد ملجأ من الله تعالى إلا إليه ، ولا منجى منه إلا به .

لهذا ترك الله السنن حرة من قيد الجماعة ليتزودوا فيها من الانفراد بالله ما أقبلت قلوبهم عليه ، ونشطت أعضاؤهم له ، يستقل منهم من يستقل ، ويستكثر من يستكثر ، فإنها خير موضوع ، كما جاء فى الأثر عن سيد البشر . أما ربطها بالجماعة فيحد من هذا النفع ، ويقلل من جدواه .

---

(١) العسكرى هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى يكنى أبا هلال اللغوى ، له كتاب الأوائل فرغ من تأليفه يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥ .

أضف إلى هذا أن إعفاء النافلة من الجماعة يمسك على البيوت حظها من البركة والشرف بالصلاة فيها ، ويمسك عليها حظها من تربية الناشئة على حبها والنشاط لها ، ذلك لمكان القدوة فى عمل الآباء والأمهات والأجداد والجدات ، وتأثيره فى شدّ الأبناء إليها شداً يرسخها فى عقولهم وقلوبهم ، وقد سأل عبد الله بن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أفضل : الصلاة فى بيتى أو الصلاة فى المسجد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ألا ترى إلى بيتى ما أقربه من المسجد فلأنْ أصلىَ فى بيتى أحبُّ إلىّ من أن أصلى فى المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة . رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه كما فى باب الترغيب فى صلاة النافلة من كتاب الترغيب والترهيب للإمام زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ، وعن زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : صلوا أيها الناس فى بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء فى بيته إلا الصلاة المكتوبة ، رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : مثل البيت ألذى يذكر الله فيه والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت ، أخرجه البخارى ومسلم وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ، وإن الله جاعل فى بيته من صلاته خيراً . رواه مسلم وغيره ورواه ابن خزيمة فى صحيحه بالإسناد إلى أبى سعيد . والسنن فى هذا المعنى لا يسعها هذا الإملاء .

لكن الخليفة قصد بما أمر به الى التنظيم وجمع الناس ؛ فإنه رجل تنظيم وحزم ، وقد راقه من صلاة الجماعة ما يتجلى فيها من الشعائر بأجلى المظاهر إلى ما لا يحصى من فوائدها الاجتماعية التى أشبع القول فيها علماؤنا الأعلام ممن عالجوا هذه الأمور بوعى المسلم الحكيم .

وأنت تعلم أن الشرع الإسلامى لم يهمل هذه الناحية ، بل اختص الواجبات من الصلوات بها ، وترك النوافل للنواحى الأخر من مصالح البشر .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

— ٣ —

كتبنا فى مقال سابق سببا واحداً من أسباب تفرق المسلمين ، وتصدع وحدتهم واختلافهم على أنفسهم ، فبعد أن كانوا أمة واحدة أصبحوا أمما مختلفة يناوىء بعضها بعضا ، وهذا السبب هو سبب طبيعى ، وهو أنهم دانت الأرض لهم ، وسقطت المقاومة الخارجية فأصبحت مقاومتهم داخلية يقاوم بعضهم بعضا ، ويحذر بعضهم بعضا ، وذهبت تلك الحوافز التى تجمع القلة لدفع الخطر الخارجى وبينا أن ذلك السبب وإن كان طبيعيا فإنه يمكن التحرز منه بالفطنة له واتقاء غوائله ، وأنه فى هذا الزمن قد زال ، فإن أمما كثيرة قد تنبهت ، وضربت فى الحضارة بسهم وافر ، وتقدمت فى العلوم والمعارف ، وتغلبت على الأمم الإسلامية ، وملكت بلادها ، واستولت على خيراتها ، وأصبحت المقاومة الخارجية موجودة ولا يحتاج الأمر إلا إلى التنبه لها ، وتوجيه المقاومة نحوها .

وفى هذا المقال نذكر سبباً آخر لتفرق المسلمين وتصدعهم وهو سبب صناعى لا طبيعى ، وإن الحادثة الآتية التى رواها الطبرى فى تفسيره تبين لنا هذا السبب :

روى أبو جعفر بسنده عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس ـ وكان شيخا قد عسا فى الجاهلية ، أى كبر ، عظيمَ الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم

وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابا من اليهود - كان معه - فقال: أعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج - ففعل، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا! السلاحَ السلاحَ! موعدكم الظاهرة! - والظاهرة: الحرَّة - فخرجوا إليها وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ أبدعوى الجاهلية - وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم - ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟! فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله «شاس ابن قيس» وما صنع، فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع قوله عز وجل: «قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون، قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون، يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم؟».

من ذلك يعلم أن الإخوة الإسلامية من قديم جداً، من عهد النبى صلى الله

عليه وسلم كانت غرضاً لأعداء الإسلام والمسلمين يرمونها بسهامهم ليضعفوا منها، وإنهم ليتوسلون إلى ذلك بالحيل الغامضة والمداخل الخفية .

وقد ألحت الشعوب المغلوبة فى هذا الكيد الخفى لما رأت أن مقاومتها قد سُلبت ، وانها لا تستطيع أن تقاوم المسلمين غلابا واقتساراً ، فرأت أن تلجأ إلى مقاومتهم من طريق الخداع والمكر - كذلك الأمم التى لم تفتح ولكنها تعادى الإسلام والمسلمين إما عداوة دينية وإما عداوة دنيوية لأنها كانت تملك جزءاً عظيما من إفريقية أو آسيا فأجلاها عنها المسلمون فهذه أيضا كانت تقاوم المسلمين بالحيلة والمكر والدهاء .

كان فى هؤلاء وهؤلاء علماء اجتماع يعلمون أسباب رقى الأمم وأسباب انحطاطها وقد درسوا الأمة الإسلامية فرأوا أن أهم الأسباب فى رقيها يرجع إلى الأخوة الإسلامية ، فقد كان فى العرب قبل الإسلام فضائل الأمم البدوية من الشجاعة وعزة النفس والحرية والمخاطرة بالنفس ، وكان السبب فى وجود ذلك فيهم البداوة وعيشتهم التى كانت مبنية على الغارة والسلب ، فكانوا مضطرين إلى تعلم الحرب ومعرفة كيف يدافعون عن أنفسهم ، وكيف يغيرون على غيرهم ، وقد مكن لخلق الشجاعة فيهم أنهم لم يملكوا فلم تضعف شجاعتهم معاناةُ التسلط عليهم ، ولم يَفُلّ حدَّهم ظلمٌ ولا استبداد ، فكانوا كالأسود الطليقة فيها ما فيها من قوة وشجاعة وإباء - كل ذلك كان فيهم ، ولكنهم لم يكن لهم تاريخ لأن شجاعتهم كانت عليهم لا لهم ، فكانوا غير مترابطين : يعادى بعضهم بعضا ، ويغير بعضهم على بعض ، فلما جاء الإسلام أراد أن يحول هذه القوة وهذه المقاومة من الداخل إلى الخارج ، وعلم أنه إذا وحدهم وآخى بينهم ، وجمعهم فلا أحد أعز منهم ، فبث فيهم الأخوة الإسلامية ، واستفاد من شجاعتهم الموروثة فى دفع الأعداء وفتح البلاد ، كل ذلك كان معلوما للعلماء الباحثين فجعلوا الأخوة الإسلامية غرضاً يُرمى ، وسلطوا عليها نبالهم ليزيلوها أو يضعفوها فلا تؤتى نتائجها من التغلب والفتح والدفاع ومقاومة الغازين والمغيرين .

لبسوا لهم لباس الناصح الأمين ومشوا بينهم بالنميمة وصاروا يخيفون بعضهم من بعض ، والمسلمون لسذاجتهم لم يفطنوا إلى هذه المداخل فصدقوهم فنشبت بينهم العداوات والحروب وتقطعت الأواصر :

شواجر أرماحٍ تُقَطِّع بينهم　　شواجرَ أرحامٍ ملومٍ قَطوعُها

تُقتِّل مِنْ وترٍ أعزَّ نفوسها　　عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها

وإن المرء إذا درس تاريخ ملوك الطوائف بالأندلس رأى فيه صورة لما كان يحدث بين المسلمين ، فقد استقل كل ملك بناحية ، وكانت تقع بينهم الحروب فيستعين المغلوب على الغالب بملوك الفرنجة ، وكانوا يعينونهم ليضعفوا الغالب فيسهل عليهم غلبه ، وكانوا إذا اشتدت عليهم شوكة الفرنجة تطلعوا إلى ملوك المسلمين بالمغرب ، واستشفعوا بالأخوة الإسلامية فكانت تارة تعينهم وتارة تخذلهم : لقد استجار ملوك الطوائف بملوك المغرب فأغاثوهم وجهزوا لهم جيشا من شمال إفريقية ، فعبر البحر ، وقاتل الفرنجة حتى هزمهم وفرَّج الكربَ عن سكان الأندلس من المسلمين ، وكانت هذه الإخوة ـ أحيانا ـ تضعف فلا ينهض المسلمون لنجدة إخوانهم فى الأندلس حتى استولى الفرنجة على بلاد الأندلس وأجْلوا المسلمين عنها ومن بقى تنصر وفارق دينه ليستطيع العيش مع الفاتح الجديد ، وإن قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس تشير إلى ما قلناه ، وهى التى يقول فيها :

هل عندكم نبأ من أهل أندلس　　فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم　　قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها　　وما لها مع طول الدهر نسيان

فيم التقاطع فى الإسلام بينكمُ　　وأنتمُ يا عباد الله إخوان

وهى قصيدة طويلة يجب أن تدرس فى جميع مدارس المسلمين لتعرفهم قيمة الأخوة الإسلامية إذا حوفظ عليها ومقدار خسارة المسلمين إذا لم يحافظوا عليها . إن أقل ما يصيبهم من خسارة أن تقطع بلدانهم بلداً بلداً ، وقطراً قطراً ، ثم يتبع

ذلك التشتيت تحت كل نجم وفوق كل أرض ، أو البقاء تحت الأسر والذلة وتحكم العدو وقبول كل ما يمليه عليهم حتى مفارقة الدين والخروج من زمرة المسلمين .

وإذا كان لابد لى أن أختم هذا المقال بكلمة أوجهها إلى المسلمين فى جميع أقطار الأرض فإنى أقول : هذه الأخوة الإسلامية ، وهذا تاريخ الإسلام ، اقرءوه تجدوها قد لعبت دوراً عظيما ، بل كان لها الدور الرئيسى وجوداً وعدما ، فإذا وجدت وقويت كانت عزاً ومنعة وإذا ضعفت كان الضعف والانحلال والموت والزوال ، فأحيوها تحيوا مجدكم ، وابعثوها تبعثوا حضارتكم ، أو على الأقل تحفظوا بلادكم ، وتنجوا من الهوة الفاغرة فاها لتبتلعكم .

هذه الأخوة الإسلامية هى قوام وجودكم فانظروا أين تضعونها وفى أى مكان تكون .

إنه يجب ألا يخدعكم عنها خادع ، ولا يسلبها منكم سالب ، واعلموا أن الناس يلبسون لكم لباس الأصدقاء ويسعون بالنميمة بينكم ، فيخيفون هذا من ذلك ويحذرون ذلك من هذا حتى تظنوا أن كلا يتربص بكم ليقتلكم ، وتذكروا قول ذلك الشاعر العربى القديم :

واعصوا الذى يُزجى النميمة بينكم　　　متنصحا وهـــو السمام المنقع

أيها المسلمون لا تظنوا أن شاس بن قيس قد مات ووقاكم الله شره ؛ فإنه لا يزال حيا بينكم ينفث فيكم سمومه ، يفرق بها كلمتكم ، ويمزق بها وحدتكم ، وهو إن لم يكن موجوداً بينكم بذاته فهو موجود بخلاله وصفاته ، تلقونه حيثما كنتم ، وترونه حيثما توجهتم يؤجج بينكم نار العداوة والبغضاء ، ويوقظ الفتن النائمة والأحقاد الهاجعة .

أيها المسلمون آية من كتاب الله إن تذكرتموها وقتكم ، وإن عملتم بها عصمتكم : « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الأصول الثلاثة والأخوة في الدين

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

إن الإسلام بعقيدته وشريعته وسائر تعاليمه يعبر عن روح الفطرة الصافية الخالصة من أعراض التربية والمحيط ، فمن أراد أن يثبت أصلا من أصول الإسلام ، أو حكما من أحكامه فلا يضطر إلى التكلف واستخدام الأشكال والأقيسة التي لا تؤدى - في الغالب - إلى الطمأنينة ، وارتياح النفس ، وقد رأينا أثرها في تشويش الأذهان وتشعب الآراء والمذاهب ، لذا اكتفى القرآن الكريم ، فيما يتعلق بالعقائد ، بذكر الشواهد البديهية تُرجع الشاك والذاهل إلى فطرته الأولى .

ونذكر في هذا المقام بعض ما جاء في الكتاب العزيز شاهدا على الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، ورسوله ، واليوم الآخر ، فنستدل على وجود الله سبحانه بما اعتبره هو دليلا على وجوده . وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويوم البعث بنفس الدليل الذي خاطب الله به الجاحدين والمعاندين ، وألزمهم به الحجة البالغة ، وإذا لم يقتنع المكابر بحجة الخالق ، فأولى أن لا يقتنع بقول المخلوق .

الأصـل الأول :

الإيمـان بالله ، والدليل عليه الآية ١٩٠ من آل عمران : « إن فى خلق السموات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ونقـدم للقارىء المثل التالى ، ومنه يتضح وجه الدلالة :

إذا رأيت حجراً ملقى فى الطريق بصورة طبيعية ، ولا أثر فيـه لإنسان ، قلت وجد هـذا الحجر هنـا صدفة ، أما إذا رأيت حجراً منحوتاً نحتاً فنياً ، ويرتـكز على الطين بصورة فنية ، فإنك تقول : إن لهذا العمل فاعلا مريداً ، لأن عقلك لا يتصور وجود حجر كهذا صدفة ، نحته ، وامتزاج الكلس والرمل والماء حتى صارت طينا ، ثم تركيزه بشكل فنى ، لا يتصور عقلك أن ذلك كله حصل من باب التفاعل والمصادفات ، فأولى أن يدل إحكام الكون ونظامه واتقانه على وجود خالق عالم حكيم .

الأصل الثـانى :

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتدل عليه الآية ٢٣ من سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للـكافرين » .

وجه الدلالة أن الله سبحانه وتعـالى طلب من الجاحدين أن يعارضوا بمثل سورة من القرآن الذى أنزله على نبيه ، وقرن هـذا التحدى بالاستفزاز ، حيث أكد لهم أنهم لن يفعلوا أبدا ، وفى هـذا دلالة ثانية تضاف إلى عجزهم ، فقد حاولوا واجتهدوا ، ولمـا عجزوا قالوا : ساحر ومجنون ، وهو جواب العاجزين والمـكابرين فى كل عصر ومصر ، هـذا ، وقد عاش محمد فى قومه عمراً طويلا لم يعرفوا فيـه إلا الخير والصدق والعزوف عن الباطل ، حتى لقبـوه بالصادق الأمين ، ولا ريب أن أعرف النـاس بالإنسان قومه وخلطاؤه الذين عاشروه صغيراً وكبيراً ، وساعة غضبه ورضاه ، وعسره يسره .

الأصل الثالث :

يوم القيامة ، وتدل عليه الآيه ٥ من سورة الحج : « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » .

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء والإلزام ، القريب إلى كل قلب ، فبعد أن سألهم هل داخلهم الشك لفت نظرهم إلى إنشائهم وابتداء خلقهم ، وكيف أوجدهم من العدم ، وانتهى بهم إلى نتيجة لا يسعهم إلا التسليم بها والإذعان لها ، هى أن من يقدر على إيجاد المعدومات فهو على إعادة الموجودات وجمعها بعد تفريق أجزائها أقدر ، ابتدأ معهم من الخطوة الأولى ، خطوة الشك ، وهى بداية الحرية العقلية ، وانتهى بهم إلى اليقين والطمأنينة .

العبادة :

إن هذه الأصول هى أركان العقيدة الإسلامية ، فمن لم يؤمن بواحد منها جهلا أو عناداً فليس بمسلم إلا أنها ليست بكل شىء ما لم تبرز خصائصها وآثارها فى عمل مجسم يكون انعكاساً للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، ولهذا الانعكاس الدينى مظاهر شتى ، منها العبادة ، ويستقل الوحى بتشريعها وتحديدها حكما وموضوعا ، ويفسدها العجب والرياء ، وكل غرض من أعراض الدنيا ، ولا تصح إلا بدافع التقرب والإخلاص لله تعالى ، فهى له وحده سبحانه ، لذا قرنها الله فى كتابه بالإيمان به ، بل جعلها مع الأصول الثلاثة الفارق والمميز بين المسلم وغير المسلم .

الأخوة فى الدين .

حدد الله سبحانه الأخوة الدينية فى الآية ١١ من سورة التوبة : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين » .

قال المفسرون : إن التوبة هنا ترك الشرك ، إذن الأخوة فى الدين لا تناط بالرجوع إلى مذهب من المذاهب ، ولا بقول فقيه عظيم ، وشيخ قديم ، ولا بالاتفاق على مسائل الزواج والطلاق والإرث والهبة والبيع والإجارة ، ولا بجواز المسح على الخفين ، أو التكتف فى الصلاة ، وإنما تناط بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

وبهذا : بالأصول الثلاثة والعبادة تتحقق الجامعة الدينية بين كافة المسلمين ، ومن دخلها كان مسلما ، سواء أكان شرقياً أم غربياً ، عربياً أم أعجميا ، سنياً أم شيعيا ، ومن فرق بين اثنين من أبناء هذه الجامعة ، وأقام بينهما الحواجز والحدود فقد صد عن سبيل القرآن ، واتبع خطوات الشيطان .

وبالتالى فإن معنى التقريب بين المذاهب الإسلامية هو إعلان هذه الحقيقة التى نطق بها القرآن ، والدعوة إليها ، والتنبيه إلى أن أى قول أو فعل يخالفها فهو خطأ يضر بصالح الإسلام والمسلمين .

ليكورغوس والحسديون وأبو ذر الغفاري

لحضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

لم يخل عصر ما من ظهور آراء ونظم متطرفة فى الثروة ، وما ينبغى أن يكون عليه توزيعها بين النـاس ، وكان من أشهر من حمل لواء الدعوة إلى هـذه الآراء والنظم فى العصرين القـديم والوسيط المشرع اليونانى ليكورغوس (فى القرن التاسع ق م) ، وجماعة الحسديين فى بنى إسرائيل (فى القرن الثانى ق م) وأبو ذر الغفارى فى صدر الإسلام (منتصف القرن السابع الميلادى) .

وقد اختلفت هذه الاتجاهات الثلاثة اختلافا كبيرا فى مبلغ حظها من النجاح ، فأتيح لأولهـا وهو نظام ليكورغوس أن يأخذ طريقه إلى التطبيق فى دولة من أشهر دول اليونان القديمة وهى إسبرطة ، وظلت هذه الدولة مترسمة قواعد هذا النظام فى معظم أدوار تاريخها القديم ؛ وأتيح لنظام الحسديين أن يطبق فى نطاق ضيق محدود ، وهو نطاق جماعتهم وحدها ، وفى مواطن منعزلة عن الناس ؛ بينما لم يتح لدعوة أبى ذر الغفارى شيء من النجاح ، بل لاقى صاحبها فى سبيلها كثيرا من ضروب العنت والاضطهاد .

* * *

أما نظام ليكورغوس فكان نظاماً اشتراكياً متطرفاً ، فقد ألغى هذا المشرع الملكية الفردية للأرض ، وأعاد تقسيم أرض لاكونيا (وهى المقاطعة التى كان يسكنها قبائل الدوريين ، والتى اشتهرت باسم عاصمتها إسبرطة) إلى ثلاثين ألف قطعة متساوية القيمة بعدد الأسرات الإسبرطية فى ذلك الحين ، وأعطى كل أسرة

قطعة منها . فأصبحت ملكية الأرض جماعية ، وأصبح جميع الأسرات سواسية كأسنان المشط . وجعل للدولة نفسها ـ أى للمجتمع العام ـ نصيباً كبيراً من غلة الأرض ودخل النـاس فى مختلف مظاهر الانتاج . وفى مقابل ذلك تنفق الدولة على جميع الشئون العامة وأعمال الحرب ، وتأخذ على عاتقها تربية جميع الأطفال الذكور ، وتنشئهم تنشئة عسكرية على نفقتها وفى دورها الخاصة ، فكان كل وليد من الذكور تختبر بنيته وقواه الجسمية على يد أمه أولا ، وعلى يد رؤساء عشيرته ثانياً . فإن كان ضعيفاً أو مشوها أعدمته أمه نفسها أو قذف به رؤساء عشيرته خارج الحدود ، وكانت الأم تلجأ إلى مختلف الوسائل لتحقيق هذه الغاية ، فللتأكد من صلاحية ابنها للحياة كانت تغمسه عقب ولادته فى دن من النبيذ وتتركه مغموساً وقتاً ما : فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه للتربية ؛ وإن مات أدت الأم واجبهـا نحو المجتمع بأن خلصته من كائن ضعيف لا يستحق الحيـاة فى نظره ، وكان يعهد بحضانة الغلام إلى أمه تحت إشراف الدولة نفسها ، حتى إذا تجاوز سن الحضانة تسلمته الدولة وقامت بتربيته تربية عسكرية وإعداده لشئون الحرب فى معسكرات عامة ، وعن طريق مربين ومعلمين ومدربين من الجيش ، فإذا بلغ سن الجندية التحق بالجيش العامل ، وظل به حتى يبلغ السن التى لا يقوى فيها على مباشرة أعمال الحروب ، وهكذا كانت دولة إسبرطة كلها أشبه شىء بمعسكر محارب أو متأهب للحرب ، ومن ثم خضعت جميع نظمها الاجتماعية فى مختلف شئون حياتها لمقتضيات الحروب ، فكان نظامها الاقتصادى أدنى إلى ما نسميه الآن بالنظـام الشيوعى : تملك الدولة بمقتضاه قسما كبـيراً من ثروات البـلد ومنتجاته ودخله ؛ وتقوم هى نفسها بتربيـة قسم كبير من أهله وتسخـيرهم فى شئونها العامة .

وأنشأ ليـكورغوس بجانب ذلك نظام « الموائد الجمعية » ويقوم هـذا النظام على تناول الرجال الأطعمة فى جماعات صغـيرة تتألف من خمسـة عشر شخصا على نظام العشائر ، ولكل جماعة ردهة خاصة تتناول فيها طعامها ، وكان على كل مشترك أن يدفع كل شهر إلى المخزن الجمعى اشتراكا عينياً من الدقيق والنبيذ والجبن والتين

واشتراكا نقدياً لإعداد المائدة وشراء مايلزم لطهوها وتكملتها من المواد الأخرى وكان يجب على كل إسبرطى الاشتراك فى هذه الموائد وحضورها ، فما كان يسمح لأحد ، كما يقول پلوطارخوس : « أن يسمن وحده خفية وفى الظلام كما تفعل البهائم الجشعة » وحتى الملوك أنفسهم كانوا ملزمين بذلك . فالملك أچيس عند ماعاد منتصراً من إحدى غزواته ضد الأثينيين لم يستطع الحصول على إذن بتناول عشائه فى منزله مع زوجته . وكان كل إسبرطى يتخلف عن تقديم اشتراكه العينى أو النقدى فى هذه الموائد يجرد من جنسيته ويفقد حقوقه الوطنية . وقد قصد ليكورغوس من هذا النظام ، كما يقول المؤرخ پلوطارخوس : « أن يأخذ مواطنيه بالمعايشة الجمعية ، وينفرهم من حياة العزلة ، ويجعلهم متماسكين متحدين كالبنيان المرصوص ، متضافرين على الصالح العام كجماعات النحل » ولتحقيق هذا الغرض على أكمل وجه كان الإسبرطيون يؤخذون بالتقشف والحياة الخشنة ، وتحرم عليهم مظاهر الترف والنعيم .

وقد شاع فى إسبرطة فى هذا الصدد تقليد غريب ، فقد كان يباح - بحسب نظم ليكورغوس - للأحداث والشبان السرقة من المخازن العامة المملوكة للدولة ومن غيرها . بل كانوا يشجعون على ذلك ، لما تتضمنه هذه المغامرات من تدريب على أعمال الحرب ، وتمرين على ما يلزم للجندى فى ساحة القتال من مهارة وخدعة وسرعة حركة ، ومواجهة لما يطرأ من مفاجآت لم تكن فى الحسبان ، وكان الشاب السارق لا يعاقب إلا إذا قبض عليه وبيده الشيء المسروق قبل أن يتمكن من إخفائه ، وكان لا يعاقب فى الحقيقة على السرقة نفسها ، وإنما كان يعاقب لعدم مهارته فى اقترافها وإحكام وسائلها ، ولذلك كان الشبان يحرصون أيما حرص على نجاح سرقتهم ، وكانوا يعانون فى ذلك أحياناً عنتاً كبيرا ، حتى إنه ليروى أن شاباً إسبرطياً سرق ثعلباً من حظيرة عامة ، وبينما كان يقوده إلى حيث يريد إخفاءه إذ لمح جماعة فى طريقه ، فأخفى الثعلب فى داخل ثيابه حتى لا تنكشف سرقته ، فأنشب الثعلب أظافره وأنيابه فى جسمه ، وظل الشاب متجلداً لمصابه

فلم تبدر منه أية بادرة تنم على ألم أو توجع حتى مرّ بالجماعة بدون أن تفطن لفعلته.
وهكذا نجحت مغامرته ؛ ولكن نجاحها كان على حساب حياته ؛ فقد مات عقب ذلك متأثراً بجراحه.

* * *

وأما جماعة الحسديين Esséniens فكانت إحدى فرق ثلاث انقسم إليها اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد (١). وقد ندد هذه الجماعة بنظام الملكية الفردية وما يجره هذا النظام على المجتمع من نتائج وخيمة ، ونادت بالملكية الجماعية ووجوب المساواة بين الناس وأن يعيش العالم فى سلام دائم ، وحاربت البذخ والترف والحياة الناعمة التى كان يحياها الأغنياء ، ودعت إلى الزهد والتقشف ، وطبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى ، وعاشوا جماعات حول شواطىء البحر الميت فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من ارض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعياً شائعاً يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، ويشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه. وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعيا ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل « رفيق » من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم كان قادما من خارجها ، وكما ألغوا الملكية

---

(١) انقسم بنو إسرائيل من الناحية الدينية إلى ثلاث فرق : فرقة الفروشيين (فروشيم Pharisiens) ؛ وفرقة الصادوقيين (صادوقيم Saducéens) ؛ وفرقة الحسديين (حسديم Esséniens) . ومعنى « حسديم » المشفقون (الياء والميم علامة الجمع فى العبرية) . وقد امتازت هذه الفرقه عن سائر فرق اليهود فى الشئون الدينية بالإكثار من الغسل والوضوء وبتحريمهم تقديم الأضحية والقرابين . هذا ، وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه فيلون الفيلسوف Philon ويوسف المؤرخ Joseph ؛ وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادى.

الفردية فيما بينهم ألغوا كذلك نظام الرق : فجميع أفراد جماعتهم كانوا أحراراً متساوين ، وقد حرموا على أنفسهم الاشتغال بالتجارة لما تبعثه فى النفوس من جشع وحرص على جمع المال وجنوح إلى ابتزاز أموال الناس . ويذكرنا هذا بما يذهب إليه ابن خلدون إذ يقرر : « أن أخلاق التجار نازلة عن خلق الأشراف »(١) . وحرموا كذلك على أنفسهم الاشتغال بصناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التى تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم . وهو أن يعيش العالم فى سلام دائم . ولذلك اقتصرت أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه ويتصل بهما من صناعات . واقتضت مبادئهم فى التقشف والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءهما والتعامل بهما . وبالغ معظمهم فى تطبيق هذه المبادىء فحرموا على أنفسهم الزواج .

* * *

وأما أبو ذر الغفارى فقد بدأ دعوته الاشتراكية فى الشام أيام كان معاوية ابن أبى سفيان واليا عليها من قبل عثمان . فقد هاله ما كان يفعله معاوية إذ يحتجن أموال المسلمين لنفسه يصرفها على أبهته وخدمه وحراسه وأهله وما كان يظهر به من محاكاة القياصرة والملوك ، وما وصل إليه حال الأغنياء من الترف والبذخ واقتناء القصور والضياع واكتناز الأموال وإغفال حقوق السائلين والمحرومين فى أموالهم . فهبّ يندد بهذه الحال ، ويبيّن مبلغ انحرافها عن مبادىء الإسلام ، ويدعو الناس كافة إلى الزهد فى الدنيا ، والعزوف عن ماديات الحياة ، ويدعو الأغنياء خاصة إلى أن ينفقوا جميع ما فضل من أموالهم عن ضروريات حياتهم فى سبيل الله والبرّ بالفقراء والمساكين وذوى الحاجة ، وينهاهم عن الترف والسرف واكتناز الأموال والترفع على المستضعفين والفقراء من الناس ، ويدعو الولاة إلى أن يلتزموا حدود الله فيما يصل إلى بيت المال فينفقوه فى مصارفه التى فرض الله ورسوله أن تنفق فيها ، ويعمل جاهداً على الرجوع بالمجتمع الإسلامى إلى ما كان عليه فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبى بكر وعمر .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٥ طبع مطبعة التقدم .

ولم تشتمل دعوة أبي ذر هذه على إفراط ولا مبالغة إلا من ناحية واحدة . وذلك أنه كاد يوجب على الأغنياء أن ينفقوا جميع ما فضل من أموالهم عن ضروريات حياتهم فى سبيل الله وسدّ حاجات المعوزين ؛ على حين أن الإسلام قد حبّب إلا الناس هذا المسلك ، ولكنه لم يوجبه عليهم إيجابا ؛ بل يعتبر المسلم مؤديا لواجبه المالىّ ما دام لم يقصر فيما فرضته الشريعة أو أوجبته من زكاة وضرائب وصدقات ونفقة على الأهل .

بيد أن هذا ، كما لا يخفى ، هو أضعف الإيمان . ومن بعده منازل رفيعة فى الإسلام تتدرج فى سموها وقربها إلى الله حتى تصل إلى المثل الأعلى الذى حث عليه بو ذر الغفارى وأوحت به إليه روح الإسلام .

وقد أخطأ كثير من الباحثين إذ عدوا دعوة أبي ذر الغفارى والدعوات المشبهة لها فى الإسلام اتجاهات شيوعية . والحق أنها والشيوعية على طرفى نقيض فهذه الدعوات ، إذ تحث الملاك على أداء زكاة أموالهم وعلى البر بالفقراء ، تعمل بذلك على تثبيت الملكية الفردية وحمايتها من كل ما يتهددها من ثورة أو انتقاض من جانب الفقراء والمحرومين ، وعلى اتقاء الصراع بين الأغنياء والفقراء ؛ على حين أن الشيوعية تعمل على إلغاء مبدأ الملكية الفردية نفسه ، وتنادى بجعل الملكيات كلها ملكيات جماعية ، وتمهد لذلك بإثارة الصراع بين الطبقات . من أجل ذلك تعتبر هذه الدعوات السمحة من ألد خصوم الشيوعية ومن أشد ما يوضع فى سبيل انتشارها من معوقات .

هذا ، ولم يتح لدعوة أبى ذر رضى الله عنه شىء من النجاح ، بل لاقى صاحبها فى سبيلها كثيراً من ضروب العنت والاضطهاد ، وانتهى الأمر بأن ضاق معاوية ذرعا به وبدعوته ، فكتب بشأنه إلى الخليفة يستعديه عليه ، فطلب إليه عثمان أن يبعث به إليه فى المدينة . ولما لم يستطع عثمان نفسه أن يمنعه عن متابعة دعوته نفاه إلى الرَّبَذَة فأقام بها حتى وافاه أجله وهو أشد ما يكون اخلاصا لدعوته وأسفا على ما آل اليه حال المسلمين ؟

الحرية الفكرية في اليمن
في القرن الحادي عشر الهجري

للأستاذ الفاضل القاضي محمد بن اسماعيل العمراني

المدرس بدار العلوم العليا بصنعاء اليمن

— ٢ —

أنموذج من روح العلم اليمني في أواخر القرن الحادي عشر :

وهاكم أنموذجا من حركة النهضة العلمية اليمنية ذات الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق في أواخر القرن الحادي عشر من الهجرة ، وهو كتاب : « العلم الشامخ في إيثار الحق على تقليد الآباء والمشايخ » للشيخ صالح المقبلي اليمني ، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٠٨٨ هـ ، وهو الكتاب الوحيد الذي قد أخرجته المطبعة من مؤلفات هذا العالم المستقل والمؤلف المتحرر ، ولم يطبع من مؤلفاته القيمة كتاب غيره ، إذا ما استثنينا تلك التعليقات المفيدة التي كان المقبلي نفسه قد علقها بقلمه على نفس هذا الكتاب القيم وأخرجها لقراء كتابه تحت عنوان : « الأرواح النوافح على كتاب العلم الشامخ » وقد طبعت هذه التعليقات بجانب أصلها في مطبعة المنار الغراء بالقاهرة منذ سنين عديدة .

(والعلم الشامخ) أكبر مثال لحرية عالمنا المقبلي الفكرية وشجاعته العلمية ، وأنموذج لمؤلفاته القيمة التي هي أكبر مثال لنهضة العلم باليمن في أواخر القرن الحادي عشر ، تلك النهضة التي قامت على مبدأ الاجتهاد المطلق ، والاستقلال في الفهم ، والحرية الفكرية الحقة .

ونظرة واحدة فى كتاب (العلم الشامخ) وما علق عليه مؤلفه المقبلى ترينا المقبلى مجددا وترينا المقبلى مصلحا وترينا المقبلى علامة مجتهدا ، وتدلنا على أن المقبلى ما كاد يتوسط فى دراسته لكتب الدين حتى تنبه لما عليه أهل عصره من الجمود على ما عليه آباؤهم وأجدادهم ، وأخذهم جميع ما تركوا لهم من آراء وأقوال فى كتب مخصوصة قضايا مسلمة لا يدور حولها نقاش ولا نقد ولا جدال ، نتيجة للتقليد الذى أوجبوه على أنفسهم ، فكان حائلا بينهم وبين الفهم لكتاب الله تعالى ، ولسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا فرق بين مذهب ومذهب ، وبين قطر وآخر ، "يناقش مشايخه فى كل ما لم يظهر له دليله حتى ولو كان إمام زمانه (المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم) أو محقق عصره (السيد حسن ابن أحمد الجلال) غير ناظر إلى استهزاء المستهزئين ولا كيد الحاسدين كما هو شأن كل مجدد ، وكما هى العادة عند كل مصلح ، كما يراه أيضاً شديداً على هؤلاء المقلدين صارخا بالتبرى من التقليد ومن التمذهب فى غضون أبحاث الكتاب نثراً ونظما ، داعياً إلى وجوب الاجتهاد على من عرف علوم الاجتهاد المعروفة وشب عن الطوق أو شاب ناهياً عن التقليد من قد استطاع إلى الاجتهاد سبيلا .

وما يكاد القارىء لكتاب (العلم الشامخ) هذا يتوسط فى خطبة كتابه حتى يندهش كثيراً حينما يقرع سمعه إعلان المقبلى حريته الفكرية واجتهاده المطلق فى أول ما تلمس يده هذا الكتاب ويفتح أول ورقة من أوراقه وفى ثانى صفحة من صفحات هذا الكتاب القيِّم بشجاعة أدبية وحرية فكرية لا يعهدها ذلك العصر الجامد ولا يكاد يعرفها إذ يسمعه يقول : (هيهات لقد أعمى التعصب البصائر وأفسد التمذهب السرائر غير أنى ذاهب إلى ربى سيهدين) . ويسمعه يقول أيضا : (اللهم إنه لا مذهب لى إلا دين الإسلام فمن شمله فهو أخى وصاحبى) . ويقول أيضا : (إنى برىء من الانتساب إلى إمام معين يكفى أنى من المسلمين فإن سئلت ولم يبق لى من الإجابة بد قلت مسلم مؤمن) . ثم يراه يقتحم كل لجة من بحار العلوم الإسلامية العميقة ويخوض تلك البحار خوض الجسور لا الجبان الحذور ويراه قد توغل فى كل مشكلة يهاب الدخول فيها غيره من علماء ذلك العصر الذى

ساد فيه الجمود . وهجم على كل معضلة يخاف من الهجوم عليها كثير من فقهاء ذلك القرن الذى وجب فيه التقليد وعم فيه الركود وتفحص عن عقيدة كل فرقة من فرق الإسلام . واستكشف كل مذهب مشهور من مذاهب علماء الإسلام وفرق بين المحق والمبطل والمتعسف والمنصف وبين الشيعى والسنى وبين المتكلم والسلفى وبين الأشعرى والمعتزلى وبين الفقيه والصوفى وبين المحدث والجدلى وبين صاحب السنة وصاحب البدعة وبين المجتهد والمقلد وبين الدليل وشبه الدليل وهلم جرا لا يقال له قول سنى أو شيعى إلا وقد عرف كيفية تسننه أو تشيعه ولا يمر بقول سلفى إلا وقد ظهر له وجه قوله . ولا يذكر كلاما لمتكلم إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومآله . ولا يمضى على قول جدلى إلا وقد اتضح له صحة مناظرته وجداله . ولا يسوق كلاما لمعتزلى إلا وقد اتضح له وجه دعواه . ولا أشعرى إلا وقد ظهر له مفهوم كلامه وفحواه ولا يقبل رواية راو من أهل الحديث إلا وقد عرف صحة ما رواه ولا يقبل رأى فقيه أستطره فى كتابه إلا وقد برهن الفقيه على وجه مارواه . ولا يعترف لصاحب السنة إلا إذا قد طابق اسمه مسماه ولا يمر عليه رأى لمبتدع إلا أنكر عليه هواه وكم يشن الغارة على ما يراه فى أقوال الصوفية من البدع فى الدين والمخالفة لنهج سيد المرسلين وهكذا وهلم جرا .

كل ذلك استطاعه المقبلى بما أوتى من فكر ناضج وعقل راجح وملكة راسخة فى العلوم واطلاع واسع فى جميع المعارف وقدم ثابتة فى جميع الفنون وحرية فكرية حقة واستقلال على تام واجتهاد مطلق لا يعرفه ذلك العصر مع بيان رائع وأسلوب ساحر وكلام جذاب لذوى العقول والألباب .

أفرأيت أيها القارىء الكريم ، هذا الكتاب الذى لا ينتمى الى مذهب غير الإسلام ولا ينتسب الى فرقة من الفرق غير شريعة الإسلام ولا يعتزى الى إمام من أئمة العلم غير نبى الإسلام . ولا يعتمد على كتاب غير السنة والقرآن . أخرجه مؤلفه فى عصر أوجبوا فيه التقليد وجمدوا فيه الجمود .

وإن هذا العرض الموجز لدليل كاف على ما كنت قلته فى أول مقالى هذا

من أن حركة النهضة العلمية اليمنية ذات الحرية الفكرية قد سبقت غيرها فى سائر أقطار العالم العربى من هذه الناحية ، والآن سل التاريخ واخبرنى واسأل الأسفار وانبئنى . سل التاريخ هل احتفظ بكتاب من كتب الدين التى ألفت فى العصر العثمانى يماثل كتاب (العلم الشامخ) استقلالا واجتهاداً وحرية وانصافا ، سل الأسفار التى ألفت فى هذا العصر الراكد هل يوجد فيها كتاب دينى يقول مؤلفه مثلما قال مؤلف العلم الشامخ (اللهم أنه لا مذهب لى إلا دين الإسلام فمن شمله فهو أخى وصاحبى) وغير ذلك مما فى هذا الكتاب الجليل ، لو كانت الأسفار تستطيع أن تجيب أو لو كان التاريخ يستطيع أن يتكلم لما كان الجواب إلا سلبياً ، ولنادى الجميع بأعلى صوت اللهم لا ، اللهم لا هذا هو (العلم الشامخ فى إيثار الحق على تقليد الآباء والمشايخ) .

وأظن أن الذين لم يقدروا المقبلى حق قدره لم يطلعوا على كتاب من كتبه النافعة كهذا الكتاب الذى عرضته ، والذى ما هو إلا قطرة من بحر علم هذا العالم الكبير ، ونور واحد من أنوار شمس حرية فكر هذا المجدد العظيم ، أو لعلهم اطلعوا على بعض من تلك الكتب النافعة ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت جامدين غافلين لم يخلعوا أغلال التقليد من أعناقهم ولا كانوا على جانب عظيم من التسامح المذهبى .

فهذا مثال من أمثلة حركة العلوم الدينية فى اليمن فى أواخر القرن الحادى عشر وهى تمثل الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق بكل ما فى كلمة الاجتهاد المطلق والحرية الفكرية من معنى واذا لم يكن هذا اجتهاداً مطلقاً فما فى الدنيا اجتهاد والمقصود هو هداية المنصف لا مجادلة المتعسف وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ؟

في التاريخ والأدب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى الأستاذ فى كلية اللغة العربية

— ٣ —

حلوان — خندف :

أخوان كريما الأبوين ، أبوهما عمران بن الحافى بن قضاعة ، وأمهما ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد ، فالتقى فيهما رافد السؤدد من قحطان وعدنان .

نسبتهما لأبويهما :

إن بنوة حلوان لهما لا اختلاف فيها بين المؤرخين وعلماء الأنساب ، يقول ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب (١) : « ولد عُمران بن الحافى : حلوانُ بن عمران أمه ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد » .

وفى تهذيب الأسماء واللغات للنووى القسم الثانى (حرف الحاء) أسماء المواضع (حلوان) يقول : « حلوان ... نسب إلى حلوان بن عمران بن الحافِ بن قضاعة » (٢).

وفى القاموس مادة (الحلو) يقول : « وحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة » ولم أر فى كتب أخرى ما يخالف المصادر السالفة ، فلا داعى لكثرة النقول اكتفاء بها .

---

(١) ص ٤٢١ طبع دار المعارف .

(٢) الحاف فى عبارة التهذيب بكسر الفاء ، كما هو مذكور فى هامش الاشتقاق لابن دريد ص ٣١٣ ، فقال : « الحاف مما حذفت العرب ياءه اجتزاء بالكسرة ، كقولهم : العاص فى العاصى » الخ ، وعلى هذا يصح ذكره بالوجهين ، فقد روى بالياء فى الجمهرة وبدونها فى التهذيب والقاموس ، ويلاحظ ذلك فى الآتى إن شاء الله .

وأما بنوة خندف لها فأكثر المصادر الوثيقة على نسبتها لها ، يقول ابن هشام في السيرة : « خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة » وفي شرح الروض الأنف للسهيلي : « واسمها ليلى وأمها ضرية بنت ربيعة بن نزار » (١) .

وقد نقل البغدادي المناسبة في شرح شواهد شرحي الشافية ، الشاهد التاسع والأربعين بعد المائة هذين النصين عن ابن هشام والسهيلي .

والذي يثير العجب والاستغراب أن البغدادي نفسه في خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الخمسمائة نقل عن ابن هشام أن خندف بنت الحاف بن قضاعة ، بحذف أبيها وإضافتها إلى جدها .

وفي يقيني أن ذلك مما سها فيه الكاتب أو الطابع ، إذ ليس بمعقول ذلك الاختلاف الجوهري في الأبوة مع اتحاد المصدر المنقول عنه في الموطنين ، ومع اتحاد الناقل فيهما .

وأعجب من ذلك وأغرب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد إذ قال : « وأمهم خندف وهي ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة » (٢) .

لأنه جعلها ابنة أخيها ، ولا يسمح بمثل هذا في عرف الأنساب ، فالبنوة للجد على رواية البغدادي في الخزانة تستساغ لأن الجد أب أعلى ، أما البنوة للأخ فلا عهد بها في المتعارف أبدا ـ وقد جرى المجد في حلْبة ابن عبد ربه إذ قال في القاموس مادة (الخندوف) ما نصه : « وأمهم خندف وهي ليلى بنت حلوان ابن عمران » ـ ولعل هذين النصين كانا مرجعي المرصفي فاتبعهما دون تفتيش وتحر ، إذ قال في رغبة الآمل على الكامل : « خندف لقب ليلى بنت حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة » (٣) .

على أنه مما يعد حسنا لهذه النصوص الثلاثة التي أقحمت أخا خندف : حلوان

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٦١ مطبعة الجمالية .

(٢) العقد (أنساب مضر) ج ٣ ص ٣٣٨ ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٣) الكامل شرح الرغبة ج ٣ ص ٤٢

وجعلته أباها ، كانت على الصواب فى جعل حلوان بن عمران كالنصوص السابقة عند بنوة حلوان .

والخلاصة : أن حلوان وخندف أخوان لأب وأم شقيقان ، نشآ فى ربوع العز ، وسلكا دروب المجد ، اقتفاء لأبويهما : عمران وضرية ، ولكل منهما شأن خطير ، ينبغى إفراده بالحديث ، فلنبدأ بحلوان على حسب الأولوية من تقديم الأخ على الأخت .

حلوان :

جرى فى مضمار المجد بين يدى أبويه الماجدين ، ومكن له فى الدنيا بما استبق ذكره ، وخلد اسمه ، فلم يتخلف عنهما فى قوة النفوذ وبعد الصيت ، فكما سجل فى الدنيا اسم أمه على حماها (حمى ضرية) على ما بسطناه فى الحديث عنه سلفا ، كذا دون اسمه على المدينة المنسوبة إليه مدينة (حلوان) العراقية ، وناهيك بهذا الأثر الكبير القائم على مر الأيام ، على أنه بعدئذ قد بارك الله له فى ذريته ، إذ استمر التوالد فيها مع اطراد التكاثر فى نسلها ، قرنا بعد قرن ، واسمه يملأ الأسماع ، ويتنقل فى البقاع ، حتى جاء الإسلام ، فاهتدى بنوره بعض حفدته ، ونالوا شرف الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتلك هى المفخرة التى لو نُبِّئَها حلوان فى رمسه لحار جواباً ، وعجز شكرا .

بقى أن تقف على مستندنا فى عد هاتين المأثرتين ، فهاك النصين : قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات القسم الثانى (الحاء) أسماء المواضع : « حلوان آخر حد السواد مما يلى المشرق نسب الى حلوان بن عمران بن الحاف لأنه بناه » ـ ويقول المجد فى القاموس مادة (حلو) . « وحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، من ذريته صحابيون ، وهو بانى حلوان » ـ وإنه لما يزداد به البيان فى التنويه بحلوان أن نلم بكلمة خاصة بالتعريف بشأن هذه المدينة ، وأن نذكر طرفا يسيراً من التاريخ فيما يتعلق بفتحها الإسلامى .

تعريف بحلوان العراق :

قال ياقوت : « حلوان العراق وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ، وقيل إنها سميت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، كان بعض الملوك أقطعه إياها فسميت به ... قال أبو زيد : أما حلوان فإنها مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى أكبر منها وأكثر ثمارها التين ، وهي بقرب الجبل ، وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها ، وربما يسقط بها الثلج ، وأما أعلى جُبُلها فإن الثلج يسقط به دائما ، وهي وبِيَّة ردية الماء وكبريتيه ، ينبت الدِفْلى على مياهها ، وبها رمان ليس ليس في الدنيا مثله ، وتين في غاية الجودة ، ويسمونه لجودته : شاه انجير : أي ملك التين ، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء » .

حلوان في فجر التاريخ الإسلامي :

لمدينة حلوان في التاريخ الإسلامي ذكر دَوّن في صحائفه العزة والمنعة للأمة الإسلامية البسيطة عددا ، الفتية عزيمة وقوة ، مع ضعف شكتهم ، وقلة لأمتهم ، كما دون فيها الخور والرعب للفرس ، مع كثرة نفيرهم ، واستكمال أسلحتهم .

ذلك أنه بعد فتح القادسية في الموقعة المشهورة ، وتراجع الجيش الفارسي إلى المدائن (عاصمة آل ساسان) استنهض كسرى (يزد جرد) همم الفرس ونظم جيشه أملا أن يصد هذا الهجوم المباغت ، ولكنه ما لبث حتى أحاط به الجيش العربي من حيث لا يحتسب ، فانهزم الفرس وبدا لهم أن يوغلوا في بلادهم بعيداً عن الجيش الإسلامي ليجتمع أمرهم ، فتركوا من بلادهم وراءهم جلولاء ، ونزلوا في (حلوان) بخيلهم ورجلهم ، واستفز كسرى الفرس ، واستنفر كل من يقوى على حمل السلاح ، فأجمعوا أمرهم ، وصمموا على الانقضاض على الجيش الإسلامي ، غير أنهم لما سمعوا بدخول المسلمين جلولاء ارتعدت فرائصهم ، وتفككت أوصالهم ، وتمثلوا الأُسد الإسلامية تزأر حولهم ، فلم يجدوا بدأ من ترك (حلوان) بعد ما أعدوا فيها ما أعدوا : تركوها مفتحة الأبواب دون حامية ، تستقبل

الإسلام وتفتح ذراعيها للعهد السعيد ، فدخلها المسلمون دون حرب ، وصالحهم أهلها على أن يؤمنوهم ، إنه لنصر من الله مؤزر ، فقد كفى الله المؤمنين القتال ، ولفتح الصلح الأثر الجميل الباقى فى نفوس الحاكمين والمحكومين . يقول ياقوت فى بقية الحديث الماضى عن حلوان : « وأما فتحها فإن المسلمين لما فرغوا من جلولاء ضم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وكان عمه قد سيره على مقدمته إلى جرير ابن عبد الله البجلى فى خيل ، ورتبه بجلولاء فنهض إلى حلوان ، فهرب يزدجرد إلى أصبهان ، وفتح جرير حلوان صلحاً على أن كف عنهم وأمنهم على ديارهم وأموالهم ... فأقام بها والياً ... قال الواقدى بحلوان عقبٌ لجرير بن عبد الله البجلى ، وكان قد فتح حلوان فى س ١٩ ، وفى كتاب سيف فى س ١٦ ... وقال القعقاع بن عمرو التميمى :

وهل تذكرون إذ نزلنـــا وأنتم	منازلَ كسرى والأمور حوائل
فصرنا لكم رِدْءاً بحلوان بعد ما	نزلنـــا جميعاً والجميع نوازل
فنحن الألى فزنا بحلوان بعد ما	أرنّتْ على كسرى الإماء الحلائل

ولقد رأيت فيما طالعت أمراً عجبا تكرر فى هذه المدينة من طريق الاتفاق كلما وردها الحارثى ، مما يحار المفكر فى تسبيبه ، ولهذا أسوقه تاركا التعليق عليه للناظر فيما عسى أن يكون الداعى إليه ، وما إخال حدسا يدنى إلى تعرف أو تقريب السبب فيه ، وإنما أسوقه لمجرد الإخبار بما تفعله الطبيعة ، والعلم عنده سبحانه وتعالى .

ظاهرة مدهشة فى حلوان :

تولى على بن الجهم القرشى الشاعر المشهور مظالم (حلوان) فى خلافة جعفر المتوكل على الله ، وكان كلما دخلها الحارثى أصابتها الزلزلة ، فإذا غادرها سكنت ، قال أبو الفرج الاصبهانى : « قال ابن الجهم : كان الحارثى يجىء إلى حلوان وأنا أتولاها ـ وكان على بن الجهم على مظالمها ـ فإذا وردها وقع الإرجاف ، فلم يزل متصلا حتى يخرج ، فإذا خرج سكن الإرجاف ، فأتانى مرة وظهر كوكب الذنب فى تلك الليلة ، فقلت :

لما بدا أيقنتُ بالعطب   فسألت ربي خيرَ مُنقلب
لم يطلعا إلا لآبدةٍ   الحارثُ وكوكب الذنب (١)

وبقي استيفاء للحديث عن (حلوان) العراق أن نذكر نبذة عن كسرى يزدجرد الذي ألب الفرس فيها ، ثم تركها مذعوراً إلى الشرق ، وكلما حاول استجماع قوى الفرس انتكث فتله ، إلى أن لقي مصرعه ، فانقضت بزواله دولة الساسانيين ، إذ كان الرابع عشر لملوك ساسان بعد كسرى أنوشروان الذي ولد في عهده النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أول المسلمون من الآيات التي حدثت في ميلاده صلى الله عليه وآله وسلم آية سقوط الشرفات الأربع عشرة بذلك ، فكان كما اعتقدوه .

قال القسطلاني : « ومن عجائب ولادته أيضاً ما روى عن ارتجاج إيوان كسرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ... وفي سقوط أربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات ، وقد ملك منهم في أربع سنين عشرة ذكره ابن ظفر ، وزاد ابن سيد الناس وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه » (٢) .

قال ابن الأثير : « وولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطان كسرى أنو شروان ، وأرسله الله تعالى لمضي اثنتين وعشرين من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان ، وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك أبرويز » (٣) .

يَزْدَ جِرْد :

ولي ملك فارس عشرين سنة ، بعض هذه المدة قام بتدبير الملك فيها عظماء الدولة ووزراؤها لحداثة سنه عند ولايته ، وبعضها لا يعد فيها مع الملوك لأنه كان

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢١٠ طبع الدار ، الإرجاف : الزلزلة ، والآبدة : الداهية الخالدة الذكر ، والأمر العظيم تنفر منه وتستوحش .

(٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٣

(٣) الكامل ج ١ ص ٢٦٩ وما بعدها ، الطباعة المنيرية .

مشردا طريدا أمام الجيوش الإسلامية ، فقد فتحت بلاده ومدنه بلدا بلدا ومدينة مدينة فى خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وانتهى بهلاكه ملك آل ساسان ، قال شهاب الدين النويرى : « وهو آخر الملوك الساسانية وعليه انقرضت دولتهم ، فلم تقم لهم قائمة ، وتردد إلى بلاد خراسان وإلى بلاد الترك ، وعاد فقتل بمرو من بلاد خراسان فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه » (١) .

الله أكبر ، وما النصر إلا من عند الله ، تقهر الدولة الإسلامية الناشئة الفتية كسرى الفرس ، وتستحوذ على أملاكهم الواسعة الأطراف ، التليدة فى حضارتها وقوة بأسها ، والفرس إحدى الدولتين المتقاسمتين العالم آنذاك ، مع كثرة اعتدائها على الروم ، وطمعها فى القضاء عليها ، ولا ينسى التاريخ الإسلامى جبروت كسرى أَبَرْوِيز واستهانته بكتاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

فإن من كاتبهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم من الملوك والقياصرة فى هدنة الحديبية المعروفة أحسنوا جميعاً الرد عدا هذا المجرم الآثم ، فإنه مزق الكتاب استكباراً وعتوا ، وأرسل لعامله باليمن أن يوجه للرسول من يأتى به إليه ، ولما بلغ ذلك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « مزق الله ملكه كل ممزق » وقد كان ذلك فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه بمؤازرة الفرس وقتلوه .

تمضى الأيام سراعا وتنقلب الأوضاع ويقتل المسلمون كسراهم الأخير ، ويتملكون إيوانهم ، ويلون أمور شعوبهم ، ويغنمون منهم ما لا يظنون ، وما لا عهد لهم به من أثاث ومال وتيجان وآثر عادية ، ويأسرون منهم بعد أن أثخنوا فى الأرض ، ومرجع هذا الظفر الأبدى إلى اعتصام المسلمين بحبل الله المتين « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

تأمل أيها القارىء بعين الاعتبار ، فقد كان من الأسارى بنات يزدجرد العنيد ، عوملن فى المدينة المنورة معاملة كريمة خاصة ، أوحى بها الروح الإسلامى ، لأن الإسلام دين الرحمة والإحسان واللطف والحنان .

(١) نهاية الأرب ج ١٥ ص ٢٣٣ طبع الدار .

بنات يزدجرد :

قال ابن خلكان : « وذكر أبو القاسم الزمخشرى فى كتاب (ربيع الأبرار) أن الصحابة رضى الله عنهم لما أتوا المدينة بِسَبْى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزد جرد أيضا ، فقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة ، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال يُقَوَّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقومن ، فأخذهن على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد » (١) .

تأثيرهن فى التخفيف من العرف الجارى :

كان حكم العرف الجارى فى الجاهلية وصدر الإسلام والدولة الأموية يقضى بوضع ابن الأمة بعد ابن الحرة ، فكان الهجين يستخذى من أمومته ، وقد حماها ودافع عنها ببأسه ومنصله قديماً عنترة إذ يقول :

وأنا امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل (٢)

ومن النوادر الفكهة : أن الخليفة عبد الملك خطب لبعض بنيه من عقيل

---

(١) وفيات الاعيان (ترجمة على زين العابدين) ونقل هذا أيضا فى رغبة الآمل على الكامل ج ٥ ص ٤٩

(٢) شطرى مبتدأ والخبر فى المجرور قبله ، والمراد به أبوه ، والشطر الثانى أمه ينوب عن كرمها حمايتى بالسيف ، فأنا خير فى قومى ممن عمه وخاله منهم وهو لايغنى غنائى . ويعرض فى ذلك بقيس بن زهير عندما فر من تميم ووقف عنترة فقال قيس : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء ، والبيت من قصيدة فى الديوان أول قافية اللام .

ابن علقة المرى ابنته الجرباء على ما به من شظف العيش ، فأطرق مليا ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين جنبنى هجناءك ، فضحك عبد الملك » (١) .

ولقد حدثت مهاترات بين بعض النابهين من الهجناء وبعض الصرحاء تراها مبسوطة فى كتب الأدب وطالت الألسنة فى هذه الناحية ، قال المبرد : وأنشدنى الرياشى :

إن أولاد السرارى كثروا يارب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

كان هذا فاشياً إلى أن ولدت بنات يزدجرد من لهم فى الإسلام قدم صدق ممن يعتز بهم المسلمون (بنو الخالات المرموقون بالتبجيل والتعظيم) نخفت صوت هذه النعرة القديمة المستمرة ، حتى قال سيدنا على رضى الله عنه : (ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم) وأقبل كثير من سراة المسلمين على التسرى ، وأمحت من النفوس تلك العادة البالية ، وهاك طريفة يلتمس منها جمال التأسى .

طريفة :

قال المبرد فى الكامل : « ويُروى عن رجل من قريش لم يسم لنا ، قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، فقال لى يوما : من أخوالك ؟ فقلت أمى فتاة ، فكأنى نقصت فى عينه ، فأمهلتُ حتى دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله ، فلما خرج من عنده قلت يا عم من هذا ؟ فقال : يا سبحان الله ، أتجهل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر ، قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة ، قال : ثم أتاه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رحمه الله فجلس عنده ثم نهض ، فقلت : يا عم من هذا ؟ فقال : أتجهل من أهلك مثله ، ما أعجب هذا . هذا القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق ، فقلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة ، فأمهلت شيئاً حتى جاء على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فسلم عليه ثم نهض ، فقلت :

(١) راجع الأغانى جـ ١١ ص ٨٢ ساسى ، والعقد الفريد جـ ٣ ص ٤٠٥ طبع لجنة التأليف

يا عم من هذا ؟ قال : هذا الذى لا يسع مسلماً أن يجهله ، هذا على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، قلت : فمن أمه ، قال : فتاة ، قال : قلت : يا عم رأيتنى نقصت فى عينك لما علمت أنى لأم ولد ، أفما لى فى هؤلاء أسوة ؛ قال : (فجللت فى عينه جداً) (١) .

إن نفسى تطيب ، وصدرى ينشرح للحديث عن هؤلاء الثلاثة المعلّمين ، لولا أنى أخاف أن يمتد الحديث ويطول ، وليس المقام للتاريخ خاصة ، لكن لا يفوتنى الإشارة إلى سيدنا زين العابدين ، لأن الله أراد له أن يكون سلالة الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أم معروفة ومن خيرات النساء : سلافة بنت يزدجرد ، ولذا قال المبرد : « وكان يقال له : ابن الخيرتين لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله من عباده خيرتان ، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس » (٢) وكان مضرب المثل فى البر بالأم .

بر زين العابدين بأمه :

اشتهر بين المسلمين وفى المدينة بهذه الفضيلة ، ولما رأى الناس منه ما ظنوه منافيا للبر كان جوابه آية السمو فى البر . قال المبرد : « ويروى أنه قيل لعلى ابن الحسين رحمه الله إنك من أبر الناس ولست تأكل مع أمك فى صحفة ، فقال : أكره أن تسبق يدى إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها » (٣) .

معذرة :

كنت قدرت أول المقال أن يتم فيه الحديث عن الأخوين ، ولكن . وتقدرون فتضحك الأقدار ، إذ أن حلوان ومدينته وتاريخها العاطر تطلب كل من الثلاثة الإنباء عن مجمل من خبره فاستنفد المحسوب للمقال ، مما اضطرنى إلى إرجاء الحديث عن الأخت إلى الغد ؟

(١) الكامل شرح الرغبة جـ ٥ ص ٤٨ وما بعدها ، ونقله عن المبرد ابن خلكان فى الوفيات (ترجمة زين العابدين) .
(٢ ، ٣) الكامل جـ ٥ ص ٥٠ .

من بحوث معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة

أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى الاستاذ بكلية الشريعة بالازهر

القطعى والظنى فى الشريعة الإسلامية

١ — القطعيات ، أو « ما ليس محلا للاجتهاد » : العقائد الأساسية فى الإيمان — الأحكام العملية التى التحقت بها — القواعد الكلية القطعية .

الظنيات ، أو « مواطن الاجتهاد واختلاف النظر » : المعارف الكلامية — الأحكام الفقهية — القواعد الأصولية أو المذهبية .

٢ — الحكمة فى ورود الشريعة الإسلامية بهذين النوعين .

٣ — هذا التقسيم مسلم به على الجملة من جميع علماء المسلمين ، وإنما وقعت الفرقة والتشاحن من إلحاق بعض الظنيات بالقطعيات اشتباها أو تعصبا .

* أمثلة لذلك فى المسائل الكلامية : القضاء والقدر — الحسن والقبح العقليان — رأى ابن القيم فى هذه المسألة .
* أمثلة لذلك فى المسائل الفقهية : حل متروك التسمية عمداً من الذبائح — المسح على الخفين — نكاح المتعة —

٤ — الخلاف لا يمنع الانصاف والائتلاف .

---

١ — هناك نوعان من المسائل والأحكام يستطيع الناظر فى علم الشريعة الإسلامية أن يفرق بينها ، وأن يهتدى بهذا التفريق فى بحثه ودرسه :

النـوع الأول :

الأحكام القطعية التى قام الدليل على أنها ثابتة لاتتغير بتغير الزمان أو المكان ، ولا يجوز الاختلاف فيها ، ولا تخضع فى ثبوتها ونفيها لاجتهاد المجتهدين .

ويمكننا أن نرجع هذا النوع إلى ما يأتى :

أولا : العقائد القاطعة التى يجب الإيمان بها لقيام الدليل اليقينى - فى ثبوته ودلالته - عليها ، وعلى أنها الحد الفاصل بين المسلمين وغير المسلمين ، ومن جحد شيئا منها فقد خرج من ربقة الإسلام ، وذلك كالتوحيد ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وختم النبوة بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال فى الدار الآخرة ، وأن الله تعالى متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقصان ، وأن الرسل لايجوز عليهم الكذب ولا الكتمان ولا الخيانة ، إلى غير ذلك من العقائد التى يكون بها المسلم مسلما ، والتى يخرج من الإسلام إذا جحد شيئاً منها .

فليس لأحد أن يجتهد فى ذلك وأمثاله ، لأنه ليس محلا للاجتهاد ، إذ هو حقائق متعينة ثابتة باقية لا تتغير مهما تغير الزمان أو المكان إلى يوم الدين ، وليس هناك احتمال ما لثبوت تغيرها أو بطلانها .

ثانياً : الأحكام العملية التى جاءت بها الشريعة بطريقة واضحة حاسمة فى جانب الإيجاب أو المنع أو التخيير ، وذلك مثل وجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وكون الصلوات خمساً فى اليوم والليلة ، وكون هيئة الصلوات هى هذه الهيئة المعروفة ، وأعداد ركعاتها هى الأعداد المعروفه ، ومثل تحريم قتل للنفس بغير الحق ، وأكل الأموال بالباطل ، وقذف الأعراض ، والزنا ، والإفساد فى الأرض ، ونحو ذلك ، ومثل إباحة الطيبات وتحريم الفواحش . . . الخ .

ثالثاً : القواعد الكلية التى أخذت من الشريعة بنص واضح ليس فيها ما يعارضه تقريراً أو تفريعاً ، أو استنبطت بعد الاستقراء التام وعلم أن الشريعة

تجعلها أساساً لأحكامها ، وذلك مثل : « لا ضرر ولا ضرار » . « ما جعل عليكم في الدين من حرج » . « الحدود تدرأ بالشبهات » . « لا يُعبد الله إلا بما شرع » « المعاملات طَلْقٌ حتى يثبت المنع » ونحو ذلك .

النوع الثانى :

أحكام أو نظريات لم تجىء على هذا النحو الواضح القاطع فى وروده ومعناه ، ولكنها جاءت أو جاء ما يدل عليها أو يشير إليها ، على نحو صالح لأن تختلف فيه الأفهام ، وتتعدد وجهات النظر ، إما لأمر يتعلق بأصل الورود ، أو بالدلالة والإفادة .

وهذا النوع هو الذى جعلته الشريعة موضع اجتهاد المجتهدين ، وجعلت منه مجالا للنظر والتفكير والموازنة والترجيح والاستقراء والتتبع وتقدير المصلحة والعرف وتغير الحال ، إلى غير ذلك من وجوه النظر ، وأسباب الاختلاف .

ومن هذا القبيل :

(ا) فى جانب المعارف الكلامية : ما كان من اختلاف النظر فى شأن القضاء والقدر ، وفى تأويل ما ورد من إثبات الوجه واليد والعين ونحو ذلك لله تعالى على معنى يليق بالتنزيه ، أو التفويض بإبقائها على ما وردت عليه بدون تأويل مع اعتقاد أنه تعالى « ليس كمثله شىء » ، وفى إمكان رؤية المؤمنين لله أو عدم إمكانها ، وفى وجوب التوقف عن الخوض فيما شجر بين الصحابة من خلاف أفضى إلى التنازع والحرب أو إباحة ذلك لمن شاء ، إلى غير ذلك .

(ب) وفى جانب الأحكام الفقهية : اختلاف الفقهاء فى مقدار الرضاع المحرِّم لقيام علاقة زوجية ، وفى حكم القصاص فى القتل بالإكراه ، وفى صحة النكاح ونفاذه ولزومه إذا باشرت المرأة العقد دون وليها ، وفى القضاء بشاهد ويمين من جانب المدعى ، وفى القضاء بالقرائن ، وغير ذلك من المسائل الخلافية الفقهية .

(ج) وفى جانب القواعد الأصولية أو الفقهية التى تُفَرَّع عليها الأحكام : اختلاف النظر فى أن القرآن ينسخ أو لا ينسخ ، وبم ينسخ ، وفى العمل بالقياس ،

وفى العمل بالعقل ، وفى كون الزيادة على مافى الكتاب نسخا ، وفى تقديم أحاديث الآحاد أو أقوال الصحابة على القياس ، إلى غير ذلك .

٢ — والحكمة فى ورود هذين النوعين من الأحكام فى الشريعة الإسلامية : أن أمر الناس لا يصلح إذا جاءت الأحكام والمسائل كلها على نمط واحد : فلا يصلح فى أمور العقائد وأصول الدين أن يترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم ، كما لا يصلح ذلك فى حقائق العبادات وصورها ورسومها ، ولا فى أصول المعاملات التى تقوم عليها ، فكان من رحمة الله بالناس أن وقاهم شر التفرق فيها ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ، يعرف من دخلها ومن خرج عنها ، وسما بالحقائق الواقعة عن أن تكون محل خلاف أو تنازع - أما الفروع التى لا يضر الاختلاف فيها ، سواء أكانت فى الجوانب النظرية أم فى الجوانب العملية ، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها ، ولو أنها وحدت لجمدت العقول ، ولاصطدمت الشريعة فى كل زمان ومكان بما يجد للناس من صور المعاملات ، وبما لا بد منه من مراعاة المصالح ، ودرء المفاسد ، لذلك كان من رحمة الله بالناس وحكمته فى التشريع لهم ، أن يفتح للعقول مجال النظر ، وأن يجعل من ذلك مددا لا ينضب معينه لما يجدّ من القضايا والصور ، ولما تساير به الشريعة المصالح (١) .

٣ — وهذا التقسيم الذى ذكرناه مسلم على الجملة لدى جميع علماء الإسلام فى مختلف المذاهب ، لا تكاد تجد فيه خلافا بين سنى وشيعى ، ولا بين أشعرى ومعتزلى ، ولكن يوجد كثيرا من يبالغ فى مسألة من المسائل الخلافية الكلامية أو الفقهية فيلحقها - اشتباهاً أو تعصباً - بالمسائل القطعية التى لا يجوز الخروج عنها ، ويترتب على ذلك أن يرمى مخالفيه عنها بأنهم أهل بدعة أو ضلال أو هوى أو غير ذلك من الأوصاف التى تسوق إليها الحماسة والعاطفة المذهبية .

---

(١) راجع فى ذلك رسالة « نقط على الحروف » لسماحة الأستاذ الشيخ محمد التقى القمى ، وتجدها كذلك فى مجلة « رسالة الإسلام » ص ٣٧٧ من المجلد الخامس .

ومن أمثلة هذا :

(ا) فى جانب المعارف الكلامية :

١ — اختلاف النظر فى شأن « القضاء والقدر »(١) : فمن الناس من تأملوا فى القرآن والأحاديث فوجدوا فيها أشياء ظاهرها الإجبار والإكراه ، كقوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » . « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ، وكقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « السعيد من سعد فى بطن أمه ، والشقى من شقى فى بطن أمه » فبنوا من هذا النوع أن العبد مجبر ليس له شىء من الاستطاعة .

ومن الناس من نظروا إلى آيات أخر ، وأحاديث أخر ، تدل على أن العبد مستطيع مفوَّض أمرُه إليه يفعل ما يشاء ، كقوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » . « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه » ثم بنوا من هذا النوع مقالة ثانية أصّلوها على أن العبد مخير مفوض إليه أمره يفعل ما يشاء ، ثم عمدت كل طائفة من هاتين إلى ماخالف مذهبها من الآيات والأحاديث فأوّلته ما أمكنها التأويل ، وردت منه ما استطاعت رده .

وطائفة ثالثة توسطت فجمعت بين مشيئة العبد ومشيئة الرب ، على معنى أن للعبد مشيئة ولكنها لا تتم إلا بمشيئة ربه ، وذلك أخذاً من مثل قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » ، ومن مثل ما روى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه من أن رجلا سأله : هل العباد مجبرون ؟ فقال : الله أعدل من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها . فقال له السائل : فهل أمرهم مفوض إليهم ؟ فقال جعفر : الله أعز من أن يجوز فى ملكه مالا يريد ، فقال السائل : فكيف الأمر إذن ؟ فقال جعفر :

---

(١) راجع فى ذلك كتاب « الانصاف » للبطليوسى ص ٨٣ وما بعدها .

أمر بين الأمرين ، لا جبر ولا تفويض . وكنحو ما روى عن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أنه لما انصرف من صفين قام إليه شيخ فقال : يأمير المؤمنين أرأيت مسيرنا إلى صفين ؟ أبقضاء وقدر ؟ فقال على رضى الله عنه : والله ما علونا جبلا ، ولا هبطنا وادياً ولا خطونا خطوة إلا بقضاء وقدر ، فقال الشيخ : فعند الله احتسبت عنائى ، إذن مالى من أجر ! فقال له على : مه يا شيخ : فإن هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن ، قدرية هذه الأمة ، إن الله تعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، لم يُعص مغلوباً ، ولم يطَع مكرِها ، فضحك الشيخ ونهض مسروراً ثم قال :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته ... يوم القيامة من ذى العرش رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا ... جزاك ربك عنا فيه إحسانا !

ويتلخص هذا فى أن الله تعالى علم كل ما هو كائن قبل أن يكون ، ثم خلق الإنسان فجعل له عقلا يرشده واستطاعة يصح بها تكليفه ، ثم طوى علمه السابق عن خلقه ، وأمرهم ونهاهم ، وأوجب عليهم الحجة من جهة أمرهم ونهيهم ، لا من جهة علمه السابق فيهم ، فهم يتصرفون بين مطيع وعاص ، وكلهم لا يعدو علم الله السابق فيه ، وإلا انقلب العلم جهلا ، تعالى الله عن ذلك ، ولكن ليس فى أن يعلم الله الأمورَ قبل وقوعها إجبار ، لأن العلم ليس من صفات التأثير ، فمن فعل شيئاً فقد فعله باستطاعة منه فى ظل المشيئة الإلهية ، ولم تجر المشيئة الإلهية بأن تجبر أحداً على طاعة أو معصية ، ولكن تيسر وتمد : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » . « والذين اهتدى زادهم هدى » . « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

هذه مقالات الطوائف الثلاث فى « القضاء والقدر » وذلك سر اختلافهم فى هذه المسألة ، والخير كل الخير فى الوقف وعدم الخوض فى ذلك وأمثاله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا ذكر القضاء فأمسكوا » ونعم ذلك مذهباً لمن آثر

الخلاص والسلامة ، وشغل نفسه بالعمل النافع ، متوفراً عليه ، مستريحا من السير فى طريق طالما زلت فيه الأقدام ، وتحيرت الأفهام .

٢ — ومن الأمثلة فى هذا المقام أيضاً اختلاف الأشاعرة مع المعتزلة والإمامية فى مسألة الحسن والقبح العقليين ، فالأشاعرة يقولون : لا حسن إلا ما حسنه الشرع ، ولا قبيح إلا ما قبحه الشرع ، وأنه تعالى لو خلد المطيع فى جهنم والعاصى فى الجنة لم يكن قبيحا ، لأنه يتصرف فى ملكه ولا يسأل عما يفعل ، وليس للعقل حكومة ولا إدراك للحسن والقبح فى حق الله تعالى ، أى أنه ليس له وظيفة الحكم بأن هذا حسن من الله ، وهذا قبيح منه ـ تعالى الله عن ذلك ـ .

أما المعتزلة والإمامية فقالوا : إن الحاكم فى ذلك هو العقل مستقلا ، وجاء الشرع مرشداً لحكمه أو مؤكداً له ، والعقل يحكم بحسن بعض الأفعال وقبحها ، ويحكم بأن القبيح محال على الله لأنه حكيم وفعل القبيح مناف للحكمة ، وتعذيب المطيع ظلم ، والظلم قبيح مناف للحكمة ، لا يقع منه تعالى (١) .

وينبغى أن يعلم أن نظرية الحسن والقبح ـ وإن نسبت إلى المعتزلة أو الإمامية ـ يقول بها بعض علماء السنة ، ومنهم ابن القيم ، قال فى كتابه « مفتاح دار السعادة » (٢) « فمن جوّز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه فى القول والعمل ، وأنه لا فرق فى نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها ، من السخرية والسب والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك ، فليعزّ فى عقله ، وليسأل الله أن يهبه عقلا سواه ، وقد سئل بعض الأعراب فقيل له كيف عرفت أن محمداً رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشىء فقال العقل ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل ليته أمر به ، فهذا الأعرابى أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء ، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح

---

(١) راجع كتاب (القواعد الكبرى) لعز الدين بن عبد السلام ص ١٩٢ / ١٩٣ ج ١ وفيه أمثلة عدة للاختلاف فى الفروع الكلامية مع الاتفاق على الأصل .

(٢) ص ٣٢٩ وما بعدها : الطبعة الثانية سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

ما نهى عنه ، حتى كان فى حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته » . « ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » فهذا صريح فى أن الحلال كان طيبا قبل حله ، وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه ، ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس الحل والتحريم ، فإنه بمنزلة أن يقال : يحل لهم ما يحل ، ويحرم عليهم ما يحرم ، فثبت أنه أحل لهم ما هو طيب فى نفسه قبل الحل فكساه بإحلاله طيباً آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معاً ، ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » وهذا دليل على أنها فواحش فى نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها ، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، والعلة يجب أن تغاير المعلول ، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهياً عنه ، وكونه خبيثاً هو معنى كونه محرما ، كانت العلة عين المعلول وهذا محال » ومن ذلك قوله تعالى : « ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فأخبر تعالى أن ماقدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة ، وأنه سبحانه وتعالى لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ، ولم ينزل عليهم كتابا ، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على على الله حجة بعد الرسل ، وهذا صريح فى أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن تصيبهم بها المصيبة ، ولكنه سبحانه وتعالى لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل ، وهذا هو فصل الخطاب ، وتحقيق القول فى هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل فى نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إرسال الرسل » .

ومن هذا يتبين أن ابن القيم يأخذ من المعتزلة قولهم بالحسن والقبح العقليين وأن الشرع لا ينشىء فى الأشياء حسنا ولا قبحا ، بل يؤكد الحسن بالحل ، والقبح بالتحريم ، ولكن ابن القيم فى الوقت نفسه ينفى أن يكون التعذيب على القبائح إلا بعد إقامة الحجة بالرسالات والكتب .

والواقع أن المختلفين جميعا مستهدفون هدفا واحدا هو اتصاف الله تعالى بأوصاف الكمال والجلال ، ولم يقل أحد إن العقل والشرع قد اختلفا فى شىء ما ، من جهة أنه حسن أو قبيح ، وإنما الكلام فى جواز ذلك أو عدم جوازه ، فمن جوزه فإنما يفر من تقييد الله تعالى المنافى لألوهيته ، وكونه يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ، ومن أحاله فإنما يفر من وصفه جل شأنه بأنه يجوز عليه فعل شىء يراه العقل قبيحا ، وليس المصير إلى أحد القولين بواجب فى العقيدة .

وقل مثل ذلك فى جميع المسائل النظرية التى تذكر فى كتب الكلام ، ويهتم بها علماؤه ، وتعطى فى نظر كثير من أهل المذاهب أو الطوائف أهمية فوق ما تستحق ، ويصل بها الأمر أحيانا إلى أن تكون سببا فى الفرقة بين المسلمين ، بل إلى أن ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم أهل أديان مختلفة ، وربما طوعت العصبية المذهبية لبعضهم أن يستنصر بمخالفيه فى الدين على مخالفيه فى المذهب أو الطائفة مع أنهم جميعاً إخوة فى الإسلام .

* * *

(ب) وفى جانب المسائل الفقهية : من أمثلة ذلك :

١ — تشديد بعض العلماء على الشافعية فى قولهم بحل الحيوان الذى تركت التسمية عليه عمداً لظنهم أن هذا مصادم مصادمة صريحة لقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وقد بلغ ببعضهم التشديد فى ذلك إلى أن عدوه زيغاً مع أنها مسألة خلافية ، وللشافعية فيه وجهة نظرهم حيث حملوا الآية على آية أخرى وهى قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ـ فإنه رجس ـ أو فسقا أهل لغير الله به » فهذه الآية تفيد أن المحرم من الذبائح إنما هو الحيوان الذى أهل لغير الله به وهذا غير الحيوان الذى لم يذكر اسم الله عليه عمداً أو سهوا فحملوا النهى فى قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » على ما أهل لغير الله به ، وآزروا هذا بما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

سئل فقيل له : أن ناساً من البادية يأتوننا بلحمان ولا ندرى أسموا الله عليها أم لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سموا الله عليها ثم كلوها » وما روى من قوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم يذبح على اسم الله سمى أو لم يسم » ومن أنه سئل فقيل له : أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى الله ؟ فقال : « اسم الله فى قلب كل مسلم » .

فالذين شددوا على الشافعية اعتبروهم مخالفين للنهى الصريح المتبَع بأن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق ، ولكن الشافعية متأولون فى أمر محتمل ، لهم فيه وجهتهم ، وحاشاهم أن يرفضوا نصا لا احتمال فيه .

٢ — ومن أمثلة هذا فى المسائل الفقهية أيضا : مسألة الاختلاف فى المسح على الخفين ، فقد أولاها المختلفون أهمية كبرى : فبينما يعتبر أهل السنة جواز المسح على الخفين فى منزلة الأصول التى لا يجوز إنكارها ولا التردد فيها ، نرى الشيعة من زيدية وإمامية ، ينازعون فى الجواز منازعة شديدة ويقولون إنه نسخ .

وقد روى أهل السنة أحاديث كثيرة فى جواز المسح وقالوا ثبت هذا الجواز عن أكثر من سبعين صحابياً ، وصرح جمع من الحفاظ بأنه متواتر ، ويقول بعض العلماء من أهل السنة : « رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمر الله ، والصبر على حكم الله ، والأخذ بما أمر الله والمسح على الخفين ، فهو قد جعل المسح على الخفين عديلا للعقائد القاطعة .

والشيعة يقولون : إن ما ورد من مسح النبى صلى الله عليه وآله وسلم إنما يذكر ما كان منه قبل آية الوضوء التى فى سورة المائدة ، فيكون منسوخا ، ويقول يحيى بن الحسين ، وهو من المنكرين لجواز المسح على الخفين ، لأن تنقطع رجلى أحب إلى من أن أمسح على خفى ، ورووا عن ابن عباس وغيره ما يدل على نسخ الجواز .

٣ ــ ومن أمثلة هذا النوع أيضا ما وقع من الخلاف بين الجمهور والشيعة الإمامية فى نكاح « المتعة » وهو العقد على الزوجة إلى أجل ، فالإمامية يبيحونه والسنة يمنعونه ويعتبرون إباحته خرقا للإجماع ، ويذكرونه فى معرض النبز للإمامية بمخالفتها أمراً مجمعاً عليه ، والأمر فى هذه المسألة له جانبان : جانب متفق عليه وهو أن ذلك كان مشروعا فى أول الإسلام شرعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأباحه وعمل به جماعة من الصحابة ، وجانب مختلف فيه : وهو أن أهل السنة يقولون : نسخت الإباحة ، والشيعة يقولون : لم تنسخ ، ولكل أدلته على ما يقول ، وهى أدلة صالحة للنظر والدرس والترجيح ، فالمسألة إذن من المسائل الخلافية التى يباح للمجتهدين أن ينظروا فيها .

* * *

(ج) وفى جانب القواعد الأصولية : من أمثلة ذلك :

١ ــ اختلافهم فى الاستثناء بعد الجمل المتعاطفة ، وذلك أنه إذا ورد فى الكلام جمل متعاطفة ، ثم جاء استثناء ، ولم يكن فى الكلام دليل على عوده إلى جميع الجمل أو إلى بعضها بخصوصه ، فهل تكون القاعدة أن يعود الاستثناء إلى جميع الجمل ، أو إلى الأخيرة منها فقط ؟ .

فالأول هو مذهب الشافعية والظاهر من مذهبي المالكية والحنابلة ، والثانى هو مذهب الحنفية ، وذهب جماعة إلى التوقف ، منهم القاضى أبو بكر ، ومنهم المرتضى من الشيعة الإمامية .

ويترتب على هذه القاعدة اختلاف فى مثل قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

فالذين يعيدون الاستثناء إلى الجمل كلها يقولون : قد ذكرت عدة جمل قبل الاستثناء هى أحكام مترتبة على القذف : « فاجلدوهم ثمانين جلدة » . « ولا تقبلوا

لهم شهادة أبداً » . « وأولئك هم الفاسقون » والاستثناء يعود إلى الكل إلا أن الدليل دل على أن التوبة لا تسقط حقوق العباد ، وبقى بعد ذلك الجملتان الثانية والثالثة ، فمن تاب وأصلح قبلت شهادته ، ولم يعتبر فاسقاً .

والذين يعيدون الاستثناء إلى الأخيرة فقط يقولون : لا تقبل شهادة القاذف بالتوبة ولكن لا يعد فاسقاً بعد توبته ، ويؤيدون ذلك بمعنى عقلى هو أن رد الشهادة من تمام الحد والعقوبة فإن الله جعل على القاذف نوعين من العقوبة : عقوبة بدنية هى الجلد ، وعقوبة أدبية هى الحرمان من مركز الشهادة ، فكما أن التوبة لا ترفع الجلد لأنه حق من حقوق العباد ؛ كذلك لا ترفع العقوبة الأدبية التى هى رد الشهادة لهذه العلة نفسها .

فالمبدأ فى هذا الخلاف يرجع إلى القاعدة التى ارتضاها كل من الفريقين ، ولكل منهما دليله على ما ارتضى فى علم أصول الفقه ، ثم آزر الحنفية ما رأوا بالمعنى الذى ذكرناه ، كما آزر الفريق الآخر رأيهم بأن رفع الفسق بالتوبة يناسبه قبول الشهادة ، وليس مما يتناسب أن يرفع الفسق ويبقى رد الشهادة .

٢ — ومن ذلك أيضاً اختلافهم فى مسألة الزيادة على النص هل تعد نسخا أولا ، وستأتى أمثلة لذلك تغنينا عن التمثيل .

* * *

(د) وفى جانب القواعد الفقهية : من أمثلة ذلك .

١ — ما ذكره الإمام أبو زيد الدبوسى فى كتابه « تأسيس النظر » (١) حيث يقول : « الأصل عندنا ـ أى الحنفية ـ أن المضمونات تملك بالضمان السابق ويستند الملك فيها إلى وقت وجوب الضمان إذا كان المملوك مما يجب تملكه بالتراضى ، وعند الإمام القرشى أبى عبد الله الشافعى : المضمونات لا تملك بالضمان وعلى هذا مسائل :

(١) ص ٥٦ طبع المطبعة الأدبية بمصر .

منها أن الغاصب إذا ضمن قيمة المغصوب ثم ظهر المغصوب فهو له ، لأنه ملكه بالضمان ، فاستند ملكه إلى وقت وجوب الضمان عند علمائنا ، وعند الإمام القرشى أبى عبد الله الشافعى لا يكون له المضمون ملكا والمغصوب منه إذا أخذ القيمة كان عليه رد القيمة وأخذ المضمون من الغاصب ، لأن الغاصب لا يملكه . . .
ومنها إذا غصب حنطة فطحنها ملكها ، لأنه عجز عن ردها بعينها ، فأشبه فواتها من يده فضمن مثلها ضمانا مستقراً لا موقوفا فلك المطحون ، لأن الملك يتبع سابقة وجوب الضمان عندنا ، فإن قيل ما الدليل على أنه عجز عن ردها بعينها ، ودقيقها عينها ، قيل له : الدقيق غير الحنطة اسما وحكما ولونا وصورة ، وعند الإمام أبى عبد الله الشافعى لا يملك ذلك الطحين بالطحن .

ومنها إذا غصب ساجة فأدخلها فى بنيانه وفى نزعها ضرر لصاحب البنيان ملكها صاحب البناء عندنا ، لوجوب الضمان اللازم عندنا له بالملك المستقر فى ذمته ، وعند أبى عبد الله لا يملك الساجة ، ويجب عليه نزعها . ا هـ .

* * *

٤ — ويتبين من هذا كله أمران :

أحدهما : أن الخلاف بين المسلمين فى المسائل الخلافية من كلامية وفقهية ليس أساسه - إذا أرجعناه إلى مراجعه الأولى - أن هؤلاء سنة وهؤلاء شيعة ، أو أن هؤلاء حنفية ، وهؤلاء شافعية أو مالكيه . . . إلخ ، أو أن القائل بكذا أشعرى والمخالف له معتزلى. إلى غير ذلك، ولكن أساسه هو اختلاف النظر والتقدير وما ترجح عند كل فريق ، ثم جاء الأتباع فورثوا هذا عن المتبوعين وتعصبوا له ، ووجد من متأخريهم من يصوّر المذهبية على أنها التزام لمذهب معين ، فما دام الإنسان قد اختار أن يكون حنفياً مثلا ، فليس له أن يعمل بمذهب غير الحنفية ، وإذا كان عالما بالفقه كان عليه أن يدور فى فلك الحنفية فيخرج أقوالهم ويدافع عنها ، ويجتهد فى إبطال آراء الآخرين ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وتفرع على ذلك أنهم قرروا أن من قلد مذهبا ليس له أن ينتقل إلى غيره ،

وقد جاء فى فروع باب التعزير من كتاب (الدر المختار) : « ارتحل إلى مذهب الشافعى يعزر » وقرروا أن ليس للانسان إذا قلد مذهبا معينا - ولا بد له أن يقلد - أن يقلد غير هذا المذهب فى بعض الوقائع إلا بشروط ، وقرروا أن ليس للمتأخر أن يبحث أو يرجح فيما بحثه المتقدم أو رجحه ، الخ (١) .

وليس هـذا صحيحاً ، وإنما قاله بعض المتأخرين حينما تحكمت فيهم روح الخلاف ، وملكتهم العصبية المذهبية ، فراحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم ، وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفهاماً يصح أن تناقش فترد أو تقبل إلى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها أو يعتنق غيرها (٢) .

وقد وصف الشيخ عز الدين بن عبد السلام موقف هؤلاء المتأخرين فقال : « ومن العجب العجاب أن الفقهاء المقلدين يقف أحـدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده ، ويترك من شهد له الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » ثم قال : « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحـد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبي أرسل ، وهذا نأى عن الحق ، وبعد عن الصواب ، لا يرضى به أحد من ذوى الألباب .

وقـد عهدنا العلماء الراسخين يتبعون الدليل من أى أفق ظهر ، ولا يعبأون بمخالفة مذاهبهم ، فقـد يخالف الحنفى الحنفى ، وقد يخالف الشافعى الشافعى ، وقـد يخالف الإمامى الإمامى ، وقـد ينتصر العالم لرأى فى غير مذهبه لأنه يراه

(١ ، ٢) انظر مقارنة المذاهب لفضيلتى الأستاذين الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد على السايس ص ٣ ، وما بعدها .

الصواب ، ومن أمثلة هذا مخالفة ابن تيمية وابن القيم لجميع مذاهب أهل السنة فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، وأخذهم بمذهب الإمامية الذين لا يوقعون به إلا طلقة واحدة ، لأن الدليل معهم ، وقد كان لبعض العلماء المعاصرين يوم قرر قانون الأحوال الشخصية فى مصر الأخذ بمذهب الإمامية فى ذلك ، ضجة كبرى ، لأن المذاهب الأربعة توقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا ، وقد استقر أمر الناس عليها حتى اعتبرها العامة والخاصة مسألة فى صف المسائل الأساسية ، فكان هذا القانون سبباً فى قيام اعتراضات كثيرة ومناقشات متعددة ، ثم استقر أمره وصار العمل عليه ، وهجر رأى المذاهب الأربعة وما يوافقها فى ذلك ، ولم يعد أحد يهتم بهذا أو يراه حدثا فى الإسلام .

الأمر الثانى : أن كلا من الاتفاق والاختلاف أمر لازم لامناص منه ، فلا يمكننا أن نتصور المسلمين أو أية أمة من الأمم متفقين فى كل شىء ، ولا أن نتصور هؤلاء وأولئك مختلفين فى كل شىء ، ولكن الذى هو واقع فعلا ، ولا مناص من أن يقع ، هو أن الأمة الواحدة لها مواضع كثيرة تتفق عليها ، وهى التى ربطت بينها وجعلتها أمة واحده ، ولها مع ذلك مواضع كثيرة تختلف فيها لاختلاف العقول والمصالح والأدلة بينها ، وهى بحكم اتفاقها فيما اتفقت فيه أمة واحدة ، وبحكم اختلافها فيما اختلفت فيه مذاهب متعددة ، والمذهبية الخاصة لاتخرج أهلها عن كونهم من الأمة ، ولا تعطيهم فى نفس الوقت قرباً أو نسبة فى القرب من الدين ليست لأصحاب مذهب آخر ، ومن ثم لا يستطيع منصف أن يقول : إن مذهبي حق كله وصواب كله ، ومذهب غيرى باطل كله وخطأ كله ، ولكن يقول أن هذا هو مارأيته بحسب فهمى واجتهادى وما علمته ، فأنا أرجحه ولا أقطع به ، ويحتمل أن يكون مارآه غيرى هو الحق والصواب ، ولست مكلفاً إلا بما وصلت إليه ، وليس مخالفى مكلفاً إلا بما وصل هو أيضاً إليه .

وقد اشتهرت فى هذا المعنى عبارة جيدة تصور اختلاف المختلفين المنصفين لأنفسهم وغيرهم ، إذ تقول بلسان كل مجتهد : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرى خطأ يحتمل الصواب » .

وما من مجتهد إلا وقد روى عنه ما يدل على سماحته العلمية ، وأنه كان يأبى على الناس أن يقلدوه فى كل ما قال ، ويلغوا ما سواه .

فأبو حنيفة رضى الله عنه كان يقول : « لا ينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى ، وكان إذا أفتى يقول : هذا رأى النعمان بن ثابت - يعنى نفسه - وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

والشافعى رضى الله عنه كان يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » وقال يوما للمزنى « يا إبراهيم لا تقلدنى فى كل ما أقول ، وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين » .

وكان الإمام أحمد رضى الله عنه يقول : « ليس لأحد مع الله ورسوله كلام » وقال يوماً لرجل : « لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الأوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة » .

وهذه النظرة المنصفة تغيب أحيانا عن بعض أهل العلم ، أو تغمرها العصبية ، أو المصلحة الشخصية ، فيشتد الخلاف ، وينقلب لجاجا وخصومة ، وربما أدى إلى قطيعة .

وقد عرف التاريخ العلمى الإسلامى كثيراً من صور الخلاف والتعصب ليس المجال لبيانها أو تحليل أسبابها ، كما عرف صوراً رائعة من صور الاختلاف المهذب بين الأئمة الأعلام والعلماء الراسخين ، أفادت العلم ووسعت دائرة الفكر ، وجعلت معين الفقه الإسلامى فياضاً .

وإن خير ما يقدمه خاصة أهل العلم إلى أمتهم فى هذا العصر ، أن يتناولوا بحوثهم العلمية فى انصاف ورفق ، وأن يكون رائدهم الحق من أى أفق ظهر ، وأن يحسن كل منهم الاستماع إلى ما يقوله الآخرون ، فربما وجد عنده صوابا وربما استعان به على الوصول إلى درجة الكمال المنشود ؟

[البحث موصول]

فى النقد الأدبى :

مستقبل الشعر

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى
المدرس بالأزهر

كتب الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فى رثاء صديقه المازنىّ يقول ، بعد أن ذكر أنه كان رجل وحده فى تفكيره وأسلوبه ، وصاحب شخصية ممتازة لا يغنى عن وجودها وجود : « فإذا أضيف إلى ذلك أن المازنىّ كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فقه ، ويعالجون بيانها عن طبع ، وأن هؤلاء العشرة البررة متى خلت أمكنتهم فى الأجل القريب أو البعيد فلن يخلفهم فى هذا الزمن الثائر الحائر العجلان من يحمل عنهم أمانة البيان ، ويبلغ بعدهم رسالة الأدب ، أدركنا فداحة الخطب الذى نزل بالأمة العربية يوم توفى هذا الكاتب العظيم » .

ولا نزال إلى يومنا هذا ، نؤمّن على هذه المقالة ، ونرى أن الكاتب أصاب فيها شاكلة الصواب ، ذلك أن الكتّاب الذين خلت أمكنتهم من هؤلاء العشرة البررة ، لم يخلفهم فيها من يملأ الفراغ ، ويكون فيه عن الذاهب العزاء ، ولا تزال هذه الأمكنة التى تركها الرافعى والمازنى وأحمد أمين ، لا تزال أمكنة هؤلاء خالية ، وإننا نبحث — جاهدين — فى هذا السيل الجارف الذى تقذفه المطابع من الكتب وأشباه الكتب ، نبحث عن النثر الفنى الرائع ، والأدب الخالص الرفيع ، فلا نجد إلا السطحية فى التعبير ، والسطحية فى التفكير ، ونجد بجانب ذلك الدعاوى الطويلة العريضة ؛ ولعل السر فيما آل إليه الأدب تلك الدعوات السافرة إلى التحلل من الأساليب الرصينة ، والعبارات الجزلة ، وساعدت

الصحافة على هذا الاتجاه بما تضطر إليه كتابها من العجلة ، التى تدعو إلى التخلى عن الدراسة الهادئة الرزينة ، والأسلوب المتأنق المصقول .

وهذه الدعوة التى نادى بها بعض المحدثين فى النثر ، نادى بها جماعة آخرون فى الشعر أيضا ، ولا سيما النقاد اللبنانيون ، وشعراء المهجر ، فلا بأس عندهم ، بل الواجب ، أن يستعمل الشاعر من الألفاظ ما يوضح معناه ، ولو لجأ إلى اللفظ الضعيف أو الملحون ، لأنه — كما يزعمون — ما دام الغرض الإفهام ، فكل لفظ معبر كاف ، وينصح أحدهم فى اطمئنان وتحمس قائلا للشاعر : « كن كيف شئت إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً : النحو واللغة » (١) .

والشعراء — الآن — يحافظون كثيراً على النحو واللغة ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول فى الشعر والشعراء مقالة الأستاذ الزيات فى الكتابة والكتاب ، بل لعل مقالتنا تكون أكثر تشاؤما ، وأشد مرارة ، فما بالنا إذا رأينا الشعراء قد استمعوا إلى هذه النصائح الغالية ، ولم يبالوا باللحن ، ولا بقوانين اللغة فى صوغ مفرداتها ؟

وقد رأينا من الأدباء النقاد من يدعو إلى أن ننثر الزهر على موكب الشباب ، بدل أن نرجمه بالحجارة ، وأن الشيوخ قد استوفوا حقهم من الثناء ، فعلينا أن نوفى الشباب حقهم ، وأن نأخـــذ بأيديهم ، وهذا مقصد جميل لو أن شعراءنا الناشئين كانوا فى حاجة إلى الزهر ينثر على موكبهم ، فقد استغنوا عن ذلك بما أضفوا على أنفسهم من ألقاب ، وما غمروها به من ثناء ، فما من شاعر ظهر إلا وهو يعد نفسه فى الذروة من شعراء العالم ، ففيهم غرور تضيق به النفس ، ويحرج منه الصدر ، وفيهم - كما يقول الدكتور طه حسين - كبرياء لاتخلو من سخف ، ومن سخف يذكرنا بأخلاق الأطفال ، فهم إن كتبوا رأوا لأنفسهم العصمة ، ولم ينتظروا من النقاد إلا ثناء وحمداً .

وعندى أن النقد الخالص النزيه قد يكون أنجح علاجا ، وأحسن عاقبة

(١) مجددون ومجترون لمارون عبود ص ٨ .

من الثناء والتصفيق ، وإنى لعلى يقين من أن شعراءنا يخافون من النقد كما يخاف الطفل من الغول ، وليس ذلك لأن النقد سيهدمهم ، أو يمحوهم من سجل الأدباء محواً ، كلا ، وإنما يكرهون النقد لأنهم لا يحبون أن يسمعوا إلا ما وقر فى أنفسهم ، وهو أن كل واحد منهم شاعر كبير ، وأديب خطير ، ولكن مع ذلك سنمضى .

* * *

كثر الشعر فى الفترة الأخيرة كثرة جعلتنا نصدق ما يروى عن أبى ضمضم ، قال الأصمعى : جاء فتيان إلى أبى ضمضم بعد العشاء فقال لهم : ما جاء بكم يا خبثاء ؟ قالوا : جئناك نتحدث ، قال : كذبتم . قلتم كبر الشيخ ، وتبلغته السن ، عسى أن نأخذ عليه سقطة ، فأنشدهم لمائة شاعر ، كلهم اسمه عمرو . قال الأصمعى : فعددت أنا وخلف الأحمر ، فلم نقدر على أكثر من ثلاثين ، قال ابن قتيبة ـ وهو ناقل الحديث ـ هذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن أروى الناس ، وما أبعد أن يكون من لا يعرفه من المسمّين بهذا الاسم أكثر ممن عرفه (١) . وجعلنا نصدق ما يروى من أن مدينة (شِلب) بالأندلس لم يبق من أهلها أحد إلا قال الشعر رجالا ونساء .

نعم : كثر الشعر كثرة عظيمة ، فأنا منذ خمس وعشرين سنة لا أكاد أفتح مجلة أو صحيفة حتى أجد شاعراً جديداً ، أو شعراً جديداً ، وهؤلاء الذين نقرأ لهم عدد قليل بالإضافة إلى من لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يظهروا ، وحسبك أن مدرسة من المدارس ألفت فيها أسرة للشعر فكان عدد أعضائها ثلاثين ، فإذا كان هذا عدد الأعضاء فى مدرسة قليلة الطلاب فما عسى أن يكون الشعراء فيها ؟

وقد تحدث الناس بعد موت شوقى بأن ميدان الشعر خلا بموت الشاعرين الكبيرين شوقى وحافظ ، ولكن هذا الحديث لم يعجب شعراءنا النابغين ، فانتهز الشاعر أحمد الكاشف فرصة إقامة موسم للشعر ، وصاح فيه :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦ .

قالوا انقضى الشعر بعد الشاعرين ولم يأنس بغـــيرهما ميدانه الخالى
ولست وحدى له فى مصر بعدهما فصر ملأى بأشباهى وأمثالى

ومات مطران ، فازداد ميدان الشعر خلوا ، ولا زلنا — بالرغم من صيحة الكاشف — نرى الميدان خاليا ، ممن يسد فراغ واحد من هؤلاء الثلاثة ، والحقيقة أنه لا ينقصنا الشعر ، وإنما ينقصنا الشعراء ، أعنى أن عندنا شعراً رائعاً ، ولكن ليس عندنا من واتته ظروفه وطبعه لأن يكون شاعراً فحلا ، ولست أشك فى أنه كان يمكن لبعض النابهين من شعرائنا أن يكون شاعراً كبيراً لو أخلص لفنه ، وغذى بيانه ، وصقل خياله بإطالة النظر فى مأثور العرب من شعر ونثر ، وأخذ نفسه بالقراءة والدرس ، وشعره بالتهذيب والتجويد ، ولكن الواحد منهم يكون فيه استعداد لأن يكون شاعراً ولكنه يتنكب الجادة ويمضى على غير الطريق ، فهذا شاعر فى قلبه نبع من الشعر ولكنه مغرم بالترانيم والتهاويل يزين بها شعره ، ولئن كان يسمح لشاعر كأبى تمام هذا التلاعب الصناعى بالشعر - مع ما أدى إليه من سخف فى أحيان كثيرة - لأن معناه يستطيع أن يتغلب على بهرجة لفظه ، لقوة المعنى وعمقه إذا كان يغتفر لأبى تمام هذا ، فإنه لا يغتفر لشاعر ناشىء يدور فى دائرة ضيقة من الألفاظ ، وتستطيع أن تقول - دون أن تستهدف لخطر المبالغة - إن عنده ثلاثين لفظة يستعملها فى الغزل كما يستعملها فى المديح ، كما تجدها فى وصف (ثور) مثلا ، وقد لاحظت ملاحظة يسيرة فى أحد دواوين هذا الشعر ، تؤيد ضيق ثروته فى الألفاظ ، بل وفى المعانى ، وجدت له عشرين قصيدة كلها بدئت بما يدور حول الغناء والنشيد ، فهذه قصيدة مطلعها (شدى المزاهر فى القلوب ورتلى) وثانية مطلعها (شاديك من قصب الفرادس نايه) وثالثة مطلعها (دع لحنك الشادى بلا تعزيف) . وهكذا . . ولقد عددت له فى قصيدة واحدة الزهر وما إليه ثلاثين مرة ، وإذا كان هذا الشاعر أدار شعره حول ألفاظ خاصة ، فإن كثيرا من شعرائنا المحدثين داروا حول معان مخصوصة جودوها بكثرة المران ، فإذا تجاوزوها أسفّوا ونزلوا .

ويمكن أن نقسم هؤلاء الشعراء إلى طوائف ثلاث :

١ ـــ الطائفة الأولى تأثرت تأثراً قوياً بمذهب العقاد ، وخلاصته أن الشعر صدق فى التعبير ، واستقلال فى النزعة .

٢ ـــ والطائفة الثانية تخرجت فى مدرسة (أبولو) وهى مجلة أنشأها الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، ومذهب القائمين على هذه المجلة (توجيه الشباب إلى النواحى التجديدية التى يفتقر إليها الشعر العربى سواء فى الصياغة أو فى المواضع الإنسانية أو فى الروح الفنية العالية ، والدعوة إلى الشعر الوصفى ، والشعر القصصى والتمثيلى بصفة خاصة وإلى التخلى بقدر الإمكان عن القافية الواحدة ، وإلى العزوف عن شعر المناسبات الوقتية إلى دراسة الحياة والتفاعل الصادق معها مع التعبير عن عصرنا عن طريق التعبير عن نفوسنا فى غير ما تكلف ولا تصنع) .

وهذا فى الحقيقة ليس مذهباً شعرياً من المذاهب المدروسة التى لها أصول وقواعد ترجع إليها ، وإنما هى دعوة إلى أن ينتهج الشعراء هذه النصائح ، وهى شبيهة بهذه الجماعات التى تألفت لخدمة الشعر من حيث التوجيهات التى ترى كل جماعة أن توجه إليها الشعراء ، ونلاحظ أن جماعة تألفت فى ذاك التاريخ ، هى (جماعة موسم الشعر) وقد برز فى منهجها المحافظة على خصائص البيان العربى ، والتمسك بضوابط اللغة ، والجرى على السنن العربى ، والذوق العربى ، فى حين حاولت جماعة أبولو أن توجه الشباب إلى النواحى التجديدية فى الصياغة وفى الموضوعات وفى الروح ، وتتفق الجماعتان فى الدعوة إلى مماشاة الشعر لحاجات العصر ، وتهيئة الفرص أمام الشباب لتقويم ملكاتهم ، غير أن مدرسة (أبولو) ظفرت بمريدين ، أثرت فيهم ، وبثت فى أرواحهم روحها ، فى حين لم تظفر جماعة موسم الشعر بغير قصائد قدمت إليها من شعراء كان كل منهم قد ثبت على ما طبع عليه .

٣ ـــ أما الطائفة الثالثة فهؤلاء الذين لم يتلمذوا لأشخاص أحياء ، وكان لكل منهم نهجه الخاص به ، وأكبر الظن أنهم تأثروا بما قرءوا ، فمنهم من استمد

أخيلته ومعانيه من الأدب العربى القديم ، ومنهم من جعل من الشعر الغربى نموذجا يترسمه .

ونلاحظ أن بعض الذين تخرجوا فى هذه المدارس أسرفوا أحياناً فى الزراية على الشعر العربى فجعلوا ينتقصون منهجه ، ويبهرجون أسلوبه ، ويسخرون من معانيه ، بل غالى واحد منهم فجاء بما يدل على سذاجة فى التفكير ، جاء فى مقدمة أحد الدواوين : « يقول ابن رشيق : وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، فإن المعانى موجودة فى طباع الناس ، يستوى فيها العالم والجاهل ، ومع الأسف لا يزال يوجد إلى يومنا من يؤمّن على هذا الكلام ! ولعمرى إن هذا القول وحده كفيل بتزييف الشعر العربى ، وجعله مهزلة الشعر فى كل اللغات » .

وهذه الجماعات وإن عملت على تشجيع الناشئين إلا أنها كانت تسرف أحياناً فى تقدير ما ينتجون ، ولقد درجوا على سنة من أسوأ السنن تلك هى التقاريظ الكثيرة التى تلحق بالدواوين ، وأكثرها يجاوز الحق والنقد الصحيح ، ولو أنك قرأت ما يكتب من التقاريظ فى ديوان من الدواوين لوقر فى نفسك أن هذا الشاعر سيفتح فى دنيا الأدب فتحاً جديداً ، وأن الشهرة ضلت مكانته ، وأن النقد غفل عن موضعه ، فإذا شاء سوء حظك وقرأت بعض ما فى الديوان من الشعر لم تملك نفسك من الضحك الساخر ، أو من الألم المرير ، ولقد مررت كثيراً بهذا التناقض قرأت مقدمة ديوان ، فوجدت مقرظه يقول : « وبعد فإن شاباً جاوز العقد الثانى من عمره بشهور يكون نموذجا فى الآداب العربية ، ويفهم الشعر كما يجب أن يفهم لجدير أن تنتظر منه الآداب فيضاً زاخراً تعب منه شراب الخلود وتطفر به إلى عليين » ثم قرأت أول قصيدة فإذا مطلعها :

بينما كنت سائراً وظلام الـ ... ـلـيل ضارج بالبدر يوم التمام
لا ترانى أردد الطرف فى شى ... ء سوى فى الأناقة الأجسام

حتى فى النقد الذى كانوا ينشرونه فى الصحف والمجلات ترى المحاباة واضحة ، وإذا لم تكن محاباة فهو أمر نشأ من ضعف حاسة النقد ، هذا شاعر يقول إنه

يحب حبيبته ميتة ، وإنه يودها فى خاطر القبر سراً ، كى يهرب منها العذول ، ويجىء هو يبلل خديها ـ كالدود طبعاً ـ من أدمعه ثم ينزع فؤادها من جنبيها ويخبئه فى أضلعه ، إن هـذا السخف الذى لا يقف عند حـد يظفر من الناقد الدقيق بهذه العبارة : « وقد أجاد كل الإجاده » .

وقد كان هذا ـ إلى أسباب أخر ـ السر فى غرور هؤلاء الشادين وكبريائهم ، فما يكاد أحدهم يشدو شيئاً من الأدب ، وينظم أبياتاً من الشعر حتى يصبح عند نفسه شاعر عصره ـ كما قلت آنفا ـ ورحم الله شوقياً ، فقد فتح لنا بابا يصعب إغلاقه حين قال :

أنا إن عجزت فإن فى بردى أشعر من جرير

فكم فى شعرائنا ـ الآن ـ من هو عند نفسه أشعر من جرير ومن الفرزدق ومن الأخطل ، ومن الثلاثة مجتمعين !.

ولقد كان المنطق السليم أن يفتخر الشعراء بشىء غير هذا الشعر الذى كسدت سوقه وأصبح لا يشبع من جوع ، ولا يروى من ظمأ ، فعندهم التطلع للمجد ، وعندهم الحيوية ، وما كان أجدرهم أن يحفظوا فخر ابن العشرين طرفة بن العبد .

وليس أدل على تأصل هـذا الخلق فيهم من أن أحـدهم نظم قصيدة طويلة فى مدح عظيم من العظماء ، فلما أراد أن يضع لها عنوانا أبى غروره ألا أن يعنونها بهذا العنوان : (أنا شاعر الوادى وعزاف اللظى) . ويجرنا عزاف اللظى هذا إلى أن نقول قولا فى الأسلوب الذى يؤثره هؤلاء ممن يجعلون أنفسهم أشعر من شوقى وإنه لمن المؤلم أن ترى أسلوب الكثير منهم ضعيفا ، وقافيتهم نابية ، واستعاراتهم تكاد تقطر ظرفا ، من أمثال ، قبلة مرنحة الأعطاف ، ودلال شرود ، وصمت حريرى ، وجسم طازج ، وشحوب يؤكل ، وإننا لنكتفى هنا بإيراد كلمة للرافعى عليه سحائب الرحمة ، وإن كان أراد بها من هم أرسخ فى الشعر من هؤلاء الذين نتحدث عنهم ، ونسميهم : « ساقة (١) الشعراء » قال الرافعى : « وما التراكيب

---

(١) ساقة الجيش مؤخرته ، وساقة الشعراء لقب كان يطلق على جماعة من متأخرى الشعراء منهم ابن هرمة وابن ميادة وحكم الخضرى .

البيانية فى موضعها من الشعر الحى إلا كالملاح والتقاسيم فى مواضعها من الجمال الحى ، وكثيراً ما يخيل إلىّ حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل فى شعر محكم السبك أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأنق يتقرب من حب امرأة جميلة ، وعطف أمومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس ، فإذا قرأتُ فى شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطى أخذ بتلابيب لفظ كالمجرم ... إلى كلمتين هما معاً كالضارب والمضروب ... إلى همج ورعاع وهرْج ومرج وهيْج وفتنة ... أما القافية فكثيراً ما تكون فى شعرهم لفظاً ملاكما ... ليس أمامه إلا رأس القارىء».

ومرجع هذا عندى ـ كمرجع البساطة التى نلاحظها فى كثير من أشعارهم ـ إلى عدم العناية باستظهار الآداب القديمة ، والشعر القديم بنوع خاص ، فإن لهم نفوساً مرهفة لا تصبر على المطالعة والدرس ، وهم مع رغبتهم فى المجد الأدبى يملون العمل ، ويتوهمون أنهم واصلون بأيسر المجهود ، ولعل من النماذج العجيبة فى هذا الشأن أن واحداً منهم أخرج ديوانين من الشعر ، وهو لا يحفظ من الشعر القديم إلا أيسر اليسير .

وربما وجدت فى شعر بعضهم مسحة من الشعر القديم ، ولكن مرد ذلك عند هؤلاء إلى أن الواحد منهم حين يهيىء نفسه لنظم قصيدة يضع تحت بصره قصيدة للبحترى أو المتنبى ثم ينسج على منوالها وزنا وقافية ، فيجىء التشابه فى المعنى حيناً ، وفى الألفاظ أحياناً كثيرة .

لمناسبة وفاة إيرين كورى مكتشفة النظائر المشعة :

عود إلى حديث الذرة

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية ـ ليسانس العلوم الحرة ـ دبلوم المهندسخانة

وأخيراً انتهت إيرين كورى كما ينتهى كل الناس ، وماتت العالمة الكبيرة الشهر الماضى كما يموت البشر ، انتهت بعد أن أدت إلى علوم الذرة أجلّ الخدمات ، وانقطعت حياتها بعد أن خطت بسلام العالم أوسع الخطوات .

ولو أننا اعتبرنا أن كشوف الذرة أصبحت الصّرح الشامخ لتقدم الإنسان ، وأن معرفتنا للنواة وتركيبها هو أهم مرحلة من مراحل العرفان ، فإننا نضع إيرين كورى الحائزة على جائزة نوبل مكتشفة النشاط الإشعاعى الصناعى وخالقة النظائر المشعة بين هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أناروا لنا السبيل ، وبين هؤلاء المحسنين الذين لهم أكبر الفضل على هذا الجيل ، وما علينا لتبيان ذلك إلا أن نستعرض الأحداث العلمية وتتابع الكشوف الذرية لترى مكان إيرين كورى من بين العاملين فى تقدم العرفان ، ونلمس دورها الخالد فى أهم ما ورثه الإنسان ، وفى هذا نقسم هذه الناحية الهامة من العلوم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول . العلوم الذرية النظرية :

ولعل ألبرت أينشتاين فى نظرية النسبية الأولى سنة ١٩٠٥ ، والنسبية العامة سنة ١٩١٦ ، كذلك ماكس بلانك فى نظرية الكم سنة ١٩٠٠ ، ونيلز بوهر الذى جمع فى سنة ١٩١٣ بين الكم وخطوط الطَّيف مفسرا بذلك أدق الأحداث العلمية داخل الذرة هم الفرسان الثلاثة الذين أقاموا أهم المراحل النظرية فى العلوم الذرية تلك المراحل التى يستند إليها اليوم جُلّ العلماء المحدثين ، أمثال : ديراك وباولى ودى بروى وشرورنجر وماكس بورن وفرمى وغيرهم ، وسيفهم الكثير ممن يتابعون الميراث العلمى اليوم لماذا رتبنا هؤلاء الأعلام على هذا النحو ، فذكرنا على رأس القائمة أينشتاين وبلانك وبوهر ثم ذكرنا ديراك مع باولى ودى بروى مع شرورنجر وأخيراً بورن مع فرمى .

القسم الثانى : العلوم الذرية العملية والتطبيقية :

ولهذه الناحية أهمية قصوى ، فقد كان من آثارها كما نعلم استخدام الطاقة الكامنة فى نواة الذرة للحصول على طاقة كبيرة تفوق كثيرا الطاقة التى نحصل عليها من الوقود العادى ، أو استخدام النظائر المشعة فى علاج الأمراض أو مقاومة الآفات أو فى تقدم البحوث العلمية والصناعية ، وهذه الناحية الواسعة تستند إلى أعمدة أربعة ، كان لإيرين كورى مع زوجها جوليو الفضل فى اثنين منها ، وكان لزوجها مع غيره الفضل فى واحد آخر منها ، وهذه الأسس أو الأعمدة الأربعة نجملها فى التقسيم الآتى الذى يتضح منه أعمال إيرين العلمية الخالدة .

(ا) الكشف عن العناصر المشعة الطبيعية مثل اليورانيوم والبولونيوم والراديوم والثوريوم ، وكلنا يعلم أن الفضل فى هذه المرحلة الهامة التى بدأت سنة ١٨٩٧ كان للعالم « بكارل » بكشفه إشعاع اليورانيوم ، ثم « لمارى سكلودوفسكا » (وهى مدام كورى والدة إيرين) بكشفها عن البولونيوم وقوة إشعاعه تعادل ألف مرة قدر قوة إشعاع اليورانيوم ، ثم لوالدتها مدام كورى ووالدها بيير

كورى بكشفهما الراديوم ، وقد استحقت والدتها جائزة نوبل مرتين ، مرة بالاشتراك مع زوجها ومع بكارل سنة ١٩٠٣ ، ومرة بمفردها سنة ١٩١٠

(ب) الكشف عن النيوترون :

والنيوترون هو ذلك الجسيم الأساسى فى بناء نواة الذرة التى نعلم اليوم أنها تتألف من البروتونات ومن النيوترونات ، وليس المجال هنا لأذكر أهمية هذا الجسيم (النيوترون) فى جميع مراحل العلوم الذرية ، فباستخدامه وصلت هذه العلوم إلى هذا التقدم والنجاح ، وهو موجود فى جميع نَوَيَّات العناصر المختلفة ابتداء من العنصر الثانى الهيليوم إلى العنصر الـ (١٠١) الفرميوم ، ولقد كان الفضل فى الكشف عن هذا الجسيم الهام لفرسان خمسة كانت إيرين كورى أحدهم ، وهؤلاء الفرسان هم :

شادويك الانجليزى ، وإيرين كورى ، وزوجها فردريك جوليو الفرنسيان ، وبوث ، وبِكَرْ الألمانيان .

(ج) الكشف عن النشاط الإشعاعى الصناعى ومعرفة النظائر المشعة :

والنشاط الإشعاعى الصناعى هو نشاط إشعاعى ذرى لم يكن موجودا فى الطبيعة ، والنظائر المشعة هى عناصر أو نظائر للعناصر المختلفة ، أمكن بفضل إيرين كورى وزوجها جوليو جعلها مشعة كالمواد المشعة بطبيعتها ولها كل خواصها .

ولقلة المواد المشعة الطبيعية وصعوبة استخلاصها ، وبالتالى ندورتها وارتفاع أثمانها ، وكثرة النظائر المشعة وسهولة استحضارها تقدمت التطبيقات الذرية باستخدام النظائر المشعة ودخلت جميع فروع العلوم التطبيقية ، وهنا يجدر بنا أن نؤكد أن الفضل فى كشف هذه الظاهرة للنشاط الإشعاعى الصناعى ووجود النظائر المشعة يرجع وحده إلى إيرين كورى وزوجها جوليو ، وقد نالا من أجل هذا الكشف جائزة نوبل سنة ١٩٣٣

ولأهمية الكشف الأخير أذكر الظروف العلمية التى تم لها فيها هذا الكشف الخطير الذى كان له أكبر الأثر فى تقدم الذرة من أجل السلام .

يعرف الباحثون فى نواة الذرة أن لعنصر الألومنيوم عدة تحولات عند الضرب بقذائف النواة ، وقد ذكرتُ فى محاضرة سابقة فى المجمع المصرى للثقافة العلمية وفى قاعة مصلحة الكيمياء فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، وفى أخرى بجمعية المهندسين فى ٣ مارس من السنة ذاتها ستة من هذه التحولات ، اثنان بقذف نواة الألومينيوم بالبرتونات أو الديترونات ، واثنان منها بالقذف بالنيوترونات ، واثنان بالقذف بجسيمات ألفا الخارجة من المواد المشعة الطبيعية ، وفى هذين التحولين الأخيرين يحصل الباحث عوضاً عن الألومينيوم على سيليسيوم وبروتونات سريعة ، أو يحصل على سيليسيوم ونيوترونات سريعة وكذلك على بوزيتونات سريعة ، وقد لاحَظت إيرين وزوجها أن البوزيتونات يستمر خروجها من الصفيحة المعدنية بعد إبعاد المنبع المشع الذى يُستخدم للحصول على القذائف مما يدل على وجود مادة جديدة اكتسبت نشاطاً إشعاعياً ـ هذه المادة الجديدة فى تجربة إيرين وزوجها كانت الفوسفور ، ولكنه فوسفور مشع ، تحول بعد مدة وجيزة إلى سيليسيوم ، وهى المادة الأخيرة الثابتة التى تصادف كل باحث دون أن يفطن إلى وجود فوسفور مشع ، وبعبارة أخرى أرجعا متساوية الألومنيوم إلى تفاعلين نووين أى متساويتين الأولى أنه عند قذفه بجسيمات ألفا تحول إلى فوسفور مشع مع خروج نيوترونات والثانية أن هذا الفوسفور المشع تحول بدوره وفى سرعة إلى سيليسيوم مع خروج بوزيتونات .

وبما أنه قد نشأت مادة جديدة هى الفوسفور المشع ، ولم يكن معروفا أن من بين نظائر الفوسفور نظيراً مشعاً فقد اعتبر العلماء هذا خلقا صناعيا لمادة مشعة ، غير المواد المشعة الطبيعية التى كانت معروفة ، وتساءل العلماء بعد هذا إذا كان من الجائز عمل مواد أخرى مشعة صناعيا ، وفتح الباب على مصراعيه بخلق عدد عديد منها فكان الصوديوم المشع والبوتاسيوم المشع والكوبلت المشع وغيرها من مئات النظائر المشعة المعروفة اليوم ، والتى أصبحت نافعة للإنسان فى الطب

والزراعة والصناعة وغير ذلك من شتى التطبيقات التى تهدف كلها إلى تقدم الجنس البشرى .

وإنى لأهمية الكشف أذكر نص نشرة إيرين وجوليو من واقع محاضر المجمع العلمى الفرنسى ، حيث ظهرت نشرتهما عن خلق النظائر المشعة بعد نشرة والدتها الخالدة بخمسة وثلاثين عاما ، وهى النشرة التى نالت عليها إيرين وجوليو جائزة نوبل وفيما يلى نص النشرة :

« نضرب صفيحة من الألومينيوم بضع دقائق بجسيمات « ألفا » الخارجة من البولونيوم ، وعند سحب الصفيحة نلاحظ أنها تكتسب نشاطاً إشعاعياً يتناقص للنصف فى ثلاث دقائق .

على أن الإشعاع الخارجى الممكن ملاحظته بواسطة عـدّاد أو فى غرفة ولسون هو بوزيتونى ، ويتناقص الإشعاع وفق قانون أسّى ، وهذا يدل أننا أمام مادة مشعة » .

لقد عاصرنا هذا الكشف الخطير وكنا فى المعامل والأروقة المجاورة للمعامل التى تمّ فيها هذا الحدث العلمى الذى هز العالم ، ولقد لفتت إيرين كورى وجوليو نظر العلماء فى مؤتمر لندن ١٩٣٣ ، وفى باريس فى حديقة النباتات عند عرض تفصيلات هذا البحث ، وانتظم من أعمالها علم جديد .

(د) المرحلة الرابعة والأخيرة انقسام أو انشطار نواة البليتونيوم .

نستطيع أن نقسم هذه المرحلة الهامة والفاصلة من البحوث التجريبية خاصا بنواة الذرة إلى مرحلتين هامتين تم الكشف عنهما فى مدة قصيرة حوالى الاسبوع وذلك فى يناير سنة ١٩٣٩ ، أما الأولى فهى حدوث انشطار للبليتونيوم وهو اليورانيوم ٩٤ وكان ذلك فى تجارب أوتوهان الألمانى الخالدة فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٨ حيث ظهرت النشرة عنه فى ٧ يناير سنة ١٩٣٩ ، والمرحلة الثانية هى ملاحظة جوليو كورى مع زميليين له ـ هما هلبان وكوارسكى ، وبعد كشف أوتوهان

بأسبوع واحد ـ وجود نيوترونات متطوعة من الانشطار الأولى تعمل بدورها على إحداث انشطارات أخرى واستمرار السلسلة ، ولم يكن لإيرين كورى دور مع زوجها وزميليه فى هذا الكشف الأخير رغم أنى ذكرت فى كتابى الثانى « ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان » المنشور سنة ١٩٤٩ اشتراكها مع زوجها فى هذا الكشف الأخير ، ولكنها صححت لى عقيدتى هذه عند انعقاد مؤتمر الجسيمات المتناهية فى الصغر الذى عقد فى باريس فى الأسبوع الأخير من شهر إبريل سنة ١٩٥٠ ، ويجد المطلع تفصيل ذلك فى كتابى الثالث « الذرة ومستقبل العالم » المنشور حديثاً ، وفى هذا نلمس لهذه العالمة الجليلة خلقا عاليا ـ بنسبة الفضل لذويه ـ وهو خلق العلماء .

* * *

هذه هى الأسس الأربعة أو الدعائم الكبيرة التى قامت عليها العلوم الذرية التجريبية فى الستين سنة الأخيرة ، ونرى منها أنه لا يمكن أن نفصل عمل إيرين كورى عن أهم أحداث العلم التجريبى من ناحية ولا عن أعمال عائلتها الخالدة من ناحية أخرى ، فوالدتها كما سبق أن ذكرنا كشفت البولونيوم بمفردها على أثر كشف هنرى بكارل اليورانيوم ، ووالدتها كشفت من جديد الراديوم مع والدها بحيث امتزج بكارل ووالدتها ووالدها فى أكبر عمل علمى تم فى آخر القرن التاسع عشر ، وهى وزوجها لهما فضل وفير فى الكشف عن النيوترون مع ماله من أهمية ، وأخيراً لهما أكبر الفضل فى الكشف عن النظائر المشعة كثيرة الاستخدام اليوم ، وفى النهاية كان لزوجها مع زميليه الفضل فى تنبيه العالم أجمع لحدوث سلسلة هامة فى عمل أوتوهان الخالد .

* * *

أى فضل عَمَّ البشرية أكثر من أفضال هذه السيدة وعائلتها ؟ عالمة وزوجها ووالداها تدخل جائزة نوبل من بابهم خمس مرات خلال ثلاثين عاما ، أى فضل شمل بنى الإنسان أكثر من خلق ما نسميه اليوم النظائر المشعة .

يقولون أنها انتهت كوالدتها متأثرة بالنشاط الإشعاعى ، وهو قول معقول ، فقد أفنت حياتها فى هـذه الأجواء المشعة قبل أن تصل الوقاية من هذه الأجواء درجة الـكمال التى وصلت إليه اليوم .

أذكر يوما فى سنة ١٩٣٤ تناقش فيه علماء السوربون فى موضوع دفن أمها فى البانتيون مدفن العظماء ، وهى التى لم تحظ بهذا الشرف ، كنت على مقربة من اثنين من جهابذة العلم ، هما : جان بيران من حملة جائزة نوبل فى الطبيعة ، والمرحوم العالم الكبير من له الفضل فى تكوينى الأستاذ جيبه يحاولان الحصول على تأييد غيرهم ليكون مقرها الأخير فى البانتيون ، ولا أريد أن أعلل الأسباب الآن فيما وصل إليه الأمر فى هذا الشأن ، ومن يدرى إذا كانت إيرين كورى ستنقل إليه لتكون جوار روسو بمشعله يُنير العالم ، وترقد قريباً من قلب جامبتا المحفوظ على حائط سلم البانتيون الموصل إلى أسفل الدار إلى مقابر الخالدين ، أم أنها ستكون خارج هذه الدار ، وأيا كانت رقدتها الأخيرة فقد استقرت فى قلوب العالم أجمع ، وذلك لما قدمت إليه من آثار علمية ينعم بها فى سبيل حياة أفضل ويسير بها نحو سلام دائم .

* * *

فى خطاب لفيكتور هيجو ألقاه فى سنة ١٨٧٨ بمناسبة مرور مائة عام على وفاة « فولتير » قال فى وصفه : « فولتير هو القرن الثامن عشر » وسرد الأحداث التى جعلت من فولتير زعيما لهذا القرن بكتاباته التى اشتهر بها أثر حادثين : الحادث الأول : تعذيب وإعدام « جان كالاس » الذى ظهرت براءته بعد إعدامه . والحادث الثانى : تعذيب وإعدام الشاب « لابار » متهماً بأنه اقتلع صليب الكنيسة فى بلدة إيفيل ، وكان بدوره بريئاً .

لقد خلق الحادثان فولتير العظيم الذى هاجم قضاة فرنسا ، وسخر من القساوسة وأطاح بالملكية ، وجعل كل هذا منه زعيما لا يبارى للقرن الثامن عشر ، وأشرك

هيجو معه فى هذه الزعامة خمسة ، هم : جاك جان روسو ، ومونسكيو ، وديدروه ، وبيفون ، وبومارشيه .

فهل لى أن أصف القرن العشرين الذى نعيش فيه الآن أنه مدام كورى وبكارل وبيير كورى - إنه أينشتاين وماكس بلانك وبوهر - أنه رذرفورد وإيرين كورى وجوليو - أنه فرمى وأتوهان - إننا نكون بهذا التقرير قد أحسنا صنعا أن وضعناها وسط هذه الزمرة من الرجال المحسنين الذين هم فى الواقع بناة القرن العشرين .

لقد كانت الدنيا أيام ألقى هيجو خطابه الرائع فى حاجة إلى تذكيرها بحرية الفرد وقيمة الإنسان ، أما اليوم فقد بتنا فى عصر آخر وأضحينا أمام معركة تختلف عن تلك المعركة التى خاضها فولتير بشجاعة منقطعة النظير - اليوم يوم معركة العلوم ، معركة البقاء أو الفناء ، وترانا فى أشد الحاجة إلى من يذكرنا بهؤلاء الأعلام الذين طالما سعوا لإبعادنا برفق عن طريق الفناء ، وأخذوا بأيدينا نحو طريق البقاء - هذه الزمرة من خدام البشر تجد إيرين كورى مكانها الطبيعى بينها ، ولا عجب إذا وضعناها بين بناة عالم جديد هو عالم الخير والسعادة والهناء لا عالم الشر والشقاء والفناء ؟



لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخى :

إنى لمهد من ثنائى فقاصد به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهز به فى ندوة الحى عِطفه كما هز عطفى بالهجان الأوارك
قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شدة المتدارك
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل له كالىء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سله من حد أخلق صائك
إذا هزه فى عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ابن عمه شمس بن مالك أهدى إليه الهجان الأوارك : الإبل الكريمة التى ترعى الأراك ، فهز عطفه فهو يعامله بالمثل مثنيا عليه ثناءاً يهزه فى ندىّ قومه ، وتا لله إنه لرجل حقيق بالثناء ، صبور لا يتشكى البلاء بعيد الهمة متعدد المطالب يسلك إليها مختلف المسالك . يصبح بمفازة ويمسى بغيرها مستقلا بأمره لا يتردد فى أن يركب ظهور المهالك . سريع اللة يسبق طلائع الريح إذا شد إلى غايته شدا متداركا . تنام عيناه وقلبه يقظان ، حازم فاتك ، يتخذ من عينه رقيبا ينبئه بالنبأة فيعجل إلى سل سيف صقيل قاطع إذا ضرب به ضحكت المنايا فأبدت نواجذها لأنها على

يقين من أنهـا مغتالة فريسة يقدمها إليها شمس بن مالك ، هـذا الوحش الآدمى المستأنس بالوحدة المستغنى عن الدليل . اللهم إلا أن يكون الشمسَ أو المجرةَ فهو مهتد بمـا تهتدى به النجوم أو أمها .

قلت : له الله من جاهل يحسب الشمس أم النجوم ، ولو أنه عرف ما يعرفه الآن تلاميذ المدارس الأولية ، لعـلم أن الشمس ، بل المنظومة الشمسية مثلها ، شىء حقير بالقيـاس إلى الشعرى العبور أو أختها الغميصاء أو ما شاء من نجوم السماء التى يستطيع أصحاب الفلك أن يحدثوه عن عظمتها حديثاً حقيقياً يعجز الخيال أن يرقى رقيه .

إن القافلة العلمية ما كانت لتسير إلا مجهزة بأجهزتها الفلـكية وغـيرها مما قد تدعو إليه الحاجة ، وإذا كانت السلامة فى جانب صاحبكم عشرا فهى فى كنف أصحابى مائة عشر ، ألا فلتسمح لى أن أخالف عن أمركم ، وأن أستظل بظل العلماء وأتبعهم حيثما ارتحلوا وأينما حلوا .

قال : إلى حيث ألقت رحلهـا أم قشعم ، أو إلى حيث طار الطائر الميمون فلست أدرى . ذلك بأن السلامة والندامة لا ترتبطان لا بعلم ولا بجهل ، ولـكنه (القدر) فيما يعلم المؤمنون (والحتم) فيما يقول الـكافرون .

قلت : ولـكنى أوجه نظركم إلى موضع حديثنا . . كنا فى شمس بن مالك أو فى الهجان الأوارك التى أهداها إلى ابن عمه تأبط شراً فكانت هبة بعوض ، عوضها هذا الشعر الذى أنشدتمونيه وهأنذا أفـكر فيه وفى القيم الإنسانية وكيف تتحول بها الأحوال . فمـا أحسب هذا المديح الذى هز عطف ابن مالك يرضى الآن المتواضعين من الرجال . . وإلا فمن ذا الذى يبعث كبرياءه فى أيامنا هذه أن يقال له : إنه يستأنس بالوحشة ، فاتك ما ينفك وراءه مطالب بدم ، فهو يقظان هاجع عينه ربيئة قلبه ، وقد يضطره مطاردوه إلى أن يعـدو عدواً سريعا يسبق وفد الريح ، فهو طريد شريد ، يصبح فى فلاة ويمسى فى غيرها . ثم هو جحيش .

ألا ترون فى « جحيش » هذه شيئاً بغيضاً ؟ فلست أدرى ماذا يصيبنى لو أنى واجهت رجلا أبداً بأنه جحيش ؟ .

قال : رويدك بعض سخريتك ، فجحيش هذه تساوى (فريداً) فالكلمتان مترادفتان فلماذا يغضب من تواجهه بأنه فريد . فريد فى نوعه . فريد فى علمه . فريد فى حلمه أو فيما شئت . ؟ فالكلمة فى ذاتها لا تتضمن قدحا ولا مدحا وإنما توجهها حيث شئت إذا خصصتها بإضافة أو غيرها . ألا وإن الصفات التى خلعها تأبط شراً على ابن عمه لحميدة جد حميدة . أدخل فى حسبانك ظروف الزمان والمكان وما يترتب عليها من تحول فى السلوك ؛ تجد الصفة الشخصية هى هى ولو أخذت بالضرورة لون البيئة أو نشاط الوسط الاجتماعى . فشمس بن مالك مثلا رجل جلد ، صبور ، يقظ ، متحرك أبداً ولو كان قد قدر له أن يعيش فى أيامنا هذه ، لكان رجل أعمال من الطراز الأول . يمسى فى أوربا ويصبح فى أمريكا ثم لايلبث أن يستقل (نفاثة) تحمله إلى آسيا ، ولكن الله خلقه فى القرن السادس الميلادى لا فى القرن العشرين ، وفى البادية لا فى مدينة أوروبية أو أمريكية فكان دأبه أن يستقل ، بدل (النفاثة) العصرية ، ناقة جمالية ، وأن يرتاد ، بدل المدن الآهلة الفلوات القاحلة . هو على أى حال نشاط تختلف أوجهه باختلاف الملابسات ، فشمس بن مالك قد يصبح (فورد) ، وفورد قد يصبح شمس بن مالك لو تبادلا ظروف الزمان والمكان .

قلت : خيال يسرح بنا أيما مسرح .

قال : أو يشطح بنا أيما مشطح ، أو قل سمادير رمضان ، ومرة أخرى لنعد إلى ما كنا فيه : إلى تأبط شراً عفا الله عنه .

قلت : كيف يعفو عنه ، وهو ممن كانوا يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، فهو لم يك إلا صعلوكا قاطع طريق ، أكبر همه الجريمة ، يأكل أموال الناس بالباطل ، ويقتل النفس التى حرم الله . ثم هو قبل هذا كله مشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قال : ومع هذا كله يغفر الله سبحانه وتعالى لتأبط شراً ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما كان إجرامه ولا إشراكه لينقض حكما آخر جاء فى كتاب الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقد قتل تأبط شراً فى الجاهلية ، فهو من أهل الفترة الذين يعلم صبيان الكتاب أنهم ناجون من العذاب ، وهذه مسألة تتناول تأبط شرا وكثيرين غيره وهو حسبنا اليوم وكفى : كانت حياته عفا الله عنه جافة حازمة قاسية لم تعرف الهزل ولا الدعة ولا النعمة أليس هو القائل : —

ولا أقول إذا ما خلة صرمت ... ياويح نفسى من شوق وإشفاق
لكنما عولى إن كنت ذا عول ... على بصير بكسب المجد سباق

فأنت تراه لا يهمه وصل غانية ولا صرمها ، إذا أمكنت الفرصة وواتت فبها ونعمت ؛ وإلا فلا توجع ولا حسرة فهو لا يعول على امرأة وإنما على رجل بعيد الهمة بصير بكسب المجد سباق إليه .

قلت : أحسبها عقدة نفسية ، فأنا أعلم أنه كان يتعشق جارية ويتعقبها فلا يسعفه الحظ ، ثم قيض له شيطان ساقها إليه فجاءته هى تسعى إليه ، جاءته تتهادى فى استرخاء وتكاسل أو كما قال :

تمشى إليك مشية حوقلة ... كمشية الأرخ تريد العلة

يعنى تمشى متباطئة متثنية مشية البقرة عائدة إلى المورد بعد أن نهلت فهى تريد العلة ، ولكنه كان ، مع بالغ أسفه غير مستعد للاستجابة فرجعت من حيث أتت ، ولا والله ما نهلت ولا علت ، وأحسبكم تروون الرجز الذى سجل فيه هذه الواقعة .

قال : نعم أرويه ولكنى لا أرى فيه ولا فى الواقعة ما يمكن أن يكون جرثومة عقدة نفسية ، بل أنا بصفة عامة ، لا أقبل - إلا متحرزا كل التحرز - ما يقوله أصحاب علم النفس فى العقد النفسية وغيرها من المسائل التى عرضوا لها وظنوا أنهم جلوها فى حين أنهم أبهموها بل لقد افترضوا افتراضات ثم حجروها

حقائق ثابتة أثبتوها مقدمات جاءت نتائجها متوهمات يرفضها العقل بل ترفضها الفطرة قبل القياس العقلي كالشعر المكسور تمجه الغريزة الشعرية قبل وضعه فى قالب التفاعيل .. هـذا على أنك تعرف فى غير مشقة ولا عسر : النفسَ الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة ، فليت القوم نحوا هذا النحو وخلاهم ذم .

قلت : ولكن علم النفس ارتفع إلى منزلة ما كان لينزل عنها وحسبه أنه علم .

قال : كونه علما موضع نظر ، أفليس أكثره نظريات لا يستطيع أصحابها أنفسهم الزعم بأنها ارتفعت إلى درجة القوانين ؟ .

قلت : أفقرأتم ما كتبه أعلام علم النفس والتحليل النفسى وبخاصة ما كتبه (سيجمون فرويد) .

قال : فهذا مثلا رجل التوت به الغريزة فرد كل التصرفات الإنسانيـة إلى الغرائز بل إلى غريزة معينة ، مغفلا العقل أو سمه العقال إن شئت ، فهو الذى يقفك أو يعقل غريزتك إذا انطلقت الانطـلاق الحيوانى البهيمى ، ولـكن صاحبك (فرويد) هـذا ينطلق ملتوياً مع غريزته إلى حد الزعم بأن بنى آدم ضحوا بالنفس والنفيس فى سبيل أصول خلقية ليست فى واقع الأمر إلا أوهاما ، إنه ليأسف ويتألم لبنى جنسه الذين خدعتهم القواعد الخلقية دهراً طويلا حتى شرفت طلعتـه السنية ، هذه الإنسانية التى تعذبت حتى جاءها المخلص فرويد آخر الدهر أو لعلى أخطأت شخص المخلص ، فعسى أن يكون آخر غير (فرويد) هو (أوجست كونت) صاحب الفلسفة الوضعية وإلغاء ما وراء الطبيعة ، ومن يدرى فلربمـا أخطأت فى الثانية ، فليس المخلص أوجست كونت ولا فرويد ، وإنمـا هو صاحب الدعوة الكبرى (ماركس) ـ بهؤلاء وأمثالهم فتنت الإنسانية خـلال القرنين الماضيين أو الثلاثة فتنتها الكبرى، ولـكن يبدو أن الغمامة منقشعة ، فإن الرسل المزعومين الذين انبعثوا من تلقاء أنفسهم بعد بعثة خاتم النبيين محمد عليه صلوات الله والملائكة والناس أجمعين ، أولئك الرسل كذب بعضهم بعضا ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، أولئك ذوو الآفات أرادوا الناس جميعاً على أن يكونوا زمنى أمثالهم .

قلت : على رسلك يا سيدى الشيخ ، من كفر فعليه كفره ، وليزيدنهم ربك طغيانا وكفرا ، ومهما يكن شأن ملاحدة النصف الغربى من الكرة الأرضية فإن أثر إلحادهم وتشككهم وتشكيكهم إلى آخر أوجه الفساد والإفساد فى أمور العقيدة وغيرها من شؤون العباد ، كان أثراً ضئيلا فى الإسلام والمسلمين ، فما كان سوادنا قط ولن يكون فيما أعتقد من أتباع الفلسفة الوضعية ولا غيرها من الفلسفات الجديدة ، سواء اتصلت بالمعتقدات أو بالسيرة الاجتماعية : تستطيعون أن تتحدثوا عن فلان أو علان ممن خلبهم بريق الفوضوية الفكرية والخلقية من وجودية وغير وجودية من المذاهب الشاذة التى يعجز معتنقوها أنفسهم أن يدافعوا عنها ، بل إن كثيرين منهم ليستحيون من أنهم إليها ينتمون ، فلا تتبينهم إلا فى مناسبات معينة كما كان المنافقون الأولون يستبينون على عهد الرسول الأمين إذا ذهب الخوف ، أو بتعبير أعم إذا تحققت الحال التى يتأكد لهم معها أنه لن يلحقهم ضرر ، ولن تفوتهم منفعة جراء ظهور نفاقهم ، إن فلانا وعلانا وأضرابهما لا يمثلون إلا قلة قليلة فى العالم الإسلامى كله لايؤبه لها ولا يعتد بها . لست أعنى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأننا نحن المسلمين فى أحسن حال ، وإنما أعنى أن الذين فسدوا منا بسبب المعرفة الجاهلة أو سمها الجهالة المتعالمة قليلون يعدون على أصابع اليدين والرجلين ، فأما الفساد العام الذى شمل الأمة جمعاء فإن له علة وحيدة ليست فلسفة ولا شهوة ولا فاحشة أيا كان لونها مما تواطأت الناس على تسميته فواحش . . علة وحيدة غفل المسلمون عنها - على خطورتها - مدى قرون طويلة أخذهم النوم فناموا عنها ثم ناموا وطاب لهم النوم فاستغرقوا فيه ثم استغرقوا ، ولكن جماعة من جملة النائمين استيقظت آخر الأمر ، وهى الآن مشغولة وستظل مشغولة أبد الدهر أو يستيقظ النائمون فيصحوا ويصيحوا ، أعنى أنهم يبرءون من داء النوم .

قال : ليس بمحاورك حاجة إلى الذكاء كى يدرك أنك لا تعنى بتلك العلة الوحيدة غير تفرق الكلمة التى ما نهض الإسلام ولا استقام على طريقته إلا لأنها كانت مجتمعة .

قلت : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد

خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .
هذا وعد بل عقد شبيه بذلك الذى اشترى به سبحانه وتعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فكل مؤمن تطيب نفسه عن بذلها وبذل ماله فى سبيل الله له الجنة ، وله أن يستبشر ببيعه الذى يقتضى ثمنه فى الدار الآخرة ، ولكن الإسلام دنيا قبل أن يكون أخرى ، فكيف تنتظم أمورنا فى الحياة الدنيا ؟ ذلك هو محل الوعد أو العقد سالف الذكر إيمان وعمل صالح ، ذانك هما الالتزامان اللذان شاء الله أن يلتزمهما المسلمون باعتبارهم هيئة اجتماعية ، أعنى أنه تكليف للمجموع فإذا وفينا وأبرأنا الذمة فإن المقابل هو الاستخلاف فى الأرض وتمكين الدين فيها وإبدال الخوف أمنا ، وتالله لقد برئت الذمة ، ونصر جنده وأنجز وعده . فكنا خلفاء الأرض وملأناها عدلا بعد أن أتى عليها الجور أو كاد قبل أن يكرم الله العباد برسالة النبي الأمى الذى وجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ويضرب الدهر من ضرباته فإذا الخلفاء مستخلف عليهم ، وإذا الدين المتمكن موشك أن يتهدم ، وإذا الأمن خوف والمسلمون يتخطفهم الناس من من حولهم ، أفليست هذه حالنا حقيقة لا مجازا ، فلماذا ؟ .

قال : الجواب يكاد يفصح عن نفسه دون حاجة إلى لسان أو قلم فاستمع إلى لسان الحال وخلاك ذم . فلماذا لماذا تلك التى قدمت ؟ إنه عقد أو وعد نفذ واستمر تنفيذه حتى أخل به أحد الطرفين فكان جد طبعى أن يستعمل الطرف الآخر حقه فيقف التنفيذ . لابد إذا أن أحد الالتزامين أو كليهما ـ الإيمان والعمل الصالح ـ قد قصر أو وهن فليس من الجائز أن يخلف الله وعداً أو ينقض عقداً إلا أن يقتضى عدله الإلـهى وقف التنفيذ أو ما هو أدهى وأمر .

قلت : كان أكثر المسلمين حتى فى أيام خاتم الأنبياء والمرسلين منطبقاً عليه قول أصدق القائلين : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً » فليس شك فى أن الناس المستكملة إنسانيتهم قلة فى كل زمان : وآدم نفسه عهد الله إليه فنسى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » .

فما الذى طرأ على المسلمين حتى يأخذهم سبحانه وتعالى بما أخذهم به فى الدنيا قبل الآخرة فالمساجد مليئة ، والحاج يزداد عاما بعد عام ، وكذلك الحال فى سائر الطاعات التى تقع تحت المراقبة الحسية ، اللهم إلا أن تكون النفوس قد تغيرت فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال : أولا يقع تحت المراقبة الحسية أن نرى المسلمين مجتمعة كلمتهم أو منشقة عصاهم ، دعنى من الصلاة والصوم - ولست أعنى بطبيعة الحال الإقلال من شأنهما - وإنما أعنى بعض ما قاله حجة الإسلام فى قرننا هـذا - واعفنى من ذكر اسمه (لقد كان الإسلام ولم تكن صلاة ولا صوم) . اجمع كلمة المسلمين تجدهم خلفاء الأرض وأعلامها فى الطول والعرض ، إن عزة الإسلام رهينة التقريب ، تقريب المتباعدين، وهم إخوة المبددين أمماً ضعيفة ذليلة، وهم الأمة الواحدة القوية الأبية .

قلت :

مُـنىً إن تكن يوما تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

قال : منى وليست بالأمانى وتحققها وليد إرادتنا . لو أردنا لقدرنا ، ليرد كل من يعرف رسالة الإسلام أن يكون واحدا من الأمة الإسلامية تتحقق الأمنية وتخفق الراية الإسلامية كما كانت تخفق حين كنا ولا تسل كيف كنا .

قلت : حين كنا ولا تسـل كيف كنا : شطر بيت لعله لتـأبط شراً فنحن فيه . . ؟

قال : أوهذه ألفاظ وتركيب يمكن أن يعزيا إليه ؟ إنه لجهد ضائع إذا عجزت أن تميز أسلوب صعلوكنا الشهير . . . فإلى فرصة أخرى نستنقد فيها باقى هذا الحديث ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية [١]

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ١٩ —

د و ل

دولة دالت الأيام تدول دولا . دارت وأدال الله منه : غلبه ونقل منه الدّولة . والدَّولة والدُّولة : انقلاب الزمان ، وما يدول أى يدور للإنسان من الغنى والغلبة والجد ، جمعها دول ، وقيل الدولة فى الملك والنصرة ، والدولة فى الملك والمال .

وقيل : هى بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف ، وبالفتح مصدر بمعنى التداول ، ومنه : «كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم» ٧ / الحشر .

والمعنى كى لا يكون الشىء خاصة بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو غلبة جاهلية بينهم ، فإن الرؤساء كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون : من عزيز . أو كى لا يكون شيئاً يتداوله الأغنياء ويتعاورونه فلا يصيب أحداً من الفقراء .

تداول داول الأمر يداوله مداولة : نقله الشىء من واحد لآخر لجعل الأيدى تتداوله ومنه : «وتلك الأيام نداولها بين الناس» ١٤٠ / آل عمران . أى نصرفها بينهم فتديل لهؤلاء مرة ولهؤلاء أخرى .

---

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

د و م

دام — دام يدوم ويدام دوما ودواما وديمومة : امتد عليه الزمان ، وأصل الدوم السكون ، يقال دام الماء : أى سكن ، والماء الدائم : أى الساكن ، وأدمت القدر ودومتها : سكنت غليانها بالماء ، وما ورد من هذه المادة فى القرآن فهو على معنى امتداد الزمان ، ومنه : « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض » ١٠٧ / هود أى مدة دوامهما ، وهذه عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذلك ما لاح كوكب .

« والذين هم على صلاتهم دائمون » ٢٣ / المعارج . أى مواظبون على أدائها أو لا يلتفتون فيها ، ومنه الماء الدائم أى الساكن . وقد وردت المادة أيضا فى ٧٥ / آل عمران ، ٢٤ ، ٥٦ ، ١١٧ / المائدة ، ٣٥ / الرعد ، ٣١ / مريم .

د و ن

دون — دان يدون دونا : صار خسيساً أو ضعف وقصر . ويقال للقاصر عن الشيء : دون ، والمعنى العام للمادة : الضعف والخسة والقصور والقرب . ودون وهى ظرف مكان لا يتصرف ، نقيض فوق ، ويكون بمعنى أمام ووراء وقبل وأقل وغير وبمعنى الاختصاص ، وبمعنى تجاوز الحد .

ومعناها العام : أقرب مكان من الشيء كعند ، إلا أنها تنبىء عن دنو كثير وانحاط يسير سواء كان ذلك فى المراتب الحسية أم فى المعنوية . وقد استعمل فى كل تجاوز من حد إلى حد ، ولو من غير تفاوت وانحطاط ، وهو بهذا المعنى قريب من غيره ، فكانت أداة استثناء ، ومستعمل بمن كثيرا وبالباء قليلا .

وقد ورد فى القرآن استعمالها بمعانيها المختلفة .

١ — فدون بمعنى أقل فى المواضع الآتية :

« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ٤٨ ، ١١٦ / النساء . أى ما كان أقل من الشرك ، وقيل هى بمعنى غير وسوى ، والمعنيان يتلازمان . « واذكر ربك فى نفسك

تضرعا وخفية ودون الجهر من القول » ٢٠٥ / الأعراف ، أى واذكرا ذكرا أقل من الجهر . « ومن دونهما جنتان » ٦٢ / الرحمن . أى وأقل منهما فى المنزلة والقدر أو فى القرب للنعمين . « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » ١٦٨/الأعراف أى ومنهم أناس أو فرقة فى درجات أقل من الصلاح ، فدون واقع موقع الصفة لمحذوف والمشار إليه هو الصلاح المفهوم من الصالحين ، أو ومنهم منحطون عن الصالحين ، ودون حينئذ مبتدأ بقى مفتوحا لتمكنه فى الظرفية مع إضافته إلى المبنى والمشار إليه هو الصالحون .

٢ — ودون بمعنى قَبْل فى المواضع الآتية :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » ٢١ / السجدة « فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا » ٢٧ / الفتح ، أو هى بمعنى غير ، أى فجعل من غير تحقق مصداق الرؤيا من دخول المسجد الحرام الخ . وكذلك فى ٤٧/ الطور ، ٥٨ / الكهف .

٣ — ودون بمعنى قِبَل أو جهة فى المواضع الآتيه :

« وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » ٩٠ / الكهف : أى من قبلها وجهتها . « فاتخذت من دونهم حجابا » ١٧ / مريم . « ووجد من دونهم امرأتين تذودان » ٢٣ / القصص . أى فى مكان مما يلى جهته إذا قدم عليهم أى من الجهة التى وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمة ، أو هى بمعنى قربهم أو سواهم وكذلك فى ٩٣ / الكهف .

٤ — ودون بمعنى وراء فى الموضع الآتى على أحد وجهين :

« وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك » ٤٧ / الطور . أى وراء ذلك كقول الشاعر : (يريك القذى من دونها وهو دونها) أو هى بمعنى قبل .

٥ — ودون بمعنى الاختصاص وقطع الشركة فى الموضعين الآتيين :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا

الموت » ٩٤ / البقرة . « خالصة لك من دون المؤمنين » ٥٠ / الأحزاب . فدون هنا للاختصاص ، يقال هذا لى دونك ، أى لا حق لك به معى .

٦ — ودون بمعنى أمام كما فسرت فى الموضع الآتى على أحد الوجوه :

« وادعوا شهداءكم من دون الله » ٢٣ / البقرة . أى وادعوا الذين يشهدون لكم بين يدى الله على زعمكم .

٧ — ودون بمعنى غير أو سوى فى الآيات الآتية :

« وادعوا شهداءكم من دون الله » ٢٣ / البقرة . فسرت فى أحد الأقوال بمعنى غير أى وادعوا من غير الله من يقيم لكم الشهادة . « وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ١٠٧ / البقرة . أى من غير الله أو متجاوزين الله . وكذلك فى ١١٦ / المائدة ، ٣٧ / يوسف ، ٨٢ / الأنبياء ، ٢ / الإسراء ، ٨٦ / الصافات ، ٨٦ / النحل ، ٥٨ / النجم ، ١١٨ / آل عمران ، ١١٧ / النساء ، ٦٠ / الأنفال .

٨ — ودون بمعنى الأدون والدنىء فى الموضع الآتى على أحد الأقوال :

« لا تتخذوا بطانة من دونكم » ١١٨ / آل عمران . أى لمن لم تبلغ منزلته منزلتكم فى الديانة أو من الأدنياء ، وقيل المعنى الأول بمعنى غير .

٩ — ودون المستعملة فى كل تجاوز من حد إلى حد هى الأكثر فى القرآن وقد ورد فيا سوى ما تقدم من المواضع . مثل :

« وادعوا شهداءكم من دون الله » ٢٣ / البقرة ، فى بعض الأقوال هى فى محل نصب على الحال . أى متجاوين الله . « وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ١٠٧ / البقرة ، أى متجاوزين الله . « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » ٨١ / الأعراف . أى من متجاوزين النساء . « هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك » ٨٦ / النحل . أى ندعوهم متجاوزين إياك . « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا » ٤٣ / الأنبياء ، من دوننا صفة بعد صفة . أى مانعة لهم متجاوزة منعنا وحفظنا ، وهكذا .

أنباءٌ وآراء

محمد على علوبة :

فقدت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية رجلا من أقطابها البارزين هو المغفور له السيد محمد على علوبة ، طيب الله ثراه .

لقد كان هذا الرجل العظيم مثالا يحتذى فى خلقه وشرف نفسه ، وقوة إيمانه وبسالته فى نصرة الحق . عاش أكثر من ثمانين عاما مرت بالعالم الإسلامى فى خلالها أحداث جسام ، وبدت فى آفاقه أضواء متعددة ، بعضها نور مبين ، وكثير منها برقٌ خُلب ، وتهافتت على الأضواء المتعددة قلوب وأبصار ، لكنه ـ رحمه الله ـ ظل فى مكانه الذى اقتعده كريماً على نفسه وعلى الناس ، وفياً لمبادئه حريصاً على مثله ، جاداً فيما يتناول من الأمر عامّه وخاصّه ، دائب التفكير والعمل فيما يصلح أمته ويعلى شأنها ، لا يلوى على شىء ولا يخاف فيما يعتقد لومة لائم ، حتى كان فى هذه العشرات المتابعة من السنين علماً هادياً ونجما لامعاً يهتدى به السائرون ، ثقة به واطمئناناً إليه ، وعرفاناً بعد التجربة بمكانته من الإخلاص والبصر والغيرة على الحق والقوة فيه .

وجماعة التقريب ورسالة الإسلام ـ ومكان الفقيد منهما ، ومكان فكرتهما من نفسه المؤمنة ، كلاهما معروف لا يحتاج إلى تنويه ـ تقفان من ذكراه موقف الإكبار والاعتبار والدعاء ، معترفتين له بالفضل ، محتسبتين إياه عند الله فى الرعيل الأول من الأبرار المجاهدين الصادقين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

من بحوث معهد الدراسات :

إن معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ماض فى طريقه بعون الله وتوفيقه ، وقد أقبل عليه الراغبون فى التزود من البحوث الإسلامية إقبالا شديداً على قرب العهد به ، وأصبحت بحوثه وآراء أساتذته تقابل من رجال العلم والفكر ، فى مختلف الأندية والمجالس والمجلات العلمية فى مصر وغيرها بالتتبع ، واتجهت إليه الأنظار اتجاها خاصاً .

ولما كانت مهمة هذا المعهد التى أخذ على نفسه الاضطلاع بها ، هى نشر الدراسات الإسلامية وتعميم الانتفاع بها فى محيط جميع المهتمين بذلك ، وليس فى قاعات الدراسة فحسب ، فإنه يسرنا أن نفسح فى رسالة الإسلام مجالا لبحوثه ، فالعلم أخوّة ورحمٌ موْصولة ، ومن حق قرائنا علينا أن نتابع لهم كل وجه من وجوه النشاط حتى يشْقّفوه ، ومن قبل وصلنا بينهم وبين أهم ثمرات المجمع اللغوى ، حيث واظبنا على نشر معجم الفاظ القرآن الكريم فى مختلف مراحله .

ويرى قراؤنا فى هذا العدد من رسالة الإسلام فصلا من بحث ألقى فى محاضرات متتابعة بالمعهد ، وسنوالى نشر بقية فصول هذا البحث وغيره فى أعدادنا القادمة إن شاء الله ، حتى يستطيع قراؤنا فى مختلف الشعوب الإسلامية ، أن يكونوا على صلة عملية بهذا المعهد الناشىء الذى نرجو له كل توفيق فى خدمة الثقافة الإسلامية ، والبلاد الإسلامية ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

* * *

الميزان فى تفسير القرآن :

تفسير جديد للقرآن الكريم لسماحة العلامة السيد محمد حسين الطباطبائى من علماء الإمامية الأجلاء صدر منه جزآن يقع كل منهما فى قرابة خمسمائة من الصفحات الكبيرة ، وقد طبع بطهران على ورق جيد وحروف طباعية حديثة .

قرأنا مقدمة هذا التفسير وبعض موضوعاته ، ونحن على نية أن نستوعب الجزأين قراءة وتدبراً إن شاء الله تعالى ، وقد وجدنا فيما قرأناه قوة علميه متعمقه

فى البحث مع السهولة واليسر والبعد عن التشدد ، والتخفف من المذهبية الخاصة إلى حد بعيد والرجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض ، والنأى به عن الأقوال التى لا تصح من الروايات الكثيرة المختلفة ، وعن الآراء التى ترجع إلى تأويل آياته حتى توافق نظراً علمياً ، أو تقليداً مذهبياً ، أو أصلا كلامياً ، أو فلسفة خاصة ، أو تجديداً حديثاً . . إلى غير ذلك مما تلمحه فى بعض التفاسير القديمة والحديثة .

ومما قاله فى بيان منهجه : (نفسر القرآن بالقرآن ، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه فى نفس القرآن ، ونشخص المصاديق ، ونتعرفها بالخواص التى تعطيها الآيات ، كما قال تعالى : (إنا أنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) وحاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شىء ، ولا يكون تبيانا لنفسه ، وقال تعالى : (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وقال تعالى : (إنا أنزلنا إليكم نوراً مبينا) وكيف يكون القرآن هدى وبينة وفرقانا ونورا مبينا للناس فى جميع ما يحتاجون ، ولا يكفيهم فى احتياجهم إليه . وهو أشد الاحتياج ؟ وقال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وأى جهاد أعظم من بذل الجهد فى فهم كتابه ، وأى سبيل أهدى إليه من القرآن ؟) (١) .

ومن أبرز مزايا هذا التفسير أنه يعنى بعد شرح الآيات وبيان معناها ، ببحث الموضوعات الهامة ، والقضايا التى كثيراً ما شغلت الأذهان فى القديم والحديث ، بحثاً مستمداً من آيات القرآن نفسها ، وقد قرأنا من هذا ما كتبه عند تفسيره لقوله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، إذ بحث بحثا جيداً فى إعجاز القرآن من جهاته المختلفة فى بلاغته وقوة أسلوبه ، وتحديه بالعلم ، وبالإخبار عن الغيب ، وبمن انزل عليه القرآن ، وبعدم الاختلاف فيه ،

---

(١) ص ٩ من الجزء الأول من الميزان .

ثم تحدث عما يثبته القرآن من قوانين وسنن كونية ، كتصديقه لقانون العلية العامة وإثباته ما يخرق العادة ، ومن كون المؤثر الحقيق فى الأشياء بتمام معنى الكلمة ليس إلا الله عز سلطانه ، ومن أن القرآن يعد المعجزة برهانا على صحة الرسالة لا دليلا عامياً ، إلى غير ذلك من الجزئيات الهامة التى تضمنها هذا البحث الدقيق .

وإننا لنحيي المؤلف العلامة ، وندعو له بدوام التوفيق ، وأن يبارك الله للمسلمين فى حياته ، وبالله التوفيق.

أطلس التاريخ الإسلامى :

يذكر القراء إن « دار التقريب » مهتمة بأن تيسر للباحثين فى الشئون الإسلامية معرفة عدد المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، وأننا نشرنا فى العدد الثانى من السنة السابعة إحصاء توخت فيه « دار التقريب » الدقة على حسب معلوماتها وموازنتها .

وبهذه المناسبة نذكر أن بين أيدينا الآن (أطلس التاريخ الإسلامى) الذى نقلته إلى العربية أخيراً مؤسسة « فرانكلين — بالقاهرة » بترجمة وتحقيق الأستاذ ابرهيم زكى خورشيد ، عن الطبعة الأولى التى ظهرت بالإنجليزية سنة ١٩٥١ .

ويهمنا الآن أن نبادر فنقرر أن هذا الأطلس - من غير شك - تحفة علمية فريدة فازت بها اللغة العربية ، ففيه يلتقى المؤرخ بالجغرافى ، إذ يجد كلاهما العالم الإسلامى فى مختلف بلاده مرسوما بمواقعه وحدوده وسائر المعارف الجغرافية عنه ، فى مصوَّرات متلاحقة لكل قرن ، يفيد منها الجغرافى فى دراسته للجغرافيا التاريخية ، أى حالة كل قطر من الأقطار ، أو إقليم من الأقاليم ، فى العصور المتقدمة ، ويرى فيها المؤرخ صوراً ناطقة توضح حقائق التاريخ حتى تكاد العين أن تراها .

بيد أن ما ورد بهذا الأطلس عن عدد المسلمين فى العالم الآن ينقص كثيراً عما ذكرناه ، ونعتقد أن من أهم أسباب ذلك أن بعض البلاد الإسلامية لم يتحدد عدد سكانها بالضبط لأسباب مختلفة ، وأن بعضا آخر مما يشترك فيه المسلمون

وغيرهم ، لا يعطى عدد المسلمين بالدقة ، بل ينقص هذا العدد عن واقعه كثيراً ، وسيظل هناك تفاوت فى العدد ، واختلاف فى تحديده ، مادام الأمر على ما وصفنا .

لهذا نحث الحكومات المختلفة على أن تتخذ من الوسائل ما يؤدى إلى ضبط التعداد بصورة حقيقية واقعية ، تفيد الباحثين فائدة واضحة ، بصرف النظر عن كل اعتبار آخر ، خدمة للحقيقة والبحث .

في جامعة « مونتريال » بكندا :

أشرنا فى العدد الماضى من « رسالة الإسلام » إلى ما بعث به فضيلة الدكتور محمد البهى الأستاذ الزائر من الأزهر لجامعة مونتريال بكندا ، إلى « دار التقريب » عن صدى الدعوة فى الأوساط العلمية الجامعية هناك .

وقد وصل إلى « دار التقريب » كتاب آخر من فضيلته رداً على الرسالة التى بعثت بها إليه متضمنة بعض المعلومات التى طلبها فى كتابه السابق ، وقد تحدث فضيلته فى هذا الكتاب عن بعض الجوانب العلمية التى اتصل بها البحث فى هذا الموضوع بالجامعة وأن موضوع التقريب قد أخذ حظه من المحاضرات التى طبعت بعد إلقائها وأصبحت فى متناول أيدى المهتمين بها ، ثم تقدم بهذا الاقتراح :

« لما كانت جماعة التقريب ، هى أول جماعة فى تاريخ المسلمين منذ افتراقهم إلى شيعة وسنة أخذت تعالج من الوجهة العلمية والتاريخية ، الفجوة المذهبية بين المسلمين عامة ؛ فإنى أرى أن تضم إلى هذه الغاية الهامة غاية أخرى جامعية ، وهى إخراج دائرة معارف إسلامية مختصرة باللغة الإنجليزية تقوم على تصحيح الأخطاء الكثيرة فى دائرة المعارف التى أخرجها بعض القساوسة واليهود المتعصبين باسم العلم والبحث، عن الإسلام والمعارف الإسلامية، وأصبحت فى بعض النواحى مصدرا مضللا ، لكثير من المثقفين المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، ولغير المسلمين فى العالم الغربى والشرقى ، فإنه طالما تستقل دائرة المعارف هذه بتزويد العالم كله بالمعرفة الإسلامية فسيظل انحراف الفهم فى العالم كله قائما وخطراً على الإسلام والمسلمين »

ونحن نشكر للدكتور البهى - باسم دار التقريب - نشاطه المحمود فى خدمة الدين والعلم والتأليف بين المسلمين ، ونعتقد أن « دار التقريب » ستعطى هذا الاقتراح حقه من الدرس والاهتمام .

رأى الإمامية فى الغلاة :

مما لا يزال عالقا بأذهان كثير من العامة فى البلاد الإسلامية ، ظنهم أن الشيعة كلهم غلاة يرون فى أمير المؤمنين على أو فى الأئمة من بعده رضى الله عنهم أجمعين ما هو كفر وارتداد عن ملة الإسلام ، من مثل أن النبوة صرفت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كانت مسوقة إلى أمير المؤمنين على - أو أن الله يحل فى أحد من خلقه ، أو أن الأرواح تتناسخ ، أو نحو ذلك - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وحاشا لنبيه وأوليائه أن يكون هذا شأنهم أو العقيدة فيهم .

وفى دار التقريب الآن بحث مستفيض مخطوط ألفه لها ، تأييدا لفكرتها ، عالم إمامى معاصر هو فضيلة العلامة الجليل الحاج ميرزا خليل الكمرئى يبين فيه رأى الإمامية سلفهم وخلفهم الذى أجمعوا عليه فى هذه القضية الأساسية ، وهو كفر هؤلاء الغلاة وارتدادهم عن دين الله ، ووجوب حربهم والبراءة منهم ، وما ورد عن أئمة الهدى من أقوال حاسمة فى ذلك .

هذا المؤلف الحديث هو الآن قيد البحث والدرس فى دار التقريب لمراجعته والتعرف إلى مصادره ، وتهيئته للنشر مستقلا فى فرصة قريبة إن شاء الله .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

كلمة التحرير	. . . .	١١٥
تفسير القرآن الكريم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	١١٧
المجتمع القرآنى	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة	١٢٩
صلاة التراويح	لسماحة العلامة السيد شرف الدين الموسوى	١٣٩
كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة . .	١٤٣
الأصول الثلاثة والأخوة فى الدين . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه	١٤٨
ليكورغوس والحسديون وأبو ذر الغفارى	الدكتور عبد الواحد وافى	١٥٢
الحرية الفكرية فى اليمن	لحضرة الأستاذ القاضى محمد بن اسماعيل العمرانى	١٥٨
فى التاريخ والأدب	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	١٦٢
أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى	١٧٢
مستقبل الشعر	لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد العمارى	١٨٨
عود إلى حديث الذرة	للدكتور محمد محمود غالى	١٩٦
قال شيخى	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى	٢٠٤
معجم ألفاظ القرآن الكريم		٢١٢
أنباء وآراء		٢١٦

محمد على علوبه ــ من بحوث معهد الدراسات الإسلامية ــ الميزان فى تفسير القرآن ــ أطلس التاريخ الإسلامى ــ فى جامعة مونتريال بكندا ــ رأى الإمامية فى الغلاة .

رجاء من التقريب	٢٢٢
من القانون الأساسى لجماعة التقريب	٢٢٣

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

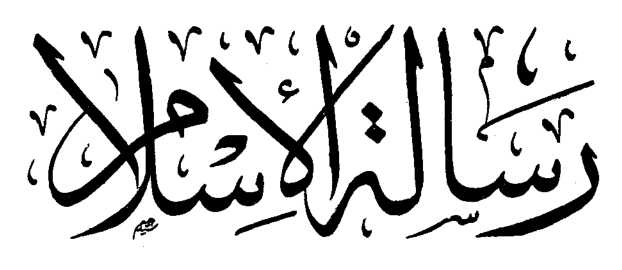
لخدمة أغراض الجماعة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة ـ تليفون : ٨٠٤٦٨/٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٢



مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ذو الحجة ١٣٧٥ هـ — السنة الثامنة

يوليو ١٩٥٦ م — العدد الثالث

إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

يصدر هذا العدد من « رسالة الإسلام » وأفئدة المسلمين فى كل شعب تهوى إلى وفد الله من الحجاج والعمّار والزوّار ، أولئك الذين سمعوا رنين الأذان الذى صدَع به رسول الله إبراهيم ، تلبية لأمر الله عز وجل حيث يقول : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

لقد سرَتْ هذه الدعوة فى أعماق التاريخ مسرى الدماء ، من الآباء إلى الأبناء ، حتى جاء خاتم النبيين فقررها بأمر الله ركناً من أركان دينه الحنيف ، وجعلها شعيرة مفروضة إلى يوم الدين : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

إن أركان الإسلام كلها توحى بوجوب التضامن والالتفاف حول غرض شريف واحد : فالشهادتان هما قلب الإيمان وأساس التوحيد والوحدة ، وعنوان اتفاق كلمة المسلمين على أنه ليس لهم إلا إله واحد ، ورسول واحد . والصلاة تطبيق روحى لهذا الإيمان ، لأنها اتجاه إلى الله ، وحمدٌ له ، ودعاء لرسوله وآل رسوله وعباد الله الصالحين . والصوم مظهر من مظاهر إيثار الإله الحق بالانخلاع له من الشهوات والرغبات ، ومظهر من مظاهر الوحدة الرائعة ، يجمع المسلمين حيثما كانوا بجامعة سارية فيهم طول ليلهم ونهارهم . والزكاة تضحية لله ، توحى بما يريده لعباده من التعاون والترابط وأن يكونوا جميعاً أجزاء لبنيان واحد ، أو أعضاء لجسد واحد .

أما الحج فإنه لباب ذلك كله ، إنه كالخلاصة المركزة لجميع العناصر التى يقوم عليها بناء الإسلام ، ويحيا بها المسلمون حياة العزة والكرامة .

إن المسلمين جميعاً ، لا فرق بين شعب منهم وشعب ، ولا بين طائفة وطائفة ، يخرج الألوفُ منهم عن أوطانهم ، تاركين الإقليمية وراءهم ، إلى إقليم واحد جعل الله فيه مناسكهم ، لا يشعر الواحد منهم إلا بأنه مسلم يدين بالله رباً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن حاكما وإماما ، وبالكعبة مُصلى وقياما ، ويلتقى شرقيهم وغربيهم وعجميهم وعربيهم ، فى رحاب هى لهم جميعا ، لأن فيها مقدساتهم ومنابع تاريخهم ، ومشارف عزهم ، يبكون فرحا وهم عليها مقبلون ، وأسفاً وهم عنها مرتحلون .

هل يذكر السنىّ - وهو فى هذه الرحلة الروحية ، وأمام هذه المشاهد القدسية - أنه سنى ؟ وهل يذكر الشيعى أنه شيعى ؟ أم هم جميعاً مسلمون قرآنيون ، بسنة محمد عاملون ، وعلى محبة محمد وآله منطوون ؟ .

هل للسنة هناك بيت يطوفون به وللشيعة بيت ؟ هل لهؤلاء مسعى ولأولئك مسعى ؟ هل تقف طائفة فى هذه الناحية من عرفات وطائفة فى تلك ؟ هل يعتقد السنى وهو أمام القبر الطاهر أن هذا الرسول بعث إليه وحده من دون أخيه الشيعى ؟ أو هل يعتقد الشيعى وهو أمام المزارات المعظمة لآل رسول الله الأطهار وصحبه الأبرار ، أن هؤلاء الأبطال هم مُثُله هو من دون أخيه السنىّ ؟ .

كلا إنهم جميعاً يحرمون إحراماً واحداً ، ويطوفون طوافا واحدا ، ويقفون بعرفة ، وينزلون بمزدلفة ، ويرمون الجمار ، وينحرون ، ويذبحون ، ويقصدون إلى مسجد الرسول مشتاقين ، ويقفون أمام جدثه الطاهر خاشعين ، ويزورون آله وصحبه معتبرين .

* * *

رباه ! هل ظن المسلمون أنك أردت لهم هذه الوحدة فى مظهرها الرائع حين يحجون ، ثم أبحت لهم أن يتفرقوا شذر مذر وهم إلى أهلهم راجعون ؟ « سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » ؟

محمد محمد المدنى

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة الأنعام

— ٢ —

الخطوة الثانية فى التمهيد للكلام على سورة الأنعام : عود إلى سور الحمد فى القرآن : مظهر الربوبية فى الخلق والإيجاد ، وفى الهدى والإرشاد ـ وهذا سر استحقاقه تعالى للحمد واختصاصه به ـ مناهج السور الخمس فى بيان هذا السر : منهج فاتحة الكتاب ـ منهج الأنعام ـ منهج الكهف ـ منهج سبأ ـ منهج فاطر .

الخطوة الثالثة فى التمهيد : موازنة بين سورتى الأنعام والأعراف ـ إجمال بعد تفصيل ـ سر مجىء الترتيب المصحفى على غير ترتيب النزول .

الخطوة الثانية فى التمهيد للكلام على سورة الأنعام :

عرضنا فيما سبق إجمالا لسورتين ، تمثل إحداهما منهج السور الأربع المدنيات السابقة على سورة الأنعام فى الترتيب المصحفى ، وتمثل الأخرى منهج سورة الأنعام فيما عالجته من القضايا الأولى للدعوة المحمدية . وكان هذا هو الخطوة الأولى من الخطوات التى أردنا التمهيد بها للحديث عن سورة الأنعام . وقد لفتنا

الأنظار فى سبيل ذلك التمهيد أيضاً إلى خطوة ثانية ، تتعلق بالموازنة بين سورة الأنعام وسور أربع شاركتها فى المكية ، كما شاركتها فى الافتتاح بإثبات الحمد لله ، وهن : سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ، وسورة فاطر ، وقد أطلقنا على هذه السور المبدوءة بإثبات الحمد لله ، عنوان : « سور الحمد فى القرآن الكريم » .

عود إلى سور الحمد فى القرآن : مظهر الربوبية فى الخلق والإيجاد ، وفى الهدى والإرشاد :

ولعلنا نذكر أننا عرضنا لهذه الموازنة ونحن بصدد الحديث عن الآية الأولى من سورة الفاتحة (١) ، وأن ما كتبنا هناك يتضمن أن لله فى خلقه أنواعا من التربية .

أولاها : تربية خَلقية جسمية ، أساسها الخلق والإيجاد ، والتسوية والتصوير : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » . « فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك » . « ثم سواك رجلا » ... إلى آخر الأمثال . وقد أمد الله هذه التربية بتهيئة مايحفظها ويقويها ويقيها ، فيسر وسائل الغذاء والكساء والإيواء .

وثانيتها : تربية خَلقية عقلية ، أساسها منح قوى التفكير والإدراك الإنسانى العام التى بها يميز الإنسان الخير من الشر ، والنافع من الضار ، ويسير بها فى الحياة التى سخرت له على ضوء تلك المنحة الإلهية التى فضل بها على كثير من الخلق ، ومنح مركز الخلافة فى الأرض وكان عند ربه أهلا للخطاب الإلهى والمسئولية أمامه يوم البعث والجزاء « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

وثالثتها : تربية تشريعية ، أساسها الأحكام والنظم التى أوحى بها إلى رسله ، وأنزلها فى كتبه ، وبها ترسم الحدود ، وتتضح السبيل التى يرتضيها الله لعباده ، وبها ينكشف ما لا يسلم الإنسان باعتبار ما ركب فيه من قوى الشهوة

(١) انظر صفحات ١١٥ ــ ١١٨ من العدد الثانى للسنة الأولى من رسالة الإسلام .

والغضب من الخطأ فى إدراكه أو الطغيان فيه إذا ما ترك لعقله وتفكيره الإنسانى « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » . « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » . « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وهكذا إلى آخر الآيات الدالة على التربية الإلهية التشريعية .

وهذه الأنواع بجملتها ، هى جماع ما أنعم الله به على الإنسان ، وما من خير ينعم به عليه فى جسمه أو عقله أو سعادته الفردية أو الاجتماعية إلا كان أثرا من آثار هذه النعمة الكبرى ، نعمة التربية المطلقة العامة التى انتظمت الإنسان من جميع جهاته ، وما من شر كان بعرض أن يقع الإنسان فيه فيلويه عن طريق الخير والسعادة ، ولكنه اتقاه وحيل بينه وبينه ، فسلم منه وسلم من مغبته ، إلا كان أثرا سلبياً من آثار هذه النعمة الكبرى ، نعمة التربية المطلقة العامة .

وهذا سر استحقاقه تعالى للحمد واختصاصه به :

وإذن ، فالحمد والثناء ، الذى يجب أن تقابل به هذه النعمة الكبرى وأن يوجه إلى مصدرها ، لا ينبغى فى عقل عاقل ، ولا تقدير منصف أن يضاف إلى غير الله . فالحمد كله ، والشكر كله ، خاصان بمن هيأها وأفاضها وأحاط الإنسان بها ، وهو الله رب العالمين .

وبتقرير هذا الحق لصاحبه وهو الله سبحانه ، ولفت الأنظار إليه ، بذكر آثاره ، وشق طريق التفكير فيها ، جاءت هذه السور الخمس تقرر فى مبدئها ثبوت الحمد له سبحانه ، وقد جاء منها فى النصف الثانى ، سورتا : سبأ وفاطر ، وجاء منها فى منتصف القرآن ، سورة الكهف .

مناهج السور الخمس فى بيان هذا السر : منهج فاتحة الكتاب :

ومع اشتراك هذه السور الخمس فى الافتتاح بتقرير استحقاق الحمد لله على

هذه النعمة الكبرى ، كان لكل سورة منها ، منهج خاص فيما عرضت له من أنواع تلك النعمة ، وقد جاءت الفاتحة بالنسبة لسائرها فى هذا الشأن ، كما جاءت هى لجميع القرآن بالنسبة لكل ما تضمنته ، جاءت ، أما تجمع فروع التربية وأنحاءها التى وزعت على السور الأربع ، وتقاسمتها ، فهى تقول : « الحمد لله رب العالمين » فتربط استحقاق الحمد لله بربوبيته للعالمين ، والربوبية المطلقة تنتظم التربية الخلقية جسمية وعقلية ، بالخلق والإيجاد ، كما تنتظم التربية التشريعية ، بالوحى والرسالة ، فكما لا خالق ولا مانح للعقل وقوى التفكير سواه ، لا مشرع ولا مرشد ولا هادى سواه .

منهج الأنعام :

وتجىء بعد الفاتحة سورة الأنعام ، فتثبت أيضا استحقاق الحمد لله وحده ، وتسير فى طريق نوع من أنواع التربية العامة وهو نوع الخلق والإيجاد للكائنات وظواهرها « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ثم تسير فى وصف عظمة الله فى آياته الكونية ، فى سمائه وأرضه ، فى نباته وحيوانه ، وتعرض لاستدلال ابراهيم على وحدانية الله بظاهرة البزوغ والأفول للأجرام السماوية التى لا ينفك الإنسان عن رؤيتها وتقليب بصره فيها « وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

وأخيرا تقول فى نتيجة هذا السبح الطويل : « بديع السموات والأرض أنىّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه

الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ، وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون » .

منهج الكهف :

ثم تجىء بعد ذلك سورة الكهف فتأخذ روح التربية بالوحى « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا » ثم تسير فى طريق هذه التربية ، فتخفف من الضغط على نفسه صلى الله عليه وسلم بسبب إصرار القوم على الكفر بها « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » . « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » . وتذكر قصة الفتية الذين آمنوا بربهم ، وقصة موسى وفتاه مع العبد الصالح ، وقصة ذى القرنين ، الملك القوى العادل الذى أنقذ الضعفاء من الطغاة المعتدين ، وكل هذه القصص مما لا سبيل إلى معرفته والاعتبار بمغزاه ، إلا عن طريق الوحى وإنزال الكتاب ، ثم يكون ختام السورة مقررا لمنهجها الخاص بنوع التربية « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

منهج سبأ :

ثم تجىء سورة سبأ فتبدأ بإثبات الحمد لله أيضا ، وتأخذ نوعا من أنواع التربية المطلقة ، يرجع إلى الملك ، والتصرف الحكيم ، والتدبير المحكم « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » ثم يجىء ما فى السورة مقررا للعلم الشامل ، والقدرة النافذة ، والإرادة الحكيمة .

منهج فاطر :

ثم تجيء بعد ذلك سورة فاطر ، وهي آخر السور الخمس ، فتذكر استحقاق الله وحده الحمد ، وتجمع في سبيله نوعي التربية ، الجسمية والسماوية ، ولكن على تفصيل لم يذكر في سورة الفاتحة ، فتذكر خلق السموات والأرض ، وتذكر رسل الوحي من الملائكة ، وتذكر أن الله مصدر الرحمة ، بيده إمساكها وبيده إرسالها ، ثم تسير في ذكر بعض ظواهر الكائنات من إرسال الريح وإثارة السحاب وخلق الإنسان من تراب ، وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر ، واختلاف الناس والدواب في الألوان ، ثم تذكر الذين ينقادون لتربية الوحي ، وترشد إلى أن ما أوحي به إلى محمد هو الحق المصدق لما بين يديه ، وأن الله يورث الكتاب من يصطفيهم من عباده ، وهكذا تمزج التربيتين : الخلقية والتشريعية في منهجها ، واقرأ : « الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا ... ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ... والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ... والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ... يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ... ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود(١) ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ، مصدقا لما بين

(١) الجدد (بضم ففتح) جمع جدة بجيم مضمومة فدال مشددة مفتوحة : هي الطرائق المختلفة الألوان وإن كان الجميع حجراً أو ترابا . والغرابيب جمع غربيب (بكسر الغين) : هي الشديدة السواد . والمعنى أن في الجبال طرائق تخالف ألوان الجبال . بعضها أبيض وبعضها أحمر وبعض ثالث أسود شديد السواد . كما أن الناس والدواب والأنعام ألوان مختلفة بياضا وحمرة وسواداً كذلك .

يديه إن الله بعباده لخبير بصير ... ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله .. إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .

* * *

هذه هى الخطوة الثانية من خطوات التمهيد للكلام على سورة الأنعام ، وهى خطوة الموازنة بينها وبين زميلاتها الأربع التى اشتركن معها فى الافتتاح بإثبات الحمد لله .

الخطوة الثالثة فى التمهيد : موازنة بين سورتى الأنعام والأعراف :

ومن الخير هنا بعد أن فرغنا من هذه الموازنة أن نسارع فنخطو خطوة ثالثة نوازن فيها بين سورة الأنعام وسورة الأعراف التى تليها ، وهما سورتان مكيتان اشتركتا فى أصل الهدف ، وهو تقرير الأصول الأولى للدعوة القرآنية ، كما أنهما أطول السور المكية فى القرآن ، وكانت الأعراف الثانية منها فى الترتيب المصحفى من الخير أن نسارع بهذه الخطوة الثالثة لنفرغ من حديث الموازنة بين سورتنا وغيرها مما يتطلب الوضع الموازنة بينهما ، ولا نجد بعد ما يدعونا إلى العودة إلى حديث الموازنة ، وبذلك نخلص للحديث عما تضمنته السورتان فيما يتصل بجوهر الدعوة إن شاء الله .

ولعلك إذا قرأت السورتين : « الأنعام والأعراف » كما قرأتهما ، توافقنى على ما رأيت بين منهجيهما من فروق لا ينبغى إهمال النظر إليها عند من يتصدى للحديث عنهما ، وها هى ذى الفروق :

أولا : أن سورة الأنعام تبدأ كما عرفت بإثبات الحمد لله وحده ، وتقيم الحجة على التوحيد مما يلمس الناس ويرون من مظاهر الخلق والإيجاد ، وتنكر عليهم مع وضوح هذه الحجة كفرهم وعنادهم ، وإعراضهم عن الله ، أو تسوية غيره به فى العبادة والتقديس « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ، وأن سورة الأعراف تبدأ

بتقرير التبليغ والتنويه بشأنه ، والأمر بالتزامه ، ثم تشفعه بالإنذار الدنيوى والأخروى ، ثم بالترغيب عن طريق التذكير بالنعم « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ... ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ... يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ... قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ثانياً : أن سورة الأنعام تفصل فيما أحل الله وما حرم ، وتعرض لتصرف القوم بالحل والحرمة على غير ما أنزل الله ، وتسبح طويلا فى ذلك « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » الآية ١٣٦ - ١٥٠ ، فى حين أن سورة الأعراف تجمل ذلك وتقف عند حد إنكار القول على الله بغير علم « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

ثالثاً : أن سورة الأنعام تذكر الرسالة وتورد شبه القوم فيها وتردها عليهم « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » ثم تذكر جملة من أسماء الرسل بمناسبة ذكرها لإبراهيم دون تفصيل لشئونهم مع أقوامهم ، بينما تذكر سورة الأعراف مبدأ الرسالة ، ثم تفصل شأن جملة من رسل الله مع أقوامهم « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » الآيات ٥٩ - ١٧١

رابعاً : تذكر الأنعام الآثار الكونية الصادرة عن الله ، وتلفت بها الأنظار إلى وجوب توحيده فى العبادة والولاية « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » « إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء »

بينما تنكر سورة الأعراف الشرك عن طريق ما فى معبوداتهم من نقص وعجز لا يتفق والمعبودية الصحيحة « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون » الآيات ١٩١ - ١٩٨

خامساً : تعنى سورة الأنعام بمعالجة نفس الرسول فتخفف وقع تكذيب القوم على قلبه دون أن تعرض لتفصيل شيء من أوصافه التى يقضى النظر فيها مع ما جاء به من الوحى أن يصدقوه ويؤمنوا برسالته ، وتمر على نوع هذه الأوصاف كأنها معلومة لهم ، ولا حاجة تدعو إلى تذكيرهم بها « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » بينما تعنى سورة الأعراف بتفصيل ما يعرفون عنه صلى الله عليه وسلم من الأوصاف التى تقضى بصدقه وتصديقه « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

سادساً : تعرض السورتان لجانب الإنذار الأخروى ، ولكن سورة الأنعام تذكره من جانب ما سيرون من العذاب ، وتعلمهم به كأنه واقع بهم « ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

أما سورة الأعراف فإنها تذكره من جانب آخر ، جانب تحسرهم وجانب التشفى من المؤمنين ، وترى هاتين الظاهرتين فيما تصوره السورة من محادثة الفرق الثلاث « أصحاب النار ، وأصحاب الجنة ، وأصحاب الأعراف » « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ . . . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم

جمعكم وما كنتم تستكبرون . . . ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » .

سابعاً : تعرض سورة الأنعام للحديث عن الساعة بقدر ما تصور ما يصيبهم فيها من سوء « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » ، « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين » .

أما سورة الأعراف فتعرض لها من جهة وقتها التي قضت الحكمة الإلهية بإخفائه عليهم وعلى جميع الخلق ، فيتجهون إلى السؤال عنه وعن تحديده فتنقطع عليهم الأمل فى أن يعرفه أحد من خلقه ، فضلا عمن ينكرها عناداً واستخفافا « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات الأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثامناً : ترسم سورة الأعراف للنبى صلى الله عليه وآله وسلم طريق معاملتهم ، وتعنى بتوجيه الخطاب إليه فى ذلك « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » بينما لا تعرض سورة الأنعام لشىء من ذلك ، وإنما تطلب منه أن يقف بنفسه وبتبليغه عند حدود ما أوحى الله إليه من محرمات « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » الآيات .

وأخيراً وهو تاسع الفروق التى حددناها أن سورة الأنعام تبين سنة الله فى تعاقب الأجيال ، ومجىء اللاحق منها خلفاً للسابق ، ويكون هذا التعاقب بما يدون لكل جيل شاهدا عدلا على من أحسن فى خلافته وعلى من أساء فيها « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » ثم تتركه هكذا سنة عامة دون تفصيل أو تطبيق . أما سورة الأعراف فتذكر المثل الواقعية لتلك الخلافة بين أقوام معينين وأجيال متعاقبة ، فتقول لقوم هود : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » ، وتقول لقوم صالح « واذكروا

إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض ، وهكذا ترينا بالمثل الواقعية أن الحياة من مبدئها إلى منتهاها ميدان واحد عام تتناوبه البشرية كلها بأجيالها المختلفة المتعاقبه ويتركه سلفها لخلفها ، والله مهيمن على الجميع ، يحفظ لكل جيل ما ترك فى الميدان من خير وصلاح أو شر وفساد .

* * *

إجمال بعد تفصيل :

ونستطيع أن نجمل تلك الفروق فى أن سورة الأنعام تعنى بتفصيل الشبه التى وجهت إلى الدعوة ، كما تعنى بتفصيل البراهين الدالة على صدقها ، وبتفصيل ما أحل الله وما حرم ، وبتبكيت المعارضين فيما اتخذوه لأنفسهم من حق التحليل والتحريم . وأما سورة الأعراف فإنها وجهت عنايتها إلى تفصيل الإنذار بما أعد للمكذبين فى الدار الآخرة ، وبما أصاب أسلافهم فى الدنيا من عذاب .

ولعلنا إذا نظرنا فى هذا الإجمال مع ملاحظة ما فاته من فروق ، نرى أن سورة الأعراف هى أول السورتين التى نزلت على القوم ، وأنها نزلت فى صدر المراحل الأولى للدعوة ، فهى تعتمد على الأدلة التاريخية التى يرى القوم آثارها بأنفسهم فى ذهابهم وإيابهم وتقلبهم فى البلاد ، ولا شك أن ذلك هو الذى يناسب مبدأ الدعوة الذى لم تتهيأ فيه فرص التفكير للخصم المعاند حتى يقابل فى عناده بالحجج والبراهين ، وقد كان هذا هو الواقع ، فإن سورة الأعراف هى أول سورة طويلة من السور المكية التى عرضت لتفصيل أحوال الأمم السابقين مع رسلهم ، ولم يسبقها فى هذا الشأن سوى ثلاث سور من المفصل ، عرضت كل واحدة منها لإجمال الحديث عن بعض الأنبياء والرسل ، وقد كانت سورة « ق » أول هذه السور الثلاث التى عرضت للتذكير بمصير المكذبين « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق » ثم جاءت بعدها سورة « القمر » ففصلت فى هذا الجانب بعض التفصيل « أنظر الآيات من ٩ - ٤٢ منها » ثم جاءت سورة « ص » .

فذكرت جملة من الرسل ، وكانت هى أول سورة عرضت فى إجمال لقصة آدم ، ثم جاءت سورة الأعراف بتفصيل كثير مما أجملته هذه السور الثلاث فى ناحية التذكير بأحوال الأمم السابقة .

سر مجىء الترتيب المصحفى على غير ترتيب النزول :

بقى بعد هذا : السؤال عن الحكمة فى تقديم سورة الأنعام على سورة الأعراف وهو سؤال يتعلق بالترتيب المصحفى .

والواقع أن للترتيب المصحفى شأناً آخر غير شأن ما يدعو إلى النزول ، يتصل ذلك الشأن بتأليف الكتاب بعد مراحل الدعوة التى استجاب لها فريق كبير استقرت أقدامهم وتكونت جماعتهم ، وصار الكتاب بهم كتاب أمة ، ترجع إليه فى حفظ عقائدها ، واستخراج أحكامها ومبادىء حياتها الفردية والاجتماعية ، وليس من شك فى أنه وضع جديد يستدعى ترتيباً غير ترتيب النزول الذى كان يراعى فيه حالة المدعوين ومعالجتهم لقبول الدعوة ، وهو الترتيب الذى نقل به القرآن إلينا نقلا متواتراً عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والذى يظهر به القرآن أنه كتاب المؤمنين .

ومن هنا نفهم السر فى أن بدىء القرآن بالسور المدنيات الطويلة ، ذات الأحكام التى كلف بها من استجابوا لدعوة القرآن وتكونت جماعتهم فى ظله وتحت رايته ، ونسب الكتاب إليهم كما نسبوا هم إلى الكتاب ، ولعل هذا القدر من التوجيه فى حكمة الترتيب المصحفى ومخالفته لترتيب النزول يفتح باب الهدى لمن يحاول مس هذا الترتيب الذى لم يكن إلا بإلهام إلهى ، تلقاه الرسول ، وملأ قلوب أصحابه فالتزموه ، وحفظوا الكتاب وتناقلته الأجيال على هذا الوضع دون تبديل أو تفكير فى التبديل ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

ليكن شعارنا :
المدرسة بجانب المسجد

لحضرة صاحب السماحة العالم الجليل الأستاذ محمد التقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

إن علاقة الدين بالمجتمع كثيرا ما تتعرض لأزمات وتطرأ عليها تطورات . فالمجتمع تارة يكون متمسكا بدينه متحمساً له وكأن الدين عنده كل شيء . وتارة أخرى يقع - نفس المجتمع - فى فوضى خلقية ، وكأن لم يك بينه وبين الدين صلة ، حتى انه ليسخر من معتقداته السابقة ، ويعتبر المادة كل شيء ولا شيء سواها .

إن الدين فى الغالب يظهر فى أحلك الأوقات وأشدها حيرة . فعند ما تتحكم الفوضى ، وتسود المادية ، وتنبذ الفضائل ، ويُتنكر للمثل : يظهر الدين ، فيجمع نفراً على عقيدة ، ويوحد كلمتهم ويوجههم إلى الفضيلة وإلى الخالق وإلى المثل ، ويتخذ من مساوىء المجتمع أدلة على الحاجة إلى الأخذ بتعاليمه ، ويحرص فى كل ما يأتى به على توجيه معتنقيه إلى قوة فوق البشر تجزى الخير بالخير والشر بالشر .

فإذا خرج بأتباعه من الحيرة والفوضى ، ونظم الصلات بينهم على أسس من الفضيلة ، كان من الطبيعى أن يتكون منهم مجتمع سليم يتمتع بقوة روحية وأدبية ، وفى مثل هذا المجتمع تهدأ النفوس وتنصقل العقول ، وهدوء النفس وانصقال العقل يمهدان السبيل للمعرفة ، بل إن الدين نفسه يوحى بالمعرفة ويغرى بها ، والدليل على ذلك أن رواد العلوم كانوا غالباً من رجال الدين .

والدين أولَ ظهوره فكرة تقدمية ، تلاقى ـ لمدة من الزمن ـ معارضة عنيفة من أنصار التقاليد البالية الذين يستمسكون بالقديم لأنه مألوف ، وفى المعارضة قوة ، وكم من أفكار إصلاحية تدين فى بقائها ونجاحها للمعارضة ، فإذا استقر الدين وعرفه الناس ، هدأت العواصف حوله ، وضعفت المعارضة له ، وعندئذ يطمئن رجاله ، فيبطئون فى السير اعتماداً على سابق الفوز ، أو يقعدون عن العمل اغتراراً بما بلغوا من مكانة ، ويكتفون بالدفاع عن ماض مشرق بدل أن يهتموا بما يدور حولهم فى حاضر له ما بعده ، فإن الدنيا بطبيعتها متطورة ، وكل لحظة منها يمكن أن تكون مولد فكرة جديدة ، ولكل فكرة ـ مهما كانت ـ نهجها وأنصارها ، كما أن للغرائز آثارها ، وللفوضوية عشاقها ومؤيديها ، فالظروف تتبدل ، والأفكار تتغير ، والمعارف قد تنطلق من مدارها الخلقى وتصطدم بالدين إن غفل رجاله عن سنة التطور أو تخلفوا عن ركب الحياة . وبمقدار ما تتقدم المعارف تتضاءل رقابة رجال الدين وتضعف آثار معارضتهم ، حتى ينتهى الأمر بتقسيم المعارف إلى مدنية ودينية ، ثم تطغى المدنية فتفرض أنظمتها على أخص شئون رجال الدين ، مثل الطلاق والنكاح وإجراء العقود ، وتجعلها دنيوية بحتة .

بهذا الأسلوب يأخذ العلم طريقه إلى رجال غير دينيين ، وتلامذة اليوم هم رجال الغد ـ وعلى هذا الأساس يقوم الفصل بين العلم والدين ، وبين الجديد والقديم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه يتطور إلى اعتبار الدين سداً فى وجه التقدم العلمى ، ثم ينتهى بتحويل الفلسفة والأدب من خدمة الدين والعواطف الدينية إلى معاكسة الدين والنيل من رجاله ، وهنا يظهر التدهور الخلقى ، والاستهانة بالقيم ، وإنكار المثل ، وجحد العقائد ، وبذلك يتم الفصل بين القديم والجديد ، وينشأ التعصب للقديم ، والافتتان بكل ما هو جديد ، وتسود الفوضى الأبيقورية .

إن الدين من غير علم ـ إن صح هذا التعبير ـ لا ينمو فى ظله إلا الخرافات ، والعلم من غير دين لا يجر سوى النكبات والاضطراب والفوضى ، والمجتمع

اللاديني ينتهي دائما بالسقوط فى هاوية المادية ، ولكنه بكل أسف يجر معه الدين أيضا .

هذه هي السيرة الطبيعية لازدهار الأديان وذبولها ، مالم تجد عوامل لها تأثيرها تساعد الدين على النمو أو تسرع به إلى الاندثار كالحروب والسياسات ، ومن هذا يبدو جليا أن نقطة التحول الحقيقية تبدأ عند فصل التعليم عن الدين ، وكم كان رجالنا الأقدمون حكماء حين بنوا المدارس بجانب المساجد ، فإنه مهما تطورت تلك المدارس بتطور العلوم ، بقى الدين فى مركز الموجه وبقى السلطان فيها للفضيلة وللفضيلة وحدها ، والدين صمام الأمان للعلوم ، به لا تنحرف عن كونها نورا يضىء للبشرية ، ولا تنجرف إلى خدمة الشرور والآثام .

إن التجاوب بين الدين والمجتمع لا بد أن يأتى من دور التعليم ، وهناك حقيقة تؤيد ذلك لمستها بنفسى ورأيتها بعينى فى آخر أسفارى إلى الخارج . فنى قرية كبيرة أو بلدة صغيرة هى إحدى المراكز الجبلية التى يؤمها المصطافون ، رأيت قس القرية هو صاحب الكلمة فى مواطنيه وموضع التكريم والاحترام ، وكان كثير التودد إلى القادمين والمصطافين ، يزور كثيرين منهم ويعرض خدماته على الجميع ، سألته ونحن فى أحد شوارع البلدة بعد أن لمست ترحيب الشيوخ والشبان به ، عن سر هذا الترحيب ، فما كان منه إلا أن أشار بيده إلى بناية قريبة وقال بالفرنسية ما معناه : هذه البناية كنيسة وبجانبها مدرسة كما ترى ، فنحن نربى هؤلاء صغارا ونربطهم بالكنيسة فينشأون متدينين ، فهم تلامذتنا ومريدونا .

هذا ما رأيته فى بلد لا دينى يكثر فيه السياح — وللسياح تأثيرهم — ورغم هذا فقد نجح الرجل أيما نجاح فى ربط قلوب التلاميذ بالدين ، وهو فيما عمل لم يجاوز ما كان يعمله المسلمون قديماً من جعل المدرسة بجانب المسجد .

إن العالم الذى نعيش فيه ملىء بالأفكار الهدامة ، مشحون بالسياسات المختلفة

منها ما هي إلحادية صريحة ، ومنها ما تؤيد الدين في الظاهر وتهدمه في الحقيقة ، وقد يلبس الإلحاد مظهر الدين وتبرز الأخرى عداءها له حسب المصالح والأهواء .

وهذه السياسات هي التي ضخمت الخلافات بين المسلمين ، ولا تزال تغذى إلى الآن هذه الناحية ، تارة بنشر البحوث باسم الاستشراق ، وتارة بتشجيع النشرات المفرقة ، كما تظهر الأمة الإسلامية بمظهر الأمم المختلفة والحال أنها أمة واحدة .

فلماذا لا نتسلح نحن بهذا السلاح ، فنتناول بالبحث ما يتناولونه لكي يقف المسلمون على الحقائق فلا يتأثرون بما يقرأونه للمغرضين من عملاء السياسات المفرقة وبذلك ندفع عن ديننا ما يشوه سمعته ، وندرأ عن أمتنا ما يمزق شملها ؟ .

لماذا لا ندرس أحوالنا ، ونتعرف شئوننا ، ونحدد موقفنا من العالم ؟ .

لماذا يقف الكثير منا في بحوثهم عن الطوائف الإسلامية عند ما كتب قبل قرون عن الملل والنحل بما فيه من خبط وتشويه ، بدل أن ننظر حولنا ونتعرف ما في مجتمعنا ونأخذ عن الواقع الراهن .

إن خطر هذه السياسات على مجتمعنا الإسلامي ظاهر واضح ، والحرب الأخيرة لا تزال آثارها - من انحلال خلق وتحلل - تعمل عملها ، والدين هو القوة الفعالة التي يمكن أن تنقذ البشرية مما تردت فيه ، ولكن المثل وحدها لا تسود إلا إذا حملها دعاة مخلصون يجلونها للناس ، ويبرزونها للأعين . ورجال الدين هم أهل هذه الرسالة ، والمسئولون عن هذه الأمانة ، فإن توانوا أو قصروا فستظل السياسات تعبث بنا ، وتعمل عملها فينا ، وتفرق كلمتنا ، وتحطم كياننا ، وإذا كانت في الماضي القريب قد أوجدت فرقا وألصقتها بالإسلام زوراً ، فإنها في المستقبل سترمينا بما هو أدهى وأمر ، ولن ينجينا من المصير المحتوم إلا أن نهب ونعمل لنصل ما انقطع بين العلم والدين ، وليكن شعارنا : المدرسة بجانب المسجد ؟

المجتمع القرآني

— ٤ —

الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهره
وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

---

١ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول: خواص المجتمع القرآنى ومزاياه، وأشرنا إلى مجتمع الأسرة، والمجتمع الصغير، أو ما يسمى فى لغة العصر الحاضر المجتمع المحلى، وهو الذى كان يسمى فى ماضى الإسلام مجتمع القبيله؛ وقد ذكرنا أن هذه المجتمعات كلها وجدت فى الإسلام لتكون أردافا معنوية تمد المجتمع الأكبر بعناصر القوة، وعناصر التأليف الرابط؛ والمعانى الإنسانية والخلقية الجامعة فى ظل دين الله تعالى الذى انبثق نوره من السماء.

والآن نتجه إلى القصد الأكبر من الوحى المحمدى، وهو تكوين جماعة إنسانية فاضلة تبنى فى تكوينها على الفضيلة، وترتبط العلاقات فيها بالأخلاق الفاضلة، والمودة الواصلة، وتكون العلاقة بينها وبين غيرها قائمة على العدالة والوفاء والمثل الإنسانية العالية.

٢ — وقبل أن نخوض فى بيان هذه العلاقات التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى الفاضل لا بد أن نتكلم فى الوحدة الإسلامية كحقيقة مقررة ثابتة فى الإسلام؛ ذلك لأن توالى القرون على تفرق المسلمين فى بقاع الأرض أشياعا وفرقا؛

« كل حزب بما لديهم فرحون » جعل كثيرين ممن لا يفهمون الأمور على وجهها ولا يمحصون الحقائق ويردونها إلى أصولها يظنون أن حال المسلمين تتفق مع المقرر فى الإسلام ، وأن تلك الفرقة القاطعة ؛ وذلك الاختلاف المفرق يتفق مع حقائقه ، وتقبله مقرراته ، وهكذا صار المنكور معروفا ، والباطل مألوفا ، وبذلك صار الإسلام غريبا ، وتحقق صدق ما تنبأ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » .

٢ — إن المسلمين أمة واحدة ، وما فرقهم إلا العصبية التى نهى عنها النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والأطماع والشهوات التى صرعت الحقائق ، وأخفت نور الإسلام ؛ أو التنازع على الملك والسلطان ، وضياع الشورى ، وفساد الحكم ، وقيام الظلم ، حتى شوه المغرضون حكم الإسلام ؛ وأحاطوه بطائفة من الوقائع ليطمسوا معالمه ، ويخفوا ضوءه المنير .

ولذلك وجب علينا أن نرد الأمور إلى نصابها ، فنقرر أن الإسلام لا يعرف إلا أمة واحدة هى أهل القبلة ، وأمة محمد ، وأمة الإسلام ، فالأقاليم الإسلامية كلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تجمعها أمة واحدة ، ويظلها وصف واحد ؛ فليس العرب وحدهم أمة ، ولا المصريون وحدهم أمة ، ولا الباكستانيون وحدهم أمة ، إنما هم جميعاً أمة واحدة ، ولقد قرر سبحانه وتعالى تلك الحقيقة الثابتة فقال تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

فالإسلام دين الوحدة الجامعة ، كما هو دين الوحدانية الكاملة ؛ ولقد عمل الإسلام على تقوية هذه الوحدة ، وحمايتها من كل عوامل التفرقة التى تفك العروة وتهدم البناء ؛ وتجعل أمر المسلمين منقسما ، وجمعهم منحلا ؛ ولذلك قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، وقال تعالى مقرراً الأخوة الإسلامية العامة : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يأيها الذين آمنوا

لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

٤ — وإن أقوى ما يقوى الوحدة هو المودة التى تربط القلوب ، وتصل النفوس ؛ وأساس المودة هو التطامن ، ولذلك وصف المسلمون بالرحمة التى تعتبر المودة مظهراً من مظاهرها ، فقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » وإن السياج المتين الذى يحمى الجماعة إن لم تكن المودة هو العدالة ، فهى الحصن الحصين الذى تأوى إليه معانى الاجتماع القويم .

وإنه لا يذهب بالوحدة إلا أمور ثلاثة :

أولها : التكبر بغير الحق ، والاعتزاز بغير الله تعالى ، ولذلك دعا الإسلام إلى التواضع من غير ضعة ، كما دعا إلى العزة من غير كبرياء ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « من تواضع لله رفعه الله ، وما ازداد عبد بعفو إلا عزا » ووصف المؤمنين بالتطامن لإخوانهم ، كما وصفهم بالرحمة ، فقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وثانيها : الظلم ، فإن الظلم يحل الوحدة ، ويوجد النفرة ، ويجعل كل واحد ينظر إلى الآخر نظرة الخائف الحذر ، أو نظرة العدو المتربص ، لا ألفة ولا ائتلاف ، ولا تلاقى ولا اتفاق ، ولذلك كان النهى عن الظلم نهياً عاماً لا يخص طائفة دون طائفة ، ولا جمعا دون جمع ، ولا جنساً دون جنس ، ولقد روى فى الحديث القدسى عن الله تعالى أنه قال : « يا عبادى إنى قد حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا » ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « اشتد غضب الله على

من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كافرا ، فإنها ليس دونها حجاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعان ظالما ليدحض بباطله حقاً ، فقد برئت منه ذمة الله ، وذمة رسوله ، وهكذا يتضافر النهى عن الظلم ، لأنه الهادم لبناء المجتمع الإسلامى .

الأمر الثالث : الذى يفك الوحدة الإسلامية ، وهو الذى فكها ، وانهارت بسببه دعائم بنائها هو العصبية ، والعصبية أساسها أن يحس المسلم بانتمائه لقبيله أكثر من إحساسه بانتمائه للإسلام ، وأن يؤثر الدعوة إلى العصبية على الدعوة إلى العدل ، سواء أكانت العصبية هى القبيلة فى دائرتها الضيقة ، أم اتسع معناها فشمل الإقليم ، أو شمل الجنس واللون ، فكل تمسك بالانتماء لقبيلة أو نسب أو جنس أو إقليم هو من قبيل التمسك بالعصبية ، وإيثارها على التمسك بعرا الحق والعدل ، ومبادىء الإسلام التى لا تفرق بين جنس وجنس ، ولون ولون ، والتى يتمثل فيها قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

٥ — وإن الدعوة إلى العصبية أيا كان شكلها ومظهرها هى الداء الدفين الذى ذهب بوحدة الإسلام ، وفرق أمر المسلمين ، وما زالت تلك الدعوات هى التى توسع الهوة ، وتقطع أسباب الاتصال ، وتجعل بأس المسلمين بينهم شديدا ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، بل إنهم فقدوا فى الوحدة الشكل والجوهر ، والمظهر والحقيقة ، وكان من المسلمين من يجهر بموالاته للذين يخربون الديار الإسلامية ، ويبيدون المسلمين ، من غير أى حركة مانعة ، ولا أى قوة دافعة ، حتى لقد استمرءوا لحوم المسلمين ، كما تستمرىء الذئاب دماء البشر ؛ وكما يستمرىء الكلب المسعور دماء الأحياء .

ولقد نهى النبى الذى ما كان ينطق عن الهوى عن العصبية وشدد فى النهى ، لأنه كان يتنبأ بأنها ستكون الداء الدوى الذى يصيب جسم الأمة الإسلامية ،

فيجعله أمشاجا متفرقة، وأوزاعا متقطعة، وقطعا فى هذا الوجود متناثرة تنوشها سباع البهائم من كل ملة، ومن كل قبيل، ومن كل لون، ولا نجد إلا كلمات جوفاء تنعق بها أصوات، وتتحرك بها ألسنة، كما تتحرك ألسنة البقر؛ لا يقصدون إلى معنى من معانى المحبة الإسلامية؛ ولا الإخلاص المحمدى.

لقد شدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى النهى عن العصبية، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية» وعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم العصبية فقال: (العصبية أن تعين قومك على الظلم) ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: (من نصر قوما على غير الحق، فهو كالبعير الذى تردى، فهو ينزع بذنبه).

وهكذا تواردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تنهى عن العصبية.

٦ — ولأمر ما كان النصر الإسلامى الأول على غير المنهاج الذى كان للنصرة فى البلاد العربية؛ ذلك أن الرجل كان إذا أراد النصرة استنصر بقومه وقبيلته، وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ما هم قومه بقتله، لم تكن نصرته بالبداهة من قومه وأصل عصبيته، فقريش قومه، وأصل عصبيته حاربوه، وكان النصر من الأنصار الذين لم يكونوا قومه ولا قبيلته، فكان النصر المؤزر غير مبنى على عصبية، بل كان مبنياً على حمية دينية، وفضيله إسلامية، فكانت عزة الإسلام من الله، لا من قبيلة ولا من عصبية، إنه إذا كان من بيت النبي الهاشمى من ناصره كعلى وحمزة، فقد كان منه من ناوأه كأبى لهب، بل إن العباس خرج محارباً فى بدر، وإن كان كارهاً، وقد أسر، ولم تمنعه قرابته من أن يؤسر، وألا يفك إساره إلا بفدية يفتدى بها نفسه.

وإن دل ذلك على شىء فإنه بلا ريب يومىء إلى أن عزة الإسلام لا تبنى على عصبية، وأن عزته من الوحدة لا من التفرق، وإنه ليومىء أيضا إلى أن العصبية ستهدم بناء الوحدة إن وجدت دعواتها.

٧ — وكذلك كان ، فإن العصبية الجاهلية التى نبتت فى آخر عصر الراشدين هى التى قطعت أوصال الوحدة الإسلامية ، وكان الملوك الذين تسموا بأسماء الخلفاء يقرونها حتى يجدوا من ثغرة الخلاف ما يحكمون به فى الجماعة الإسلامية ؛ وينفذون منه إلى السلطان أو السلطة التى لا تعتمد على شىء من الحق والعدل ، بقدر ما تعتمد على الدهاء ، والعلم بسياسة التفريق والتخذيل وتوهين شأن الدين وإنه ليقول قائل ملوك بنى أمية : (إن ربيعة لا تزال غاضبة على ربها أن جعل نبيه من مضر) ولعل ذلك القول يحكى بعض خواطر فعله وخلجات نفسه ، لأن الله جعل نبيه من هاشم ولم يجعله من أمية .

ولقد انتقلت العصبية فى القرن الثالث الهجرى من عصبية القبيلة إلى عصبية الجنس والأرومة ، ثم إلى عصبية اللغة ، فوجدنا الأمم التى دخلت فى الإسلام من غير العرب قد اتجهوا إلى إحياء قومياتهم القديمة ، وإحياء اللغات القديمة .

ولقد كان المسلم يسير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فلا يجد إلا لغة القرآن يتخاطب بها أهل الإسلام ، فكان الرحالة المسلمون يسيرون من رياض الأندلس إلى الهند فلا يجدون مشقة فى خطاب ، إذ اللغة العربية تجمع الألسنة المتفرقة ، فيشعر الجميع بأنهم أمة واحدة ، إذ اللغة تجمع الخواطر والثقافة والتفكير والمنازع النفسية ، وليست الأمم إلا ذاك .

وبعد أن انبعثت اللغات القديمة من مراقدها ، انبعثت معها عصبية جامحة ، وانقسامات جائحة ، بل اختفى فيها نور العلم الإسلامى الذى كانت اللغة العربية وعاءه الذى زخر بكل ألوان الفكر الإنسانى والإسلامى ، وهل يعلم الناس أن فارس أصبحت لا تعرف العربية إلا فى عدد محدود من رجالات العلم بها ؛ وهى التى أمدت الفكر الإسلامى بأبى حنيفة والجاحظ والبخارى والفارابى وابن سينا ، وجار الله الزمخشرى ، وفخر الدين الرازى ، وشمس الأئمة الرضى ، وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامى والبيان العربى ، وهل يعلم الناس أن بلاد ما وراء النهر التى كان منها الشيرازى صاحب المهذب وغيره من أفاضل العلماء ، يسير فيها

الآن الفتى العربى فيكون غريب اللسان لا يجد من يخاطبه إلا بعض القلة النادرة من العلماء .

من هذا الوقت الذى حييت فيه اللغات القديمة واندثرت اللغة العربية تفرق المسلمون سددا بددا ، لا جامعة تجمعهم ولا رابطة تربطهم ، وأخذت ذئاب الإنسانية تلتقمهم قطعة بعد قطعة .

٨ — هذه حال المسلمين فى هذه الأيام ، مع أن العبادات الإسلامية تشير إليهم بضرورة الاجتماع ، وبمنع هذا الاختلاف ، ألا نذهب جميعاً إلى قبلة واحدة ، فهل يشعر المسلم فى صلاته التى يسبح فيها حين يصبح وحين يمسى ، وفى الغداة وفى العشى ، وحين يظهر ، أنه يتجه صوب المكان الذى يتجه إليه فى هذا الأوقات ذاتها مئات الملايين من المسلمين المنبثين فى بقاع الأرض ، وهل يشعر أن الاجتماع الدينى الذين يجمعهم على غير رؤية فى عبادة الله تعالى مالك الأرض وما عليها ، والسموات وما فيهن ، يرمز إلى الوحدة الجامعة ، ويومىء إلى وحدة أهل الإسلام كما وجدت العبادة ، إن هذا تذكير يومى فى كل يوم خمس مرات على الأقل ، يُذكر المسلم بأنه جزء من كل ، وأنه لا بد أن تتلاقى الأجزاء فى الحس ، كما هى متلاقية فى المعنى ، ولكن العبادات فقدت معناها الاجتماعى فى نفوس المسلمين ، كما فقدت معناها الروحى فى نفوس الأكثرين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين .

٩ — وهذا الحج الذى أمر الله بالنداء إليه ليحضر الناس إلى بيته الحرام فى ضيافته سبحانه ، إذ قال : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » قد فقد معناه أيضا ، فهو فى أصل شرعته اجتماع المسلمين من كل بقاع المعمورة فى أرض الله المقدسة وحرمه الآمن إلى يوم القيامة ، وبيته الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس ، وفى هذا الاجتماع يتذاكرون أمور المسلمين ، ويتدبرون أحوالهم المعيشية والاجتماعية والاقتصادية ، ويتفاهمون فيه على كل أمر يصون وحدتهم ، ويقوى جماعتهم ، ويرفع شأنهم ،

ويرد كيد أعدائهم ، والآن يجتمع المسلمون فى الحج : لا ليتعارفوا ؛ بل لتتبين مظاهر تفرقهم .

إنها مبكيات محزنات أن يجتمع المسلم الباكستانى بالمسلم المصرى فلا يستطيعان التفاهم إلا باللغة الانجليزية ، وهى لغة أمة قال رئيس وزرائها فى آخر القرن الماضى إنه لا سلام لانجلترا وفى العالم القرآن يقرأ ، ويتلوه الملايين .

وأحيانا يكون التفاهم بين المسلمين باللغة الفرنسية التى هى لغة قوم يعملون الآن على إبادة المسلمين فى الجزائر ، كما حاولوا من قبل إبادتهم فى مراكش ، ولكن رد الله كيدهم فى نحرهم ، فأرادوا أن يتفرغوا للجزائر ، حتى إذا أبادوها منوا بمراكش أو تونس ؛ ولا منجاة إلا بأمر من الله ، وتوحيد شئون المسلمين ، ولكن سنة الله فى خلقه أنه سبحانه لا يغير حال الأقوام إلا إذا غيروا نفوسهم من ذلة إلى عزة ، ومن ضلال إلى طلب للحق ، ومن خنوع للأقوياء الظالمين إلى مقاومة للطغاة العابثين ، فلقد قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

١٠ — لقد وصفنا الداء ، وإن أول طرائق العلاج هو معرفة المرض ، فإنه إذا عرف المرض سهل وضع الدواء ، وإن الداء الذى اعترى المسلمين ففرق جماعتهم ، وجعلهم نهزة المفترصين ، ومطمع الطامعين ، ومرام المعتدين ، هو أنهم تركوا سنة السلف ، وفرقوا الجماعة ، وكانت أسباب التفريق هى ذلك الداء ، فأسباب الاجتماع هى الدواء ، وإن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، وإن أولها كان جمعاً متحداً فى ثقافة واحدة ، وفى لغة واحدة ، وفى اقتصاديات واحدة ، وفى جهاد واحد ، فلا يسلم المسلم أخاه المسلم ، وإنه إذا كانت أسباب الفرقة بينة معلنة ، فأسباب الاتفاق لائحة ظاهرة ، وما علينا إلا أن نعمل على إيجاد الوحدة بعد الافتراق ، واتخاذ الأسباب التى سلكها السابقون بإحسان « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

— ٤ —

ذكرنا فى العدد الماضى أن الأخوة الإسلامية لعبت دوراً عظيما فى تاريخ المسلمين ، وقد لعبت هذا الدور وجودا وعدما ، فحين كانت قوية ونامية أثَّرت اتحاد المسلمين وتناصرهم ، فكانوا كتلة واحدة يردون عدوان أعدائهم ، ويحتفظون ببلادهم وكيانهم ، وحين كانت ضعيفة هزيلة أثَّرت تفكك المسلمين وتخاذلهم ، فأخذهم أعداؤهم أفرادا ، وتغلبوا عليهم أشلاء ، واقتطعوا بلادهم قطعة قطعة .

وقد جعلنا الأندلس مثلا للحالتين ، ولكننا أجملنا القول إجمالا ، ولم نذكر الأشخاص والوقائع ، وقد رأينا أننا لو فصلنا القول بعض التفصيل ، وذكرنا الوقائع وأسماء الأشخاص كان ذلك أبلغ فى القول ، وأجدى فى العظة ، وأعون على أن يفهم المسلمون موقفهم ، وأن يكونوا بصراء بأمسهم ويومهم وغدهم .

افتتح المسلمون الأندلس فبدءوا أقوياء ، وقامت لهم بها دولة ذات حضارة ومنعة ظلت بضعة قرون .

ولما سقطت هذه الدولة القوية انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة حتى كان لكل بلدة أو عدة بلاد أميرها المستقل ، متخذا لقب الملك أو الأمير ، فكان بنو عباد أمراء إشبيلية وما جاورها ، وكان الأدارسة أو بنو حمود فى جنوب

أسبانيا وحالفهم أمير غرناطة ، وكان بنو ذى النون فى طليطلة وما جاورها وأواسط أسبانيا ، وكان بنو عامر فى بلنسيه ومرسيه ، وكان بنو هود سادة سرقسطة .

وقد قال شاعرهم يصف هذا التفرق وهذا الانقسام :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وكانت هذه الإمارات تجيش بالأطماع بعضها فى بعض ، وكانت الحرب لا تضع أوزارها بينهم ، وكان الأقوى يغزو الأضعف فيستجير الأضعف بجار له أقوى وربما استجار بملوك الفرنجة ، ولكنه كان يدفع الثمن غاليا حريته وعزته وأخيراً كان يسلم إليهم بلاده .

خالفوا نظام الأخوة الإسلامية وما يجب لها ، وانتهكوا دستورها ، كان من دستورها أن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، وإذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، وكان المقتول فى النار لأنه كان حريصا على قتل أخيه .

وكان من دستور الأخوة الإسلامية أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، فخالفوا هذا الدستور وكانوا مع من سواهم يداً عليهم ، فقد كانوا يتحالفون مع ملوك النصارى على جيرانهم من المسلمين ، وإن سقوط طليطلة ليبين لنا كثيرا من المخازى التى ارتكبها أمراء المسلمين ، وكيف أنهم عاونوا على ضياع ملكهم وثل عرشهم ، وكانوا أعظم أثراً فى جلب الخراب على أنفسهم من أعدائهم النصارى .

إن الذى افتتح طليطلة هو الفونسو ملك قشتالة ، وكانت تجمعه ببنى ذى النون أصحاب طليطلة روابط متينة من الصداقة ، وكان سببها أن أخاه سانشو طارده وتعقبه ، فلجأ إلى بنى ذى النون فى طليطلة فوجد عندهم ملجأ حصينا ، وأضفوا عليه حمايتهم حتى نجا من أخيه ، ولما آل إليه الملك عقد مع ملك طليطلة معاهدة

وقد أقسم أن يعاون أبناء ذى النون على الاحتفاظ بملكهم ، وقد غدر بالعهود المعقودة ، والمواثيق المكتوبة ، وحاصر أصدقاءه الذين حموه من أخيه فى طليطلة عند ما واتته الفرصة ، وكان لجوءه إلى طليطلة معينا له على فتحها لأنه أصبح عارفا بها وبمسالكها وبالأماكن الضعيفة التى تؤتى منها ، فكان ملوك طليطلة بحمايتهم الفونسو يشحذون المدى التى سيذبحون بها ، ويصنعون القيود التى سيكبلون فيها .

هذه واحدة ، والثانية أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية كان شديد الطمع فى أن تخضع له الأندلس المسلمة كلها ، وكان فى ذلك الوقت يريد أن يملك غرناطة وسرقسطة وبطليوس ، ولن يستطيع ذلك وهو يخاف الفونسو ملك قشتالة ، فسعى لعقد معاهدة معه فأرسل مفاوضه الوزير ابن عمار ففاز بعقد هذه المعاهدة ، وقد تعهد فيها الفونسو أن يعاون أمير إشبيلية بالجند المرتزقة فى حرب جميع أعدائه من المسلمين ، وتعهد المعتمد فى مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، وألا يعترض مشروع الفونسو فى افتتاح طليطلة ، وهكذا ضحى المعتمد ابن عباد بمعقل الأندلس فى نظير أن يفوز ببضع إمارات .

ولقد اقتنع المعتمد بعد ، أنه بمعاهدته تلك كان يعين ملك النصارى على نفسه وعلى جميع المسلمين فى الأندلس ، فإنه رأى الفونسو ما كاد يفتتح عاصمة القوط القديمة طليطلة فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ ﻫ ، وعادت إلى حظيرة النصرانية بعد أن مكثت فى حكم الإسلام ثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة ، حتى اتخذها عاصمة ملكه وتطلعت نفسه إلى امتلاك غيرها حتى ما كان تحت يد ابن عباد فجزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وعاد باللوم والتعنيف على وزيره ابن عمار الذى عقد هذا الحلف ، وقبض عليه وألقاه فى السجن ثم قتله بيده ، ولكن هذا الجزع لم يرد فائتا ، فقد نفذ القضاء ، وأعانوا عدوهم على أنفسهم ، وجدعوا أنوفهم بأيديهم وخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم المتحفزين.

أخذ الفونسو بعد ذلك يوغل فتحاً فى بلاد المسلمين ، وهنا رأى أمراء المسلمين الخطر المحدق بهم ، ورأوا شبح السقوط ماثلا بين أعينهم فاتحدوا لأول مرة فى

تاريخهم الطويل ، ولما كانت قواهم مجتمعة لا تكفى لرد النصارى فقد اتفقت كلمتهم على أن يستعينوا بالمرابطين ملوك إفريقية ، وأن يستنجدوا بإخوانهم المسلمين فكتبوا كتاباً ووقعوه إلى ملك المرابطين يوسف بن تاشفين ، وقد ذكروا فيه أن انهيار سلطان المسلمين فى الأندلس لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينا يقوى النصارى بالاتحاد وينتزعون أراضى المسلمين ومعاقلهم بالعنف والخديعة ، وبالوعيد والوعد ، وبالسيف والإقناع ، إذ بقوى المسلمين تنضب يوما بعد يوم وقد غصت المساجد بالقساوسة من أعداء الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التى كان يؤذن فيها من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع بالقداس بعد أن كان يدعى للصلاة ويختتمون كتابهم بقولهم : إن يوسف قد غدا ، معقد الآمال ، وإنهم يعتقدون أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام .

وصل الكتاب إلى زعيم المرابطين ، وكان مؤمنا قوى الإيمان ، وكان محنكا قد حنكته السنون ، ووعظته التجارب فحفزه إيمانه ، إلى نجدة إخوانه المؤمنين وحملته تجاربه إلى أن ينظر فى العواقب ، وإلى أن يأخذ بالثقة لجيشه الذى سيرمى به إلى جزيرة الأندلس ، فطلب من أمير إشبيلية أن يعطيه حصن الجزيرة ليضع فيه حامية مخلصة لتكون ملجأ له إذا هزم ، ويكون على اتصال دائم بملكه فى إفريقية ، فتردد فى ذلك المعتمد بن عباد ، ولكن حدث فى أثناء ذلك أن الفونس أرسل إلى المعتمد يطلب الجزية كعادته ، وأرسل يهودياً ينقدها فيرد الزائف ويأخذ الصحيح ، وقد اشتط اليهودى فرد على المعتمد بعض ما أداه بحجة أنه زائف فلجأ إلى السفير ، فقال : أعط بدلها سفنا تجرى فى البحر ، فاستشاط المعتمد غضبا وقتل اليهودى والسفير وثلاثمائة كانوا معه ، ثم ندم على فعلته ، ورأى أن الفونس لا بد منتقم منه فعجل بتسليم الحصن إلى يوسف بن تاشفين ، وكان ابنه يعارضه فى الالتجاء إلى المرابطين ويخوفه العاقبة ، فقال له يا بنى : إنى لأوثر أن أرعى الجمال عند يوسف بن تاشفين على أن أرعى الخنازير عند الفونسو ، ثم أرسل إلى ابن تاشفين بالموافقة على تسليم حصن الجزيرة ، وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ من الهجرة

عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة ، وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلا : اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيراً وصلاحا للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » .

وتقول الروايات إن البحر ما لبث أن هدأ وسارت السفن فى ريح طيبة حتى عبر يوسف إلى شاطىء الأندلس ، وليس يعنينا إلا هذا الدعاء الذى دعا به يوسف والذى يدل على قوة الإيمان ، وعلى أنه كان خالص النية فى نجدة المسلمين ، وأنه كان لا يريد مالا ولا ملكا جديدا ، وإنما حفزته هذه العقيدة الإسلامية الراسخة « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » .

بينما المسلمون فى الأندلس قد ملأ قلوبهم الرعب من مهاجمة الفونسو لحصونهم وتوقعهم النكبة ، وإذا بجيش المرابطين يهبط الأندلس كما تهبط العافية على جسد السقيم ، ويأخذ يوسف فى ترتيب الجيوش ، ويأمر الجيوش الأندلسية بأن تأخذ مواقعها ويرحل هو بجيشه حتى ينزل بسهل يسمى الزلاقة على قيد بضعة أميال من بطليوس .

وكان الفونسو قد جمع جموعه واصطلح مع ملوك النصارى الآخرين وعاونته جنود من جنوب فرنسا ، وتقابل الجيشان فى هذا الموضع ، وكان كلاهما يقدر بمائة وثمانين ألف مقاتل .

وقد أرسل يوسف إلى الفونسو يخيره بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، فأرسل إليه يخبره أن اليوم الخميس وغداً الجمعة وهو عيدكم ، وبعد غد السبت وهو عيد اليهود ، وبعده الأحد وهو عيد النصارى ، والموعد يوم الإثنين ، ولكن المعتمد بن عباد كان يعلم غدر الفونسو فأخذ الحيطة ولم يستنم إلى هذا الوعد ، وإذا بجيش الفونسو يهاجم فى صبيحة يوم الجمعة ، فلم يباغتهم ولم يأخذهم على غرة ، والتحم الجيشان ، وكان يوسف قد ألقى بعشرة آلاف فارس من جيشه

فى المعركة بقيادة قائده الشجاع داود بن عائشة ، ورابط بسائر جيشه خلف ربوة فلم يعلم به الفونسو وظن أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها ، فبذل أقصى وسعه ، وثبت له المعتمد بن عباد مع جيشه وأبلى بلاء حسنا ، وقد راع الأمراء الأندلسيين منظر جيوش النصارى وهم فى دروعهم الحديدية ينقضون بسيوفهم كالبرق الخاطف فلاذوا بالفرار ، وثبت المعتمد وجيش المرابطين بقيادة ابن عائشة حتى حمى القتل وكثرت جيوش النصارى ، فانهزم المعتمد بجيشه وتبعه الفونسو وأيقن بالنصر فبذل أقصى جهده .

وفى هذه الآونة الحاسمة ألقى يوسف ببقية جيش المرابطين فى المعركة فانقضت على معسكر الفونس وأحدقت به وفتكت بجميع حراسه واستولت على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرقت الخيام والمتاع ، وبينما الفونسو يطارد المنهزمين وإذا به يقع على حرسه منهزما ، فلما أخبروه الخبر ترك مطاردة الأندلسيين وارتد من فوره لينقذ عسكره ، ولكن يوسف انقض فى جيشه المظفر على النصارى ، وكان يشجع المجاهدين بقوله وفعله ، فكان يقول : « يامعشر المسلمين اصبروا لقتال أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة » .

وقد كان فى مقدمة الصفوف يخوض المعركة بنفسه حتى نفق تحته ثلاث أفراس ، وقاتل المرابطون فى ذلك اليوم قتال من لايخافون الموت ومن يريدون الاستشهاد كذلك قاتل النصارى قتال اليائس حتى سقطت عشرات الألوف قتلى ، وغمر الدم ساحة الحرب ، ثم بدت طلائع النصر عند دخول الليل فركن الفونسو مع خمسمائة فارس من جيشه إلى الفرار ، أما باقى الجيش فقد حصده الموت حصدا ، وتقدره الروايات بمائة وثمانين ألفاً من القتلى .

هذه هى موقعة الزلاقة ، وكانت فى الثانى عشر من شهر رجب سنه ٤٧٩ هـ ، وقد أزاحت كابوس الموت عن المسلمين ، وأخرت سقوط الأندلس أربعمائة سنة .

ما هذه الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام :

ما هذه السفن تقلع من بر العدوة وتمخر البحر حتى ترسى بالأندلس ، عليها الرجال المدججون بالسلاح وفيها الخيول العتاق وفيها الزاد والعتاد والشكة والرماح ، ما مقصدها ؟ ما غرضها ؟ هل تريد فتحا وضم أملاك جديدة إلى ملك قديم ؟ .

إنها الأخوة الإسلامية دعت هؤلاء القوم المسلمين إلى أن يتركوا أوطانهم وأن يخاطروا بأرواحهم وأموالهم لنجدة إخوان مسلمين لم يروهم من قبل ، وليس بينهم وبينهم وشيجة من لحم ودم ، وإنما بينهم وبينهم هذه الوشيجة الروحية من عقيدة وإيمان .

استغاثوا بهم فأغاثوهم ، واستنصروهم فنصروهم ، لم يتوانوا ولم يبطئوا ، وكيف يتوانون وكتابهم الكريم يقول : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » ورسولهم الكريم يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله » ذهبوا فأزاحوا العدو الجاثم بكلكله على صدورهم ، وطردوا الموت المحقق فولى والموت خزيان ينظر هذه الأخوة الإسلامية التى ندعو إليها ، هذه الأخوة الإسلامية التى نريد إحياءها وتعهدها حتى تكون فرجا إذا دجت الكروب وادلهمت الخطوب ؟

من مبادئ الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

من لا يعمل لا يأكل:

لو احتاج إنسان إلى النفقة لأنه لم يجد عملا ، أو وجده وعجز عنه لمرض أو شيخوخة جاز أن يأخذ حاجته من الزكاة ، وأن يطالب أقرباءه بالنفقة إن كانوا من ذوى اليسار ، أما إذا قدر على العمل وتركه تكاسلا فلا يُعطى من الزكاة ، ولا يُحكم له بالنفقة على أحد ، لأن فى ذلك تشجيعاً له على الكسل ، وإغراءاً بالبطالة . وفى الحديث أن رجلين أتيا إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه من الصدقة ، فقال : « أعطيكما بعد أن أعلمكما ، أن لا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » .

وعند ما هاجر الرسول وأصحابه من مكة إلى المدينة ، اقتسم أهل المدينة المهاجرين ، فأبى الإمام على أن يكون كلا على أحد ، وعمل فى بستان يهودى بأجر زهيد يأكل منه ويتصدق ، وعمل الرسول الأعظم عند خديجة ، واشترك فى حفر الخندق ، وبناء المسجد . فعلى الذين ينتسبون إلى النبى وأهل بيته ألا يسألوا الناس ، وهم يقدرون على العمل كى يثبتوا أنهم يشبهون السادة الأطهار ولو بدرهم من قنطار ، إن مبدأ من لا يعمل لا يأكل أقره الإسلام قبل أن يهتدى إليه أرباب القوانين الوضعية بمئات السنين .

كل شيء نظيف وصحيح :

قال الإمام جعفر الصادق : « كل شيء نظيف حتى تعلم أنه قذر .. كل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام » أى إذا أردت أن تأتى بعمل ، وخشيت أن يكون محرما ، يجوز لك أن تفعله حتى يتبين أن فيه مفسدة تستدعى تركه والاجتناب عنه ، أما إذا أتيت بعمل جائز وبعد الفراغ منه شككت : هل أتيت به على وجهه ، أو تركت بعض ما يعتبر فيه من جزء أو شرط فلا تلتفت ، وابنِ على أنك فعلته كما يجب حتى يثبت العكس ، وإلى هذا أشار الصادق بقوله : « كل ما شككت فيه مما قد مضى فامضه كما هو » هذا بالقياس إلى عملك أنت ، أما بالقياس إلى عمل غيرك وحكمك عليه بالصحة أو الفساد فابنِ على صحته حتى تتأكد من فساده ، على هذا إجماع الفقهاء . قال الإمام على : « ضع أمر أخيك على أحسنه » إذن كلما فعله غيرك أو فعلته أنت ، أو تريد أن تفعله فهو فى حكم الإسلام نظيف وحلال وصحيح حتى يثبت العكس .

والغاية من هذا المبدأ التيسير وانتظام التعايش والتعاشر بين الناس ، إذ لو انعكس الأمر وكان كل شيء حراما وقذرا وفاسدا حتى نعلم أنه حلال وصحيح لحدثت الفوضى والاضطراب ، ولما تم للناس أمر من أمورهم العامة والخاصة .

الرضا لا يحلل الحرام :

جاء فى الحديث الشريف : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا . المؤمنون عند شروطهم إلا شرطاً حلل حراماً أو حرم حلالا » قال الفقهاء : لا تختص هذه القاعدة بالصلح والشرط ، بل تشمل جميع أبواب الفقه ، فأية معاملة تقع على عمل محرم فى الشرع كالسرقة والزنا ، أو على عمل مباح بذاته ، ولكنه يستتبع الحرام كالبيع والإجارة يؤديان إلى الربا والاستغلال ، فأية معاملة تؤدى إلى ذلك فهى باطلة ، ومجرد التراضى لا يجعل الحرام حلالا ، لأنه تعاون على الإثم ، ويتفرع على هذا المبدأ مسائل :

(١) إذا استأجر إنسان عقاراً من غيره ، واتفقا معاً على أنه إذا حصل

خلل فيه يتداركه المستأجر ، ويضمنه من ماله وإن لم يكن هو السبب لهذا الخلل ، قال فقهاء الإمامية : لا يجب الوفاء بهذا الشرط ، لأن المستأجر أمين لاضمان عليه ، وكذا لا يصح الشرط على أن لا يضمن المستأجر إذا كان سببا لحصول الخلل ، وإلى هذا أشار العلامة الحلى فى كتاب التذكرة باب الإجارة : « ما لا يجب ضمانه لا يصير بالشرط مضمونا ، كما أن ما يجب ضمانه لا ينتفى ضمانه بالشرط » .

(٢) قال الشيخ الطوسى وغيره من فقهاء الإمامية : « إذا تشارك اثنان فى التجارة ، واتفقا على أن يكون لأحدهما من الربح أكثر من الآخر تكون الشركة باطلة ، هذا إذا تساويا بالعمل ورأس المال . وكذا لا يجوز أن يشترى رجل خامل بضاعة من ماله الخاص ، ويتفق هو ورجل وجيه على أن يكون البيع باسم الوجيه ترويجاً للسلعة ، ويعطيه جزءًا من الربح .

(٣) يجوز أن يدفع الإنسان مالا إلى غيره ليتجر به على أن يكون الربح بينهما ، ولكن لو حصلت الخسارة تكون على صاحب المال وحده ، وقال السيد محسن الحكيم مرجع الطائفة فى كتاب مستمسك العروة الوثقى باب الإجارة : « لو اتفق العامل وصاحب المال على أن تكون الخسارة عليهما معاً لا يعمل بهذا الاتفاق ، لأنه مخالف لكتاب الله وسنة الرسول ، لأن الخسارة عرضت على المال دون أن يكون للعامل دخل فى ذلك ، فتغريمه ظلم حتى مع الرضا » .

والخلاصة أن الرضا لا يجعل الحرام حلالا ، فإذا رضى الإنسان أن يُشتم أو يُضرب أو يدفع الربا أو يُستأجر على عمل محرم ، فرِضاه ليس بشىء .

كل إنسان خلاصه بيده :

إن هدف الإسلام أن يحرر الإنسان من الظلم والجهل والخرافات ، ومن كل قيد لا يفرضه العقل ، فأى مسلم يؤمن بما يأباه العقل فهو جاهل بدينه ، وإن قضى حياته فى دراسة الدين وعلومه ، وبديهة أن العقل يأبى أن يكون لإنسان سلطان على إنسان بنحو من الأنحاء ، وقد اعتبر الإسلام هذا مبدأ من مبادىء التشريع ، فكل راشد عاقل يستقل بأعماله ، ولا يتوقف صحة شىء منها على رضا

قريب أو بعيد ، سواء أكان عملا دينياً أم دنيويا ، فإذا تاب الإنسان من خطيئة يقبل الله منه بدون شفيع ، كما يقبل صلاته وصيامه وحجه وزكاته بلا واسطة جامع أو كنيسة ، وأجاز الإسلام أن يأتم الفقيه والملك فى الصلاة بابن الشارع إذا كان من أهل الإمامة والتقوى ، حتى واجبات الميت ، كتغسيله ودفنه والصلاة عليه لا يشترط أن يباشرها رجل دين ، فيصح أن يتولاها كل من يحسن الإتيان بها على وجهها ، وكذا الزواج والطلاق يوقعهما المريد بنفسه دون أن يستعين بأحد .

إن مصير كل إنسان متوقف على عمله ، وخلاصه بيده لا بيد الصالحين ورضاهم عنه ، وشفاعتهم له .

إن تعاليم الإسلام من ألفها إلى يائها تهدف إلى تحرير الإنسان من عبادة الإنسان ، والعبادة لا تنحصر فى الصوم والصلاة ، فكل من ربط عمله بإرادة غيره وانقاد له فقد عبده ، وأشرك مع الله إلهاً آخر ، قال صاحب مجمع البيان فى تفسير الآية ٣١ من سورة التوبة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » إن الإمام الصادق قال : أما والله ما صاموا ولا صلوا لهم ، ولكنهم أحلوا لهم حراماً ، وحرموا لهم حلالا فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون . وقال عدى بن حاتم : أتيت رسول الله ، وهو يقرأ هذه الآية فقلت له : لسنا نعبدهم ، فقال : أليس يحرمون ويحلون ، فتحرمون وتستحلون ؟ قلت بلى ، قال : فتلك عبادتهم .

وبالتالى ، فإن التشريع فى نظر الإسلام لا يناط بفرد من الأفراد ، ولا بهيئة من الهيئات ، وإنما يناط بالمصلحة والمفسدة ، فكل ما فيه مفسدة تستدعى تركه فهو محرم ، وكل ما فيه مصلحة ملزمة تستدعى فعله فهو واجب ؟

العزوبة في اليهودية والمسيحية والإسلام

لحضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

تنظر اليهودية إلى الزواج على أنه واجب دينى لكل قادر عليه ، ويقرر فقهاء اليهود أن جريمة من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه تعدل جريمة القاتل ، لأن كليهما « يطفىء نور الله ، وينتقص ظله فى أرضه ، ويبعد رحمته عن إسرائيل » بل لقد ذهب كثير منهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فرأوا أن من يبلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج (١) .

ومن أهم الأسباب التى جعلت اليهود يعلون من شأن الزواج إلى هذا الحد أن تخليد اسم الأسرة وتخليد شعائرها ووظائفها الدينية وتوثيق صلتها بالرب ، كل ذلك كان يتوقف فى عقيدتهم على إنجاب البنين ؛ وليس ثمة وسيلة مشروعة لإنجاب البنين إلا الزواج ، وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه الكريم حكاية عن زكريا : « وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب » .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الشرعية نفسها إذا لم ترزق بذكر تتنازل لجارية زوجها أو جاريتها عن فراشها ابتغاء أن يأتى منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة . ومن الغريب أن من كانت تأتى به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعدّ ولداً للزوجة الأصيلة لا للجارية التى ولدته . فكانت الزوجة هى أمه الشرعية ؛ على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت لإنجابه . وقد طبق هذا النظام على إسماعيل الذى جاء به إبراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجه الأصيلة سارة

---

(١) Wester marck : Idées Morales (trad. fr.) T.11 386

بابنها إسحق ، وطبق على « دان » و « نفتالى » اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلهة قبل أن ترزق زوجه الأصيلة راحيل بيوسف وبنيامين (١) .

ولم يشذ عن ذلك من فرق اليهود جمياً إلا فرقة الحسديين (٢) فقد كان من أهم مبادىء هذه الفرقة ، حسب ما يحدثنا يوسف المؤرخ الشهير : « الرغبة عن جميع متع الجسم ، والنظر إليها على أنها شرور ، واعتبار التبتل (٣) من أمهات الفضائل ؛ ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج » (٤) .

* * *

ومع أن هذه المبادىء الحسدية لم يكن لها أثر كبير فى الديانة اليهودية نفسها ، ولم تطبق إلا فى نطاق جماعة الحسديين وحدهم ، وفى مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال فى الديانة المسيحية التى جاءت من بعد ذلك ، فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج ، وأن الحصور (٥) أدنى إلى الله ممن يقرب النساء . وفى هذا يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل قورنثه : « إن من يزوج ابنته يأت عملا طيبا ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير (٦) . . . وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب ، إلا إن خاف الوقوع فى

---

(١) سفر التكوين إصحاح ١٦ وإصحاح ٣٠ آيات ١ — ١٤

(٢) انظر بحثاً فى هذه الفرقة والفرق اليهودية الأخرى فى مقال لنا بالعدد الثانى من السنة الثامنة من هذه المجلة ، صفحتى ١٥٥ ، ١٥٦

(٣) تبتل إلى الله وبتل بتشديد التاء : انقطع وأخلص ، أو ترك النكاح وزهد فيه . ا هـ . قاموس . وبهذا المعنى الأخير سنستعمل هذا الفعل ومشتقاته فى هذا المقال .

(٤) Josephe : De Bello Judaico,11,8,2

(٥) الحصور من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك والممنوع أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن . ا هـ . قاموس ، وبالمعنى الأول وحده سنستعمل هذا الوصف فى هذا المقال .

(٦) الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آية ٣٨

الخطيئة (١) . . . وإننى لأنصح للأيامى (٢) من الرجال والنساء أن يقتدوا بى فيظلوا على ما هم عليه ، فإن لم يقو أحدهم على العفة فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج ؛ فلأن يتزوج خير من أن يكون وقوداً لنار جهنم » (٣) .

ويعلق ترتوليان (٤) على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيرا فى ذاته . فلأن يفقد الإنسان عينا واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه ، ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير فى شىء ، فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم ؛ ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معاً ، فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار ، وإن قصارى ما يحققه الزواج أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتى بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء ، والقديس يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا Jean Baptiste) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم فى سفر الخلود آثروا التبتل وحثوا الناس عليه ، وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى (٥) أن تعبر البحر هى وجميع من كن يسرن خلفها من النساء ، فانشق لهن فيه طريق يبس وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات ، والقديسة البتول « تكلا » قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها ورقدت تحت قدميها بدون أن

(١) المرجع السابق إصحاح ٧ ، آيتى ١ ، ٢

(٢) الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة . والجمع فيهما أيامى ، اهـ مصباح .

(٣) الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آيتى ٨ ، ٩

(٤) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية (١٦٠ — ٢٤٠ ميلادية) .

(٥) وهى التى ورد ذكرها فى القرآن فى قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » .

تمسها بسوء (١) . . . ولقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء . . . ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهرا حصورا ، ولتكاثر النوع الإنسانى بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ، ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين » (٢) .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ؛ حتى إن مجمع مِديولاننس المسيحى قد حكم فى أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب چوڤينيان بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج (٣) .

وقد ذهبت فرقة المارسيونيين (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون)(٤) إلى ما هو أبعد من ذلك، فحرمت الزواج تحريماً باتاً على جميع أفراد نحلتها،

---

(١) تذكر القصص المسيحية أن القديسة تِـكلا كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية فى القرن الأول الميلادى على يد الرسول بولس ، وأن الله قد نجاها بمعجزة من كثير من أنواع العذاب التى امتحنها بها الوثنيون ليثنوها عن عقيدتها ، ويحتفل المسيحيون بذكراها فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

(٢) Terrullien, De Monogamia 3 ـ هذا ولا يوافق سان توماس الإكوينى على الفقرة الأخيرة التى ذكرناها من عبارة ترتوليان ، بل يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسى ، ولكن هذا الاتصال ـ فى نظر توماس الإكوينى ـ لم يكن فى بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التى امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة .

(٣) Ibid 390 .,

(٤) ولد مارسيون هذا ببلدة سينوب (ميناء على البحر الأسود فى تركيا) فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وكان أبوه قسيسا ، ونشأ هو قسيسا كذلك ، ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية ، ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلى من صنع الإله العادل Dien Juste أو الإله ديميورج وهذا الإله هو الذى =

كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود، وأوجبت على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور أو الإناث أن يفترق عن زوجه؛ وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده.

ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان في المذهب الكاثوليكي. فمنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة متوفى عنها زوجها، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته. وفي أوائل القرن الرابع الميلادي أصدر مجمع إلفيرا (في أسبانيا) قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة. وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القسيسين والرهبان كبارهم وصغارهم «حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسي» ومع أن هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية، فإنه لم يكد ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاماً مقرراً في الكنيسة الكاثوليكية، ومطبقاً على جميع القسيسين والرهبان من الرجال والراهبات من النساء.

ويذهب الظاهريون من فقهاء المسلمين وعلى رأسهم داود الأصفهاني وابن حزم إلى أن الزواج فرض عين على كل مسلم قادر عليه وعلى مختلف أعبائه. فهو للمسلم

= اتخذ من بني إسرائيل شعباً مختارا وأنزل عليهم التوراة، ولكن سلطان هذا الإله قد انتهى عند ما ظهر الإله الخير Dien Bon متمثلا في المسيح وخلص الانسانية من خطاياها؛ فحينئذ بطلت كل أعمال الإله السابق، ومن ثم يقوم هذا المذهب على اطراح العهد القديم «كتب اليهود المقدسة» في جملته وتفاصيله، أما العهد الجديد «كتب المسيحيين المقدسة فإن هذا المذهب لم يعترف منه إلا بسفرين: أحدهما إنجيل لوقا، والآخر رسائل الرسول بولس. ولم يعترف بهذين السفرين نفسيهما إلا بعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة — وعلى الرغم من الحرب الشعواء التي شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير في إيطاليا وإفريقيا ومصر، وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث، ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضا تاما.

فى نظرهم ، بمنزلة الصلاة والصوم وما إليهما من الفروض العينية ، حتى إنهم ليرون أن من تركه مع القدرة عليه وعلى أعبائه يكون إثمه إثم من ترك ركنا من أركان الدين الإسلامى . ويستدلون على ذلك بعدة آيات وأحاديث ورد فيها طلب النكاح بصيغة الأمر ، ذاهبين إلى أن الأمر المطلق للفرضية والوجوب . وذلك كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ، وقوله : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » ، وقوله : « من استطاع منكم الباءة (١) فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء » (٢)، وقوله : « تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة» ، وقوله : «النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٣)

وحتى معظم فقهاء المسلمين الذين لم يذهبوا إلى حد القول بفرضية الزواج على الإطلاق ينزلونه منزلة تقرب من منزلة الواجب ، ويقولون بوجوبه إذا خشى الفرد الوقوع فى المحرم ، فلا خلاف بينهم فى أن العزوبة تتنافى مع الأوضاع الإسلامية الصحيحة ، وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « من تزوج فقد أحرز نصف دينه» ويقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جاريه ، أو علم ينتفع به» أو ولد صالح يدعو له بخير » . والولد الصالح لا يكون إلا ثمرة لزواج مشروع .

وأما ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من أحاديث ترغب الناس فى التبتل ، كقوله : « خيركم من لم يتزوج بعد المائة أو بعد الألف » - أى من التقويم الهجرى - فهى أحاديث موضوعة تتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه . ويظهر أنها تعبر عن اتجاهات مسيحية تسربت إلى بعض بلاد المسلمين ، أو عن اتجاهات الغلاة من المتصوفين ؟

---

(١) الباءة والباء النكاح ، وبوأ تبويئاً نكح . اهـ القاموس ؛ والمعنى من قدر منكم على أعباء الزواج فليتزوج .

(٢) يطلق الوجاء على رض عروق الخصية من غير إخراج فيكون شبيها بالخصاء ، لأنه يكسر الشهوة ، اهـ . المصباح ؛ والمعنى من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم ، فإن فى الصيام إضعافا للنزوات ، ووقاية للعفة ، وصيانة للنفس من الوقوع فى المحظور .

(٣) انظر فى ذلك بدائع الصنائع للكاسانى ، كتاب النكاح جـ ٢ ص ٢٢٨

في التاريخ والأدب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى الأستاذ فى كلية اللغة العربية

— ٤ —

حلوان — خندف :

استوعب حديث (حلوان) المقال المتقدم كله ، للاستطراد فيما اتصل بحلوان مما استبق ذكره فى سجل الخالدين بصحائف التاريخ ، وقد التزمت فى نهايته إتباعه بحديث آخر عن أخته (خندف) ، وذلك أنه قد سبق التعهد بالحديثين مرتبين كذلك بعد الفراغ من تسطير ما يتعلق بأمهما (ضرية) ، وبهذا سيكون موضوع اليوم خاصا بخندف .

خندف :

إن خندف قد أدركت شأو أمها ضرية وأخيها حلوان ، فى شيمان اسمها فى عهدها واستدامته فى الآخرين بعدها مثلهما ، فلئن أتيح لأمها حظ البقاء لاسمها مقرونا بالتعريف لحماها الذى ظل القرون الطوال قائماً فى الجاهلية والإسلام ، وتردد التنويه به فى عهد جعفر المتوكل على الله على ما سلف ، وما أدرى إلى أى وقت بقى ؟ فلعله طال عهده بعدئذ إلى حين ، ولأخيها تسجيل اسمه على حلوان الفرات مضافا مع هذا إلى التميز به فى نسله المبارك فيه المستمر إلى الإسلام ، فكان منه بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، على ما نقلنا لك هناك ، إذ لا حاجة إلى سرد أسماء كثيرة منهم يمتون إليه بصلة الأبوة لهم . لئن أتيح لأمها وأخيها ما عرفت ، لقد قيض الله لخندف كذلك الخلود الأبدى بإطلاق اسمها على بنيها من اليأس ، فمن تفرع منهم الأحقاب الممتدة من يومها إلى العصر العباسى

الثانى - كما تقدم فى شعر أبى الطيب المتنبي - إذ أحدث النظام العارض فيه المرتبط بالدويلات القضاء على ما كان يراعى فى العصبيات قبلا ، ولكل زمن اتجاهه .

على أنه قد فات الإلماع إلى أن ذلك اللقب استفز الالتفات إليه أنه أحد أبوى قصى الكريمين اللذين تغنى بالانتساب إليهما فى بيتيه الماضيين ، فبيّنا حينذاك أن الحقيقة التاريخية تطل علينا منادية بالإفصاح عن أمرين لا بد منهما : أن ذلك العَلَم الذى ذاع وملأ الأسماع عارض عليها وانطوى وراءه علم ميلادها الموضوع لها من أبويها (ليلى) ، وأن ذلك العلم بعدئذ زحم علم زوجها فى التمييز لبنيها ومن توالد منهم ، بل استأثر به على مر الأيام واختص أن يكون علم القبائل من البنين ، والعشائر من الأحفاد ، والبطون والأفخاذ والفصائل من حفدة الأحفاد ، فأطلق على كل من تناسل من اليأس وخندف بنو خندف . كما وقع التغيير فى علم أخى اليأس ، وهو الناس ، فامتاز علم قيس على الناس ، وصار مآل العلمين إلى مصير واحد وهو الاختفاء وراء ما اشتهر لكل منهما من العلمين الجديدين ، ولتتبين الأمر جلياً فهاك ما كان ، لترى إلى أين صار .

شبلا مضر : اليأس والناس

إن مضر أحد بنى نزار الأربعة ، والباقون : ربيعة وإياد وأنمار ، قد تزوج جرهمية ديدن العرب فى التزوج إلى القربات للنجابة ، فولد لهما اليأس والناس ، وما لبثا حتى انتشر نسلهما وملأ الأصقاع ، فكان منه جمهرة العرب الذين احتازوا معظم الجزيرة ، وضربوا خيامهم فى سرتها وأطرافها ، وضرب بهم المثل فى الكثرة والبأس والنجدة ، مع رعايتهم قرابة العمومة والاحتفاظ بها كلما حزب الأمر وشنت الغارات ، ومع اختفاء اسمى أبويهما واستبدال علمين آخرين اشتهرا على الألسنة ، وطبعا الاستبدال مناسبات اتفاقية تطرأ فينفذ حكمها دون معارضة وصد لما حدث أيا كان ، وكثر ما كان ذلك فى كل عصر وحين ، وبين ظهرانينا أمثلة لا تحصى ولا تستقصى .

كان البدل فى الناس (قيس علان) وسبق بإسهاب بيان ما قيل فيه ، والبدل

فى اليأس (خندف) وهنا الوفاء بالوعد للإفادة عن الأمرين فى هذا العلم : بيان طروه على العلم الوضعى لها فى ميلادها ، وسبب تغلبه فى بنيها على علم أبيهم .

خندف وبنوها :

من الأحاديث الآنفة عرف أن اليأس تزوج ليلى ، وفى حديث اليوم نضيف أنهما أعقبا ثلاثة : عامر وعمرو وعمير . ولقد ساق القدر ظروفا استوجبت التغيير فى أسمائهم ، كما استوجبت أخرى تغييراً فى اسم أبيهم ، وهكذا الدهر ذو غير ، يضاف إلى هذا البحث فى السبب المقتضى تغليب جانب الأم على الأب .

فانضوى الأبناء تحت لواء علم أمهم ، وانطوت راية أبيهم دونهم .

وما أشق التنقيب عن معلومات يد الدهر صانعتها . فإنه يستتبع تصفح الماضى مع الوقوف عند المناسبات حتى يعثر على الأسباب التى تأتى كثيرا عفوا فى أوانها ، وفى النقول الآتية ما يكفل الإجابة عن الأمرين معاً : التغيير فى اسم الأم وأبنائها وإيثار اسم الأم على الأب فى التعريف بالأبناء .

النصوص الواردة :

فى سيرة ابن هشام : « ولد اليأس بن مضر ثلاثة نفر : مدركة بن اليأس ، وطابخة بن اليأس ، وقمعة بن اليأس ، وأمهم خندف امرأة من اليمن ، وهى خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة ... وكان اسم مدركة عامرا واسم طابخة عمرا ، وزعموا أنهما كانا فى إبل لهما يرعيانها ، فاقتنصا صيداً ، فقعدا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على إبلهما ، فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها ، فلما راحا على أبيهما حدثاه بشأنهما ، فقال لعامر : أنت مدركه ، وقال لعمرو : أنت طابخه » .

قال السهيلى : « وفى الخبر زيادة ، وهو أن اليأس قال لأمهم (ليلى) ... وقد أقبلت تخندف فى مشيها : مالك تخندفين » ؟ .

فسميت خندف ، والخندفة فى اللغة : سرعة المشى ، وقال لمدركة : وأنت

قد أدركت ما طلبتا ، وقال لطابخة : وأنت قد انضجت ما طبختا ، وقال لقمعة : وهو عمير : وأنت قد قعدت فانقمعتا .

وخندف التى عرف بها اليأس هى التى ضربت بها الأمثال بحزنها على اليأس ، وذلك أنها تركت بنيها وساحت فى الأرض تبكيه حتى ماتت كمدا ... وقال الزبير : وإنما نسب بنو اليأس لأمهم لأنها حين تركتهم شغلا بحزنها على أبيهم رحمهم الناس ، فقالوا هؤلاء أولاد خندف الذين تركتهم وهم صغار أيتام حتى عرفوا ببنى خندف) (١) .

وفى اللسان مادة (خندف) الخَنْدفة مِشْية كالهرولة ، ومنه سميت ـ زعموا ـ خندفَ امرأة الياس بن مضر بن نزار واسمها ليلى ، نسب ولد اليأس إليها وهى أمهم ... كانت خندف امرأة اليأس اسمها ليلى بنت حلوان غلبت على نسب أولادها منه ، وذكروا أن إبل اليأس انتشرت ليلا فخرج مدركة فى بغائها فردها فسمى مدركة ، وخندفت الأم فى أثره ، أى أسرعت فسميت خندف واسمها ليلى بنت عمران بن الحاف بن قضاعة ، وقعد طابخة يطبخ القدر فسمى طابخة ، وانقمع قمعة فى البيت فسمى قمعة ، وقالت خندف لزوجها : ما زلت أخندف فى أثركم ، فقال لها : فأنت خندف ، فذهب لها اسما ولولدها نسبا ، وسميت بها القبيلة ، وظلم رجل فى أيام الزبير بن العوام فنادى ياالخندف ، فخرج الزبير ومعه سيف وهو يقول أخندف إليك أيها المخندف ، والله لئن كنت مظلوما لأنصرنك ...) .

وفى القاموس مادة (الخندوف) : « وولدَ اليأس بن مضر عمرا وهو مدركة ، وعامرا وهو طابخة ، وعميرا وهو قَمَعَة ، وأمهم خِندف كزِبرج وهى ليلى .. وكان اليأس خرج فى نُجْعَة فنفرت إبله من أرنب ، فخرج إليها عمرو فأدركها ، وخرج عامر فتصيدها وطبخها ، وانقمع عمير فى الخباء ، وخرجت أمهم تسرع فقال لها اليأس : أين تخندفين ؟ فقالت : ما زلت أخندف فى أثركم ، فلقبوا : مدركة وطابخة وقمعة وخندف » .

---

(١) الروض الأنف « ذكر ولد نزار بن معد » ج ١ ص ٦١

ونقل السيوطى : « وفى أمالى ثعلب : ندّت إبل لليـأس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ، فندت أولاده فى طلبها ، وهم ثلاثة : عامر وعمرو وعمير ، فأدركها عامر فسمى مدركة ، وأما عمرو فاقتنص أرنبا واشتغل بطبخها وقال ما زلت فى طبخ فسمى طابخة ، وأما عمير فانقمع فى البيت فسمى قمعة ، فلما أبطأوا على أمهم ليلى خرجت فى أثرهم ، فقال الشيخ لجارية لهم يقال لها نائلة : تقرفصى فى أثر مولاتك أى أسرعى ، فقالت ليلى ما زلت أخنـدف فى أثركم أى أهرول فسميت خندف ، وقالت نائلة : أنا قرفصت فى أثر مولاتى ، فقـال الشيخ : فأنت قرفاصة » (١) .

غير أنه بعد الرجوع إلى أمالى ثعلب ظهر التفاوت بين المنقول والمنقول عنه فى زيادة أثبتها السيوطى . ولعل هذه الزيادة سهلها عليه القصد من زيادة الإيضاح فى الخبر . ولتعـلم ذلك جلياً أضع بين يديك عبارة الأمالى المنقول عنها بحروفها ، قال ثعلب : « ومدركة وطابخة أخوان طلبا إبلهما فصادا أرنبا ، فقال مدركة لطابخة : اطبخ لنا صيدنا هذا إلى أن أثنى عليك الإبل فطبخها طابخة ، وثنى عليه مدركة الإبل ، فلما أتيا أمهما قالا : فعلنا وفعلنا ، قال : فلقب طابخة وهذا مدركة ، فذهبا طابخة ومدركة ، وأمهما خندف » (٢) .

وفى شرح شواهد شرحى الشافية للبغدادى الشاهد التاسع والأربعين بعد المائة « ونقل ابن المستوفى فى تسميتها خندف وجها آخر ، قال : فقـد م اليأس يوما فقال لها : اخرجى فى طلب أولادك ، فخرجت وعادت بهم ، فقال لهـا اليأس : أنت خندف » .

عساك علمت علم اليقين ـ بعد أن قرأت النصوص الواردة فى إحلال قيس عيلان محل الناس والاجتزاء به دونه فى تميز فروعه من غيرهم ثمّة فى العدد الثانى

(١) المزهر ج ٢ ص ٢٦٩

(٢) أمالى ثعلب ج ٢ ص ٥٧١ طبع دار المعارف .

من السنة الماضية ، وفي اشتهار خندف بدلا من اليأس والاستغناء بها دون الحاجة إليه في الإرشاد عن ذريته هنا في هذا المقال - أنه ناب قيس وخندف في التعريف بما تناسل من ابني مضر شعوباً إلى فصائل عن الناس واليأس على مر العصور ، ولا سيما في المصاولات والمقاولات بين الفريقين ، ومن ثم كان المضرى حيناً يتسامى بالاعتزاز إلى هذين الأبوين ، ويطير بهذين الجناحين عند الوئام والإجابة لعامل القربى بين بنى الأعمام ، وحيناً ينحاز إلى أبيه فتظهر المقابلة بين هذين الأبوين من الفرعين ، ولكل من الأمرين داعيه الخاص .

يقول نصر بن سيار المرتفع نسبه إلى مدركة بن خندف :

أنا ابن خندف تنميني قبائلها للصالحات وعمي قيس عيلانا (١)

ويقول المبرد في التفخيم بصدر الأقرع بن حابس التميمي المرفوع نسبه إلى طابخة بن خندف ، وعيينة بن حصن الفزاري المنتهى إلى قيس عيلان : « وكان الأقرع في صدر الإسلام سيد خندف ، وكان محله فيها محل عيينة بن حصن في قيس » (٢).

فخندف وقيس هما ملتقى أولاد مضر .

بنو قيس - بنو خندف :

يستنصر القيسي القيسيين ، والخندفي بالخندفيين إذا شجر النزاع بين بنى العم ، وإن جد الشقاق بين بنى مضر وبين ربيعة أو غيره ، فبنو العمومة في صف واحد ينزعون في قوس واحدة تلقاء غيرهم ، فالمناصرة في الأخوة فالعمومة فالجد الأعلى وهكذا على ما هو مركوز في الطباع البشرية .

وهذه العصبية البغيضة في الدين الحنيف خفت صوتها وكمنت في النفوس الفترة الأولى في صدر الإسلام ، إذ أن دولة بنى أمية أحيت التقاليد العربية ،

(١) البيت في جمهرة الأنساب ص٩ ، ونصر والى خراسان من عهد هشام بن عبد الملك وترجمته في خزانة الأدب الشاهد السابع عشر بعد المائة .

(٢) الكامل شرح الرغبة ج ٣ ص ٤٢

وبعثت دفين نوازع الحزبية ، فرجعت النعرة الأولى التى كانت قبيل الإسلام جذعة ، فتغنى بها الشعراء - وهم ألسنة قبائلهم الذادون عن حياضهم - وطفقوا يرددون مواقف أسلافهم المشهورة منسوبة إلى أصولهم الممجدة - كل يرفع راية القبيلة التى ينحاز إليها ، ويحثو فى وجه مناهضه التراب ، وقد أثر الهجاء بالتفضيل فى النفوس أيما تأثير ، فكم من قبيلة رفع الشعر أو وضع .

اعتزاز الشعراء بأصلهم الخندفى أو القيسى :

كثر الشعراء المجيدون فى دولة بنى أمية ، وبلغ الشعر ذروة الجزالة والفصاحة ، غير أن الشعراء اختلفت ميولهم القبلية تبعاً لاختلاف بيئاتهم العربية ، والتطاحن فيما بينها للسبق فى حظوظ الحياة ، وقد زاد اختلاف الشعراء التدابر بين القبائل ، وأجج نار الأحقاد والأضغان ، كثيراً من الأحيان . فقد يثير الشاعر الخندفى المسالمَ من خندف كما يوقظ الشاعر القيسى المتسامحَ من قيس ، كما ينبه المنتسب إلى عشيرة عشيرتَه لمناهضتها عشيرة أخرى قد تكون خندفية أو قيسية مثلها وهكذا .

فجرير ، مثلا ، التميمى الخندفى ، إذا احتربت بنو قيس وبنو خندف ، فإنه يسلط لسانه على قيس ويشيد ببطولة خندف ، وإن عرف عنه الاحتفاظ بكرامة الأب (قيس) لأن جريراً له خئولة فى قيس ، لذا كان يعمد حينئذ إلى ذكر القبيلة وحدها دون تعميم فى القيسيين ، وإذا تلاحى المضريون والربعيون فإنه يسلق الربعيين بلسان حديد ، ويحسب المجد واقفاً عند بنى قيس وخندف ، وإذا اختصم بنو خندف فإنه يدع النسب العالى ويتحيز لمن يهوى .

وهكذا شأنه : يلبس لكل حالة لبوسها .

وكذا الفرزدق التميمى الخندفى يجرى فى هذا المضمار لاقتضاء الظروف التلون باللون الذى يقتضيه الحال ، بيد أنه كان عنيفاً فى حملاته على قيس ، فصب جام غضبه على رءوسهم فى الوقعات التى نشبت بينهم وبين الخندفيين ، لأمرين :

الأول : لمناصبته العداء لجرير الذى كان يعدد مآثرهم فى مواقفهم ، والتهارش بين

الشاعرين دفعهما إلى غمط الحقيقة واختلاق المعايب ، والثاني : لأن أبويه ينتسبان لخندف ، فالنسب العالي عنده ما ارتفع إليهما .

أما الأخطل التغلبي الربعي فإنه موزع الثورة ، فكان يرغم على أن ينال من من قيس حيناً ، ومن خندف حيناً آخر ، وربما تناول الشعبين ، وإن كان الفرزدق عنده أثيرا ، فالصداقة الشخصية لا تطغى عليها العداوة العامة العصبية ، وصدق الفرزدق في هذه الحكمة :

وكل رفيق كل رحل وإن هما   تعاطى القنا قوْماهما : أخوان

هؤلاء الشعراء الثلاثة ومعاصروهم أفرطوا في التمسك بأصولهم القديمة العهد ، فرددوا في أشعارهم خندف وقيساً وبطونهما لأي داع ، وما أكثره في حسبانهم ، ولا يجمل الاستكثار من أمثلة في ذلك ، فلأقتصر على قليل كنموذج يكشف عما وراءه على نمطه تماما للفحول من الشعراء .

أبرز الشعراء في هذه الحلبة :

لعل أكثر الشعراء تعلقاً بالمفاخرة بها هؤلاء الثلاثة : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وسأذكر نبذة عن كل منهم :

جرير :

طالما مجد خندف واستنصرها واستظهر بها ، وأكثر مواقفه التي احتمى فيها بخندف كانت ترتبط المناسبات مع هؤلاء الثلاثة : الفرزدق والأخطل والراعي فإن هؤلاء أقضوا مضجعه ، وتوافروا على الفتك به بكل ما أوتوا من قوة عشيرة وبسطة مال وسلاطة لسان ، لكنه لم تلن لهم قناته وكان الجزاء لهم منه أوفى .

يقول للأخطل مع النيل من قبيلته تغلب من قصائد طويلة ، نذكر منها ما يختص باسم القبيلة فقط :

ستعلم أن أصلي خنـــدف   حبالي أفضل الحسب الكريم
نزلت بفرع خندف حيث لاقت   شؤون الهام مجتمع الصميم

يا بن الخبيثة ريحا من عدلت بنا ؟ أم من جعلت إلى قيس إذا ذخروا ؟
قيس وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر

إذا حل بيتى بين قيس وخندف لقيت قروما لم تُدَيَّث صعابها
كذلك أعطى الله قيساً وخندفا خزائن لم يفتح لتغلب بابها

قضى لى أن أصلى خندفى وعضب فى عواقبه السِمام
إذا ما خندف ذخرت وقيس فإن جبال عزى لا ترام

فخرتُ بقيس وافتخرتَ بتغلب فسوف ترى أى الفريقين أربح ؟
وما زال ممنوعا لقيس وخندف حمى تتخطاه الخنازير أفيح
إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من أين تسرح ؟

ويقول للفرزدق الذى كان ينتقصه بميله لقيس وارتمائه فى أحضانهم ، وما ذاك من الفرزدق إلا عن قلى منه لقيس ، وإثارة لحفيظة خندف على جرير - بما فيه الكفاية لرد المكايدة .

تُحضِّض يا بن القين قيساً ليجعلوا لقومك يوما مثل يوم الأراقم
إذا حدبت قيس علىّ وخندف أخذت بفضل الأكثرين الأكارم
أنا ابن قروع المجد قيس وخندف بنوا لى عادياً رفيع الدعائم
فإن شئت من قيس ذُرى متمنع وإن شئت طودا خندفى المخارم
ألم ترنى أردى بأركان خندف وأركان قيس نعم كهف المُراجم
لقد حدبت قيس وأفناء خندف على مرهب حامٍ ذمار المحارم

ويقول له أيضاً معرضا بهواه للأخطل :

وقد لحق الفرزدق بالنصارى لينصرهم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حماى قيس وخندف عز ما حمى الذمار

ويقول للراعى النميرى لما اعتدى عليه ، ونمير قبيلة من كبريات قبائل قيس

وجمرة من جمرات العرب الثلاث . وقد قدح فكره وأورى زنده ، فأبدع القصيدة المعروفة بالفاضحة ، وسارت بعض أبياتها مسير المثل . وانتسب فى ملاحاته مع النميرى إلى خندف ، فقال منها مخاطباً له :

تنح فإن بحرى خندفى ترى فى موج جِرْيته عبابا
علوت عليك ذروة خندفى ترى من دونها رتبا صعابا

الفرزدق :

يقول فى احتمائه بخندف من قيس :

ترفع لى خندف - والله يرفع لى - ناراً إذا خمدت نيرانهم تقد

وفى المباهاة بهما :

إذا ذخرت قيس وخندف والتقى صمياهما إذ طاح كل صميم

وفى هجاء قيس وإيعادها :

أنا ابن خندف والحامى حقيقتها قد جعلوا فى يدى الشمس والقمرا
يا قيس عيلان إنى كنت قلت لكم يا قيس عيلان ألا تسرعوا الضجرا

وإذا حاول الباحث أن يرى لفيفاً من الشعراء متعاصرين فى الجاهلية والإسلام تبادلوا التنافس فيما بينهم وفيما بين أصولهم يمنية ومضرية ، قيسية أو خندفية هكذا فإنه غير واجد عددا يعتد به كذلك إلا فى هذه الفترة التى استعرت فيها نار الأحقاد بين الفريقين ، ومن وقف على الأسباب التى أقامت مروان بن الحكم خليفة على المسلمين بعد معاوية الثانى ، وهيأت له انتزاع الخلافة من عبد الله بن الزبير بعد أن تمت له فى الحجاز والعراق ومصر وبعض الشام مع مؤازرة المضريين له ، أدرك وجهة المروانيين فى ميلهم إلى اليمنيين ، وإيثارهم لهم فى كبر الولايات والوظائف ، فإن اليمنيين أخوال يزيد بن معاوية يحرصون على بقاء الخلافة فى بنى أمية لاستبقاء سلطانهم فيها ، فلولا اليمنيون لتمت الخلافة لابن الزبير ، ومن هذا الحين اندلعت ألسنة النيران بين العنصريين ، فبينما يحسب المضريون أنهم أرباب الدولة وعنصر

الخلافة ، إذ يحسب اليمنيون أنهم أصحاب النفوذ فيها ، وذوو السلطان فى شئونها ، فاتسعت الفجوة ، وتأرثت نار العداوة ، وتقارضوا ما تقذى به العين ، ويشجى به الحلق ، وضرب على أوتارهم الشعراء حتى طفح الكيل ، فمن التقريب الحق أن تعتبر حقبة الدولة المروانية هى الحقبة التى ارتفع فيها نجم خندف ، وصافح اسمها آذان الشعوب الإسلامية ذلك الحين .

إفراط الشعراء المضريين فى تمجيد الخندفيين فى خلافة المروانيين :

نهى الإسلام عن التعصب البغيض ، فلم يكن للقديم ذكر فى صدر الإسلام ، وكان معاوية حكيما سياسياً فرأى أن صلاح دولته يتطلب العنصريين ، فعمل على إدناء اليمنيين وصاهرهم بزواجه ميسون بنت بحدل الكلبية حتى لا ينفرد به عنصره المضرى ويطمع يوما ما فى القضاء عليه ، وانقضت مدته بسلام ، وتورط ابنه يزيد فى جرائمه ، وتخلى عن تحمل الخلافة بعد توليها معاوية الثانى ، فكان ما كان مما أشرنا إلى شيء منه ، فبعث الدفين من التعصب منذ كان مروان الأول .

فروان رجل داهية ، وماضيه فى خلافة عثمان مشنوء ، ولولاه ما تألب عليه الأمصار ، وقتلوه قتلة تقشعر منها الأبدان .

لقد تغيرت حالة الدولة ، وتحلل الناس فيها من رقابة الوازع الدينى ، وتغلبت عليهم المطامع الدنيوية ، وانفك قالة السوء من عقالهم ، وألفى الشعراء الأودية التى يهيمون فيها ، يمدحون ويثلبون ، فيفخرون .

ينفخون عمن تربطهم به وشيجة القرابة أو حافز الحباء ، ويذيعون من يناصبهم العداء ، وفى عِثْيَر هذا الصراع استهدفوا للتراشق بالنبال بعضهم لبعض ، ثم تطور الحال بهؤلاء الشعراء فى الإمعان بمجادة خندف حتى أطلقوها على خلفاء بنى أمية وذلك لبعث الحمية المضرية فى نفوسهم إلماعا لهم وتنبيها على استحقاق المضريين من قيس وخندف للأعمال فى الدولة وقصر الولاية عليهم فى الدولة دون اليمنيين ، وبخاصة ولاية العراقين ، درة الولايات الإسلامية وكبراها فى تلك الآونة ، وحدث هذا الاتجاه وكثر اللغط فيه عند ما عهد سليمان بن عبد الملك إلى يزيد

ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي اليمني بولاية العراقين ، فإنه أول يمني نال هذا الجاه العريض ، لبث يزيد والياً عليها على كره في كثير من نفوس رجالات الدولة ، ولهذا أراد عمر بن عبد العزيز فور توليه الخلافة محاسبته للتنكيل به لو لا فراره منه ، ومعاجلة المنية للخليفة ، فلما ملك الخلافة يزيد بن عبد الملك لم يسع يزيد بن المهلب إلا مناصبته العداء ، والخروج عليه ، بل المحاولة لانتزاع الخلافة من بني أمية إلى بني المهلب واليمنيين ، ولكن طاش سهمه ووقع صريعاً في الميدان في حديث طويل ، سنذكر عنه كلمة قصيرة بعد ، فلما انتكث فتله ودالت دولته ، وخفت صوت المهالبة بعد أن ملئوا الأسماع ، وأرهبوا المنطوين على الحقد عليهم حينا من الدهر - انطلقت بعدئذ ألسنة الشعراء من عقالها ، ونفثوا ما في صدورهم من كراهة وحقد ، وتلاقت سهامهم في الاتجاه صوب غرض واحد وهو قذف اليمانين بالمثالب ، واتهامهم بالعداء القديم للمضريين وانتهاز الفرص لقلب الأوضاع ، وقد خفف هذا الالتفات من حدة العراك الأولى التي كانت تثور بين الشعبين : القيسي والخندفي ، أو بين القبيلتين منهما ، وما أكثرها إلى أواخر الدولة المروانية .

وقبل ذكر شيء مما قيل في ذلك يحسن أن يقدم عليه طرف من سيرة يزيد ابن المهلب إذ كان سبب هذا التحول ، والحديث عن المهالبة طويل يلزم تأخيره إلى المقال التالي إن شاء الله ؟

بين القرآن وعلم النفس

لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ عبد الوهاب حموده

إن هـذا القرآن كتاب هدى وبيان ، ولن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ، ومخاطبة القلوب ، ومناجاة الأرواح .

فالنظام الصائب إليه ، والفهم الصحيح له ، لايقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية أدار عليها بيانه ، مستدلا وهاديا ومقنعاً ومجادلا ومثيراً ومهددا .

فالقرآن الكريم قـد راعى قوانين نفسية عن مظـاهر الاعتقاد ومسارب الانفعال ونواحى التأثير ، وآثار من هذا ما أيد به حجته ، وأظهر دعوته ، وهو فى ذلك يساير من شئون النفس الإنسانية ، ويتغلغل فى شعابها وجوانبها ، بمـا لم يهتد إليه العلم حديثا ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن ليس من وضع محمد النبى الأمى ، وإنمـا هو من صنع خالق القوى والقدر .

من ذلك قوله تعالى فى سورة سبأ : « قل إنمـا أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفـكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لـكم بين يدى عذاب شديد » .

لقد كشفت لنا هـذه الآية عما عرفه العـلم حديثاً وسماه : « العقل الجمعى » يقول جستاف لوبون العالم الاجتماعى :

إن للاجتماع روحاً خاصة به ، وصفات نفسية تمتاز بها الجماعة حيث تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ، ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشير ويفكر ويعمل بها كل واحد على انفراده » .

« فالجماعة دائما دون الفرد إدراكا ، ولكنها من جهة المشاعر مندفعة متوقدة ومن أهم خصائص الجماعات قابليتها للاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الإدراك وملكة النقد والتطرف في المشاعر » .

فهذا كله يلقي ضوءا على ماجاء في الآية من التعبير « مثنى وفرادى ثم تتفكروا » فأمر الله نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يتوجه إلى المشركين ، ويقول لهم : إنني ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي أن تقوموا مجتهدين متدبرين في الأمر بإخلاص لوجه الله ، ومتفرقين حين تفكيركم وترويكم اثنين اثنين أو واحدا واحدا ، فإن في الاجتماع تهويش الخاطر ، وتخليط الآراء ، والخضوع لروح الاجتماع ، والانسياق مع العقل الجمعي ، فتضيع الحقيقة وينطمس وجه الصواب ، ويتغلب تهريج الجماعة على صواب الفرد ، فإذا ما فعلتم ذلك وفكرتم على هذه الصورة التي نبهتكم إليها الآية ظهر لكم أن صاحبكم على حق ، وأنه ليس بمجنون ، بل هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا ، وأذكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمالات البشرية ، فوجب إذن أن تصدقوه في دعواه ، وتؤمنوا بما أنذركم به من عذاب شديد .

ومن ذلك ما في تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » فقد ثار حول هذه الآيات خلاف مسّ الأصول البعيدة والأسس الغائرة من البناء القرآني .

فهذا فريق يحتج بها على نزول القرآن بالمعنى لا باللفظ ، وأن اللفظ من عند الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ لا ينزل على القلب إلا المعاني ، وهذه مزلقة إلى إنكار أن يكون لفظ القرآن معجزا .

ومنكر هذا النزول المعنوى يضطر إلى تناول النزول على القلب ليبين معدن العقل هو القلب أو الدماغ ، وهو ما يعرض له الفخر الرازى فى تفسيره ، ويورد فى ذلك آراء القدماء والمحدثين والاستدلال لكل رأى .

إلا أن الزمخشرى يدركه التوفيق فيفطن من ذلك إلى خاطرة نفسية دقيقة يكشف بها غبار الموقف ، إذ يعلق قوله تعالى : « بلسان عربى مبين » بالفعل « نزل » ويجعل المعنى هكذا : « نزل باللسان العربى لتنذر به ، لأنه لو نزله باللسان الأعجمى لتجافوا عنه أصلا ، ولقالوا ما نصنع بما لا نفهم ، فيتعذر الانذار به ، وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتُفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلا على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، فقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات ، فإذا ما كُلِّم بلغته التى لُقِّنها أولا ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معانى الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كُلم بغير تلك اللغة ـ وإن كان ماهراً بمعرفتها ـ كان نظره أولا فى ألفاظها ثم فى معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه بلسان عربى مبين » .

فبذلك المنهج النفسى فى فهم حال المتكلم بلغة الأم ، وحال المتكلم بغيرها كشف الزمخشرى ظلمة الموقف ، وهوّن الأمر حتى جعل الاحتجاج بالآية على النزول بالمعنى دون اللفظ يبدو واهنا ضعيفا .

وليس يحتاج إلى فهم الجوانب النفسية بإزاء الآيات التى يثور حولها مثل هذا الخلاف فقط ، بل فى الآية التى لاخلاف فيها مطلقا قد ترفع الملاحظة النفسية إلى أفق باهر السناء ، خليق بذلك الإعجاز الذى تحدى به الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

يقول علماء النفس إن عقدة النقص أو مركب النقص ـ كما يسمونه أحيانا ـ هو الشعور بالنقص فى ناحية من النواحى التى يحاول الشخص بطريقة لا شعورية أن يعوضها بجهود عظيمة يبذلها ليثبت تفوقه فى ناحية أخرى .

فمن كان متفوقا مثلا فى الناحية العقلية ، فإنه يميل إلى الحط من قدر القوة الجسمية ، والجبان غالبا ما يستهزىء بالشجاعة ويصغر من شأنها ، والبخيل يعتقد أن الكريم أخرق أبله غير حازم ، والمنافق يعيب ويستهزىء بالمؤمن ليُخفى ما فى نفسه من مركب النقص ، ويُقهر الشعور بالضعف والقصور .

وعلى ضوء هذا الجانب النفسى نفهم سر قوله تعالى فى وصف المنافقين : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » .

ومن أعراض عقدة النقص قلق مبعثه شعور بالخوف من افتضاح أمره واكتشاف نقصه ، فيتخذ لذلك مسلكا يعوض به نقصه ويخفى به قلقه ، وهذا هو سر الحلف والتأكيد فيما حكاه الله عن المنافقين . فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » .

فى هذه الآية جملة تأكيدات لتعوّض شعورهم بالنقص ولتستر خوفهم من فضيحة أمرهم .

أول تلك التأكيدات قولهم : « نشهد » قال أبو حيان فى تفسيره (المحيط) « نشهد » يجرى مجرى اليمين ، ولذلك تُتلقّى بما يُتلقّى به القسم ، فقالوا : « إنك لرسول الله » .

ثانيها : (إنّ) فى صدر جملة جواب القسم .

ثالثها : (اللام) فى خبر (إن) .

رابعها : الجملة الإسمية .

وراء كل هذه التأكيدات تحصن المنافقون ليخفوا شعورهم بالنقص ، ولذلك قال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فلم تواطىء قلوبهم ألسنتهم ، وهم كاذبون حتى أمام أنفسهم ، وإنما لجئوا إلى الحلف ليتخذوا منه جُنة يستترون بها ، ومسلكا يعوضون به شعورهم بالنقص ، فقال تعالى : « اتخذوا أيمانهم جُنة » .

ومن أعراض عقدة النقص التظاهر بالكمال والبعد عن النقص ، وهذا واضح فى جواب المنافقين للمؤمنين ، قال تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض » فالتهمة هنا الإفساد فى الأرض ، فكان الجواب الطبيعى لرد هذه التهمة أن يقولوا : نحن لا نفسد فى الأرض ، ولكنهم تظاهروا بما هو أسمى من ذلك ، ووصفوا أنفسهم بالكمال والإصلاح ، فضلا عن تبرئهم من الإفساد ، فقالوا فى صيغة التأكيد والحصر : « إنما نحن مصلحون » ولا عمل لنا إلا الإصلاح .

وهكذا كلما عرضنا القرآن على الجوانب النفسية ، ونظرنا إلى سننه من آفاق الحياة الإنسانية ظهرت أسراره وأشرقت أنواره وسحرت آياته واستبدت بالعقول عجائبه وتملكت القلوب محاسن بلاغته .

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ؟

من بحوث معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة

أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى الاستاذ بكلية الشريعة بالازهر

— ٢ —

مصادر الشريعة الإسلامية
وأسباب الاختلاف فيها

القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية ، وكل ما عداهما لا بد من استناده إلى أحدهما .

أسباب الاختلاف التي يشترك فيها الكتاب والسنة :

(ا) الاشتراك اللفظى : اختلافهم فى المراد بالقرء فى آية العدة ـ اختلافهم فى المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » ـ اختلافهم فى قبول شهادة القاذف بعد توبته .

(ب) التردد بين المعنى اللغوى والمعنى العرفى . تحقيق فى ذلك وقانون عام لشهاب الدين القرافى .

(ج) التردد بين الحقيقة والمجاز : اختلافهم فى المراد من قوله تعالى : « أو ينفوا من الأرض» وقوله تعالى : « وثيابك فطهر » وتعليق طريف لابن حزم متصل بهذا .

(د) العموم والخصوص : هل خطاب الذكور فى الشريعة يعم الإناث ـ فصل ممتع لابن حزم فى مخاطبة النساء ، كالرجال ، بكل ما فى الشريعة .

* * *

للشريعة الإسلامية مصدران رئيسيان ، كل حكم فيها لا بد من استناده إلى أحدهما ، إما مباشرة أو بواسطة استناده إلى شىء يستند إلى أحدهما .

وذلك لأنها شريعة إلهية لا مشرع فيها إلا الله، إما بكلامه الذى يبلغه رسوله، وإما بالأحكام التى يقررها أو يبينها الرسول بوحى صادر إليه من الله، فإذا رأيت أصلا يذكر بجانب هذين الأصلين كالإجماع أو القياس أو المصالح أو العقل أو كذا أو كذا، مما اتخذ مصدراً لإثبات حكم، فاعلم أن هذا الأصل مستند فى تقريره والاعتماد عليه إلى الكتاب أو السنة، وكل أصل لا يستند إلى الكتاب أو السنة فلا يعتد به، ولا يكون أصلا من أصول الشريعة الإسلامية.

وعلى ذلك فالطريق الذى سلكه، أو يسلكه، المتعرف لحكم الشريعة الإسلامية فى شىء ما، هو البحث عنه فى كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فإما أن يجده فى أحدهما مباشرة، وإما أن يجد ما يدل عليه فى شىء مستند إليهما من إجماع أو قياس أو عقل أو غير ذلك من الأدلة التى اعتبرت مسْتَمَدة منهما، ومستندة إليهما، غير أن الفهم فى كثير مما جاء به الكتاب الكريم أو السنة النبوية يختلف، لأنهما جاءا باللغة العربية، واللغة العربية لها خصائصها فى الألفاظ والأساليب، ومنها تعدد معانى الألفاظ على سبيل الاشتراك، وترددها أحيانا بين الحقيقة والمجاز، وتصرف العرف فى بعضها ...... إلى غير ذلك.

وتنفرد السنة مع هذا بأنها متفاوتة فى ثبوتها وطرق هذا الثبوت، فتحتاج إلى عناية فى تمييز ما يصلح الاحتجاج به مما لا يصلح.

والأدلة الأخرى المستندة إليهما، بعضها مُنازَعٌ فيه، وكذلك شأن القواعد الأصولية أو الفقهية التى اتُّخِذتْ ضوابط للفهم والاستنباط، فإن كثيرا من هذه وتلك يدخل الخلاف فى أصله أو فى تطبيقه.

وعلى هذا يمكننا أن نَرْجع أسباب الخلاف إلى ما يأتى:

(١) الأسباب التى تتعلق بفهم القرآن السنة.

(٢) الأسباب التى تخص السنة.

(٣) الأسباب التى تتعلق بالقواعد الأصولية أو الفقهية.

(٤) الأسباب التى تتعلق بأدلة التشريع الأصلية غير الكتاب والسنة.

وسبيلنا فى هـذه الدروس أن نتحدث عن هـذه الأقسام إن شاء الله تعالى بالقدر الذى يتسع له الوقت ، مع إيثار ما هو أهم من غيره .

وليس الغرض الاستيعاب ، ولكن فتح المجال أمام الطـلاب ، فعليهم أن يدخلوه بأنفسهم باحثين مستكملين ، وبالله التوفيق .

(١) أسباب الاختلاف التى يشترك فيها الكتاب والسنة :

القرآن الكريم والسنة القولية جاءا باللغة العربية ، وهـذه اللغة كما قلنا لها خصائص فى الوضع والاستعمال :

ففيها ألفاظ مترددة بين معان مختلفة ، إما بسبب تعـدد الوضع - أى أن اللفظ الواحد قـد وضع لأكثر من معنى ، أو التركيب الواحد قـد يفهم بأوجه متعددة من الفهم - وإما لدوران التعبير اللفظى أو التركيبى بين الحقيقة والمجاز ، أو بين المعنى اللغوى والمعنى العرفى .

وقد يعبر بالعام يراد به ظاهره من العموم .

وقد يعبر بالعام يراد به الخاص .

وقد يستفاد المعنى من اللفظ المنطوق ، وقد يستفاد معنى من وراء هـذا المنطوق . . إلى غير ذلك .

وقد عنى علماء الأصول ببيان ذلك ، وبحثوا كلا منه بحثاً دقيقاً ، ووجد بين الباحثين خلاف فى كثير منه ترتب عليه خـلاف فى الفهم والاستنباط ، وتقرير الأحكام الفقهية .

(ا) فمن هذا أن اللغة العربية قد تطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى ، وقد يرد التعبير فيها صالحا لأن يراد به أكثر من معنى ، لذلك لا بد للناظر الذى يصادفه مثل هذا أن يجتهد فى تعرف المعنى المراد ، ويلتمس ما يدل له عليه ويجعله يرجحه .

(١) فمثلا لفظ « القرء » : تطلقه اللغة العربية على كل من الحيض والطهر ، وفى ذلك يقول صاحب القاموس : « والقَرْء - ويضم - الحيض والطهر : ضد »

ونقل البَطَليَوْسيّ عن يعقوب بن السكيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول : أقرأت المرأةُ إذا طَهُرتْ ، وأقرأتْ إذا حاضت .

ومن الأول قول الأعشى الأكبر (واسمه ميمون بن قيس) :

أفى كل عام أنت جاشِمُ غَزْوةٍ تَشُد لأقصاها عزيم عزائكا
مورِّثةٍ مالا وفى الحى رفعةً لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يريد أنه لا يفرغ - بسبب الغزو - للنساء ، فتضيع قروءُهن أى أطهارهن ، لأن الأطهار هى أوقات اتصال الرجال بالنساء .

ومن الثانى قول الراجز :

يا رب ذى ضِغْن علىّ فارِض يُرَى له قرْءٌ كقرء الحائض

وعلى هذا فهو لفظ مشترك بين معنيين ، وقد ورد فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

ولا خلاف بين العلماء فى أن المراد به فى الآية أحد هذين المعنيين ، لا مجموعهما ، ولكنهم اختلفوا فى تعيين المراد منهما ، وقد نقل صاحب « نيل الأوطار » المذاهب فى ذلك عن صاحب البحر إذ يقول :

« فمن أمير المؤمنين على ، وابن مسعود ، وأبى موسى ، والعترة ، والحسن البصرى ، والأوزاعى ، والثورى ، والحسن بن صالح ، وأبى حنيفة وأصحابه : المراد به فى الآية الحِيَض » .

وعن ابن عمر وزيد بن ثابت ، وعائشة ، والصادق ، والباقر ، والإمامية ، والزهرى ، وربيعة ، ومالك ، والشافعى ، وفقهاء المدينة ، ورواية عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه : أنه الأطهار .

قال ابن رشد : والفرق بين المذهبين أن من رأى أنها الأطهار قال : إنه إذا دخلتْ الرجعية فى الحيضة الثالثة لم يكن للزوج عليها رجعة وحلت للأزواج ، ومن رأى أنها الحِيَض لم تحل عنده حتى تنقضى الحيضة الثالثة .

وقد استدل الذين يرونها الأطهار ، بما نقل عن ابن الأنبارى اللغوى المعروف من أن القرء الذى هو الحَيْض يجمع على أقراء لا على قروء ، وعلى ذلك جاء الحديث : « دعى الصلاة أيام أقرائك » .

ومما استدلوا به أيضاً القاعدة التى تقول : إن العدد يُذَكر مع المؤنث ، ويُؤَنَّث مع المذكر كما فى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » ، والحيضة مؤنثة ، والطهر مذكر ، فلو كان المراد الحِيَض لقال : « ثلاث قروء » فلما قال : « ثلاثة قروء » علمنا أنه يعد أشياء مذكرة وهى الأطهار .

ويتعقب البَطَليَوْسى هذا بقوله : « وهذا لا حجة فيه عند أهل النظر ، وإنما لم يكن فيه حجة لأنه لا يُنْكَر أن يكون القرء لفظاً مذكراً يُعْنَى به المؤنث ، ويكون تذكير « ثلاثة » حملا على اللفظ دون المعنى ، كما تقول العرب : جاءنى ثلاثة أشخص وهم يَعنون نساء ، والعرب تحول الكلام تارة على اللفظ ، وتارة على المعنى ، ألا ترى إلى قراءة الفراء : « بلى قد جاءتكِ آياتى فكذبتِ بها » بكسر الكاف والتاء وفتحهما .

واستدل الآخرون بأحاديث فيها التعبير بالحيض فى هذا المقام ، كحديث عائشة : « أمرت بريرة أن تعتد بثلاث حيض » ، وحديثها الآخر : « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » ، وحديث ابن عمر : « عدة الحرة ثلاث حيض ، وعدة الأمة حيضتان » .

ومما تمسك به القائلون بأنها الحيض أن العدة إنما شُرعت لتَبيُّن براءة الرحم ، وإنما يكون هذا التبين بالحيض لا بالطهر .

قال ابن رشد فى كتابه « بداية المجتهد » ، بعد أن ذكر ما يحتج به كل فريق : ولكلا الفريقين احتجاجات طويلة ، ومذهب الحنفية ـ أى القائلين بأنها الحيض ـ أظهر من جهة المعنى ، وحجتهم من جهة المسموع متساوية أو قريب من متساوية (١).

---

(١) بداية المجتهد : ص ٧٤ ج ٢ طبعة صبيح .

(٢) ومثل ذلك ، أنهم اختلفوا : هل للأب أن يعفو عن نصف الصدق فى ابنته البكر إذا طلقت قبل الدخول أو ليس له ذلك .

وسبب اختلافهم هو الاحتمال الذى فى قوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يَعْفون أو يعفوَ الذى بيده عقدة النكاح » .

وذلك أن لفظة « يعفو » تقال فى كلام العرب بمعنى : « يُسْقط » وبمعنى : « يَهَب » كما أن عبارة : « الذى بيده عقدة النكاح » يحتمل أن يكون المراد بها « الولى » ويحتمل أن يكون المراد بها « الزوج » فإذا فُسِّرت « يعفو » بمعنى « يُسقط » فإنها تكون مناسبة للأب ، لأن تركه النصفَ الذى تستحقه ابنته ، إسقاط ، وإذن يكون هو المراد بقوله تعالى « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » .

وهذا قول جماعة منهم : إبراهيم ، وعلقمة ، والحسن ، ومالك ، والشافعى فى القديم .

وقد دعاهم إلى هذا أن الله تعالى قال فى أول الآية : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم » فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب ، ثم قال : « إلا أن يعفون » فذكر النساء ، ثم قال : « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » فهو صنف ثالث ، فلا يرد إلى الزوج المتقدم إلا إذا لم يكن لغيره وجود ، وقد وجد وهو الولى ، فهو المراد .

أما إذا فسر « يعفو » بمعنى « يهب » فإنه حينئذ يكون مناسباً للزوج ، لأنه هو الذى إذا دفع كل المهر ـ وليس عليه إلا نصفه ـ فقد وهب النصف الآخر ، وبذلك يكون هو المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » .

وقد أسند هذا القول إلى على ، وشريح ، وسعيد بن المسيب ، واختاره أبو حنيفة ، والشافعى فى مذهبه الجديد .

وقد روى الدارقطنى عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بنى نصر ،

فطلقها قبل أن يدخل بها ، فأرسل إليها بالصداق كاملا وقال : أنا أحق بالعفو منها - قال الله تعالى : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح »

وأيدوا ذلك بحديث رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ولىّ عقدة النكاح هو الزوج » .

وإذن تكون الآية - على هذا - قد جعلت العفو تارة من الزوجة بأنها تسقط حقها إذا شاءت ، وتارة من الزوج بأنه يهب النصف الآخر لمن طلقها إذا شاء (١) .

فقد تبين أن أساس الخلاف بين المختلفين فى مسألة « القرء » ومسألة « العفو » راجع إلى الاحتمال الذى وجد فى التعبير بلفظ مشترك صالح لأن يراد به أكثر من معنى ، فاحتاج الحمل على أحدهما إلى قرينة تعين عليه وترجحه ، وهذا ما فعله كل من الفريقين .

(٣) ومن ذلك أنهم اختلفوا فى فهم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

وذلك أن هذه الآية قررت عدة أحكام مترتبة على القذف ، ثم جاءت باستثناء ، فالأحكام هى : (١) الجلد المفهوم من قوله تعالى : « فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) وعدم قبول الشهادة المفهوم من قوله تعالى : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » (٣) وكون القاذف فاسقا ، وهو مفهوم من قوله تعالى : « وأولئك هم الفاسقون » وقد جاء الاستثناء بعد هذه الجمل المتعاطفة ، فهل يعود إليها كلها ؟ أو يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ؟ .

فقال شريح القاضى ، وإبراهيم النخعى ، والحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وأبو حنيفة : يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، وبذلك لا تكون الآية مفيدة أن التوبة من القذف ترد للتائب ما كان مُنعه من مركز الشهادة ، بل يظل القاذف بعد التوبة غير مقبول الشهادة .

---

(١) راجع تفسير القرطبي ص ٢٠٦ ج ٣ ، وبداية المجتهد ص ٢٠ ج ٢

وقال جمهور العلماء : يعود الاستثناء إلى كل الجمل ، غير أننا علمنا أن التوبة لا تسقط حقوق العباد ، فلم نُعمل الاستثناء فى استحقاق القاذف الجلد ، ولم نقل بسقوط حد القاذف بتوبته ، فيبقى بعد ذلك : الفسق ورد الشهادة ، وكلاهما يرتفع بتوبة القاذف ، وبذلك تكون الآية دليلا على قبول شهادة القاذف إذا تاب .

ويروى عن الشعبي أنه قال : الاستثناء من الأحكام الثلاثة ، إذا تاب وظهرت توبته ؛ لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق ، لأنه قد صار ممن يُرضَى من الشهداء ، وقد قال الله عز وجل : « وإنى لغفار لمن تاب » الآية (١) .

وقد أيد الفريق الأول مذهبهم بمعنى عقلى : هو أن رد الشهادة من تمام الحد والعقوبة ، فإن الله جعل على القاذف نوعين من العقوبة ، عقوبة بدنية ، وهى الجلد ، وعقوبة أدبية ، وهى الحرمان من مركز الشهادة ، فكما أن التوبة لا ترفع الجلد لأنه حق من حقوق العباد ؛ فكذلك لا ترفع العقوبةَ الأدبية التى هى رد الشهادة ، لهذه العلة نفسها .

ومن الفريق الثانى من قال : تقبل شهادته فى كل شىء إلا فى القذف ، وكذلك من حُدّ فى شىء من الأشياء فلا تجوز شهادته بعد التوبة فيما حُد فيه ، وذلك قول مُطرِّف وابن الماجشون ، وروى العتبى مثله عن أصْبَغ وسحنون من المالكية ، ونقله الوَقار عن مالك (٢) .

وهذا أيضاً تحكيم لمعنى عقلى ، هو أن الذى حُد فى شىء من قذف أو زنا أوخمر أو لعان ، يكون فى شهادته شبهة من حيث تعلق رغبته النفسية ، ولو لم يشعر ، بأن يوجد فى مجتمعه من يحَدّ مثله ، ليخفف ذلك من حزنه على ما أصيب به ، فإن الاشتراك فى المصائب يهونها ، وتلك نظرة تدل على أن فقهاءنا يدخلون فى اعتبارهم هذه المعانى النفسية ، أو الاجتماعية ، وما يشبهها .

وينقد ابن رشد المالكى مذهب الحنفية ومن وافقهم ، فيقول : إن ارتفاع

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٧٩ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) الوقار (كسحاب) لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصرى ـ المصدر السابق وحاشيته ص ١٨٠

الفسق مع استمرار رد الشهادة أمر غير مناسب فى الشرع ، أى خارج عن المعهود فيه ، لأن الفسق متى ارتفع قبلت الشهادة .

ويقول الشعبي لهم : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ويقول الزجاج : ليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته .

ومما يتصل بالخلاف فى ذلك أن الحنفية ـ ويوافقهم على ذلك من المالكية ابن القاسم وأشهب وسُحنون ـ يقولون : إن القاذف يظل مقبول الشهادة حتى يحد ، فإذا حد ردت شهادته أبدا ولو تاب ، أى أن رد الشهادة لا يثبت بمجرد القذف ، ولكن بالحد على القذف ، ومنطقهم فى ذلك أن صلاحيته للشهادة ثابتة من قبل ، فلا تسقط إلا بالحد ، أى بتمام العقوبة ، ومن ناحية أخرى فإن المعنى الذى تسقط به شهادة إنسان هو نزول مستواه الأدبى فى مجتمعه ، وهذا لا يكون إلا بالعقوبة الفعلية ، وهى تمام الحد .

ولكن مخالفيهم لا يرضون عن هذا ، فيقول الشافعى رضى الله عنه : هو قبل أن يحد شرٌّ منه حين حُد ، لأن الحدود كفارات ، فكيف ترد شهادته فى أحسن حاليه دون أخسِّهما ؟ .

ويقول ابن حزم فى هذا المعنى ، وفيما تقدم من تفرقة المالكية بين شهادته فيما حد فيه ، وشهادته فى غير ما حد فيه :

« والعجب من أصحاب أبى حنيفة فى تركهم ظاهر الآية وميلهم إلى رأيهم الفاسد فإن نص الآية إنما يوجب ألا تُقبل شهادته بنص القذف ، وليس فى ذلك أن شهادته لا تسقط إلا بعد أن يحد ، فزادوا فى رأيهم ما ليس فى القرآن ، وخالفوا الآية فى كل حال ، فقبلوا شهادته أفسق ما كان قبل أن يحد ، وردوها بعد أن طهّر بالحد ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام فى كثير من الحدود أن إقامتها كفارة لفاعليها ، وهم أهل القياس بزعمهم ، فهلا قاسوا المحدود فى القذف على المحدود فى السرقة والزنا » ـ أى أن المحدود فى السرقه أو فى الزنا تقبل شهادته ، فالمحدود فى القذف ليس أسوأ حالا منهما ، وإلا لكان القذف بالزنا أشد من ارتكاب

الزنا نفسه - ثم يقول ابن حزم : « وقد شاركهم المالكيون فى بعض ذلك فردوا شهادة المحدود فيما حد فيه وأجازوها فيما لم يحد فيه » (١) .

(ب) وقد يكون الاختلاف راجعاً إلى تردد اللفظ - مفرداً كان أو مركبا - بين أن يكون مقصوداً به المعنى اللغوى ، أو معنى عرفى اشتهر فيه .

مثال ذلك اختلاف ابن القاسم وأشهب من المالكية فيمن قال : « والله لا آكل رءوسا » .

وذلك أن لفظ الرءوس فى اللغة صالح لأن يراد به كلّ الرءوس دون تفرقة بين رءوس الأنعام ورءوس الأسماك مثلا ، ولكن العرف القولىّ جرى على أن لفظة الرءوس إذا ذكرت بجانب الأكل فالمراد بها رءوس الأنعام خاصة ، فلا يكاد الناس يركّبون لفظ (أكلت) مع الرءوس إلا وهم يقصدون رءوس الأنعام بخلاف لفظ (رأيت) ونحوه ، فإنهم يركبونه مع رءوس الأنعام وغيرها .

فالعبارة التى حلف بها الحالف إن حملت على معناها اللغوى ، فإنه يحنث إذا أكل شيئا من رءوس الأنعام أو من رءوس غيرها ، وذلك هو رأى ابن القاسم ، وإن حملت على المعنى العرفى الذى نقل التعبير إليه ؛ فإنه لا يحنث إلا إذا أكل شيئا من رءوس الأنعام خاصة .

وابن القاسم وأشهب لا يختلفان فى أصل القاعدة ، وهى تقديم النقل العرفى على الوضع اللغوى ، ولكنهما يختلفان فى كون هذه العبارة ، وهى : (لا أكلت رءوسا) قد غلب عليها المعنى العرفى حتى أصبح هو المتبادر منها ، فابن القاسم يسلم استعمال أهل العرف لذلك ، ولكنه يقول إن هذا الاستعمال لم يصل إلى الغاية الموجبة للنقل ، وأشهب يرى أنه وصل إلى هذه الغاية ، وفى ذلك يقول شهاب الدين القرافى :

« وضابط النقل أن يصير المنقول إليه هو المتبادر الأول من غير قرينة ، وغيره هو المفتقر إلى القرينة ، فهذا هو مدرك القولين ، فاتفق أشهب وابن القاسم على أن النقل العرفى مقدم على اللغة إذا وجد واختلفا فى وجوده هنا ، فالكلام بينهما فى تحقيق المناط » (٢) .

(١) الإحكام لابن حزم ج ٤ ص ٢٤ (٢) الفروق للقرافى ج ١ ص ١٧٥

وقد بين القرافى هـذه المسألة فى كتابه الفروق ، وأتى لها ببعض الأمثلة التى توضحها وتبين أن العرف القولى يحكم على الوضع اللغوى ، ويعتبر ناسخا له ، ومن قوله فى ذلك : « وبهذا القانون تعتبر جميع الأحكام المترتبة على العوائد ، وهو تحقيق مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف فيه ، بل قد يقع الخلاف فى تحقيقه : هل وجد أم لا ... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام ، فمهما تجدد فى العرف اعتبره ، ومهما سقط أسقطه ، ولا تجمد على المسطور فى الكتب طول عمرك ، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك ، فلا تُجْرِه على عرف بلدك ، واسأله عن عرف بلده ، وأجْرِه عليه ، وأفْتِه به دون عرف بلدك والمقرر فى كتبك ، فهذا هو الحق الواضح . والجمود على المنقولات أبدا ضلالٌ فى الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين ، والسلف الماضين » (١) .

وتالله إنها لوصية ثمينة ، وأساس متين من الأسس التى ينبنى عليها الائتلاف ، وعدم الشطط عند الاختلاف .

* * *

(جـ) ومن أسباب الخلاف فى الفهم : أن الكلمة قد تكون مترددة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، فيحملها مجتهد على معناها الحقيقى ، ومجتهد على معناها المجازى ، مستعيناً كلٌ منهما بما يدله على ما رأى ، ويرجحه له .

ومن أمثلة ذلك :

(١) أنهم اختلفوا فى المقصود من النفى فى قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض » .

منهم من قال : المراد المعنى الحقيقى للنفى ، وهو الإخراج من الأرض ، وذلك أنه لم يجد فى نظره مانعاً من إرادة الحقيقة وهى الأصل الذى يصار إليه ويترجح المرادُ من الألفاظ به حين لا تصرف عنه قرينة ، فجعل إخراج المفسد المحارب من الأرض التى ارتكب فيها جرائمه ، عقوبة من العقوبات ، ورآها عقوبة جرت

(١) المصدر نفسه ص ١٧٦ ، ١٧٧

بمثلها عادة الشريعة وورد الحديث بها فى مثل « وتغريب عام » وأشار إليها القرآن فى مثل قوله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم » حيث سوى بين النفى والقتل ، ثم هى تشبه عقوبة الضرب فى أنها عقوبة معتادة معروفة ، فلا مانع إذن من حمل اللفظ على معناه الحقيقى ، وإرادة هذه العقوبة ، وهذا ما قال به جمهور الفقهاء .

أما الحنفية فقد رأوا أن هناك مايصرف عن إرادة المعنى الحقيقى ، واعتمدوا فى ذلك على معنى عقلى ، وذلك أن النفى إن أريد به الإخراج من الأرض ، أى من جيمها ، لم يكن ذلك ممكنا إلا بالقتل ، والقتل عقوبة تقدمت فلا يكرر ذكرها ، وإن أريد به الإخراج من أرض الإسلام إلى أرض الكفر فلا يصح ، لأنه لايجوز الزج بالمسلم إلى دار الكفر ، وقد وجدنا الشريعة تنهى عن إقامة الحدود إذا ضرب المسلمون فى أرض العدو ، خوفا من أن تلحق المحدود أنفة فيهرب إلى أرض الكفر ويفتن فى دينه ، وإن أريد بالأرض أرض أخرى إسلامية غير التى ارتكب فيها جريمته ؛ لم يتحقق الغرض المقصود من كف أذاه عن المسلمين ، إذ هو إنما ينتقل من وسط إسلامى إلى وسط إسلامى آخر ، ومن هنا قالوا : المراد بالنفى معناه المجازى وهو السجن ، لأن فيه عقوبته وكف أذاه ، وهو يشبه النفى فى أن كلا منهما إبعاد عن المجتمع ، وإقصاء المجرم عنه ، والعرب تستعمل النفى بمعنى السجن ، قال بعض الشعراء يذكر حاله فى السجن :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة ... عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا !!

(٢) اختلفوا فى فهم قوله تعالى : « وثيابك فطهر » هل يدل على وجوب إزالة النجاسة أولا دلالة له على ذلك ؟ وخلاصة الأمر فى ذلك أن العلماء متفقون على أن إزالة النجاسة مأمور بها شرعا لورود أدلة كثيرة غير هذه الآية تفيد ذلك ، ولكنهم اختلفوا : هل ذلك الأمر الوارد فى الأدلة على سبيل الوجوب ، أو على سبيل الندب الذى يعبر عنه أحيانا بكونه « سنة مؤكدة » .

فبالأول يقول جمهرة العلماء.

وبالثانى يقول مالك وأصحابه.

وقد وقعت المناقشة فى هذا الفرع بين المختلفين، وكان من عناصرها هذه الآية: فمن حمل التعبير فيها على المعنى الحقيق للتطهير والثياب المحسوسين، رأى فيها دليلا على وجوب إزالة النجاسة، أما المالكية فيقولون: إن هذا تعبير على سبيل الكناية يراد به تطهير القلب، فهو كما يقال: فلان طاهر الذيل، كناية عن العفة، وفلان كثير الرماد: كناية عن الكرم، ونحو ذلك، وعلى هذا فلا دخل له فى الموضوع، ولا حجة به.

ومما نذكره على سبيل الطرافة ـ لما فيه من تصوير شدة بعض الفقهاء أحيانا ـ ما علق به ابن حزم الظاهرى ـ وهو بصدد الكلام على ورود المجاز أو عدم وروده فى لسان الشرع ـ إذ يقول:

«... وقد ذكر رجل من المالكيين ـ يلقب «خُوَيْزِ مَنْدَاذ» (١) ـ أن للحجارة عقلا، ولعل تمييزه يقرب من تمييزها! ويقول: إن من الدليل على أنها تعقل قوله تعالى: «وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله» فدل ذلك على أن لها عقلا ... أو كلاما هذا معناه ... وأعجب العجب أن هؤلاء القوم يأتون إلى الألفاظ اللغوية فينقلونها عن موضوعها بغير دليل فيقولون: معنى قوله تعالى «وثيابك فطهر» ليس الثياب المعهودة، وإنما هو القلب، ثم يأتون إلى ألفاظ قام البرهان الضرورى على أنها منقولة عن موضوعها فى اللغة إلى معنى آخر، وهو إيقاع الخشية على الحجارة، فيقولون: ليس هذا اللفظ منقولا عن موضوعه، مكابرة للعيان، وسعياً فى طمس نور الحق، وإقراراً لعيون الملحدين الكائدين لهذا الدين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وبالله تعالى التوفيق. اهـ كلام ابن حزم.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المالكى الأصولى من أهل البصرة، توفى فى حدود الأربعمائة ـ اقرأ الإحكام لابن حزم وحواشيه ص ٣٣ ج ٤ وما بعدها.

(د) ومن أسباب الخلاف فى فهم القرآن والسنة أيضا : أن اللغة العربية قد يرد فيها العام مراداً به عمومه الشامل لكل ما يطلق عليه اللفظ ، وقد يرد فيها العام مراداً به بعض ما يدل عليه وهو العام المخصوص .

(١) وقد يكون ذلك واضحا لا يخفى على أحد ، فلا يُختلف فى معناه مثل قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فهذا من العام المراد به ظاهره ولا خصوص فيه ، ومثله قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » أما قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » فهو بحسب اللفظ عام ، ولكن يراد به خصوص المطيقين غير ذوى الأعذار ؛ ومثله قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » .

(٢) وقد يكون المراد من اللفظ العام خفياً فلا يُدرى هل يُحكم بعمومه أو بخصوصه ، فمن الناس من يجريه على العموم حتى يتبين أنه مخصوص ، ومن الناس من يقول هو خاص حتى يتبين عمومه ، ومن الناس من يوجب البحث قبل الحكم بأنه عام أو خاص . . . الخ .

(٣) ومما يتصل بذلك اختلافهم فيما إذا ورد الأمر باللفظ الموضوع للذكور هل يكون خاصا بالذكور دون الإناث حتى يقوم دليل على دخول الإناث فيه ؟ أو يدخل فيه الإناث من أول الأمر حتى يأتى دليل على أنهن غير داخلات ؟ .

فالذين يقولون بالأول يعتمدون فى قولهم هذا على أن اللغة فرقت بين الحديث عن الذكور والحديث عن الإناث ، وجعلت لكلٍّ لفظا خاصا به ، فكما لا يجوز أن نفهم من الحديث عن النساء باللفظ الموضوع لهن شموله الرجال بنفس اللفظ ؛ لا يجوز كذلك أن نفهم من الحديث عن الرجال باللفظ الموضوع لهم شموله للنساء بنفس اللفظ ، ولكن نلتمس شمول الحكم للنساء من أدلة أخرى .

والذين يقولون يدخل الإناث فيما ذكر عن الرجال حتى يتبين أنهن غير داخلات ، يعتمدون فى ذلك على أن اللغة العربية إذا اجتمع الرجال والنساء غلبت

الرجال وتحدثت عن الفريقين باللفظ الخاص بالرجال ، والشريعة عامة والرسول مبعوث بها للرجال والنساء جميعا ، فالأصل فى كل خطاب بها أن يوجه إلى سائر المكلفين والمكلفات ، وإن جاء الخطاب للرجال خاصة ، لكن إذا تبين أن النساء غير داخلات فى هذا الخطاب فاللفظ حينئذ خاص .

وابن حزم من القائلين بالثانى :

ويترتب على هذا كثير من الاختلاف فى الفروع .

ومن كلام ابن حزم فى ذلك وهو يناقش مخالفيه(١) « فإن قالوا : فأوجبوا عليهن النّفار للتفقه فى الدين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » - أى بعموم قوله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » . وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ونحو ذلك من الخطاب الموجه إلى الرجال - « قلنا - وبالله تعالى التوفيق : نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال ، وفَرْضٌ على كل امرأةٍ التفقهُ فى كل ما يخصها كما ذلك فرض على الرجال : ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم وما يحرم من المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك كالرجال ولا فرق ، ولو تفقهت امرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك : فهؤلاء أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وصواحبه ، قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك ، فنهن سوى أزواجه عليه السلام : أم سليم ، وأم حرام ، وأم عطية ، وأم كرز ، وأم شريك وأم الدرداء ، وأم خالد ، وأسماء بنت أبى بكر ، وفاطمة بنت قيس ، وبسرة ، وغيرهن ، ثم فى التابعين عمرة وأم الحسن ، والرباب وفاطمة بنت المنذر وهند الفراسية - أو القرشية - وحبيبة بنت ميسرة ، وحفصه بنت سيرين ، وغيرهن ، ولا خلاف بين أحد من المسلمين قاطبة فى أنهن مخاطبات بقوله تعالى : « وأقيموا

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ٨١ ج ٣ وما بعدها .

الصلاة وآتوا الزكاة » و « من شهد منكم الشهر فليصمه » و « ذروا ما بقى من الربا » و « حرمت عليكم الميتة والدم » و « الذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم » و « وأشهدوا إذا تبايعتم » و « لله على الناس حج البيت » و « أفيضوا من حيث أفاض الناس » و « هل أنتم منتهون » و « ابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح » وسائر أوامر القرآن ، وإنما لجأ من لجأ هذه المضايق فى مسألة أو مسألتين ، تحكموا فيهما وقلدوا فاضطروا إلى مكابرة العيان ، ودعوى خروج النساء من الخطاب بلا دليل . . . وقد قال الله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » وقال أيضاً : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فنادى عليه السلام بطون قريش بطناً بطنا ، ثم قال يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ! فأدخل النساء مع الرجال فى الخطاب الوارد كما ترى . . وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت : « كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان يوم من ذلك ، والجارية تمشطنى ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس » فقلت للجارية : استأخرى عنى ، قالت إنما دعا الرجال ولم يدع النساء ، فقلت : إنى من الناس » .

« . . . واحتج بعضهم بقوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » فالجواب وبالله تعالى التوفيق . إنه لا ينكر التأكيد والتكرار ، وقد ذكر الله تعالى الملائكة ثم قال : « وجبريل وميكال » وهما من الملائكة ، ويكفى من هذا ما قدمنا من أوامر القرآن المتفق على أن المراد بها الرجال والنساء معا ، بغير نص آخر ، ولا بيان زائد إلا اللفظ . وكذلك قوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » ، بيان جلى على أن المراد بذلك الرجال والنساء معاً ، لأنه لا يجوز فى اللغة أن يخاطب الرجال فقط ، بأن يقال لهم : « من رجالكم » . وإنما كان يقال من أنفسكم . وبالله تعالى التوفيق .

تعليل خاطئ ليسر الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

ورد فى كلام بعض شرّاح الأحاديث مايفيد أن علة يسر الإسلام وسهولته ؛ هى أن الله تعالى علم ضعف المسلمين وقلة احتمالهم للتكاليف والمشاق فرفع عنهم الآصار والأغلال التى كانت على من قبلهم بظلمهم وبغيهم ، والتى كانوا يحتملونها ويقدرون عليها لقوّتهم وشدة أيْدهم .

فهل هذا صحيح ؟ هل علة يسر الإسلام وسهولته حقاً ما علمه الله تعالى من ضعف المسلمين ضعفا نسبياً خِلقياً عن الذين سبقوهم ؟ وهل كان اليهود والنصارى أقوى من المسلمين ؟ وهل يصح أن نبث فى المسلمين هذا الشعور بالضعف ولا نشعرهم بالقوة ؟ وهل يصح أن نغفل عما يكون لهذا من الأثر السىء فى نفوسهم ، لأن من يشعر فى نفسه بالضعف يرضخ للذلة والمهانة ، فتستهين بهم الأمم وتطمع فى ضعفهم ، وتستولى على بلادهم وأراضيهم ، ولا يجدون إلا أن يرضخوا لحكمهم لأن دينهم بمقتضى ذلك الشرح الخاطىء يضعهم فى صف الأمم الضعيفة ، وحكم الفطرة والتاريخ أن يرضخ الضعاف للأقوياء ، لأن الضعاف يعجزون عن مجاراتهم فى القوة ، فلا يكون لهم مكان فى التاريخ إلا صفوف الأمم المتخلفة .

هل يصح شىء من هذا ؟ اللهم لا . ويا شقاوة أمة ينتشر بين أفرادها هذا الشعور بالضعف ، وقد كان يكفينا ما يشعر به عامتنا وأشباههم خطأً من أن لغيرنا الدنيا ولنا الآخرة ، فقد ضيع علينا هذا الشعور الخاطىء لعامتنا وأشباههم دنيانا ،

وما الدنيا إلا قنطرة الآخرة ، فلما ضاعت بهذا دنيانا ضاعت معها أخرانا أيضا .
فلا يصح أن نزيد الطين بلة بتوجيه يسر الإسلام ذلك التوجيه الخاطىء .

ولا شك أنا إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا الأمر في ذلك على العكس بالنسبة للمسلمين ومن سبقهم من اليهود والنصارى ، فلنرجع إلى التاريخ عند نشأة الإسلام بين عرب الجاهلية ، ونشأة اليهودية بين بنى إسرائيل فى مصر وصحراء سينا ، ونشأة النصرانية فى فلسطين وحكامها من الرومان .

لقد نشأ الإسلام بين أمة لم تكن لها صناعة إلا الحرب ، تعيش فى صحرائها بعيدة عن تسلط الدول المجاورة لها عليها ، اللهم إلا على بعض أطراف من جزيرة العرب ، كانت فيها دويلات عربية ، مثل دولة المناذرة بالعراق ، ودولة الغساسنة بالشام ، وكان لدولة الفرس شيء من النفوذ فى الدولة الأولى ، وللرومان شيء من النفوذ فى الدولة الثانية ، ولكنها كانت على كل حال دولا لها ملوكها من العرب ، ولهم عز الملوك وسطوتهم وسيطرتهم ، وكانوا ينظرون إلى ملوك الفرس والرومان نظر الند للند ، لأنه كان من ورائهم أمة عزيزة الجانب ، كثيرة العدد ، مشهورة بالقوة والشجاعة ، وكان كل من ملوك الفرس والرومان يتجه إليهم فى الحروب المتواصلة بينهم ، فيستعين ملوك الفرس بملوك المناذرة ومن إليهم من العرب فى العراق وما جاوره من بلاد العرب فى الجنوب ، ويستعين ملوك الرومان بملوك الغساسنة فى الشام وما جاوره من بلاد العرب فى الشمال ، فتشترك العرب فى تلك الحروب مع أمتى الفرس والروم ، وتقف جيوشها بجانب جيوشهما فى الحرب ، وهذا إلى تلك الحروب الداخلية التى كانت لا تنقطع بين قبائل العرب ، وجعلت كل فرد فى أمة العرب بطل حرب .

أما اليهودية فقد نشأت أولا فى مصر بين بنى إسرائيل ، وكانوا يعيشون فيها غرباء لا حول لهم ولا قوة ، قد استبد بهم فرعون واستعبدهم ، وسخرهم فى الأعمال التى كان المصريون يترفعون عن الاشتغال بها ، ثم طغى وبغى عليهم وبالغ فى الطغيان والبغى ، كما قال تعالى فى الآية - ٣ - من سورة القصص : « إنَّ فرعونَ علا فى الأرض

وجعلَ أهلها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهم يذبِّحُ أبناءهمْ ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » فهذه الطائفة التي كان يستضعفها ويظلمها إلى ذلك الحد - حد قتل الأبناء واستحياء النساء - هي طائفة بني إسرائيل ، فأرسل الله تعالى إليها موسى عليه السلام لينقذها من هذا الذل ، ويخلصها من حكم فرعون الظالم ، وينشىء لها دولة صغيرة في غير مصر ، لأنها لا تقوى أن تتغلب على المصريين ، وقد بلغوا ما بلغوا من استعبادهم لها ، واستبدادهم بأفرادها ، وظلمهم لهم إلى ذلك الحد السابق ، فطلب موسى عليه السلام من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل لينشىء لهم هذه الدولة الصغيرة ، فأبى فرعون أن يرسلهم معه ، وأبى إلا أن يبقوا تحت حكمه في ذلك الضعف ، يقاسون فيه مايقاسون من ضروب الذل ، ويلاقون فيه ما يلاقون من أنواع المهانة ، فلم يجد موسى عليه السلام إلا أن يهرب بهم إلى سينا ، وقد تبعهم فرعون ليردهم إلى مصر ، فأنجاهم الله منه بمعجزة من معجزاته ، لا بقوة منهم استعملوها في الدفاع عن أنفسهم ، لأنهم لم يكن لهم في تلك الحال التي قاسوا فيها ما قاسوا قوة ولا حول ، ولكنهم لم يكادوا يصلون إلى سينا حتى شعروا بعجزهم عن إنشاء هذه الدولة الصغيرة ، وإخراج من كان فيها من أهلها ، وكان موسى عليه السلام قد بعث منهم إثني عشر نقيبا ليتعرفوا عليها قبل أن يسيروا لفتحها ، كما قال تعالى في الآية - ١٢ - من سورة المائدة : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم إثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم » الآية - فلما وصلوا إليها وشاهدوا أهلها أدركهم الجزع والفزع ، ونسوا ميثاق الله عليهم ووعده بفتحها لهم ، وقوله لهم (إني معكم) ومن يكن الله تعالى معه فلا غالب له وإن بلغ في القوة مابلغ ، لأن قوة الله أقوى من كل قوى ، وهو واهب القوة للأقوياء فلا يمكن أن تغلبه قوتهم وهو الذي وهبها لهم ، فنسوا كل هذا ، وأخذوا حين رجعوا إلى قومهم يهولون لهم في أمر من شاهدوهم في الأرض التي وعدها الله تعالى لهم ، فزادوهم ضعفا على ضعفهم ، حتى خارت نفوسهم ، وأدركهم من الجبن ما أدركهم ، وقد أخذ موسى عليه السلام يذكرهم بوعد الله تعالى لهم ، وبما كان له

من نعم عليهم ، ليبدل ضعفهم إلى قوة ، وجبنهم إلى شجاعة ، ويأسهم الى أمل ، كما حكى الله تعالى عنه فى سورة المائدة .

ولكنه يئس منهم بعد أن أظهروا هذا الضعف البالغ ، وكان أن عاقبهم الله تعالى بتحريم هذه الأرض عليهم أربعين سنة ، حتى يذهب ذلك الجيل الذى نشأ فى ظل الاستعباد والاستبداد ، وأرهقه ظلم فرعون وطغيانه فيه ، وينشأ جيل آخر لم ينشأ فى ظل الاستعباد والاستبداد ، فيمكنه أن يقوم بفتح هذه البلاد ، كما قال تعالى بعد الآيات السابقة : « قال فإنها محرَّمةٌ عليهمْ أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

وأما النصرانية فقد نشأت نشأة أضعف من نشأة اليهودية ، إذ لم يدن بها على عهد عيسى عليه الصلام إلا أفراد قلائل من بنى إسرائيل ، وكان بنو إسرائيل فى ذلك الوقت واقعين تحت حكم الرومان ، فكان أولئك الأفراد الذين دانوا بالنصرانية ضعافا كل الضعف ، لأنهم كانوا من شعب مستضعف بحكم أجنبى ، وكان ذلك الشعب يضطهدهم وينابذهم العداء ، ويستعين عليهم بذلك الحاكم الأجنبى ، حتى اضطرهم إلى مداراته اتقاء لغضبه ، وقد سألوا عيسى عليه السلام عما يفعلونه مع قيصر الرومان ، فقال : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولهذا كانت النصرانية شريعة زهد فى الدنيا ، لأنها لم يكن لها أمل مع قلة من دان بها فى دنيا تقيمها ، تتغلب فيها أولا على ذلك الشعب المحكوم بحكم أجنبى ، ثم تتغلب فيها ثانيا على ذلك الحكم وأنى لها هذا ولم يدن بها إلا أفراد ضعاف قلائل ، وملك الرومان قد شمل ما لا يعد من البلاد والأقطار فى ذلك الوقت ، فانتهى أمرهم مع عيسى عليه السلام بتسليمه لأعدائهم ، وكان الذى دل عليه أعداءهم واحدا منهم ، ولا نهاية أضعف من هذه النهاية ، ولا أتباع أضعف من أولئك الأتباع الذين سلموا فى نبيهم ، ولم يتحرك لنصرته واحد منهم ، بل كان واحد منهم هو الذى دل عليه أعداءهم .

ولنعد إلى المسلمين الذين يقال إن الله تعالى علم ضعفهم فيسر لهم شريعتهم ،

ورفع عنهم الآصار التى كانت على من قبلهم لقوتهم ، فإن الله تعالى لم يختَرهم لإنشاء ملك صغير فى بقعة من الأرض كما اختار بنى إسرائيل ، بل اختارهم ليستخلفهم فى الأرض جميعها ، وليكون لهم فيها ملك كبير يشمل أكثر بقاع الأرض كما قال تعالى فى الآية - ٥٥ - من سوره النور : (وعد الله الذين آمنوا منكمْ وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنّهمْ فى الأرضِ كما استخلف الذين مِنْ قبلهم) الآية - فكانوا عند وعد الله تعالى لهم ، لم يهنوا ولم يضعفوا فى يوم من الأيام ، ولم يجبنوا عن القتال حينما ندبوا له كما جبن بنو إسرائيل ، بل كان أن قام النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر يستشيرهم فى القتـال ، فقام المقداد بن الأسود من المهاجرين فقال : يا رسول الله ، امض لمـا أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنّا هـٰهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد - موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا جنوب المدينة الغربى - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . وقام سعد بن معاذ من الأنصار فقال : قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لمـا أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك ، وما نكره أن تلقى العدو بنا غدا إنا لـصُبُر عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر على بركة الله .

فيالله لهذه القوة التى لا نظير لها ، والتى لم تكن تفوقها قوة أرضية فى ذلك الوقت ، لقد أخذت تقود الإسلام من نصر إلى نصر ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد دان له جميع بلاد العرب ، ثم قام خلفاؤه من بعده فساروا فى سبيله ، وقد تحرش بهم ملوك الفرس والروم حينما رأوهم قد قضوا على ما كان لهم من النفوذ السابق فى بلاد العرب ، فلم يضعفوا أمام تحرشهم بهم ، بل قابلوا ما كان لهم من قوة العَدَد والعُدَد بقوة الإيمـان ، فغلبوهم بهذه القوة التى لا تغلب ، وقضوا على ملك الفرس فى الشرق ، واستولوا على جميع البلاد الشرقية

التى كان الروم يستولون عليها ، من الشام ، إلى مصر ، إلى جميع بلاد المغرب ، ثم أخذوا يغزونهم فى عقر دارهم ، ويستولون على بعض بلاد أوربا من الأندلس وغيره ، حتى كان لهم ما وعدهم الله به من الخلافة فى الأرض ، وانتشر الإسلام فى جميع البقاع ، فعرفه القاصى والدانى من سكان الأرض ، وبهر نوره جميع أهل الأديان ، وصارت له قوة مادية وأدبيـة يحسب الآن فى سياسة الدول حسابها ، وسيكون الفوز بإذن الله فى النهاية لها .

فما هو إذن التعليل الصحيح ليسر الإسلام ؟

والجواب إن الإسلام جاء دينا وسطا بين الشدة واللين ، لأنه دين أريد به أن يكون صالحا لكل الناس ، ملائما لكل زمان ومكان ، ليكون خاتمة الشرائع السماوية ، وينتهى به التشريع الإلهى ، فلابد أن يكون ملائما لكل الفطر ، داخلا فى حدود الطاقة البشرية للأفراد ، وليس لهذا قياس إلا أن يقف عند ذلك الحد الوسط ، فلا يسرف فى جانب الشدة حتى يخرج عن حدود الطاقة ، ويكون عسراً لا يسراً ، ولا يسرف فى جانب اللين حتى لا يكون تكليفاً ، بل يكون إباحة لا تكليف فيها .

والشرائع إنما تقاس بمقدار صلاحيتها للناس فى ذاتها ، لأن درجاتها فى الرقى تابعة لمقـــدار صلاحيتها ، فكلما زاد مقدار صلاحيتها زاد مقدارها فى الرقى ، ولا شك أن الشريعة الإسلامية قد بلغت الغاية فى هذه الصلاحية ، لأنها جاءت وسطا فى تكاليفها ، فقربت من كل الفطر البشرية على اختلافها ، وصارت فى طاقة كل فرد من غير إرهاق وعنت : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

في النقد الأدبي :

مستقبل الشعر

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى

المدرس بالأزهر

— ٢ —

شعراؤنا لا يقرءون ، هذه هي المشكلة الخطيرة في حياتنا الأدبية ، ولست أعنى مجرد القراءة ، ولا القراءة التافهة ، وإنما أعنى القراءة التي تعين على تقويم اللسان ، ونصاعة الأسلوب ، والسعة في التعبير والتصوير ، ولن تكون هذه القراءة التي يغرم بها المتطلعون للفن عندنا وسيلة إلى شيء من ذلك ، إن الحياة تعجلهم ، والرغبة الملحة في الصيت العاجل تعوقهم عن الجد والمثابرة والدءوب والصبر الطويل ، المطالعة والدرس ، والاستظهار والهضم ، وحسن التخير ، ومنهم ذو الرأى الفائل ، والعمل الفاشل ، والتفكير العجيب ، مما يصرفهم عن المنابع الثرة ، والأصول القويمة التي تعمل في تكوين الملكة ، وتساعد على تربية الذوق ، وتوصل إلى الغاية .

قلت - مرة - لبعض أولئك : رحم الله أياما مضت ، ما عدنا نأمل أن نرى أمثال فلان وفلان - وعددت له جماعة من أصحاب الآداب الرفيعة ، والأساليب العالية - فقال : لا أمل في عودة هؤلاء وأمثالهم ، فكأنه رأى الارتياح باديا على وجهى إذ وافقنى على امتداح من ذكرت من الأدباء ، فأردف يقول : لا أمل في عودتهم لأن النثر والشعر يتقدمان بخطى فسيحة ، وعودة أمثال هؤلاء نكسة لا نرضاها ولا نأملها ، ولا نستريح لها ، فإذا كان هذا رأيهم في هذه الآداب

فما أرى أنهم يحاولون أن ينسجوا على منوال أسلافهم ، وأن يقتدوا بهم فيسلكوا الطريق التى سلكوا ويستعينوا بالوسائل التى استعانوا بها ، على أن الذين يعترفون لهؤلاء بالفضل والتبريز يستهينون بالاطلاع على متخير الآداب ، ولا سيما الآداب العربية القديمة ، فرأى غير قليل من عشاق التجديد أن هـذا الآداب العربية زائفة وبهرج لا وزن له ، آداب خالية من الخيال الممتع ، والتحليق المثير ، والمعانى المرقصة حتى لينادى أديب كبير - أو على الأقل جعله طول مكثه فى مغانى الأدب كبيرا - فيقول فى غير تورع ولا حياء فى كتاب ينشره على النـاس باسم الأدب : (الأدب العربى هباء كله ، لا يغنى عن الناس شيئاً ، لأن ألف سنة تحول بيننا وبين أعلامه والأفذاذ من رجاله ، فصلتنا بهذا الأدب مقطوعة أو كالمقطوعة).

ومهما يكن من شىء ، فإن جمهرة المتأدبين فى أيام الناس هذه يطلبون الشهرة ، ويغفلون عن وسائلها ، وما عرفوا أنه لا يمكن أن تسمح الأيام بأديب فذ حتى يعـانى من المصاعب فى الدرس والتحصيل ما يعيا بحمله الوادعون الكسالى المترفون ، إننى ما قرأت ترجمـة شاعر كبير ، أو كاتب خطير إلا رأيته صاحب ثقافة عميقة ، واطلاع واسع ، وثروة ضخمة من الشعر والنثر يدخرها فى صدره . ويطول بنا الحديث لو أخذنا فى ضرب الأمثال ، فلنشر إلى ثقافة أبى العلاء المعرى ، وإلى ثقافة أبى الطيب المتنبى الذى وُجِّه إليه هذا السؤال من عالم كبير : (كم لنـا من الجموع على وزان فِعلى ؟) فأفكر المتنبى قليلا ، ثم قال : ثلاثة . قال السائل : فغبرت دهرا طويلا أبحث لها عن رابع فلم أجد .

وقد روى المقرى فى نفح الطيب عن ابن زيدون الشاعر الأندلسى الكبير : « أن ابنته توفيت وبعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل : إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد » قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبارة والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » إلى أن قال بعـد أن وازن بينه وبين واصل بن عطاء فى تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول فى حقه : « أقل ما كان فى تلك الجنازة - وهو

وزير ـ ألف رئيس ممن يتمين أن يتشكر له ، ويضطر إلى ذلك فيحتاج فى ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير للغاية ، لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده » .

ولست أقول إن سعة الاطلاع ، وكثرة القراءة تخرج شاعراً أو أديبا ، ولكن إذا وافقها الطبع الموهوب ، والاستعداد الفطرى ، كانت من أكبر العون على إنتاج أدب خالد ، أما إذا وجد الطبع وصادف كسلا عقليا ، فإن القريحة لا تجد الوسائل التى تسعفها عند ما تحاول أن تفيض ، وليس من شك فى أن اللغة أداة الإبانة ، ووسيلة الأداء ، وكلما اتسع محصول الأديب من مفرداتها وتراكيبها ، أدى خواطره وأفكاره أحسن أداء ، وصاغ فنه أقوم صياغة ، وأظهرها فى أروع معرض ، وشتان بين أديب يسرح بخاطره فى حقل فسيح من أساليب الكلام ، ويستطيع أن يميز بين ما يأخذ وما يدع ، وآخر تواتيه الفكرة فيعوزه حسن الأداء ، ويضيق أمامه مجال التعبير .

وإذا كان المتأدبون ينعمون بهذا الكسل المترف ، ويعزفون عن القراءة والدرس ، ويستثقلون الآداب القديمة ، فإن جناية مناهجنا ، وسلوكنا فى التدريس لا تقل عن جنايتهم على أنفسهم ، وذلك أن آخر ما تفكر فيه فى معاهدنا ومدارسنا ، بل وجامعاتنا ، هو النصوص ، والإكثار منها ، وحمل الناشئة على استظهارها ودراستها دراسة مستنيرة واعية هاضمة ، والمعلمون يعرفون معنى ما أقول ، ولا يستطيع مكابر منهم أن ينكر أن درس المحفوظات لا يأخذ من العناية ما هو جدير به .

وأما أنا ، فإنى أعرف من إهمال الطلاب ، وإهمال أساتذتهم فى هذا الشأن ما يتضاءل دونه كل خيال .

هذه واحدة . . وأما الثانية فهى اندفاع كثير من شعرائنا وراء المذاهب الغربية ، يتمجدون بها ، ويتمذهبون ، ويفاخرون ، ويحاولون أن يكونوا نماذج لهذه المذاهب ، والخطب فى ذلك جليل ، فإن شعراءنا المحدثين الذين جعلوا

يعيبون شوقياً وحافظاً ومن إليهما بأنهم مقلدون أو على حـــد تعبير بعضهم (بحترون) لأنهم أطالوا النظر فى الأدب العربى ، وحافظوا على عمود الشعر ، هؤلاء الشعراء ذهبوا يقلدون — وبغير تبصر — الأدب الغربى فى اتجاهاته ، وأخيلته ، ومعانيه ، حتى لاحظ بعض النقاد أن حركات التجديد التى نشأت فى الأدب العربى المعاصر إنما تستمد فى ـ الغالب ـ وحيها من الآداب الأجنبية .

ويتجلى لنا هذا التقليد الرائع فى سلوك شعرائنا حيال المذاهب الأدبية القريبة ، فإن لهذه المذاهب حدودها ورسومها ، ومقدماتها ونتائجها ، فماذا صنع هؤلاء المجددون ؟ . نظروا فى هذه المذاهب نظرات عابرة ، وراحوا يقلدونها ، ويدعون أنهم يصدرون عنها ، دون أن يتعمقوا فهم أسرارها ، واكتناه مراميها ، وأكثرهم لم يفهم عن هذه المذاهب شيئاً ، أو فهم منها الجانب الردىء ، ولكن كيف يصل إلى قمة الشهرة والخلود ، وهو لا يدين لمذهب من تلك المذاهب ، وقد ظهر فى المفكرين الغربيين من ينكر هذه المدارس كلها ، ويعتبرها قيوداً للفن والفكر ، ويرى أن كل أديب ينبغى أن يسبح فى بركة نفسه ، وأن يغرد على الأغصان التى يطيب له التغريد عليها ، كما يرى أن من الأسر والإرهاق للأديب أن يدور حول غيره ، غير منطلق كما يرضى الأدب . فما أشبه هذه المدارس الأدبية بأقفاص للعصافير (١) .

وعلى الرغم من ذلك فقد أبى شعراؤنا ولا سيما الناشئون منهم إلا أن يندفعوا وراء هذه المذاهب ويكونوا من سدنتها ، ويرون أن السجن فى أقفاص مذهب غربى نخر لا يعد له الانطلاق فى الآفاق الفسيحة من طبيعة النفس ومواهبها .

على أن الداء الدوى أن فهمهم أو بالحرى فهم أكثرهم لهذه المذاهب ـ كما أسلفت ـ ناقص مبتور ، ولنأخذ ـ مثلا ـ الرمزية ، نقرأ عن أصلها وحقيقتها ، وما كان يعنيه أصحابها الأولون منها ، فنجد أنها مذهب يعتبر الشعر ما انبعث من قرارة النفس ، ورفع إلى ذروة السماء وكان موسيقيا قبل كل شىء ، ونقرأ بعض

(١) مجلة الأديب عدد سبتمبر سنة ١٩٥٠ ص ١٨ .

القصائد الرمزية المترجمة كقصيدة (البعث) لزعيم الرمزية فى فرنسا (استيفان مالارميه) وكقصيدة (الغراب) للشاعر (إدجار ألان پو) فنجد فيها جمالا وروعة ، وعمقا فى التفكير ، وصدقا فى الشعور ، ونحس بروعة الإيحاء ونفاذه ، ثم نكر راجعين لنقرأ لشعراء الرمزية عندنا ، فنجد غموضاً والتواء ، وتطالعنا « أفكار مهوشة مضطربة ، فى رؤوس أحب أصحابها التعبير عن أفكارهم بالشعر ، ولم يؤتوا ملكته ، ولا أعدوا له عدته ، ولم يعطهم الله شعور الشاعر ولطف حسه ، وصفاء نفسه ، فاستعاضوا عن ذلك بالانتماء إلى المذهب الرمزى ، ولا يكلف ذلك من يريد إلا أن يكتب فى رأس قصيدته ... أو مصيبته التى يحب أن ينزلها بالقراء كلمة (من الشعر الرمزى) وأن يلقى صحفياً أحمق ينشرها له !

وكل الذى قرأناه إلى الآن من هذا الشعر الرمزى قطع هى أبعد عن الموسيقى من بعد السماء عن السحاب ، وبعد أصحابها عن الشعر . . . إنها رطانة بحروف عربية .. وشعر ، ولكن لا شعور فيه ، ولا موسيقى ، ولا حياة » (١) .

وقد شاعت عند النقاد قصيدة لأحد الشعراء الذين يدينون بالمذهب الرمزى ، أو يتمسحون به ، على وجه الدقة ، وهى مثال صريح واضح للكلام الغامض المبهم ، الذى بين لفظه ومعناه ـ إن كان له معنى ـ مسيرة أربعمائة عام ، ولصاحب هذه القصيدة مسرحية رمزية أيضاً ، قال فيها أحد النقاد : « إنها غامضة يعسر فهمها على أدق الأفهام » وهذه بعض أبيات من القصيدة ، وعنوانها (إلى زائرة) :

لو كنت ناصعة الجبين	هيهات تنفضنى الزيارة
ما روعـــة اللفظ المبين	السحر من وحى الإشارة
ظل على وهج الحنين	رسمته معجزة العبارة
خط تساقط كالحزين	أرخى على العزم انكساره
غيبت فى العجب الدفين	معنى براعته البكارة
درًّا يفوت الناظمين	ونهضت تهدينى بحاره
خطوات وسواس رزين	وهب تعميه الطهارة

(١) مجلة الرسالة . العدد ٦٩٢ . ص ١١٠٣ لعلى الطنطاوى .

وأنا أخالف الأستاذ الزيات الذى يعلق على هـذه القصيدة ومثيلاتها بقوله : « وسأدع لك الوقت لتتحن صبرك على كشف هذه الرموز ، وحل هذه الأحاجى ، ولن أسألك عما فهمت ، فإنك أن أجبت فإن جوابك لن يزيد على جوابى ، وإن أخطأت فإن خطأك لن يختلف عن صوابى (١) » .

أخالفه ، لأنى فهمت البيت الثانى وإن كنت فهمته بعد أن درست المذهب الرمزى ، وعرفت حقيقته ، فإذا هى مثبتة فى هذا البيت ، وهذا ليس بعيب على الشاعر ، فإن واجبنا أن ندرس كل شىء إذا أردنا أن نفهم الشعر ، وأما الأبيات الأخرى فعلى الرغم من أنى راجعتها فى أكثر من كتاب ومجلة ، أؤكد أن فيها تحريفات كثيرة ، بل أظن أن التحريف لحق كل كلمة ، بل كل حرف من حروفها ، وعلينا أن نطلب لها خبيراً فى التزويرات ليردها إلى أصلها !

ويتصل بهذه الرمزية ، وإن لم يكن منها ، نوع آخر من الشعر ، يسميه أصحابنا « الشعر الفلسفى » فإن أصحاب هذا الشعر ، وإن لم يكونوا حين نظموه ـ فيما أعرف عنهم ـ يدينون بالرمزية أو يفهمون عنها شيئاً ، إلا أن الغموض والمعاياة ، والإلغاز ، هـذه الفواجع التى تظهر فى شعر الرمزيين من شعرائنا ، تظهر أيضاً فى كثير من شعر هؤلاء (المتفلسفين شعراً) ويعبر أحدهم عن هذه الفلسفة الشاعرة ، أو عن هذا الشعر المتفلسف ، بأنه التصوير الهادىء الغامض ، فالهدوء والغموض هما اللذان يثيران فى الشاعر خاطر التصوير ، بل خاطر التعبير ، وهو يهرب من الضجة كما يهرب من الوضوح ، فإذا اضطر لملابستهما ، فهو يعيش فيهما ، ولكن لا يعبر عنهما ، وسأضطر هنا ـ حين أمثل ـ لذكر أبيات لشاعر صديق ، أحترم شعره ، وأعرف فيه الوضوح والدقة فى التعبير ، والروعة فى التصوير ، ولكنه حين تفلسف جاءنا بالغموض والألغاز .

، قصيدة عنوانها (أنا) جاء فيها :

أظنك يا دنياى لا تعرفيننى فيا خيبة المسعى ويا ضيعة المنى

---

(١) دفاع عن البلاغة ص ١٦٠ .

كفانى من الخذلان أن تجحدينى ... وإن كان عند الله لا فرق بيننا
وما أنت ياهذا . ومن أنت ياترى؟ ... فقال لها نفس تسميتنى (أنا)
إذا رمت يا دنياى أن تعرفينى ... فقد رمت أمراً ليته كان ممكنا
وما أنت إلا أنت فى كل موطن ... ولكننى أشياء من بينها (أنا)
كأنى لا أشبهك أو تشبهينى ... أساساً وتكويناً وترباً ومعدناً
فوا أسفا إن كنت لا تعرفينى ... وإن كنت لاتدرين يا نفس من أنا
أحبك يا نفس فهل تعشقينى ... أظنك يانفس تحبين غيرنا (١)

ثم نعود إلى مذاهب الأدب ، وارتكاس شعرائنا فى فهمها فهما خاطئاً ، ومحاولاتهم التقيد بها ، والجرى وراءها ، فنرى كيف أنهم صفقوا للمذهب الذى يطلق عليه (مذهب الفن للفن) وتبجح بعضهم به ، وروج له ، وجعله مبرراً لما ينظم من شعر مسف ، ملىء لحشاً وهجراً ، ونشر هذا الشعر فى ديوان يستطيع كل ناشىء أن ينظر فيه ، فيرى الألفاظ الفاجرة ، والعبارة الخليعة الرقيعة ، وحجتهم حين تنكر عليهم هذا الشعر المثير للغرائز ، الحافز على اقتراف المنكرات حجتهم التى يجبهونك بها (الفن للفن) .

هذا الوهم الذى يبيح لشاعر صغير ناشىء ، أن ينشر فى ديوان صغير خمس قصائد عنوان كل منها (جسم غادة) ويبيح لشاعر كبير ، بل لشعراء ، أن ينشروا فى دواوينهم قصائد يصفون فيها ما يسمونه (بالليالى الحمراء) بل الذى يبيح لشاعر درس الدين ، وراح فى المدارس يدرسه ، أن يصف فى شعر منشور فى إحدى المجلات الكبرى أدق ما يكون بين فتى وفتاة ، حين تسعفهما خلوة . . .

غلط فى الفهم ، وتماد فى البناء على هذا الغلط ، ثم تبجح بعد ذلك وأصرار على هذا السلوك المشين .

والدكتور محمد مندور يحدثنا عن هذا المذهب قائلا : « وبالرغم من نشأة الفن للفن هذه النشأة التاريخية المحدودة كثورة ضد استخدام الفن كوسيلة التعبير

(١) الشعر للشاعر محمود السيد شعبان (شاعر الحرمان)

عن الذات ودعوة للرجوع بالفن إلى حقيقته الجمالية ، ومقاومة الهلهلة والابتذال فى الشعر ، ثم اقتصار هذا المذهب بحكم طبيعته على فن الوصف - نقول بالرغم من كل هـذا فإن عبارة الفن للفن قد اتخذت فى عالم الأدب ومعاركة عـدة معان دخيلة على مدلوله التاريخى ، وانتشرت هذه العبارة فى العالم العربى الحـديث ، ودارت حولها - ولا تزال تدور - معارك حامية .

لقـد ظن البعض أن الفن للفن معناه التحلل من قواعد الأخلاق فى الإنتاج الأدبى ، بل أسرف البعض فى الظن حتى قال : « إن الفن للفن ينتهى إلى الأدب الإباحى الذى يزعم أنه لا يهتم بغير الفن ، سواء اتفق هـذا الفن مع الأخلاق والمواضعات الاجتماعية أو تنافى معها ... فمذهب الفن للفن لا يدعو إلى الخروج على قواعد الأخلاق ، بل لا يتعرض للمشكلة الأخلاقية على الإطلاق (١) » .

---

(١) محاضرات فى الأدب ومذاهبه ص ٧٣ ، ٧٤ .

الهندسة والطاقة الذرية

للمهندس الدكتور محمد محمود غالى

مدير عام مصلحة النقل السابق

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية ـ ليسانس العلوم الحرة ـ دبلوم المهندسخانة

تابع القارىء على صفحات « رسالة الإسلام » بحوثنا عن عالم الذرة بعد أن ألقينا عن هذا العالم العجيب أكثر من عشرين محاضرة عامة بين بغداد والقاهرة والإسكندرية ، وبلغت مقالاتنا فى هذه المجلة الرفيعة ثمان مقالات لم تكن فى فى أعداد متتابعة ، إنما كانت فى فترات تأثرنا عند كتابتها بالأحداث العلمية تارة ومطالعاتنا تارة أخرى . وكنا كلما دفعت الكشوف العلمية المدنية خطوة إلى الأمام استعرضنا هذه الكشوف فرحين مبتهلين ، وكلما أنذرتنا بأخطار لا تبعث على الطمأنينة والسلام نبَّهنا إليها هلعين جزعين ، ولعل مقالاتنا : « الذرة من أجل السلام » و « التسابق الهيدروجينى » مثالان لهذا الشعور بين الفرح والأمل ، وبين الضجر والوجل ـ وكنا نجد الحياة فى الكتابة ، وليس أحب إلى النفس من ساعة أخلو فيها للقارىء ، ولا إلى القلب من شعورى أن هناك قراء يتابعوننا فيما نكتب ويشاطروننا الرأى فيما نذهب إليه ـ وتناولنا أحيانا سير العلماء ، وليس ذلك عندى إلا لأنهم اقترنوا بوثبات للعلم ليست هينة ، وثبات أحدثت وستُحدث تغييراً كلياً فى مستقبل البشر وتاريخه ، ولعل القارىء استطاع أن يدرك ذلك فى مطالعته الأخيرة لمقالنا عن العالمة الكبيرة إيرين كورى التى فقدناها أخيراً والتى باتت جزءاً من التاريخ ، وهى التى وضعناها عن جدارة بين المحسنين الذين أدوا لجيلنا أجل الخدمات ، والذين هم فى الواقع على حد ما ذهبنا إليه بناة القرن العشرين .

ولقد ذكرنى هذا العرض الذرى على صفحات « رسالة الإسلام » وذكرتنى مقالاتى الثمان التى أتينا على ذكرها بتلك المقالات التى جاوزت الأربعين التى نشرتها فى مجلة الرسالة منذ أكثر من ١٥ عاما ، حيث تابعنا وصف العالم من الذرة على ضآلتها إلى الكون على اتساعه وعظمه ، أو تلك التى نشرتها فى مجلة الكاتب المصرى منذ أكثر من عشر سنوات حيث حاولنا أن نتفهم التفجير الذرى الأول قبل أن تصلنا عنه النشرات العلمية ، وحيث تناولنا بالبحث تارة نواة الذرة ، وتارة ما يدور حولها من كهارب ، أى الكترونات .

وأمس طالعت مقالى الأخير عن إيرين كورى فشعرت بالحنين لأن ألخص من جديد بعض الأحداث العلمية التى لم يتسع المجال لها عند كتابة هذا المقال ، وهى الأحداث التى أدت فى الواقع إلى التفكير فى الطاقة الذرية والتعرف عليها ، وقد تعمدت فى الوقت ذاته أن تكون كتابتى هذه المرة لطائفة من المشتغلين بالعلم هم زملائى المهندسين ، فعلى أكتافهم تسير العلوم الذرية من اليوم فى طريق السلام ، هذا الطريق الذى طالما تمنيناه ، والذى يشعر به كل من تتبع مقالاتى العديدة عن الذرة ، وتابع كتبي أو محاضراتى عنها ، ولى من مقال اليوم غرضان :

الأول : شعورى أن الكثرة من زملائى المهندسين يفتقرون إلى معرفة الذرة لذا أعرض بعض المسائل الهامة التى أدت إلى التفكير فى الطاقة الذرية ، وأوضح المجال العلمى الذى وضع العلماء فيه أسسها السليمة .

الثانى : أن أحفز زملائى المهندسين لا لمعرفة المواضيع الذرية فحسب ، وإنما للعمل للذرة فى سبيل السلام ، فلا يتخلف زملاؤنا من أهل مصر والشرق عن ركب الحضارة ، وأن يكون تعاونهم فى هذا السبيل من أجل البناء والتعمير ، لا بغرض الهدم والتدمير .

* * *

سأحاول إذن فى هذه السطور أن أتابع مع زملائى المهندسين أهم نواحى الميراث العلمى فى موضوع الذرة ، ويقينى أننا نستعرض معهم أعظم ما ورثه

الإنسان من معرفة ، هـذه المعرفة التى جعلت فى مقدور المهندس أن يضع يده اليوم على طاقة لم يعهدها من قبل ، فبعد أن كان يستخدم الطاقة الحرارية من الفحم والبترول ، أو الطاقة التى يستغلها من مساقط المياه ، أصبح يُسخّر اليوم طاقة جديدة تخرج من نواة الذرة ، حيث تمكن العلماء من تحويلها إلى طاقة حرارية ، وبالتالى كهربائية ، وهكذا أصبح على المهندس أن يقوم بدور كبير فى بناء حضارة جديدة ، وإقامة سلام دائم .

هـذا الدور الكبير للمهندس هو الذى نلفت النظر إليـه سيما بعد أن أمكن استخدام هـذه الطاقة فى شكل قنابل ذرية وأخرى هيدروجينية جعلت أمر فناء الحياة كلها من على الأرض للإنسان والحيوان والنبات فى متناول أيدى الفنيين .

ولا شك أنه قد حدث تطور فى المعرفة فى أواخر القرن الماضى بعد التعرف على المواد المشعة ، وأوائل هذا القرن بعد ظهور النظرية النسبية .

* * *

كلنا يعلم اليوم كيف أفاد ألبرت أينشتاين من تجربة ميكلسون ومورلى ومن معادلات لورانتز فى السرعة ، أراد ميكلسون ومورلى سنة ١٨٨٧ أن يقيسا سرعة الضوء فى الاتجاه الذى تسير فيه الأرض ، وفى الاتجاه العمودى عليه ، وقد دُهش كما دُهش علماء زمانه بعدم وجود فرق بين هاتين السرعتين رغم سير الأرض ، ولو أن الأرض كانت ثابتة لتحتم أن تكون سرعة الضوء واحدة فى جميع الاتجاهات ، أما وأن الأرض تسير حول للشمس فكان لا بد أن يكون هناك فارق فى السرعة فى اتجاه سيرها وفى الاتجاه العمودى عليه ، وكان للنتيجة السلبية التى وصل إليها ميكلسون ومورلى دخل فى أزمة علمية كبرى ، وكان على العلماء أن يجدوا تفسيراً لهذا التناقض ، فإذا بأينشتاين يجد هذا التفسير ، وبعد ربع قرن من التجربة المتقدمة وذلك بتعديل نظرتنا للزمان وللحيز بوضعه نظرية النسبية سنة ١٩٠٥ ، هذه النظرية التى كان من أهم نتائجها أن المادة والطاقة شىء واحد ، وأن كمية من المادة تعادل قدرا من الطاقة ، وأن قانون التعادل بسيط بحيث أن الطاقة تساوى كتلة المادة

مضروبة فى مربع سرعة الضوء ، والذين يودون من زملائنا أن يطبقوا هذه القاعدة على كيلو جرام من المادة مثلا يتحول إلى طاقة ، وليكن كيلو جرام من الماء أو النحاس أو اليورانيوم فإنهم يجدون أننا نحصل من هذه الكتلة البسيطة على ٢٣٥٠٠ مليون حصان ساعة .

* * *

لقد كان أينشتاين موفقا فيما ذهب إليه ، فقد كان معروفا وقبل نشرته الخالدة التى نشر فيها فكرة النسبية بثمان سنوان أن المادة تتحول إلى طاقة منذ أن لاحظ « بكارل » سنة ١٨٩٧ أن اليورانيوم يشع ، ومنذ تجارب مارى سكلودوفسكا « مدام كورى » عند ما كشفت البولونيوم بمفردها ، والراديوم مع زوجها بيير كورى ، بحيث تم لها ولزوجها مع بكارل ، وقبل كشف أينشتاين بثمان سنوات أعظم عمل علمى ظهر فى القرن التاسع عشر .

* * *

وتقدمت الناحية النظرية للعلوم الذرية بأن وضع «ماكس بلانك» سنة ١٩٠٥ نظرية الكم المعروفة ، وبما أضافه العالم الدنمركى « نيلز بوهر » لهذه العلوم ، فقد جمع سنة ١٩١٣ بين نظرية الكم وخطوط الطيف مفسرا بطريقة مبتكرة أدق الأحداث العلمية داخل الذرة التى ثبت بوسائل لا تقبل الجدل أنها على ضآلتها عالم شمسى كامل يتركب من نواة وسطى معقدة هى بمثابة الشمس يدور حولها إلكترونات كالكواكب ، وهذه الإلكترونات تدور أيضا حول نفسها كما تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وتلتزم هذه الكواكب فى العناصر الثقيلة سبع سموات أو مدارات لا تتعداها ، على أن قطر هذا العالم كله أى الذرة فى مجموعها من شمسها إلى كواكبها هو واحد على عشرة مليون من المليمتر ـ أما قطر النواة داخل الذرة فهو واحد على مليون المليون من المليمتر ، ومع ضآلة النواة هذه فهى تتركب فى عنصر اليورانيوم مثلا من ٢٣٨ جسيما .

* * *

وتقدمت العلوم التجريبية فعرفوا أن نواة الذرة تتكون من بروتونات

ونيوترونات . أما البروتون فجسم موجب الشحنة ، وهو نواة ذرة الهيدروجين وكتلته تساوى ١٥٠٠ مرة تقريبا قدر كتلة الإلكترون الدائر سالب الشحنة ، وأما النيوترون فجسيم لا شحنة له ، وكتلته تساوى تقريبا كتلة البروتون .

وتختلف العناصر بعضها عن بعض باختلاف كتلة نواتها ، أى عدد ما بنواتها من بروتونات ونيوترونات ، وعدد ما حولها من الإلكترونات ، فللهيدروجين بروتون واحد والكترون واحد يدور حوله ، ولنواة اليورانيوم ٩٢ بروتونا ، ١٤٦ نيوترونا يدور حولها ٩٢ الكترونا بعدد ما بداخلها من بروتونات ، وتقذف المواد المشعة الطبيعية من تلقاء ذاتها ، ومن داخل نواة ذراتها ثلاث قذائف ألفا باسم الحرف الأول من الحروف الإغريقية ، وهى نواة الهيليوم (بروتونان ونيوترونان) وقذائف الكترونية يسمونها بيتا الحرف الثانى من هذه الحروف ، كما تقذف أشعة سموها باسم الحرف الثالث من الحروف ذاتها أى أشعة جما ، وقد أمكن تحول العناصر بعضها إلى بعض بتعريضها لهذه القذائف ، وتم لرذرفورد سنة ١٩١٩ أول هذه التحولات عند ما استطاع أن يحول النيتروجين إلى أكسجين ، فحقق بذلك حلم جال بخاطر كيميائيي القرون الوسطى .

* * *

ثم جاءت خطوة إيرن كورى (كريمة مدام كورى) وزوجها جوليو بخلق النظائر المشعة ، وذلك بتجاربهما الخالدة على الألمونيوم واكتشاف تحوله إلى فوسفور مشع تلك التجارب الخالدة التى نالا من أجلها جائزة نوبل ، وسنحاول استخدام بعض هذه النظائر فى عمل تجارب قد تؤدى إلى منع التناسل فى دودة القطن والقضاء عليها نهائيا ، وقد نشرنا ذلك حديثاً فى ندوة الذرة المنعقدة فى ١٦ و ١٧ و ١٨ يونيه سنة ١٩٥٥ ، كذلك فى بحث قدمناه فى المؤتمر العلمى العربى الثانى الذى انعقد فى شهر سبتمبر من السنه ذاتها .

* * *

وفى ديسمبر سنة ١٩٣٨ حدث أن تمكن أوتوهان الألمانى من قذف نواة

البليتونيوم (اليورانيوم ٩٤) بالنيوترونات البطيئة فانشطرت النواة إلى قسمين كبيرين وأقسام صغيرة وخرجت منها طاقة كبيرة .

وقد بيَّن جوليو كورى مع زميلين له ، هما : هلبان وكوارسكى أن النواة التى دخلها نيوترون واحد خرج منها ثلاث نيوترونات متطوعة دخلت بدورها فى ٣ نويات أخرى مجاورة فأخرجت تسعة نيوترونات ، وهذه دخلت فى ٢٧ نواة أخرى وهكذا ، بحيث تصبح النويات المنقسمة فى كسر ضئيل من الثانية ملايين الملايين ، وهكذا من نيوترون واحد تستمر السلسلة ، ولما كانت كتلة المادة المتبقية من كل نواة أقل من كتلة النواة قبل عملية الانقسام ، وأن الفرق فى الكتلة تحول إلى طاقة كان مجموع الطاقة من ملايين النوى عظيم جدا ، وبهذا وضع العلماء أيديهم على الطاقة الذرية ، وتمكنوا من عمل القنابل الذرية الأولى ، كما تمكنوا من كسر جماح خروج الطاقة دفعة واحدة ، وعمل مايسمونه اليوم الأفران الذرية ، وقد تم لهم عمل القنبلة الذرية بجمع كمية من البليتونيوم وهو اليورانيوم ٢٤٠ ، أوجمع كمية من اليورانيوم ٢٣٥ بكمية كافية ، كمية فى حدود مايسمونه الحجم الحرج ، وهو الحجم الذى يحدث فى حدوده التفاعل المتسلسل المتقدم الذى يؤدى إلى الانفجار ، وكذلك تم لهم بناء أفران ذرية ، وذلك بوضع بما يسمونه المبطئات من الماء الثقيل أو الكادميوم بين قطع من اليورانيوم وجعلوها متحركة بينة للسيطرة على هذا التفاعل والحد منه ، وفى روسيا توصلوا منذ يونية سنة ١٩٥٤ إلى تحويل الحرارة الناتجة من هذه الأفران ، أى الناتجة من طاقة التسلسل الذرية إلى طاقة كهربائية ، وكانت قدرة أول فرن من هذا النوع خمسة آلاف كيلوات .

* * *

ولقد فطن « جان بيران » من السوربون منذ سنة ١٩٢٩ و « هانس بيته » فى أمريكا سنة ١٩٣٨ إلى أن الضوء والحرارة فى الشمس هما نتيجة لتفاعل ذرى حادث من تجمع أربع ذرات من الهيدروجين لتكوين ذرة واحدة من الهيليوم كتلتها أقل من كتلة الأربع ذرات ، وأن فرق الكتلة تحول إلى طاقة وفق نظرية

أينشتاين . ويبدو أنه بالالتجاء إلى نظائر الهيدروجين الديتريوم والتريتريوم تمكن الباحثون فى السنين الأخيرة من تفجير القنبلة الهيدروجينية ، وليس لهذه حجم حرج ، فالقنبلة الهيدروجينية التى نجرت أخيرا تساوى قنبلة هيروشيما ألفى مرة ، بحيث أن قنبلة واحدة يمكن أن تقضى على الحياة فى منطقة واسعة كالوجه البحرى بما فى ذلك القاهرة والاسكندرية ، منطقة يسكنها ١٥ مليون من البشر الكادحين الآمنين .

وقد طالعنا أخيراً عن بعض المحاضرات التى ألقاها علماء روسيا فى هارفل المركز الذرى البريطانى لمناسبة زيارة زعماء الاتحاد السوفيتى لانجلترا ، وعلمنا نقلا عن الجرائد الفرنسية أن بعض المعامل فى روسيا اليوم تشتغل فى درجة حرارة بلغت بضعة ملايين الدرجات ، ولنا أن نستنتج من ذلك أنهم فى طريقهم للانتفاع بهذا التحول الهيدروجينى الجديد وتلك الطاقة العظيمة فى الأغراض السلمية.

والآن ونحن فى معرض إيراد بعض النواحى التى لم نتناولها على صفحات رسالة الإسلام ، ولا فى محاضراتنا العديدة أو مؤلفاتنا ، فإنه جدير بالذكر أن أذكر لزملائى المهندسين أنه فى أكتوبر سنة ١٩٥٥ تمكن لورانتز أول مخترع للسيكلترون فى أمريكا ، وذلك باستخدام سيكلترون جبار قوته ستة آلاف مليون إلكترون فولت من أن يحول الطاقة إلى مادة ، فقد ترك بروتونا موجباً أكسبه سرعة فائقة بواسطة السيكلترون ليصطدم بصفيحة من النحاس فتولد من الصدمة بروتونا سالبا ، أى مادة جديدة وهو البروتون السالب الذى تنبأ به النظريون النظريون فى معادلاتهم ، وهذا البروتون السالب الجديد تحول بسرعة إلى ميزون ثم تحول الميزون من جديد إلى طاقة ، وهذه الطاقة عظيمة جدا ، وكم يكون الأمر خطيرا لو أنه بعملية أخرى نجهلها اليوم يتحول عدد كبير من البروتونات العادية أى الموجبة وهى الموجودة فى كل مادة فى الوجود إلى طاقة ، ولو أنه حدثت سلسلة بروتونية كسلسلة أوتوهان ، أى حدثت عدوى فى تحول البروتونات إلى طاقة لما أصبح لنا فى عقيدتى وجود على ظهر الارض ، وهكذا تتأرجح البشرية

بين استخدام الطاقة الذرية لأغراض الحرب والدمار ، واستخدامها لأغراض السلم والعمار ، بل إننا أمام ما يستجد من تجارب العلماء ومفاجآت الطبيعة فى خوف مستمر ووجل دائم .

فى كتابى الثانى « ما ذا تخبئه نواة الذرة للإنسان » الصادر فى سنة ١٩٤٩ ، كتبت على غلافه العبارة الآتية :

« ستعلم وأنت تطالع هذا الكتاب أن البشرية قد خطت مع بكارل منذ نصف قرن ، ومع أوتوهان حديثا خطوتين حاسمتين ، فإما مدنية فوق التصور نصبح فيها كملائكة نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة محزنة قد ينمحى معها الكوكب الوديع الذى نعيش عليه » .

هذا ما كتبته منذ ثمان سنوات ، والحق أننا ألفينا أنفسنا على كوكب وديع يغلب على الظن أن الدنيا فيه كانت يوما كدنيا الشمس حيث تبلغ الحرارة داخلها حوالى ٢٠ مليون درجة ، وعلى سطحها ستة آلاف ، ولكنه تغيَّر وتكيَّف بحيث سمحت الظروف عليه بالحياة التى نعرفها ، ولا ندرى على وجه التحقيق كيف بدأت هذه الحياة ، ولعل أهم ما فيها هو الإنسان ، ذلك الكائن أو الحيوان الاجتماعى المتنقل كما عرفه « برجسون » ، هو مصدر الخطر على هذا الكوكب السيار هذا الإنسان الذكى المفكر هو مصدر الفناء لنفسه وللكوكب الذى يعيش عليه ، وها هى الشواهد تزداد عندى يوما بعد يوم - إن تحول بروتونى فى شكل سلسلة دون رابط وإن لم تحدث إلى اليوم ، أو سلسلة كسلسلة أوتوهان تحدث فى العناصر الخفيفة كالماء أو الاكسجين يمكن أن تعيد هذا الكوكب إلى طاقة ، وهى لا تعيده هذه المرة فى فترة طويلة تبلغ الألفى مليون سنة كتلك الفترة السابقة التى تكون فيها ، بل فى ثوان معدودة أو فى كسر ضئيل من الثانية .

إن كثرة العلماء لا يشاطروننا هذا الرأى مستندين إلى أن السلسلة الخطيرة لم تحدث إلا فى العناصر الثقيلة كاليورانيوم ، ولكن احتمال حدوثها فى العناصر

الخفيفة بأساليب لا نعرفها اليوم أمر يوضع فى نظرى محل الاحتمال ويُنظر إليه بعين الاعتبار .

* * *

وهكذا سارت الأمور وتتابعت الأحداث ، ولنا أن نتأمل الآن كيف أنه من مسألة خاصة بمسير الكوكب الذى يحملنا حول الشمس ومن مناقشة سرعة إحدى ظواهر الكون - الضوء - مرة فى الاتجاه الذى يسير فيه هذا الكوكب ، ومرة فى الاتجاه العمودى عليه ، كيف أنه من عدم وجود فارق فى السرعة يضع الإنسان أسس النسبية ويخرج من مسألة فلسفية بمسألة واقعية ، ذلك أن المادة ما هى إلا صورة من صور الطاقة ، وأننا نستطيع أن نعيدها سيرتها الأولى ، وقد أعادها العلماء فعلا وحولوا المادة إلى طاقة كما حولوا أخيرا الطاقة إلى مادة .

هذا التحول عظيم وخطير ، وعلينا وعلى المهندسين على الخصوص واجب اليوم هو أقدس الواجبات أن ندخل هذا الباب الجديد لا لعمل القنابل الذرية الناتجة من عملية التسلسل المعروفة ومن انشطار نواة الذرة ، ولا لصناعة القنابل الهيدروجينية الناتجة من عملية التجمع لبعض النظائر الخفيفة والتحول الذرى ، كذلك التحول الحادث فى الشمس ، وإنما لاستخدام هذه الطاقة أو تلك لأعمال السلام ولخير بنى الإنسان ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية[1]

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ٢٠ —

د . ى . ن

دان (ا) دان يدين دَيْناً : أخذ الدَّيْنَ ودانه يَدينُه دَيْنا : أعطاه دَيْنا . لازم ومتعد . وأدانه : أعطاه وأقرضه إلى أجل . وتدين : أخذ دينا أو صار ذا دين .

دين والدين : ماله أجل ، والموت ، وكل ما ليس حاضراً . والجمع ديون وأدين . مثل أعين وقد ورد (الدين) فى : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ٢٨٢/البقرة ، وفى ١١ ، ١٢/النساء .

دن (ب) دان يدين ديناً : تأله وعبد وأطاع وانقاد .

دن (ج) دانه يدينه ديناً : حاسبه وقضى فيه وجزاه .

دين فالدين على هذا هوا الطاعة بالجزاء والشريعة التى يُقضى ويطاع بها .

والأقرب أن تكون صيغة (دَيْن) أصلا لصيغة (دِين) لأنها أدنى إلى السهولة . ويرجح ذلك أن كلمة (دَيْن) تطلق فى بعض مدلولاتها على كل ما ليس حاضراً ، فمعقول أن تكون (دِين) بمعنى طاعة أو جزاء مأخوذة من (دين) بمعنى غير الحاضر ، لأن أساس الأديان كلها الإيمان بأمر وراء هذا الوجود المحسوس الحاضر ، وبجزاء مؤجل ، والخشوع والخضوع والانقياد للمعبود كما

---

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

ينقاد المدين للدائن . وقد كان الدائن يسترق المدين العاجز عن الدفع فى بعض الشرائع وكان يقال لدى العرب للعبد (مدين) ومنه : « فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها » ٨٦ / الواقعة : أي مديونين معبدين ، ولأن مرادف (التدين) وهو (التعبد) مأخوذ من كلمة (عبد) .

مدينين

وما ورد فى القرآن من (دان . ج) هو ما يأتى :

« مالك يوم الدين » ٤ / الفاتحة : أى الجزاء ، « وإن الدين لواقع » ٦ / الذاريات ، « أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون » ٣٧ / الصافات . أى أإنا لمبعوثون ومجازون .

مدينون

وكذلك فى ٣٥ / الحجر ، ٨٢ / الشعراء ، ٢٠ / الصافات ، ٧٨ / ص ، ١٢/الذاريات ٥٦/الواقعة ، ٢٦/المعارج ، ٤٦/المدثر ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨/ الانفطار ١١ / المطففين ، ٣٥/النور ، وما عدا ذلك فهو العبادة والطاعة للشريعة وخلوص السريرة مما يندرج تحت معانى (دان . ب) مثل : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » ١٢٣/التوبة : فالدين هنا : الشريعة والعقيدة والآداب « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . . . أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » هو عام فيما لا يختلف باختلاف الأمم والعصور من توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر .

« قل الله أعبد مخلصا له دينى » : أى تألهى وطاعتى وسريرتى . « وذلك دين القيمة » الأمة المستقيمة وعبادتها : « لكم دينكم ولى دين » لكم عبادتكم ولى عبادتى . وهكذا .

والتداين والمداينة : المعاملة بالدين ومنه فى موضع واحد « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ٢٨٢/البقرة : أى إذا تعاملتم وداين بعضكم بعضا .

تداين

ذ . أ . ب

ذؤب يذؤب ذآبة وذئب وتذأب : خبث وصار كالذئب خبثا ودهاء . والذئب : كلب البر جمعه أذؤب وذئاب وذؤبان والأنثى ذئبة . وهو من فصيلة

ذئب

الكلب ولذلك يتم التلاقح بينهما . وذؤآلة ؛ علم جنس له كثعالة للثعلب وأسامة الأسد وقد ورد فى ؛ « وأخاف أن يأكله الذئب » ١٣ / يوسف ، كذلك فى ١٤، ١٧ من هذه السورة .

ذ . أ . م

مذءوم

ذأمه يذأمه ذأما ؛ حقره وذمه وطرده وخزاه . فهو مذءوم ؛ والذأم ؛ العيب يهمز ولا يهمز .

ومنه فى موضع واحد ؛ « قال اخرج منها مذءوما مدحورا » ١٨/الاعراف ؛ أى مذموما محقراً مطروداً .

ذ . ب . ب

ذباب

ذب فلان يذب ذبا ؛ اختلف فلم يستقم فى مكان واحد . وذبه يذبه ذبا ؛ دفعه وطرده . وذب عنه ؛ دفع عنه والذباب ؛ يقع على المعروف من الحشرات الطائرة وعلى النحل والزنابير ونحوها . واحدته ذبابة وجمعه أذِبّة وذِبّان . وسمى بذلك إما أخذاً من الفعل الأول لأنه يتحرك حركة مختلفة مترددة فلا يستقيم فى مكان ، وإما من الفعل الثانى لأنه ملحاح يُذَب ويُدفع ويُطرد .

وقد ورد (الذباب) فى : « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » ٧٣/الحج وهو هنا : واقع على الحشرة المعروفة .

ذبذب

وذبذب الشىء ؛ حركه حركة مختلفة مترددة ، والذبذبة تردد الشىء المعلق فى الهواء ، أو هى حكاية صوت الحركة للشىء المعلق ، ثم استعير لكل اضطراب وحركة .

والذال الثانية أصلية عند البصريين أو مبدلة من باء عند الكوفيين .

مذبذبين

ومنه ما ورد فى المنافقين « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ١٤٣ / النساء ، أى مترددين مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين أو مطردين مدفعين عن هؤلاء وهؤلاء .

ذ ب ح

ذبح

ذبح كمنع ذَبْحاً وذِباحا ؛ شق وفتق ونحر وخنق ، وذبح ؛ طأطأ رأسه للركوع

والذبحة والذبَاح : أن يتورم الحلق حتى ينطبق ولا يسوغ منه شيء ويمنع التنفس فيقتل ، فذبح الحيوان مأخوذ من الذبح بمعنى الشق والفتق والنحر ، ومن التذبيح وهو طأطأة الرأس ، لأن الذابح يطأطىء رأسه ، ورأس الحيوان عند النحر ، ومنه « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ٦٣ / البقرة ، وقد ورد الثلاثى كذلك فى ٧١ / البقرة ، ٣ / المائدة ، ١٠٢ / الصافات ، ٢١ / النمل .

يُذَبِّح — ورد فى « يُذبِّح أبناءهم » ٤ / القصص ، أى يذبح بعضهم إثر بعض ، التفعيل للتكثير ، وورد كذلك فى ٤٩ / البقرة ، ٦ / إبراهيم .

ذِبْح — والذِبح : المذبوح ، وقد وردت فى « وفديناه بذبح عظيم » ١٠٧/الصافات ، أى وفديناه بحيوان يذبح بدله .

ذ خ ر

ذخر الشيءَ يذخره ويذخَره ذُخرا وادّخره ادّخارا : اختاره واتخذه وأعده للعقبى ، وأصله اذتخره ، وقد ورد الفعل فى موضع واحد « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم » ٤٩ / آل عمران .

أى ما اتخذتموه وأعددتموه للعاقبة ، أصله : تذتخرون أبدلت التاء ذالا ، ثم أدغم الذالان ثم أبدل المشدد دالا .

ذ ر ء

ذرأ — ذرأ الله الخلق يذرأهم ذرءا : خلقهم على وجه الاختراع وأظهر أشخاصهم وبثهم وكثرهم ، ومنه (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) ٧٩/المؤمنون أى خلقكم وبثكم فيها بالتناسل ، (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه) ١١ / الشورى ، أى يكثركم ويبثكم ، وكذلك ما ورد فى ١٣٦ / الأنعام ، ١٢ / النمل ، ٢٤ / الملك ، ١٧٩ / الأعراف .

ذ ر ر

ذرة — ذر الله الخلق فى الأرض يذُرّهم ذرا : نشرهم ، وذر الشىء يذره : أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره .

والذر : صغار النمل ومائة منها تزن حبة شعير ، الواحدة ذرة ، وقيل الذرة ليس لها وزن ويراد بها ما يرى فى شعاع الشمس الداخل فى النافذة .

ومنه (إن الله لايظلم مثقال ذرة) ٤٠/النساء ، وكذلك وردت فى ٦١/ يونس ٣ ، ٢٢ / سبأ ، ٧ ، ٨ الزلزلة .

ذرية — والذرية : إما من الذر بمعنى النشر والتفريق ، لأن الله تعالى يذرها فى الأرض وينشرها ، وإما من الذرء بمعنى الخلق والإظهار وحذف منها الهمز ، وقيل أصلها الصغار من الأولاد ذكراناً أو إناثا ، وأية كانت تقع على الصغار والكبار عرفا ، وتستعمل للواحد والجمع وأصلها الجمع ... وجمعها ذرارى .

وقد وردت هذه الكلمة فى اثنين وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم مفردة ومجموعة وبمعناها السابق .

ذ ر ع

ذرع — ذرع الثوبَ يذرَعه ذرعا : قاسه بالذراع ، والذراع اليد من كل حيوان ، لكنها من الإنسان اسم الجارحة من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى من الأنامل . وذراع القياس ست قبضات معتدلات وتسمى ذراع العامة . سميت بذلك لأنها نقصت قبضة عن ذراع الملك وهو بعض الأكاسرة . والذراع مؤنثة وقد تذكر . جمعها أذرع وذرعان . والذرع : مد الذراع . ومنه ذرع البعير فى سيره أى مد ذراعه وفرس ذريع وذروع : واسع الخطو .

ذراع — ومن معنى القياس : « ذرعها سبعون ذراعا » ٣٢ / الحاقة . ويقال ضاق بالأمر ذرعا : أى لم يطقه ولم يقو عليه . والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه

نال مالا يناله القصير الذراع ، فضرب مثلا فى العجز والقدرة . ومنه : « وضاق بهم ذرعا » ٧٧/هود ، ٣٣/ العنكبوت .

وقد وردت الذراع مثناة فى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » ١٨/الكهف

ذ ر و

ذرت الريح الشىء تذروه ذرواً ، وأذرته وذرته : أطارته وبددته وأذهبته . وذرا هو بنفسه ، وذريت الطعام : خلصته من تبنه . والأول هو الذى ورد فى القرآن فى ثلاثة مواضع : « فأصبح هشيما تذروه الرياح » ٤٥/الكهف : أى تفرقه وترفعه من مكان وتجىء به وتذهب . تذور

« والذاريات ذروا » ١ / الذاريات ؛ أى الرياح التى تذرو التراب وغيره وتفرقه وتبدده بعد رفعه عن مكانه وقيل ؛ أى النساء الولود فإنهن يذرون الأولاد على تشبيه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح .

ذ ع ن

ذعن كفرح ، وأذعن ؛ خضع وذل وأقر وأسرع فى الطاعة وانقاد ومنه فى موضع واحد ؛ « وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » ٤٩/النور أى خاضعين منقادين مقرين مسرعين . مذعنين

ذ ق ن

ذقن الرجل وضع يده تحت ذقنه . والذَّقن والذَّقن ؛ مجتمع اللحيين من أسفلهما . ويطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكل .

وجمعه أذقان ومنه ؛ « ويخرون للأذقان سجداً » ١٠٧ / الإسراء وقد ورد كذلك فى ١٠٩/الإسراء ، ٨/يس . أذقان

ذ ك ر

ذَكره يذكره ذِكراً وذُكراً وذِكرى ؛ حفظه فى ذهنه أو استحضره فيه عن إدامه حفظ أو عن نسيان ، أو أجراه على لسانه . ذكر

فالذكر ؛ يراد به ؛

١ — الملكة الذهنية التى يستطيع الإنسان بها أن يحفظ ما عرفه وأدركه فلا يضيعه .

٢ — استحضار الشيء المحفوظ فى الذاكرة إلى القلب أو اللسان سواء كان ذلك عن نسيان أم عن إدامه حفظ .

٣ — إجراء أى شيء على اللسان سواء كان محفوظا فى الذهن أم كان شيئاً جديداً عارضا .

وقد يطلق الذكر ويراد به ؛

٤ — الكتاب فيه تفصيل الدين ووضع الملل . غير أن هـذا معنى عرفى وليس كالمعانى الثلاثة الأول فإنها لغوية . والذكرى ؛ كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر .

١ — فما ورد فى القرآن من معنى الحفظ قوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) ٦٣ / البقرة ، ١٧١ / الأعراف . (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) ٣٤ / الأحزاب .

٢ — وما ورد فى معنى الاستحضار إلى الذهن والقلب هو الأكثر ، وقد يحتمل بعضه معنى الإجراء على اللسان ، ومنه (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ٢١ / الأحزاب . (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) ١٣٥ / آل عمران . (فستذكرون ما أقول لكم) ٤٤ / غافر . (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة) ٢٠٥ / الأعراف . (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ٣٧ / النور . (ولقد يسرنا القرآن للذكر) ١٧ / القمر . (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ٦٨ / الأنعام (أو يذكر فتنفعه الذكرى) ٤ / عبس . (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) ٣٥ / الأحزاب . (قالوا تا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) ٨٥ يوسف .

٣ — وما ورد فى معنى إجراء الشيء على اللسان على أنواع :

(ا) تارة يقصد منه مجرد النطق بالشيء، ومنه (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) ٥ / الزخرف . (فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) ٧٠/الكهف . (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ١/الإنسان .

(ب) وتارة يقصد به التعبد والدعاء والصلاة، مثل (وذكر اسم ربه فصلى) ١٥ / الأعلى . (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ٢٨ / الحج . (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) ٨ / المزمل . (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) ٤ / المائدة . (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ٤٥ / الزمر .

(ج) وتارة يقصد به التشريف والثناء والصيت مثل: «واذكر فى الكتاب مريم» ١٦/مريم ، «واذكر عبدنا داود» ٥٦/ص ، «واذكر أخا عاد» ٢١/الأحقاف ، «وإنه لذكر لك ولقومك» ٤٤/الزخرف ، «ورفعنا لك ذكرك» ٤/الشرح ، «إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» ٤٦/ص .

(د) وتارة يقصد به الازراء والتحقير مثل: «أهذا الذى يذكر آلهتكم» ٣٦ / الأنبياء أى يعيبها ويسفهها وكذلك : «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» ٦٠ / الأنبياء .

٤ ـ أما ورود الذكر فى معنى الكتاب الذى فيه تفصيل الدين فمنه : «أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم» ٦٩/ الأعراف ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ٩/الحجر ، «هذا ذكر من معى وذكر من قبلى» ٣٤/ الأنبياء ، «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» ١٠٥/ الأنبياء .

ذكر يذكر تذكيرا : حمله على الذكر . والتذكرة : ما يتذكر به . ومنه : «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» ٢٨٢/البقرة ، «فذكر إنما أنت مذكر» ٢١/الغاشية ، «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها» ٥٧/الكهف ، «كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره» ٥٤ / المدثر ، «إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله» ٧١ / يونس . [المادة بقية]

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على مايكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

كلمة التحرير	. . . .	٢٢٧
تفسير القرآن الكريم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	٢٢٩
ليكن شعارنا : المدرسة بجانب المسجد	لحضرة صاحب السماحة الأستاذ محمد التقى القمى	٢٤١
المجتمع القرآنى	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره	٢٤٥
كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة	٢٥٣
من مبادىء الإسلام	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه	٢٦٠
العزوبة فى اليهودية والمسيحية والإسلام	الدكتور على عبد الواحد وافى	٢٦٤
فى التاريخ والأدب	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	٢٧٠
بين القرآن وعلم النفس	لحضرة الأستاذ عبد الوهاب حموده	٢٨٢
أسباب الاختلاف] بين أئمة المذاهب الإسلامية] . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى	٢٨٧
تعليل خاطىء ليسر الإسلام . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى	٣٠٣
مستقبل الشعر	لفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى . . .	٣٠٩
الهندسة والطاقة الذرية	للمهندس الدكتور محمد محمود غالى . . .	٣١٧
معجم ألفاظ القرآن الكريم . . .		٣٢٦
رجاء من التقريب		٣٣٤
من القانون الأساسى لجماعة التقريب		٣٣٥

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة ـ تليفون : ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣

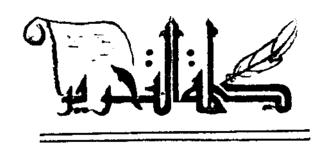


السنة الثامنة
العدد الرابع

ربيع الأول ١٣٧٦ هـ
أكتوبر ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة التحرير

يطيب لبعض القادة وأهل التوجيه فى الغرب أن يصوروا نهضة الشرق لاسترداد حقوقه ، واستعادة كرامته ، بصورة العصبية الدينية ، فيقولوا : هؤلاء هم المسلمون يريدون أن ينبعثوا كرّة أخرى ليغزوا المسيحية فى عقر دارها ، ويفرضوا تعاليم الإسلام بالقوة على الناس أجمعين .

وعن هذا الروح صدرت بعض البيانات الفرنسية ، فكانت تتحدث عن الجزائريين بعنوان « المسلمين » إيهاماً بأنهم إنما يحاربون عن عصبية إسلامية ، كأنهم هم الذين يغزون فرنسا فى بلادها ، وكأنَّ عليهم أن يقبلوا الذل والخضوع للمستعمر الغاصب ليثبتوا له أنهم ليسوا بمتعصبين .

إن العالم يعرف ، والتاريخ يشهد ، مَنْ هم الذين يثيرون الحروب باسم الدين ، وها هى الحروب الصليبية التى جمعوا لها الأموال والأجناد والعتاد منذ قرون تنطق بالعصبية الحمقاء ، وتفيض بالحقد على المسلمين ، والرغبة فى تقويض صرح الإسلام ، ويتزعمها رجال الكنيسة فيعقدون لها المؤتمرات والمجامع ، ويؤلبون لها الدول باسم الخوف على المسيحية .

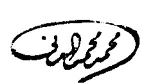
إن الإسلام منذ بعث الله به خاتم النبيين ؛ كان هدفاً لأخس المؤامرات ، وأخبث المكائد : أرادوا أن يحولوا بينه وبين العقول والقلوب ، لأنهم يعرفون قوته وسداد منطقه ، وأنه سيسلبهم نفوذهم وسلطانهم ، وسيُديل الضعفاء والمستبَعدين من طغيانهم وتسخيرهم ؛ لذلك آتلفت عليه أهواؤهم المتفرقة ، ورأينا أهل الكتاب من يهود ونصارى يصدّون عن سبيله ، ويعملون دائبين على زلزلته

والتشكيك فيه ، وقد وصل الأمر بهم إلى أن ظاهروا أهل الشرك والوثنية من العرب على محمد وأصحاب محمد ، وزعموا لهم أنهم أهدى منهم سبيلا ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

فلم يكن بدٌّ للإسلام من أن يدافع عن وجوده وبقائه ، ومن أن يزيل الصعاب والعراقيل التى توضع فى طريقه ، وهو لذلك يقرر أن حروبه إنما هى للدفاع « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وأن غايتها هى كفالة الحرية الدينية فى جو مطهر من الفتنة والصدّ عن الحق « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

وقد مضت القرون بعد القرون ، وموقف الإسلام من أعدائه ، وموقف أعدائه منه ، على ما وصفنا : هم يحاربونه فى السر والعلن خوفا من قوته وملاءمة شريعته للحياة ، وهو يدافع عن نفسه ، وقد يضطر فى سبيل هذا الدفاع إلى أن يهاجم خصومه ، وحينئذ يقولون حرب دينية .

إن الإسلام دين تقدمى ، يريد للبشر حياة سعيدة متكافئة خالية من الظلم ، مستقرة على دعائم من المساواة والعدل ، فهيهات أن يرضى عنه دعاة الاستغلال والاستعمار ، والذين يحبون أن يظل الشرق فى عماية ليقودوه ، وفى خضوع ليسخروه ، فهم لا يخافون من الإسلام إلا هذا ، ولا يحاربون فى الإسلام إلا هذا ، وإن علينا ـ نحن المسلمين ـ أن ندرك أن أعداءنا يريدون أن يرمونا عن قوس واحدة ، فهم يحركون العواطف الدينية فى شعوبهم ، زاعمين أن الاسلام دين تعصب وهدم ، فإذا كانوا يحاولون أن يتكتلوا على باطلهم ، فما أجدرنا أن نلتف حول حقنا ، وأن ندافع عن كياننا ، والله المستعان على ما يصفون ؟



تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

سورة الأنعام

— ٣ —

تذكير بالخطوات التمهيدية السابقة ـ صفحة عامة لما تضمنته سورة الأنعام ـ القضايا الكبرى التي شغلت العقول : قضية الألوهية ـ قضية الوحي والرسالة ـ قضية البعث ـ الآيات الأربع الأولى تقرر هذه القضايا ـ كل ما جاء بعد ذلك تفصيل لهذه القضايا : أمثلة من السورة ـ استطراد بالإشارة إلى طرق القرآن في الاستدلال على قضية البعث ـ عود إلى ما قبل الاستطراد ـ التحريم والتحليل ليس من شأن البشر ـ القرآن يفند الشبهة القديمة في الاحتجاج بالقضاء والقدر ـ الوصايا العشر ـ ختام السورة .

تذكير بالخطوات التمهيدية السابقة :

تكلمنا في العددين السابقين على خطوات ثلاث مهدنا بها للكلام على سورة الأنعام . وكانت الخطوة الأولى : الموازنة بين منهجها ومنهج السور الأربع المدنية التي سبقتها في الترتيب المصحفي . وكانت الخطوة الثانية : مقارنة منهجها بمنهج سور أربع من المكي شاركتها في البدء باستحقاق الله وحده الحمد والثناء ، وهن : سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر .

وكانت الخطوة الثالثة فى الموازنة بينها وبين سورة الأعراف التى سبقتها فى النزول وتلتها فى الترتيب المصحفى ، وفى هذه الموازنة سقنا ما تيسر لنا من فروق بين منهجى الأنعام والأعراف فيما عرضت له كل منهما ، كما عرضنا بمناسبة ذلك للحكمة ـ حسب إدراكنا ـ فى مجىء الترتيب المصحفى على غير ترتيب النزول .

صفحة عامة لما تضمنته سورة الأنعام :

والآن ، نقدم لقارىء « رسالة الإسلام » صفحة عامة عما تناولته سورة الأنعام وعن أساليبها التى اتخذتها فى سبيل تركيز عناصر الدين عند الله . وقد قلنا إن سورة الأنعام عرضت لهذه العناصر الدينية الأولى ، وهى القضايا العالمية الكبرى التى شغلت العقل البشرى منذ أن نظر ، وكشفت له جهات النظر عن مشاهداته الكونية ومعقولاته فى الآفاق والنظام العالمى ، وقد كانت هذه القضايا من قديم ميدانا لاختلاف النظر ، واختلاف ما يدين به الإنسان فى خالق العالم وفى منشئه وحاضره ومستقبله ، والواقع أن هذه القضايا هى التى تحاول نتائجها الإجابة عن أسئلة ثلاث تتفاعل فى صدر الإنسان ، وكثيرا ما يقف العقل البشرى أمامها حائراً مضطربا ، ولا يصل فيها إلى كلمة الحق ، وإلى القول الفصل إلا عن طريق الوحى المرشد ، والنظر العقلى السليم الذى يوفق الله إليه من يعصمه من الزلل واقتفاء الهوى والشهوة .

القضايا الكبرى التى شغلت العقول :

وهذه القضايا هى :

(١) قضية الألوهية وعبادة الله وحده .

(٢) قضية الوحى والرسالة .

(٣) قضية البعث والجزاء .

وقد تناولت السورة هذه القضايا التى لو عرفتها البشرية حق المعرفة ، وآمنت بها حق الإيمان لتخلصت من ظلمات المادة القاتلة ، وعرفت قيمتها فى الحياة ،

ووصلت بها إلى أقصى درجات السعادة ، وحققت حكمة الله فى خلق الإنسان ، وفى إرسال الرسل إلى الناس على أكمل الوجوه وأتمها وأرضاها عنده سبحانه وتعالى.

وقد جاء فى تضاعيف هذه السورة تصوير متكرر بعبارات مختلفة وأساليب متعددة فى هذه القضايا الثلاث .

قضية الألوهية :

فمن تصوير قضية الألوهية : « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض » . « قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » . « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » . « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا » . « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل » . « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » . « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء » .

قضية الوحى والرسالة :

ومن تصوير قضية الوحى والرساله : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » . « إن أتبع إلا ما يوحى إلى » . « اتبع ما أوحى إليك من ربك » « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » . « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

قضية البعث :

ومن تصوير قضية البعث : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » . « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور » . « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

هذه نماذج من تصوير سورة الأنعام للقضايا الثلاث التى دار حديثها حولها وهو تصوير يحمل توجيهاً واضحاً وقوياً إلى الحجة والبرهان ، تصوير حسبه

المنصف فى نظره وتدبره أن ينظر ويتدبر فيتفهمه على وجهه الحق ويدرك إشارته وإيحاءه .

الآيات الأربع الأولى تقرر هذه القضايا :

وقد بدأت سورة الأنعام فركزت اتجاهها نحو هذه القضايا الثلاث بآياتها الأربع الأولى ، فقررت فى أولاها : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ما يوجب النظر فيه توحيد الله سبحانه فى الألوهية ، وأثبتت له فى سبيل ذلك استحقاق الحمد بحقيقته الشاملة لجميع أنواعه وصوره ، وأهابت بالعقول إلى أنه هو الذى خلق العالم العلوى والعالم السفلى فى مادته وجوهره فى أعراضه وخواصه وآثاره ، وإذن فليس أحد غيره يستحق شيئا من الحمد والثناء ، لأنه هو وحده مصدر النعم كلها ومصدر الخير كله ، وليس شىء مما ينتفع به الناس من أرضى أو سماوى إلا وهو أثر قدرته ، ومن فيض نعمته ورحمته ، فهو إذن المنعم على الإطلاق ، وهو إذن القادر على الإطلاق ، والمتصرف على الإطلاق ، والمدبر والمهيمن على الإطلاق ، ولا يصح فى عقل أن يتجه بالعبادة والتقديس إلى غير من عظم سلطانه ، ونفذت قدرته وعمت نعمته ، وما أبعد هؤلاء الذين تنكبوا طريق الوجدان السليم والعقل المستقيم ، وعدلوا أو تشككوا فى هذا الوضع البين الواضح ، وعبدوا غير المنعم القادر ، واتخذوا من خلقه أندادا يعبدونهم من دونه « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

وقررت ثانية الآيات الأربع ما يوجب الإيمان بقضية البعث والجزاء : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » وإذا كان الله هو الذى خلق الإنسان من طين وعاقب عليه أطوار الخلق ، وسار به فى طريق النشوء والارتقاء ، حتى وصل إلى درجة الكمال العقلى التى بها يتصرف فى الكائنات ، والتى بها يسخر فى منافعه الأرض والسموات ، فكيف يمترى هذا الإنسان ويشك فى أن له نشأة أخرى ، هى حياة البعث والجزاء ، حياة الكمال

المطلق الذى تتجلى فيه صفات الرحمة الإلهية والفضل الإلهى بأوسع معانيها ، وما أبعد امتراء الإنسان عما يقتضيه العقل من ذلك ويحكم به النظر « ثم أنتم تمترون ».

وتقرر الآية الثالثة خاصة الألوهية من العلم الشامل وعموم القدرة « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » وعموم القدرة وشمول العلم هما الأساسان فى فهم الحق بالنسبة إلى الألوهية وبالنسبة إلى البعث والجزاء وبالنسبة إلى الوحى والرسالة .

ثم تجىء الآية الرابعة فتقرر أن لله آيات يبعث بها أنبياءه إلى خلقه ، وهى آيات الشرائع والأحكام ، وآيات الخلق والاتقان ، ولكن الناس مع وضوح هذه الآيات تأخذ بهم فتنة الحياة عنها ، فيعرضون ويكذبون وهى الحق الذى تشهد به فطرهم ، وجاءهم من ربهم ، ثم تتوعدهم الآية على ما كان منهم من إعراض وتكذيب واستهزاء « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

كل ما جاء بعد ذلك تفصيل لهذه القضايا : أمثلة من السورة :

على هذه الآيات الأربع التى ركزت بها السورة فى أولها جهة الحق فى الألوهية والبعث والجزاء والوحى والرسالة ، أخذت السورة فى تفصيل الحجج وتصريف الآيات ، تهز بها العقل البشرى وتدفعه إلى النظر ، وتؤكد له هذه المطالب مع عرض موقف المكذبين بها المعرضين عنها ، ومن هنا جاء كل ما فى السورة إما متصلا بالسموات والأرض أو متصلا بالإنسان أو متصلا بالوحى أو متصلا بالبعث ، انظر إلى قوله تعالى : « قل لمن ما فى السموات والأرض » . « وله ما سكن فى الليل والنهار » . « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق » . « إن الله فالق الحب والنوى » . « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . « أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شىء » . « أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » .

كل هذا ونحوه عرضت له السورة تفصيلا لعم الله وآثار قدرته فيما يختص بالسموات والأرض وفيما يختص بنعمه على الإنسان .

ثم انظر قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » . « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » . « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » . « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » . « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » .

كل هذا مما عرضت له السورة تفصيلا لنعم الله فى الإنسان وإرشاداً إلى آثار قدرته فيه وسلطانه عليه .

ثم انظر قوله تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » . « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى » . « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » . « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه مايلبسون » « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ » . « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » . « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

كل هذا عرضت له السورة بيانا لحكمة رسالته إلى البشر ، ومهمة رسله ، وبيانا لما عرض للمعاندين من شبه وأوهام ، صرفتهم عن قبول الحق والاعتراف برسالة الله إلى خلقه .

وانظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيـه » . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » . « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون » . « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » . « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

كل هذا عرضت له السورة تقريراً لقضية البعث ، وبيانا لما سيسجلونه على أنفسهم حينما يصيرون إلى دار الجزاء ويرون بأعينهم آثارها فيهم .

استطراد بالإشارة إلى طرق القرآن
في الاستدلال على قضية البعث :

ومن الخير أن نشير هنا إلى أن للقرآن الكريم طرقا شتى في الاستدلال على قضية البعث ، فهو يستدل عليها بخلق السموات والأرض « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » . « أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى » ويستدل بخلق الإنسان : « يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » ويستدل بقياس الخلق الثاني على الخلق الأول : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » . « فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة » . « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » ويستدل بإحياء الأرض بعد موتها : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا

عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير » ويستدل بأن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته ، حتى يطهر المسيء من دنس النفس ، ويكون أهلا لرحمة الله الكاملة ، وهذان شأنان هامان ، إذ كثيراً ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه ، ودون أن يسهل طريق النقاء لمن دسَّى نفسه ، وإذن فلا بد من دار أخرى : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » ويستدل بأن الإعادة التى يستبعدها المعاندون لا تتوقف إلا على العلم والقدرة ، وهما عند الله من مرتبة ذاته العلية ، لا يعزب عن علمه شيء ولا يعجزه شيء : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وهنا نوع آخر من الاستدلال على البعث عرضت له كثيراً سورة الأنعام يقطع النظر فيه عن كل ما تضمنته هذه الأنواع من توجيه النظر إلى العلم والقدرة وإلى ما تقتضيه العدالة والحكمة ، وإنما يعرض شأن البعث باعتباره أمراً كائناً ليس موضع إنكار ، ولا محلا لريب ، وتصور فيه مواقف المنكرين ، وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم ، وكأن القرآن يقول لهم فى هذا النوع : أريحوا أنفسكم من الإنكار ، وأريحوا الرسول من الجدل والمناقشه ، وتعالوا فاعرفوا الواقع الذى سيكون ، وهذا هو الأحرى بكم ، وما يجب أن تعرفوه ، وأن يرتسم على صفحات قلوبكم ، وانظر فى هذا مثل قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون

من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هـذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العـذاب بما كنتم تكفرون » . « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذي يأخذ بالقلب ، ويثير الوجدان .

عَوْد إلى ما قبل الاستطراد :

وفي تضاعيف هـذا العرض للقضايا الثلاث تعرض السورة في صور مختلفة لموقف المكذبين من الرسل وأن التكذيب سنة قديمة وفي هذا تعالج نفس الرسول من اليأس وضيق الصدر بتكذيبهم إياه ، وتبين له حسن عاقبته ، وسوء عاقبتهم : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقـد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » . يعلو زبد الباطل فيخفي في ظلمته الحق ، حتى إذا ما تنبه أهل الحق واطمأنت قلوبهم إليه ، وانفعلت نفوسهم به ؛ تبددت ظلمة الباطل وانطفأت فقاقيعه ، وتجلى الحق وأخذ سلطانه ، واندحر الباطل وتوارى تلبيسه « فأما الزبد فيـذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » سنة الله ولا تجد لسنة الله تبديلا .

وبينما نرى السورة تصرف الآيات والحجج في هذه القضايا الثلاث على النحو الذي أرشدنا إليه ورسمنا خطوطه نراها تعرض لكل ما تذكر هذه النتيجة البينة الواضحة « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » .

التحريم والتحليل ليس من شأن البشر :

ثم تتابع السورة فنجدها تتناول بعض تصرفاتهم التي كانت أثراً من آثار الشرك في التحليل والتحريم لما خلق الله من الحرث والأنعام وتبين لهم خطأهم الواضح في هذا التصرف الذي تأباه طبيعة الأشياء أنفسها ، وتبين لهم أن التحليل والتحريم ليس من شأن البشر وإنما هو من شأن الخالق الحكيم الذي يعلم خصائص الأشياء وخلق كل شيء لغايته « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » . « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون » تشرح الآيات انحرافهم في التحليل والتحريم وتجعله في مستوى اعتدائهم على أولادهم بالقتل « سفها بغير علم » ثم تقفي كل ذلك بالتفنيد والإبطال : « قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

وفي هذا السياق تبين السورة ماحرمه الله من الطعام وتحصره في أربعة أصناف « قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » (١) .

القرآن يفند الشبه القديمة في الاحتجاج بالقضاء والقدر :

ثم تعرض السورة في سياق التحدث عن تصرفهم بالتحليل والتحريم للشبه التي كانوا يتمسكون بها في تبرير شركهم وفي التحليل والتحريم من دون الله ، وهي الشبه البشرية في قديم الزمان وحديثه فيما يتعلق بالإيمان والكفر ، والطاعة

---

(١) انظر هذا الحصر في الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، والآيات الأولى من سورة المائدة ، والآية ١١٥ من سورة النحل لتعلم أنه قرر في مكي القرآن ومدنيه .

والمعصية، وموقف الإنسان أمام التكليف الإلهى، وما ارتسم فى نفسه من معنى القضاء الإلهى، عرضت السورة لهذه الشبه وأجابت عنها بما يضع الحق فى نصابه، ويقطع على صاحبها حبل التمسك بها، ويحول بينه وبين ما يريد أن يضع نفسه فيه من أماكن التحلل من المسئوليات، والإلقاء بكل ما يرتكب من كفر وفسوق وعصيان على كاهل القدر الذى أساء فهمه، تجيب عنها بما يبرز العدل الإلهى فى أسمى معانى العدل، ويصور الحكمة الإلهية فى أسمى معانى الحكمة: «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء» يستدلون بشركهم وتحريمهم ما حرموا على أن الله رضيه وأمر به أو على أنهم كانوا بمشيئته شركهم وتصرفهم، مجبورين على الشرك والتحريم، فهم قد فهموا أن المشيئة إما آمرة طالبة، أو قاهرة مدبرة، وعلى كلا الوجهين فهم يرون بزعمهم هذا أنهم معذورون ولا ذنب لهم فى الشرك ولا فى التحريم، وقد حكى الله عنهم فى سورة النحل، وفى سورة الزخرف ـ وهما قد نزلتا بعد سورة الأنعام ـ أنهم قالوا ذلك بالفعل(١).

وهذه شبهة لا يزال أثرها عالقا بالنفوس إلى اليوم، يعتذر بها المفسدون ويجادل بها المبطلون، وقد ردتها السورة عليهم من جهات، ردتها بأن أمثالهم السابقين قد كذبوا الرسل فأشركوا بالله، وحرموا ما لم يحرمه الله، واعتذروا بالمشيئة كما اعتذروا، ومع ذلك عاقبهم الله على شركهم، فلو كانت الشبهة حقا لما عاقبهم الله على ما ارتكبوا بناء عليها «كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا» وردت عليهم بطلب مايثبت صحة ما يدعون من رضى الله بالشرك أو قهرهم عليه «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» وهو فى واقعه نفى لأن يكون عندهم مايثبت ذلك، ومن ضرورة نفى العلم بما يثبته أنهم ما اتبعوا فيه إلا محض الظن الناشىء عن التخمين والوهم «إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون».

وردت عليهم بأن العلم الحق الذى يجب أن تتلقوه هو ما تضمنته آيات الله من حجته البالغة «قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» والحجة البالغة

(١) انظر الآية ٣٥ من سورة النحل، والآية ٢١، ٢٢ من سورة الزخرف.

هى أن الله كلف ووعد وأوعد ، وذلك يقضى بالاختيار فيما يفعلون ، وبأن الله غير راض بما توعدهم عليه ، وأنه لو شاء هدايتكم لخلقكم غير مستعدين للمخالفة والعصيان وكنتم كالملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . ولكنه تركهم وما خلقكم عليه من اختيار ، وكلفكم بناء على ما منحكم من قوة وإرادة ، ورتب جزاء المحسن على إحسانه وجزاء المسيء على إساءته ، وأن علم الله بما سيكون من عبده ـ باختياره ـ ليس فيه جبر ولا إلزام ، كما أنه لا يدل على الرضا والأمر ، نعم : الله قادر على أن يسلب العبد قدرته على المعصية فلا يعصى أبدا ، وأن يسلبه قوة الطاعة فلا يطيع أبدا ، ولكن ليس ذلك من سنة الله فى الإنسان الذى خلقه ومنحه العقل وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين .

الوصايا العشر :

ثم تنتهز السورة من الحديث فى التحليل والتحريم فرصة لدعوتهم إلى ماحرم الله فى وصايا عشر ترجع إلى العقيدة وإلى الأموال والأنفس والمعاملة والفواحش والعدل والوفاء بالعهد ، ثم تكون الوصية العاشرة : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ختام السورة :

ثم تختم السورة بعد أن تقطع أعذار المشركين وتتوعدهم على الإعراض عن الحق بآية فذة تكشف للإنسان عن مكانته عند ربه فى هذه الحياة ، وأنه خليفة فى الأرض ، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يديه وتتعاقب عليه أجياله ، وأنه تعالى قد فاوت فى المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة ، وهى الابتلاء فى مواقف هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كمال المقصود من هذا الخلق وذلك النظام : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

أما بعد ـ فهذه سورة الأنعام فى منهجها وحجاجها ، وإلى العدد المقبل إن شاء الله ؟

حق الله وحق العبد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

الحق نوعان : حق الله ، وحق العبد ، ونريد بحق الله معنى عاما يشمل العبادة كالصلاة والصيام والحج ، والعقوبات كحد السرقة والقذف والشرب ، ويشمل التعزير أيضا (١) والكفارات والمصالح العامة التى لا تخص أحداً بعينه ، وما إلى ذلك مما لا يجوز العفو عنه والإبراء منه والصلح عليه . ونريد بحق العبد ما يخص شخصاً بعينه كالدين والدية والقصاص والضمان ، وما إلى ذلك مما يجوز العفو عنه والإبراء منه والصلح عليه .

ولو اتجه الحقان على شخص ، وتعذر عليه تنفيذهما معاً بحيث لا يستطيع إلا عمل أحدهما ، فهل يقدم حق الله أو حق العبد ؟ وتسهيلا للمعرفة لا بد من تحديد المورد الذى يقع فيه التزاحم والتصادم بين الحقين . وليس من شك أن التزاحم لا يتحقق إلا فى اتحاد المحل ، أما إذا وجد أحدهما دون الآخر فلا نزاع ولا صراع ، فالذى يضره الصوم لا يجب عليه أمران : مراعاة الصحة والصيام ، ثم يقدم الأول على الثانى ، وإنما تجب عليه مراعاة الصحة فقط ، أما الصوم فلم يجب أصلا ، إذن ليس هناك إلا حق العبد ، لأن الله لم يشرع حكما فيه ضرر أو حرج على الناس « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » وبهذا نجد تفسير

---

(١) الفرق بين الحد والتعزير أن الحد عقوبة قدرها الشارع ونص عليها صراحة ، أما التعزير فهى عقوبة لم ينص عليها الشرع ، بل ترك أمر تقديرها للحاكم ، فإن شاء حبس ، وإن شاء ضرب ، وإن شاء اكتفى بالتقريع بالكلام .

ما اشتهر على الألسن : (مراعاة الأبدان خير من مراعاة الأديان) أى أن جواز الإفطار للمتضرر من الصيام هو من الدين فى الصميم ، فلفظة من للبيان ، ولفظة خير لم يقصد بها التفضيل ، وإنما أريد بها ضد الشر . وكذا لو كان للإنسان مال يكفيه للحج ، وعليه ديون للناس فإن الواجب ، والحالة هذه ، هو وفاء الدين فحسب أما الحج فلا يجب لعدم الاستطاعة ، فلا يقال : وجد حقان لله وللعبد ، ثم قدم حق العبد ، وبكلمة : إن الحقين لا يتزاحمان إلا إذا بلغ كل منهما مرتبة التنفيذ ، وإليك المثال : لو رأى المصلى ماله مشرفاً على التلف ، وتوقف حفظه على قطع الصلاة الواجبة بحيث إذا مضى فى صلاته ذهب المال ، وإذا قطعها استطاع أن يحفظه ، فهذا المورد ونظائره يجتمع فيه الحقان ، ويجرى الترجيح والتقديم .

ومن تتبع كلمات الفقهاء يرى أنهم فى بعض الموارد يقدمون حق العبد ، وفى بعضها يقدمون حق الله ، وفى مكان ثالث يساوون بينهما ، ولا يرجحون أحدهما على الآخر ، فمن موارد تقديم حق العبد المثال المتقدم ، وهو قطع الصلاة لحفظ المتاع ، فقد روى عن أهل البيت عليهم السلام أن المصلى (يقطع صلاته ، ويحرز متاعه ، ثم يستقبل الصلاة) ومنه إذا توفى رجل ، ولم يترك سوى مائة دينار ، وعليه ديون للناس تستغرق المبلغ بكامله ، وقد أوصى أن يستناب عنه لأداء ما فاته من الصلوات الواجبة بأجرة من تركته ، فهنا يقدم وفاء الدين على الوصية (١) .

ومن أمثلة تقديم حق الله على حق العبد : لو كان عليه دين سابق ، ثم ملك عيناً فيها الخمس ، فإذا وفى بها الدين ذهب الخمس ، وإذا دفع خمسها بقى عليه قسم من الدين ، وهنا يقدم الخمس ، لأن فيه جهة عامة .

ومن أمثلة التساوى بين الحقين : لو استطاع الحج ، ثم أهمل حتى توفى قبل أن يحج ، وعليه ديون للناس ، وترك مبلغا من المال لا يفى بالدين والحج بحيث

---

(١) قال العلامة الحلى فى كتاب التذكرة باب الوصية : أن السنة منعوا من الوصية بالصلاة عن الميت ومن التبرع بها عنه ، وقد أجاز الإمامية ذلك مستدلين بأحاديث عن أهل البيت بلغت حد التواتر .

لو أنفق المال فى سبيل أحدهما بقى الآخر . والحكم هنا التخيير بين وفاء الدين ، والاستئجار للحج بدون ترجيح (١) .

ومن هنا يتبين خطأ القول بأن حق العبد أهم من حق الله ، ومقدم عليه ، وربما كان الباعث على هذا القول الحديث الشريف : « الذنوب ثلاثة : ذنب يغفر ، وذنب لا يغفر ، وذنب لا يترك ، فالذى يغفر ظلم الإنسان نفسه ، والذى لا يغفر ظلم الإنسان ربه ، والذى لا يترك ظلم الإنسان غيره » ولكن هذا الحديث لا يدل من قريب أو بعيد على التفاضل والترجيح بين الحقوق ، وإنما يدل على أن بعض الذنوب يمكن فيها التساهل والتسامح ، وبعضها يؤاخذ مرتكبها على كل حال .

لا يوجد فى الشريعة الإسلامية قاعدة عامة تستتبع تقديم حق العبد مطلقا وفى جميع الحالات ، وإنما يختلف التقديم والتأخير باختلاف الموارد ، فقد يقدم حق الله ، وقد يقدم حق العبد ، وقد يتساويان . نعم ، الغالب أن تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إلا فيما ندر ، كمن أراد أن يبذل جميع مايملك فى مشروع عام ، ويبقى فقيراً معدما .

وخير وسيلة لمعرفة الأهم من الحقين النص الثابت وإجماع الأمة ، فإن وجد أحدهما تعين الأخذ به ، وإلا فالمعول على الفطرة والعقل السليم الذى عبر عنه الشيخ الأنصارى بأنه شرع من الداخل ، كما أن الشرع عقل من الخارج (٢) .

إن الإنسان كما يميز بين النافع والضار ، وبين الصالح والطالح يدرك أيضا الأصلح والأنفع ، وأى عاقل لا يدرك أن إنفاق تلك الجواهر والنفائس المدفونة فى روضة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار ، أى عاقل لا يدرك أن إنفاقها لحياة طيبة وعيش أفضل خير عند الله ألف مرة من بقائها فى الظلمات تنتظر التلف أو النهب ، فلقد حدثنا التاريخ عن نهب الكعبة الشريفة ، واختلاس جواهر الروضة النبوية ، ونفائس حضرة الإمام الحسين بن الإمام على ،

---

(١) مستمسك العروة الوثقى لمرجع الطائفة السيد محسن الحكيم ج٧ ص٦٩ الطبعة الأولى .
(٢) كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل باب القطع .

كما حدثنا الحجيج عن الجحافل الجرارة من المتسولين يطاردون بجموعهم الحاج ، ويحاصرونه من كل جانب ، لأجل قشر الفاكهة وفتات الطعام ؛ نجود بالمادة على المقابر ، ونبخل بها على الأحياء ؟ وما كان النبي وأهل بيته - وهم الذين حاربوا المترفين ، ومن يكنز الذهب والفضة - أن يرتضوا هذه الزخارف ، وملايين الجياع العراة المصدورين حول قبورهم تكابد الأهوال .

تتقدم الحياة فى كل مكان إلا فى الأمكنة المقدسة ، مع أن أهلها أولى الناس بالحياة ، لأنهم فى أشرف دار ، وأعظم جوار ، لأنهم فى مكان انبعث منه الحرية والنور ، وانطلقت القوى تهدم الشر ، وتزلزل الظلم والفساد ، بهذا كانت تلك الديار أسمى من كل دار لا بالجواهر واللآلىء .

وقد اتفقت كلمة المذاهب الإسلامية على تحريم نقش المساجد وتزيينها بالذهب لأنها بدعة وإسراف ، وذهب الكثير من الفقهاء إلى تحريم زخرفتها بالنقش والتصوير ، لأن الرهبة والجلال فى أسرار العظمة وتواضعها وصفائها ، لا فى البهارج والمظاهر .

ثم هذه النذورات تلقيها النساء على قبور الأولياء ، أين مكان هذا العمل من الدين والشرع ؟! تنذر المرأة حليها أو ثيابها أو مبلغاً من المال لصاحب المقام إن حملت أو شفى طفلها من علته ، حتى إذا تحققت أمنيتها هرولت إلى القبر ، وألقت عليه بأعز ما تملك ، أما مصير هذه النذورات فإلى المتولى وأهله يتصرفون بها كيف يشاؤون لا يسألهم عنها سائل ، ولا يحاسبهم عليها محاسب ، كأنها من عملهم وكسب أيديهم .

لقد أراد الناذر من نذره أن يعمل خيراً يرضى الله وصاحب القبر ، ولكنه اعتقد خطأ أن الخير يتحقق بوضع المال على القبر ، أى أن الخطأ والاشتباه من الناذر حصل فى التشخيص والتطبيق ، أما القصد فسليم والإرادة صحيحة ، فعلى الناذر إذا تحقق مراده أن ينفق ما نذر فى سد حاجة ترضى الله والرسول وصاحب القبر وصالح المؤمنين ، أى ينفقه فى السبيل الذى يختاره صاحب القبر لو كان حيا .

المجتمع القرآني

— ٤ —

علاقة المسلمين بغيرهم في الحرب وفي السلم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهره
وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

---

١ — إن المتتبع لنصوص القرآن الكريم ، والمأثور من الحديث النبوى الشريف يرى حقائق واضحة تسود معاملة المسلمين لغيرهم ، وهى الحاكمة المميزة بين العمل الذى يقره الإسلام والعمل الذى لا يقره الإسلام فى المعاملات الدولية - وتلك الحقائق خمس - : هى العدالة ، والمعاملة بالمثل ، والفضيلة ، والوفاء بالعهد ، ونصر الضعيف من غير نظر إلى جنسه أو لونه أو دينه ، ويدخل فى هذا الباب حماية الحريات الإنسانية وخصوصاً حرية الاعتقاد ومنع الفتنة فى الدين ، والاضطهاد لتحويل عقيدة الشخص قهراً غير مختار ، حتى يكون التدين لله ، والتدين الحر أساس لكل خير ، وحماية من كل شر ، ولنشر إلى كل واحدة من هذه الحقائق بكلمة معلمة وإن لم تكن مفصلة .

٢ — (١) العدالة :

قامت كل علاقة إنسانية فى الإسلام على أساس من العدالة ، واعتبار الناس جميعاً سواء ، وأنه لا تفاضل بينهم أمام الأحكام - وإن كان ثمة تفاضل فى الأعمال وفى الجزاء عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإن نصوص القرآن الكريم

فى ذلك كثيرة متضافرة ، وأوضحها فى معاملة المخالف المحارب - بالعدل ، قول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » وقوله سبحانه فى الأمر العام بالعدل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ولقد ذم القرآن اليهود الذين كانوا يعدلون فيما بينهم ويأكلون حقوق غيرهم ممن ليسوا يهوداً ويقولون : « ليس علينا فى الأميين سبيل » وإن تحقيق العدالة بكل معانيها هى المقصد الأسمى للأديان ، وذكر القرآن أن العدل هو الأمر الذى اجتمعت عليه النبوات والديانات السابقة كلها ، فقد قال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وفى الجزء الأخير من النص الكريم إشارة بينة إلى أنه إذا كانت حرب يجب أن تكون لتحقيق القسط بين الناس لا لتوسيع هوة التفاوت بينهم بتسليط الغالب على المغلوب ، فالحروب يجب أن يكون الباعث عليها عدلا ، ويجب أن تكون فى نتيجتها تحقيق العدالة بين البشرية .

٣ — ولقد وردت الأحاديث النبوية متضافرة على العدل ومنع الظلم مع العدو والولى ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم « : ان الله كتب على نفسه العدل فلا تظالموا أى لا يظلم بعضكم بعضا » ، واعتبر النبى من يعاون الظالم فى ظلمه خارجا على الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم فقد خرج من الإسلام » وإن بر الإنسان بقومه وجنسه أو بنى وطنه لا يسوغ له بحال من الأحوال أن يعاونهم على الظلم ، وقد صرح بذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد سأله أبى بن كعب : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ قال : لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ، فالعصبية الظالمة منهى عنها ، وقد ورد النهى فى مثل قوله : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية » .

ولقد دعا النبى الذين يتعصبون لأقوامهم وأوطانهم ألا ينصروها وهى ظالمة ، واعتبر الناصر لقومه على الظلم كمن يتردى فى ركية من النار فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

« مثل الذى يعين قومه على الظلم كمثل البعير المتردى فى الركى ، فهو ينزع بذنبه » وإن ذلك التشبيه صادق كل الصدق فى زمننا ، فإن مبالغة القادة والزعماء فى نصرة أقوامهم بالباطل ليلتهموا الأرض والأنفس ، قد جعل العالم يتلظى فى أتون من نيران الحروب حتى إذا أطفأ الله ناراً أجج ابن الأرض أخرى ، وذلك بسبب النصرة الظالمة للأقوام والتعصب المردى للأوطان وإهمال كل حق للإنسان .

٤ — (٢) المعاملة بالمثل :

دعا الإسلام إلى العدالة المطلقة التى لا تعرف قريبا مواليا ، أو بعيداً معاديا ، ودعا إلى قانون عادل فى معاملة المسلم لغيره ، سواء أكان مسلما أم كان غير مسلم ، وسواء أكان التعامل بين الأفراد أم كان بين الجماعات والدول ، وذلك القانون العادل هو قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم : (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) وبمقتضى هذا القانون العادل فى ذاته كان على المسلم أن يعامل من يعتدى عليه بمثل هذه المعاملة ، وإذا كان الاعتداء ظلما فرده عدل ، ولذا كان القانون المعاملة بالمثل قانوناً إسلامياً عادلا ، وقد جاء فى القرآن الكريم : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ومن أجل ذلك شرع القتال فى الإسلام ، فقد شرع على أنه أساس لدفع الاعتداء ، فقد قال تعالى : « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

ونرى فى هذا النص دلالة على أمرين جليلين :

أحدهما : أن القتال فى الإسلام إنما أبيح لرد الاعتداء بمثله ، فهو لا يقاتل إلا الذين يعتدون على أهله ويقاتلونهم .

الأمر الثانى : أن يُلاحَظَ منْ يَرُدُّ الاعتداء أنه أبيح له القدر الضرورى للدفاع ، فلا يصح له أن يعتدى فلا يتجاوز حد الدفاع ، ولا يعتدى فى دفاعه ، فيقتل من لا يقاتل ، أو يسعى لإفساد الأرض ، وإهلاك الحرث والنسل .

ولهذا المبدأ وهو المعاملة بالمثل أباح الإسلام استرقاق أسرى الحروب ، ولم يبحه فى غير ذلك ، فإن محاربيه كانوا يسترقون الأسرى ، وذلك كان أقل ما يصيب

عليهم من عذاب ، فقد كانوا يذبحونهم ويقتلونهم بالجوع ويمثلون بهم ، وما كان الإسلام يبيح شيئا من ذلك حتى مع الذين حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أباح الإسلام الاسترقاق فى الحروب كضرورة حربية فى حال الحرب ، فلا رق فى سواها ولتطبيق قانون المعاملة بالمثل فى أضيق حدوده ، ولقد عامل الرقيق بأرفق معاملة رآها تاريخ الإنسانية .

٥ — (٣) الوفاء بالعهد :

جاء الإسلام داعياً إلى السلام ، وإن كان أشد ما يبغضه الاستسلام ، ولذلك كان إذا جنح محاربه إلى السلام العزيز الكريم سارع إليه ، فقد قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وإن السبيل إلى استقرار السلام هو المعاهدات السلمية ، وإن هذه المعاهدات لا تستمد قوتها من نصوصها فقط ، بل من نية عاقديها على الوفاء ، ولذا حث القرآن على الوفاء بالعهد ، واعتبر اخلاف العهود من علامات النفاق ، وننقل هنا نصاً واحدا من نصوص القرآن الكريم فى هذا الباب وإنها لكثيرة جداً ، لقد قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا (١) إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا (٢) تتخذون أيمانكم دخلا (٣) بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة (٤) ، إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه

(١) فى هذه العبارة إشارة إلى أن من يعقد عهدا تحت اسم الله أو بيمين ، فمعنى ذلك أنه قد اعتبر الله كفيله فى الوفاء ، وأن من يخون بعد ذلك لا يكون قد خان من عاهده فقط بل يكون قد خان الله أيضا .

(٢) معنى هذا النص أن الذى ينقض عهده يكون كتلك المرأة التى أخذت تعمل وتجتهد فى غزلها ثم تفكه بعد ذلك ، وفى ذلك إشارة إلى أن العهد قوة ومن ينقضه فهو ضعيف النفس وإلى أن السلم الذى تقرره العهود مطلب أسمى لا يصح أن ينقض ليطلب من جديد ،

(٣) أى تتخذون اليمين للغش والخديعة .

(٤) أربى : أى أكثر وأنمى .

تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ، ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا ، إنما عند الله خير لكم إن كنتم تعلمون » .

إن الناظر نظرة عميقة إلى هذا النص الكريم المقدس ، يجده يشير إلى ثلاثة أمور جليلة :

أولها : أن الباعث على الغدر فى الدول هو الرغبة فى أن تكون أمة أربى من أمة ، أى أكثر عددا وأقوى قوة ، وأكثر موارد وثروة ، وإن ذلك إن اتخذ الغدر طريقا قد يأتى بنقيضه ، ولذا قال فى هذا النص : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) أى طريقاً للغش ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذهب القوة والحصانة التى أوجدها العهد ، ولا يدرى إلا الله ما يكون نتيجة لهذا الغدر الآثم .

الأمر الثانى : أن الله سبحانه وتعالى خلق بنى آدم من أصل واحد ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة متحدة الجنس ، واللون ، واللغة ، والمعرفة ، ولكن خلق هذه الأمور ليميز الإرادات الإنسانية التى تتجه نحو السمو والعلو عن الإرادات الأرضية التى تكون لصيقة بالأرض وأهواء النفس ، وبذلك يسير الناس فى هذا المعترك الإنسانى ، وقد أرهفت قواهم ، وصقلت مداركهم ، وكانت لهم إرادات نحو الخير وإرادات نحو الشر ، ويجزى الله المحسن إحسانا وعاقبة المسيء ما تسوءه .

الأمر الثالث : الذى يشير إليه النص الكريم هو أن السلم المستتب الذى تنظمه المعاهدات الدولية ، ويكون هو أساسها هو المقصد الأسمى والمطلب الأعظم ولذلك شبه سبحانه وتعالى الذى ينقض العهود بعد توكيدها بالتى تغزل غزلا لها ، خيوطه مطالب ومآرب لها ، ثم تنقض ذلك الغزل بيدها .

٦ — وبهذا يتبين أن القرآن إذ يدعو فى كثير من نصوص عامة إلى الوفاء بالعهود بين الآحاد والأمم ، ويخص العهود التى تكون بين الأمم بنص خاص بها ، وهو النص الذى ذكرنا ، والنبى صلى الله عليه وآله وسلم قد حث فى طائفة كبيرة

من الأحاديث على الوفاء بالعهود عامة ، وعلى الوفاء بالعهود التي يعقدها رؤساء الأمم في تنظيم العلاقات الدولية خاصة ، ولقد كان يقول صلى الله عليه وآله وسلم : (ألا أخبركم بخياركم ؟ خياركم الموفون بعهودهم) وكان يقول : (أنا أكرم من وفى بعهده) ويقول : (أنا أحق من وفى بعهده) وقد عقد عهدا مع المشركين على ألا يقاتلوهم ، ثم ذكر له أنهم على نية أن يقاتلوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : وفوا لهم ، ونستعين الله عليهم .

٧ — (٤) الفضيلة :

إن العلاقات الدولية سواء أكانت ثمة حرب أم كانت ثمة سلم بعهد أم بغير عهد ، فإنه يجب أن تسود الفضيلة هذه العلاقات فإن قانون الأخلاق قانون عام يشمل الأبيض والأسود والأحمر ، ويشمل الناس في كل الأقطار والأمصار ، لا فرق بين جاهل وعالم ، وإن ما هو شر إن صنعته مع ابن وطنك يكون حتما شراً إن صنعته مع محاربك ، لأن المعاملة بمقتضى قواعد السلوك الفاضل حق لكل إنسان يستحقها بمقتضى هذه الإنسانية التي هي وصف مشترك بين كل أبناء آدم ، ولذلك نجد القرآن الكريم كلما أمر بالجهاد كان بجواره الأمر بالتقوى ، وتقوى الله تعالى قوامها الاستمساك بالفضيلة ، فمثلا نجد النص الذي نقلناه ، والذي يوجب المعاملة بالمثل قد اقترن بالأمر بالتقوى إذ يقول سبحانه : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) أي أن المعاملة بالمثل يجب أن تكون في دائرة الفضيلة الإنسانية ، فإذا كان العدو يمثل بالقتلى فإنه لا يسوغ للمسلمين أن يمثلوا بالقتلى كما يفعل ، والمشركون في غزوة أحد قد مثلوا بعم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حمزة بن عبد المطلب ، ولم يفكر عليه السلام في أن يمثل بأحد من قتلاهم ، بل كان ينهى عن المثلة ؛ فيقول عليه السلام : (إياكم والمثلة ولو بالكلب) وإذا كان يجيع الأسرى ويظمئهم فإنه لا يصح لجيش الفضيلة أن يجيع أسيرا أو يقتله عطشا ، بل أوصى القرآن به خيرا واعتبر إطعامه فضيلة من أكبر صفات المؤمنين ، وإذا كان العدو ينتهك الأعراض فإنه لا يسوغ

للسلم أن يجاريه فى انتهاك الحرمات ، وإن كان العدو المحارب يقتل الذرارى والذين لا يقاتلون ولا رأى لهم فى القتال لا يصح أن تجاريه ، وإنه قد بلغ حرص الإسلام على المعاملة بالفضيلة والعدل أن حرّم التعامل بالربا فى دار الحرب للمحاربين كما حرمه فى دار الإسلام بالنسبة للمسلمين ، واقرأ وصية النبى صلى الله عليه وآله وسلم لجيش أرسله ، فهو يقول :

(انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ، ولا تَغُلُّوا (١) ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين) ولقد قال عليه السلام لجيشه ، وقد بلغه قتل بعض الأطفال : ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا ذرية . ويقول صلى الله عليه وآله وسلم فى وصية ثالثة لجيوشه :

(سيروا باسم الله فى سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تنفروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا) ويوصى بالأسير ألا يقتل ، فيقول : (لا يعترض أحدكم أسير أخيه فيقتله) .

وكان عليه السلام ينهى عن قتل النساء والعمال ، وقد رأى امرأة مقتولة فى إحدى الغزوات التى غزاها خالد بن الوليد ، فقال مستنكرا : ما كانت هذه لتقاتل وأرسل إلى خالد يقول له : (لا تقتل ذرية ولا عسيفا) (٢) .

وهكذا نجد الهدى الإسلامى يقيد القتال بالفضيلة ، فيمنع الاعتداء فى القتال ابتداء ، وفى أثنائه ، وفى نهايته ، فلا قتال مع من لا يعتدى على الإسلام ، ولا قتل لمن لا يقاتل إذا نشبت الحرب ، ولا اعتداء بعد انتهاء الحرب ، بل معاملة رفيقة لمن كانوا فى أيدى المسلمين من الأعداء ، ولم يأخذوهم إلا بعد أن اثخنوا فى الأرض.

وإنه فى السلم يجب أن تسود الفضيلة ، فلا تنتهك حرمات المخالفين ، ولا يباح فيهم ما لا يباح مع المسلمين ، حتى إن الربا يحرم فى معاملة المسلمين ، فيحرم أيضاً فى معاملة المسلم مع غير المسلم .

---

(١) أى لا تخونوا . (٢) العسيف : العامل المنصرف لزراعة الأرض أو لأى عمل آخر

ولقد حث الإسلام على المودة تربط بين المسلم ومن يخالفه ، فقد جاء لتقوية الصلات ، ولم يجيء لقطعها ، ووصف المؤمنين بأنهم يصلون ما أمر الله به ، ووصف المشركين بأنهم يقطعون ما أمر الله به ، وتلك هي الفضيلة والطريقة المثلى .

٨ — (٥) نصر الضعيف وسد حاجته :

هذا هو أساس التعاون الإسلامي ، فلا تعاون إلا إذا لوحظ حق الضعيف ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أبغوني في ضعفائكم ، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم) وحث الإسلام على معاونة الضعيف من غير نظر إلى دينه لأن الضعف يجب أن تسد خلته أيا كانت نحلة صاحبه ؛ وليس لمسلم أن يعيش ممتلئا ويعيش جاره من أي دين كان طاويا .

ولقد عمل الإسلام على نصر الضعفاء في السلم وفي الحرب ، فلم يسغ لحاكم المسلمين أن يذل غير المسلم ، وقد قرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن من كلف ذمياً فوق طاقته فقد برىء منه عليه الصلاة والسلام ، وقرر الإسلام أن الدولة الإسلامية عليها أن تكفي من يكونون في حاجة من غير المسلمين الذين ينضوون تحت لوائها ، ويخضعون لحكمها ، ويروى أن عمر بن الخطاب رأى شيخاً ضريراً يتكفف الناس ، فسأله عن حاله ، فعلم أنه من أهل الذمة ، فقال الإمام العادل : (ما أنصفناك أخذنا منك الجزية صغيراً ، وضيعناك كبيراً ، وأجرى عليه وظيفة دائمة من بيت المال .

ولم يكن الأمر مقصورا على من كانوا في ظل المسلمين ، بل تجاوزهم إلى الذين يناوئون المسلمين ، وإنه ليروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغه أن قريشاً أصابتهم أزمة جائحة ، وذلك في مدة الموادعة بينه وبينهم ، فأرسل إلى أبي سفيان ابن حرب الذي كان زعيم الشرك إبان ذاك خمسمائة دينار ليشتري بها قمحاً ، ويسد به خلة فقراء قريش .

هذا في حال السلم ، أما في حال الحرب ، فإن الإسلام ما كانت حروبه

إلا لرد الاعتداء ، ولكف أذى الملوك عن رعاياهم ، ولذلك كانوا يجدون فى حكم الإسلام إنقاذاً ورحمة لم يكونوا يستمتعون بهما من قبل .

والإسلام كان يعمل على نصر الضعفاء من الدول والقبائل ، ويعاهد على منع الاعتداء على الضعفاء ، فقد كانت هدنته مع قريش تتضمن تعهد قريش له ألا يعتدوا على خزاعة ، فلما اعتدوا عليها غضب ، ونبذ إليهم عهدهم لأنهم نقضوه ، وظنوا أنه يمالئهم على هؤلاء الضعفاء وهم مشركون مثلهم ، ولكنه صاح صيحة الحق يقول : (لانصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى) ولما روجع فى ذلك قال مقالة المعتزم المصمم : (والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤيد كل حلف يكون أساسه نصر الضعيف ، ولقد حدث ، وهو فى نحو الخامسة والعشرين حلف سمى حلف الفضول تعاهدت فيه طائفة من قريش لتنصرن الظالم على المظلوم مارسا ثبير وحراء ، وما بلّ بحر صوفة ، وكان ذلك فى دار عبد الله بن جدعان ، ولقد ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن أقام دولة الإسلام ، فقال : (لقد حضرت فى بيت عبد الله ابن جدعان حلفا ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت) .

هذا هو الإسلام يعتبر الإنسانية كلها أسرة واحدة يعاون فيها القوى الضعيف ، والعالم الجاهل ، فيتحقق قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) ؟

[انتهى البحث]

أيها أصلح لحالتنا الدينية والاجتماعية

التوحيد ، أو التقريب والتعريف ، أو التفريق

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ ابن الدين - طهران

مضى على فكرة التقريب زمن قصير ، ومع ذلك نراها قد خطت فى خلاله خطوات واسعة نحو التقدم والانتشار ، وإن ذلك ليبشرنا بتقدم أكثر وانتشار أوسع إن شاء الله تعالى ، فقد تبقى الفكرة الدينية أو الاجتماعية أو السياسية طيلة قرون وأعصار لا تجد فى خلالها منبتاً خصباً مهما كان القائمون بها حرصاء على إنمائها وتوسيع نطاقها ، أما إذا صادفت ظروفا وأحوالا تساعدها على الازدهار والتوسع فسرعان ما تنبت وتنمو وتورق وتزهر وتقوم على ساق وتعطى أكلها كل حين.

على أن مساعدة الظروف والأحوال وحدها لا تكفى فى نمو أية فكرة دينية أو اجتماعية أو غيرها ما لم يقم بإنمائها رجال مفكرون محنكون دارسون حالة المجتمع ، واقفون بمواضع الحاجة من الأمة ، كما أن الكائنات الحية لا تكاد تنمو وتزدهر سريعاً ما لم يتدخل فى شئونها من يحسن تربيتها والقيام بأمرها ، علاوة على ما يلزمها من مساعدة البيئة والمناخ .

فقد كانت فكرة التقريب لا تزال تدور فى خلد نبهاء الأمة والمصلحين من الفريقين ، ولم تزل تتعرقل مساعيهم بما يقع فى سبيلهم من العقبات الكأداء ، وما يصادفهم من العثرات التى تحول دون تقدم أية فكرة إصلاحية تعود بالنفع الجزيل للأمة الإسلامية ، أما وقد صادفت رجالا مفكرين يقومون بإزالة تلك العقبات بما أوتوا من دربة وحنكة وقوة وجهد فلا بد لها من هذا التقدم والانتشار.

وأريد ، فى هذه العجالة ، بيان الخطة التى يختطها - أو لا بد أن يختطها - زعماء التقريب ، إذ نرى كثيراً ممن لا يحيطون خبراً بمرامى الفكرة لا يزالون يتساءلون عن الغاية التى تنحو نحوها ، والأهداف التى ترمى إليها جماعة التقريب زاعمين أنهم يحاولون توحيد المذاهب الإسلامية الأمر الذى يجعل هؤلاء واثقين

باستحالته مهما كان القائمون به مولعين بتحقيقها ، فى حين أن هذا الزعم لا نصيب له من الحقيقة ، وبمعزل عن الصواب ، وإن بين ما يحاول زعماء التقريب وما يراه بعض ذوى الأغراض أو غير المتعمقين ، من أنهم يحاولون توحيد المذاهب بوناً شاسعاً ومسافة بعيدة ، وذلك ما أوجد فينا رجالا لا يحبذون الفكرة بحجة أنها تحاول توحيد المذاهب ، وذلك ما لا يستطاع ولا يصلح لحال الأمة ولا يلائم نزعاتها ، ويكون عبارة عن إبداع أمر ثالث يغاير آراء كلا الفريقين ، ويحملهما يتفقان على دحضه أو على الأقل على عدم الاعتناء بشأنه ، ونحن أيضاً ممن يضمون صوتهم إلى أصوات هؤلاء ونقول : عبثاً يحاول من يعمل لتوحيد المذاهب واصطناع فكرة ثالثة واسطة بين هذا وذاك ، فإن ذلك ما يتبرأ منه كلا الفريقين كما يتبرأ منه أصحاب التقريب أنفسهم ، ويبتعد عنه دعاة الفكرة (١) .

وكثيراً ما يقرع سمعنا نعرات من مخالفى التقريب أنه أيهما يريد ؟ جعل الشيعة سنة وهو ما يتبرأ منه الفريق الأول ، أو السنة شيعة وهو ما يتبرأ منه الآخرون ؟ فبأى شىء يحصل التقريب ، وفى الحق أنه لا يروم شيئا من ذلك ، بل يبتعد عنه كل البعد ، وإن أولئك الذين ينسبون أمثال تلك المزاعم هم المخالفون لسد هذه الهوة الواسعة بين الفريقين ، تلك التى جرت عليهم الويلات ، وجعلتهم ألعوبة فى يد الأقوياء .

فلندع هذا التوحيد الداهم جانبا ونولى وجهنا شطر أمر آخر هو الغرض الأسمى لتلك الجماعة ، وهو الذى يسعى إليه حماتها ، أعنى التقريب بتمام معنى الكلمة - كما يظهر من لفظه - وهو الدعوة إلى أن يحتفظ كل من الفرق الإسلامية بمبادئها ونزعاتها وأعمالها على اختلافهم فى ذلك ، ثم لا يمنعهم ذلك كله من القيام بأمور عامة تعود على المجتمع الإسلامى بالخير وتجعلهم أمة واحدة يكون لها ما يكون لكل فرقة وعليها ما عليهم من الشئون الاجتماعية .

---

(١) إذن فمحاولة الجمع بين الخلافة والإمامة وتأويل كل منهما بما يرجع على الآخر وجمعهما على أمر واحد يتفق فيه الفريقان ، كما تكلف له بعضهم محاولة غير مجدية فى حل المشاكل مع ما فيه من عدم قبولها لهذا الحل ، وكذلك الأمر فى بعض الفروع كالحكم بالتخيير فى الغسل والمسح على الرجلين جمعا بين الفريقين فإن ذلك ما لا حاجة إليه ، وهب أنا جمعنا فى مسألة يمكن الجمع بينهما فماذا نفعل فى مباحث أخر لا يمكن مثل هذا الجمع .

وكثيراً ما نجد اختلافا فى أكثر الشئون فى أية وجهة سواء فى المآكل والملابس والأزياء والآراء، ويوجد فيهما حماة للقديم وحماة للجديد (١) ولا نجد أى مشاغبة بينهما مع اختلافهما فى تلك الشئون، بل ولا موجدة من أحدهما على الآخر، ونجد الأمر كذلك فى المباحث العلمية والفلسفية، فليس من اللازم على من يتخذ رأياً فى الفلسفة ويروق فى نظره أن يقوم بهدم ما سواه بكل قوة وجهد، مصطحباً ذلك بالشتم والسباب، فيكون ذلك انحرافا عن الشايع بين أصحاب النظريات والآراء والمعتقدات فى مناظراتهم .

وهنا نصل إلى نقطة واحدة تتركز فيها الأهداف الإصلاحية فيما نحن بصدده وهو أن يكون الإمامى مثلا على رأيه فى المبادىء والفروع حسبما تصل إليه فكرته ويهدى إليه دليله، والشافعى مثلا على رأيه كذلك حسبما تأدى إليه نظره، وكذلك سائر الفرق، ثم لا يمنع ذلك من الاستدلال النزيه عن شوائب الأغراض بآراء فريق آخر والإدلاء برأيه، كل ذلك غير مصحوب بما يتعدى فيه عن حريم الأدب والنزاهة (٢)، وكم لها من نظير فى المسائل والمشاكل العلمية، فترى أحدهم يقتنع بما يقيم فى موقفه إزاء خصمه من الدلائل ويبذل قصارى جهده فى تدعيم دلائله بما يسوق الخصم إلى القبول، بينما نجد من بعض هؤلاء من لا يتعب نفسه فى إقامة الدليل لإقناع خصمه، بل يكتفى بما يناله لسانه وقلمه من الشتائم بما لا يلائم نهج المناظرة، ولا شك أن الطريقة الأولى أقرب إلى النجاح من الأخرى التى تبعد عن المرمى كل البعد .

وهناك أمر آخر يقرب من التقريب فى الأهداف التى يتوخاها دعاة الفكرة ويقع فى الدرجة الأولى من الأهمية، بل هو كالدعامة له، وبه ينقطع كثير من المنازعات التى تقع بين الفريقين ألا وهو (التعريف) أى التعريف والبيان لكل فريق بما يعتقده الآخرون، فقد حدث كثيراً أن أحد الخصوم يقوم بهدم النظرية

(١) لعلنا نلم بهذا الخلاف بين القديم والجديد فى عدد آخر .

(٢) كالطريقة التى اتخذها العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين فى المباحث المختلف فيها بين الفريقين .

التى تقع مورداً للنقض والبحث من دون أن يعتمد فى ذلك إلى ركن وثيق فى تحقيق الدعوى ولا رجوع إلى المراجع الصالحة لذلك ، بل يستند إلى كذب وافتراء ، فمن اللازم على التقريب أن يُعرف المراجع المعتمد عليها عند كل فريق كى لا تنقلب الدعوى إلى ما لا يقربه الخصم (١) ، ويرشد إلى المظان التى جرى البحث فيها عمن يليق بهذا البحث من غير المتطرفين ، كما يرشد إلى من يتوافق رأيهم فى مسألة من علماء الفريقين (٢) .

ويقابل الأول (التوحيد الذى نوهنا عنه) فى التطرف التفريق أى توسيع تلك الهوة العميقة التى حدثت فى القرون الأخيرة بين الأمتين ، ومزقت الأمة الإسلامية كل ممزق ، وجعلتهم شعوباً مختلفين كأنهم لا جامع يجمعهم ، وليسوا أمة واحدة ، وربما كان الاتصال من فريق إلى أمة غير مسلمة أقرب منهم إلى فريق آخر من المسلمين ، وذلك مما يؤسف له أشد التأسف فنجد كثيرا من هؤلاء يتبعون أثر الأحقاد والدفائن التى مرت عليه القرون ونسجت عليه عناكب النسيان ، وينهضونها من مراقدها كى يجددوا تلك المشاغبات التى نحن الآن فى غنى عنها ، فقد آن لنا ـ ونحن فى ذلك الموقف الحرج فى أمس الحاجة إلى ما يجمع شمل المسلمين ويلم شعثهم ويقيم أودهم ويوحد صفوفهم ويجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ـ أن نثوب إلى رشدنا وننبذ تلك الأحقاد والضغائن التى أكل الدهر عليها وشرب ، وأن نلبى دعوة الله عز وجل فى كتابه الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » فنحن الآن إلى الوفاق والوئام أحوج منا إلى الخلاف والتفريق الذى يقوم به كثير ممن يتظاهرون أنهم بذلك يؤدون خدماً للإسلام « ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شىء محيط » .

---

(١) وقد كان المرحوم السيد رشيد رضا يسند إلى الإمامية أحكاما من دون أن يراجع إلى مداركها الصحيحة ، بل عما ينشر عنهم أو يأخذ من المراجع غير المعتمدة عندهم .

(٢) حيث أنه قلما يوجد رأى فى الفقه من أحد الفريقين لا يوافق مع رأى فقيه آخر فى فرقة أخرى .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

— ٥ —

فرقة المسلمين فى دينهم أفضت بهم إلى شىء من البغض والتخاذل وعدم التعاون كأنهم ينتحلون أدياناً مختلفة .

ومن أسباب التفرق فى الدين سبب خفى لا يفطن إليه كثير من الناس ولا يتحرزون منه ، وهو يعلم مما يأتى :

إن كل دين يجىء بنبذ عقائد وعادات وقيم ، وإحلال أخرى محلها ، وللعقائد القديمة تشبث بالنفوس لأنها تأصلت فيها وعمقت بها جذورها ، وقد يظن الظان أنها محيت وفرغ منها ، وإذا هى تبرز عند أدنى مناسبة وتبين مع الإهمال وعدم الالتفات .

إنه قد يتغير السطح الظاهر ، ولكنها تبقى كامنة فى الأعماق والصدور ، ولذلك توصى الأديان بالتحرز من العقائد القديمة والاحتياط وسد الذرائع إليها لكلا تعود وترجع كما كانت جذعة . وهى لا ترجع بصورتها الماضية التى كانت عليها ، ولكنها ترجع بصور أخرى وأشكال مخالفة ، ولكن الجوهر واحد ، والحقيقة متفقة ، فيعلم العارفون بروح الدين ذلك فينفرون منها وينهون عنها ، ويجهله العامة وأشباه العامة ، فلا يجدون بها بأساً ويعتنقونها ديناً ، ومن هنا يقع الاختلاف فى الدين والتفرق فيه .

وقد نبه القرآن على هذا الأصل الذى ذكرناه وهو قوة المعتقد القديم ورسوخه فى النفس وظهوره عند عدم الاحتياط ، ويحضرنا موضعان نبه الله فيهما إلى ذلك ، أولهما قوله تعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم

يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبرٌ ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » فبنو إسرائيل لم تجف أقدامهم من البحر الذى نجاهم الله منه وأغرق عدوهم فيه ، حتى قالوا حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولكن نبيهم كان فيهم فوعظهم وبين لهم سوء ما يطلبون ، قال : إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

هذا هو الموضع الأول . وثانيهما قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ، قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ، ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنِ أفعصيت أمرى قال يَـبْنَـؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ، قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ، كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا » .

تشير هذه الآيات إلى عبادة بنى إسرائيل العجل حين غاب عنهم نبيهم موسى وأخلف فيهم أخاه هارون وأخرج لهم السامرى عجلا جسداً له خوار فقال هذا

الحكم وإله موسى . ونحب أن نبين هنا أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك يعيشون فى مصر ، وكان المصريون يعبدون العجل أبيس ، فلما جاء موسى بالتوحيد آمن به بنو إسرائيل ، ولكنهم عند أول فتنة عادوا إلى المعبود الذى يشبه معبود المصريين .

وكما ظهرت قوة المعتقد القديم فى بنى إسرائيل فى الحادثتين اللتين ذكرهما القرآن ، كذلك ظهرت فى الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم فى حادثة ذكرها ابن هشام فى سيرته :

قال فى أثناء غزوة حنين : حدثنى ابن شهاب الزهرى عن سنان عن أبى واقد ابن الحارث بن مالك قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، قال فسرنا معه وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أكبر قلتم - والذى نفسى بيده - كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم .

كان العرب فى الجاهلية أهل شرك يعبدون الأصنام ، ويجعلون منها شركاء لله ، فجاء الإسلام بالتوحيد ونفى الشركاء ، وإبطال عبادة الأصنام ، وقد شرع أحكاما كثيرة لسد ذرائع العودة إلى الشرك .

وقد كان أهل العلم من الصحابة يعلمون قوة المعتقد القديم ورسوخه وظهوره عند الدواعى والمناسبات ، فكانوا يقفون حراساً على المعتقد القديم لئلا يبرز وكانوا يسدون الذرائع إليه ، فى السيرة النبوية للسيد أحمد زينى دحلان ، والشجرة التى كانت البيعة تحتها بلغ عمر أن ناساً يصلون عندها ويطوفون بها ، فخاف رضى الله عنه من اتساع الأمر وظهور البدعة وأن تعبد كما تعبد الأصنام فأمر بها فقطعت .

وفى الآلوسى فى تفسير سورة الفتح : « المشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله ».

وقد كان الإسلام منذ أوله يلاقى من تأصل جذور العصبية القبلية فى العرب ما يلاقى ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سياسة قوية ثابتة فى العمل على استئصال هذه النزعة من القلوب ، وفى التعجيل بدرء أخطارها حين تطل برأسها وذلك أن من مبادىء الإسلام الأساسية أن : « الحق أحق أن يتبع » وأن أخوة الدين قاضية على قرابة النسب ، وأن التقليد واتباع الآباء والتعصب لهم لا يتفق وما يجب على المؤمنين من إنصاف الحق والخضوع له ، وتطلبه من أى أفق يمكن أن يظهر منه .

فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقف بين الأوس والخزرج حين تثور بينهم ثائرة العصبية ، فيصلحهم ويذكرهم ويعظهم ويبين لهم ما يريد الشيطان أن يوقعه بينهم من العداوة والبغضاء ، ووجدناه يهتم بذلك اعظم الاهتمام ، ولا يؤخره لشىء ولا يقدم عليه شيئا ، ولا يقر له قرار حتى يطفىء نيرانه بحكمته وقوته .

ووجدنا القرآن الكريم يوجه إلى هذا الأمر الخطير فى كثير من آياته ، ويذكر المؤمنين بالنعمة الكبرى : نعمة التأليف بين قلوبهم ، وبأن الشيطان يريد أن ينزغ بينهم حتى يحرمهم هذه النعمة ويفسدها عليهم ، فيفسد عليهم أمرهم كله .

ووجدناه ينعى على الكفار تمسكهم بما ورثوا من العقائد والعادات عن آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ويضرب الأمثال من سير الأنبياء والرسل الذين كانوا لا يلتوون عن سبيل الحق ، ولا يعبأون بما يقاسون فى سبيل ذلك من عنت المتعصبين الجاهلين .

كل ذلك لأن الإسلام وجد البيئة متأثرة بالماضى القريب ، ووجد جذوراً قد غاصت فى أرضه يجب أن يقتلعها ، وأن يميت جميع فروعها .

فلو درس الإسلام دراسة استقصاء ، وروعى هذا المبدأ الذى قدمناه لرفع الخلاف فى المسائل التى شطرت الأمة الإسلامية شطرين ، ولمحى كثير من البدع ، وطمس على كثير من الخرافات ؟

نظام البغاء
وصمة فى تاريخ بنى الإنسان

لحضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

من أشد النظم الاجتماعية فساداً ، وأبعدها عن مقومات الشرف والفضيلة ، وأكثرها مجافاة لمناهج الاجتماع الإنسانى السليم ، وأدناها إلى الحيوانية الوضيعة ، وأدعاها إلى إشاعة الفوضى وانتشار الفجور ، نظام البغاء الذى يعدّ بحق وصمة عار فى تاريخ بنى الإنسان .

فقد أقرت الشرائع والتقاليد لدى كثير من الشعوب المتحضرة والبدائية نظام البغاء ، ومن الغريب أن انتشار هذا النظام - إن صح تسميته نظاماً - أوسع من انتشاره عند غيرها .

فالعهد القديم يحدثنا عن البغايا من الإماء وغيرهن ، وعن البغاء على أنه نظام معترف به ومنتشر انتشاراً كبيرا لدى قدماء العبريين ، ويذكر أن كثيرا من آباء بنى إسرائيل ومن علية القوم أنفسهم كانوا يغشون أحيانا منازل المومسات ، وأنّ هؤلاء كانت لهن أجور معلومة ، وينص سفر اللاويين على أنه لا يجوز للأب أن يخصص ابنته للبغاء (١) ؛ وهذا يدل على أن فريقاً من بنى إسرائيل فى هذا العهد كانوا يفعلون ذلك .

وكان هذا النظام منتشراً كذلك عند العرب فى الجاهلية . ففى حديث عائشة عن أنواع النكاح قبل الإسلام أنه « كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ؛ وهن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون

(١) اللاويون ، إصحاح ١٩ ، آية ٢٩

علماً ؛ فمن أرادهن دخل عليهن ؛ فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا القافة (وهم المهرة فى القيافة . والقيافة فن كان منتشراً عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذى انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه وحجمها ولون بشرته ... وما إلى ذلك) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به (أى اتصل به) ودُعى ابنه لا يمتنع من ذلك » .

غير أن العرب كانوا يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن ؛ فما كان يباح فى الغالب لعربية أن تمتهن البغاء ؛ بل كاد يكون ذلك مقصوراً على الإماء ؛ وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة من المدائن والقرى ومضارب خيام البادية ، وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهانتهن ، وكان لا يذهب إليهن إلا سفلة الناس وسوقتهم ، ويذهبون إليهن فى الظلام ، يجرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم المظلمات ، كما كان يطلق عليهن اسم المهينات . وكان من جوامع كلمهم فى المدح : (فلان لا يرخى لمظلمة إزاره) وفى ذلك تقول العوراء بنت سبيع فى رثاء .

أبكى لعبد الله إذ حُشَّتْ قبيل الصبح نارُه (١)
طيان طاوى الكشح لا يُرخَى لمظلمةٍ إزارُه (٢)

وقد ظل البغاء منتشراً عند مشركى العرب حتى بعد ظهور الإسلام . فقد كان لعبد الله بن أبىّ ست جوار خصصهن للبغاء وضرب عليهن الضرائب ، فشكا بعضهن ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »(٣) .

---

(١) حشت ناره : أى أوقدت . وهذا مثل أرادت به أنه قتل قبيل الصبح ، فضربت لقتله مثلا بإيقاد النار ؛ والعرب تقول : أوقدت نار الحرب إذا هاجت .

(٢) الطيان : صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع . والعرب ترى من السيادة ألا يشبع الرجل . وطاوى الكشح : أى ضامر . ليس بضخم الجنبين .

(٣) سورة النور آية ٣٣ ، انظر تفسير البيضاوى ، وليس الغرض من الشرط تقييد الحظر كما لايخفى ، وإنما الغرض منه مجرد وصف الحالة التى نزلت فيها الآية وبيان مبلغ فجور من فعل ذلك .

وكان كثير من سراة اليونان فى العصور القديمة يستخدمون إماءهم كذلك فى البغاء للانتفاع بأجورهن، وقد أقر المشرعون أنفسهم هذا الضرب من الاستغلال الخسيس؛ بل إن بعض حكوماتهم قد أخذ ينافس الأفراد فى هذه التجارة، فقد نظم صولون نفسه - وهو كبير مشرعى أثينا وحاكمها - شئون البغاء الرسمى، وأنشأ منازل خاصة للبغايا، واشترى عدداً كبيراً من الإماء وفرقهن على هذه المنازل لتنتفع الدولة بأجورهن، وبجانب هذا الصنف المبتذل من المومسات كان يوجد فى أثينا صنف آخر من البغايا، كن يعرفن باسم: «البغايا الراقيات» وكن يمتزن بجمالهن الباهر، وذكائهن الوقاد، وكن موضع تقدير كثير من الناس؛ بل كان عظماء الرجال أنفسهم يحرصون على الاتصال بهن، وكن يعتبرن من الطبقات الراقية فى المجتمع (١).

ومع أنه كان ينظر فى روما للبغايا نظرة احتقار، وكانت أسماؤهن تدون فى القوائم العامة للتشهير بهن، فإن البغاء كان منتشراً انتشاراً كبيراً فى معظم المدن الرومانية، ولم يصدر أمر صريح بتحريم البغاء إلا فى السنة التاسعة عشرة بعد الميلاد، على أن هذا التحريم لم يكن عاما، وإنما كان مقصورا على الحرة المنحدرة من أبوين رومانيين ومن تكون زوجة لرومانى أصيل (٢). ومعنى ذلك أنه كان يباح لغير هاتين الطائفتين من النساء امتهان البغاء.

وكان كثير من اليابانيين يخصصون بناتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن، فيلحقوهن بمنزل من منازل الفسوق حيث يقضين حياتهن كلها أو فترة منها، وما كان يجوز للبنت أن تعصى أباها ولا أن تعترض على أمره (٣). ويضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى كبيرة العدد فى اليابان تتألف من اللائى يسلكن هذا الطريق بمحض اختيارهن ومن ثم انتشر البغاء فى اليابان انتشاراً مروعا وبلغ ضحاياه عشرات الألوف، حتى إن الحكومة الحاضرة لتجد صعوبة فى القضاء عليه أو تخفيف مضاره.

(1) V. Westermarck : Idées Morales, 11,413
(2) Ibid
(3) Westermarck, op. cit. 1, 604; Letourneau; La Sociologie 362

وقد جرت عادة بعض الأزواج فى الصين أن يقدموا زوجاتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن، ولذلك ورد فى تشريعهم المعروف بالأوامر Ordonnances أنه إذا أكره رجل امرأته على البغاء ليبتغى من وراء ذلك عرض الحياة الدنيا، وانتحرت المرأة حتى لا تقترف هذا المنكر، وجب أن يقام لها على مقربة من منزل أبيها نصب تذكارى على هيئة (قوس النصر) (١).

وكان كثير من الدول المتحضرة فى العصور الحديثة - حتى الدول الإسلامية نفسها - تقر البغاء الرسمى (عملياً)، وتسن له اللوائح والقوانين، وتنتفع حكوماتها بما تجبيه من المومسات من رسوم وضرائب، ولا يزال هذا النظام معمولا به فى بعض هذه الأمم إلى الوقت الحاضر، وقد كان نظام البغاء الرسمى معترفا به فى مصر نفسها إلى عهد قريب، حتى بعد أن تقرر فى دستورها السابق أن دينها الرسمى هو الإسلام بل لقد تبجح بعض الكتاب - ولا يزال بعضهم يتبجح إلى الآن - بالدفاع عنه بعد إلغائه ومطالبة الحكومة بإعادة النظر فى تحريمه لاتقاء بعض الأضرار الصحية واتقاء البغاء السرى على حسب ما يزعمون.

* * *

وبجانب هذا البغاء - السياسى أو الاجتماعى - يوجد نوع آخر من البغاء يطلق عليه اسم: «البغاء الدينى» أو «البغاء المقدس» لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين، أو وسيلة لإرضاء الآلهة والتقرب إليهم! وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين.

فعند قدماء العبريين كانت توجد طوائف من النسوة يزاولن البغاء فى المعابد (٢) وكان يعتقد أنهن يجلبن الخير والبركة لمن يتصل بهن، وظل هذا التقليد الدينى سائداً إلى أن حرمه «سفر التثنية» (٣).

---

(١) Westermarck, op. cit. 11, 411

(٢) هوشع Osee الإصحاح الرابع آية ١٤

(٣) التثنية إصحاح ٢٣ آية ١٧

وعنـد قدماء الكنعانيين كانت توجد طائفة من النسوة يطلق عليهن اسم : « كيد يشولح » Kedesholh وقفن أنفسهن على خـدمة المعبد ووهبن جسومهن للبغاء المقدس (١) .

ومن أشهر أنواع « البغاء المقدس » عند الشعوب المتحضرة ما كان يجرى عليه العمل فى بابل فى معابد الإلاهة ميليتا Mylitta (وهى فى شخصيتها ووظائفها وأساطيرها تماثل الإلاهة أفروديت عند اليونان والإلاهة فينوس عند الرومان والإلاهة عشتروت عند الفينيقيين (٢)) وقـد أفاض المؤرخ اليونانى هيرودوت فى وصف هذا النظام ، فذكر أن كل بنت تولد فى هذه البلاد كان يجب عليها مرة فى حياتها أن تذهب إلى معبد الإلاهة « ميليتا » حيث تقدم نفسها لرجل أجنبى عن البلاد . فكانت تجلس فى ساحة المعبد حتى يمر بها أجنبى ويضع على ركبتها قطعة فضية من النقد داعياً فى أثناء ذلك « أن تباركها الإلاهة ميليتا وتشملها برعايتها » ثم يصحب الفتاة بعيداً عن الساحة المقدسة ليقضى معها إربته . وكانت قطعة النقد تعتبر مقدسة بمجرد وضعها على ركبة الفتاة ، وما كان يباح للفتاة أن ترفضها أو ترفض دعوة صاحبها ، وكان ينظر إلى هذه الاتصالات على أنها ضرب من العبادة الدينية تقدمها الفتيات لإلاهتهن « ميليتا » أو نوع من القربان يتقربن به إليها ، وكان يعتقد أن هذا الضرب من العبادة وهذا النوع من القربان من أحب العبادات والقرابين إلى الإلاهة ، وأنه مصدر خير وبركة للفتاة نفسها ، كما تدل على ذلك العبـارة التى كان يقولها الأجنبى وهو يلقى بقطعة النقد على ركبتها « لتباركك الإلاهة وتشملك برعايتها » (حسب رواية هيرودوت) وبعد أن تؤدى الفتاة واجبها هـذا كانت تنقلب إلى أهلها فرحة بمـا آتتها الإلاهة من فضلها ؛ وثمة كانت تتلقى تهنئات أهلها وأصدقائها وتغمرها هداياهم الثمينة (٣) .

ولهذا التقليد البابلى أشباه ونظائر فى كثير من بلاد اليونان فى عصورها القديمة

(١) Westermarck, op. cit, 428

(٢) انظر كتابنا فى « النظم الدينية عند قدماء اليونان » .

(٣) Westermarck, op. cit, 429, 430

وخاصة فى أثينا وفى قبرص وقورنثة وبيبلوس Byblos . ففى قبرص كان يجب على العذارى أن يذهبن إلى ساحل البحر فى أيام معلومات ليقدمن بكارتهن قربانا للإلاهة أفروديت (١) . وفى معبد الإلاهة أفروديت بقورنثة كان يوجد عدد كبير من النسوة يزاولن البغاء المقدس (٢) . وتروى الأساطير اليونانية أن بعض مدن اليونان كانت إذا اشتبكت فى حرب ينذر أهلها للإلاهة أفروديت أن يخصصوا بناتهم للبغاء المقدس فى معابدها إذا أمدتهم بعون منها لخرجوا منتصرين على أعدائهم (٣) وجرت عادة سراة اليونان فى مملكة أثينا وغيرها أن يخصصوا بعض إمائهم للبغاء فى معبد من معابد الإلاهة أفروديت ، على أن يخصص دخلهن من هذه المهنة لصندوق المعبد نفسه . وقد انتشرت هذه الطقوس فى مختلف بلاد اليونان ، واعتبر تقديم الإماء على هذا النحو من صالحات الأعمال التى يتقرب بها الناس إلى الإلاهة حتى لقد كان الأغنياء وقواد الجيش ينذرون لهذه الإلاهة عددا من هذا الصنف من الإماء إذا تحقق لهم مأرب أو انتصروا فى حرب ، فكثر من جراء ذلك عدد هذا الصنف من الفتيات حتى ضاقت عليهن معابد هذه الإلاهة بما رحبت . وقد أطرى هذه الأعمال كبير مؤرخيهم « سترابون » وعدّها مشروعات وطنية جليلة لأنها - على حد قوله - تجذب الأجانب للبلاد فينفقون فيها أموالهم ، فتنتعش بذلك اقتصادياتها ، ويعمها الرخاء ، ويزداد دخلها القومى .

وفى القرن التاسع عشر نفسه كان لا يزال يوجد فى كثير من معابد الهند عدد كبير من البغايا يزاولن مهنتهن لصالح المعابد نفسها ويخصصن لها دخلهن من هذه المهنة . وكان هؤلاء النسوة موضع تقدير وإجلال من خاصة القوم وعامتهم ، بل كنّ وحدهن اللائى يسمح لهن بالتعلم فى الهند (٤) . وفى عهد بوذا نفسه كانت رئيسة البغايا اللائى من هذا النوع موضع احترام كبير فى بلدة فيزالى Visali ولم يستنكف « بوذا » نفسه أن ينزل فى دارها (٥) .

(1) Ibid. 429
(2) Letournean, op. cit. 367
(3) Westermarck, op. cit. 429
(4) Letournean, op. cit. 363
(5) Ibid



لحضرة الطالب الفاضل الاستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخى :

يا عيد ما بك من شوق وإيراق ... ومر طيف على الأهوال طراق
يسرى على الأين والحيات محتفيا ... نفسى فداؤك من سارٍ على ساق
إنى إذا خلة ضنت بنائلها ... وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها نجائى من بجيلة إذ ... ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقى
ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهمو ... بالعيكتين لدى معدى بن براق
لا شىء أسرع منى ليس ذا عذر ... وذا جناح بجنب الريد خفاق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى ... بواله من قبيض الشد غيداق

العيد ما اعتاده من شؤونه ، وإنما هى الشوق والأرق والطيف السارى على الأهوال ... على التعب حافياً وعلى الحيات ، ولكنه يرد نفسه عن هواها ، ويصرفها عن تلك الخليلة التى تضن ولا تجود إلا بطيفها أو خيالها ... إن وصلها لاحذاق .. منقطع أو ضعيف يشبه أن يكون عدما .. ألا فاصرمها وانج منها كما نجوت من « بجيلة » ليلة « خبت الرهط » حيث أغروا بك عدّائيهم فعدوا وعدوت عدواً والهاً مجنوناً إلا أنه فى قبضتك تتحكم فيه فترسله متدفقا غيداقا .. فلا شىء أسرع منك لا الظليم ولا النسر يخفق جناحه بأعلى الجبل . لقد نبذتهم وراءك ـ هؤلاء العدائين ـ فلم يلحقوا بك ليقتلوك وينزعوا سلبك .

قلت : أراه يفخر فى غير مفتخر ، فما زاد على أن ولى الدبر ، وليس ينجيه من النذالة ـ وإن نجا ـ أن يكون نسرا أو ذكر نعام ، ولعله ما أخطأه التوفيق

إذ شبه نفسه بالنعامة ، ولو أنه طوى وجه الشبه ونشر غيره ، فغير ذى بال هنا أن يعدو عدواً سريعاً ، وإنما ذو البال أو وجه الشبه أنه كان رقيعاً يولى الدبر ثم يفتخر .

قال : رويدك بعض غلوائك ، فليس الحزم أن تقف أبداً وقفة واحدة لا تتغير ، ولكنه فى أن تلبس لكل حالة لبوسها . وليس فى طاقة الفرد أن يغلب الجماعة ، وإنما شأن الجماعة « ولو قلة » أن تغلب الجماعة « ولو كثرة » . « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » وفى سياسة الحرب القرآنية لا يؤمر الفرد أن يثبت للجماعة ولو قليلة ، وإنما تؤمر الجماعة القليلة أن تثبت للجماعة الكثيرة وتنتصر عليها بإذن الله « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً » فالواحد وحده لا يكافئ قتال عشرة ، ولكنه مع تسعة صبر يكافئه ويغالب العشرة فتكون الجملة مائة لكل واحد عشرة .

قلت : أعرف أحوالا وقف فيها الفرد للجماعة ، فهذا مالك بن أبى كعب يأخذ عليه عدوه الطريق ، ومع مالك زوجه فيقولون له : استأثر فلا يفعلها ولا يفر ، بل يقاتلهم حتى يقتل ويقول :

لعمر أبيها لا تقول حليلتى ألا فر عنى مالك بن أبى كعب

قال : ولقد وجب أن يقاتل ويموت ولا يسلم الظعينة سبية . ولو كان تأبط شراً فى مثل ظرفه لفعل فعله ، ولو كان هو فى مثل ظرف تأبط شرا لفر ولا عليه أفلم يأن لك أن تفقه أن الحزم هو أن تلبس لكل حالة لبوسها ؟ .

قلت : بل أعرف فرداً غلب الجماعة ، فهذا «هوراس» واحداً يغلب «كيرياس» جماعة : كانت مبارزة ندبت لها روما أشقاء ثلاثة « الهوراسيين » ، وندبت لها ألب أشقاء ثلاثة كذلك « الكيرياسيين » فقتل « كيرياسيان » « هوراسيين » ، وقتل هوراسى كيرياسياً ، فأصبح فى الميدان ثلاثة واحد فى مواجهة اثنين ـ هما أقل الجمع فهم جماعة ـ ففر الهوراسى ، وإنما فر ليكر فقد تعقبه الكيرياسيان كل فى وجه ، وهكذا تفرقا فكر على أحدهما فقتله ثم ألحق به الثانى .

قال : وهكذا لم يواجه الفرد الجماعة - على أنها أقل الجمع - وإنما خدع الآخرين ففرق بينهما فهو ضعيف تجاههما معاً قوى تجاه كل منهما منفردا .

قلت : لكأنكم عربتم تعبير « كورنى » .

قال : أو لم يكن لك فى التاريخ الإسلامى غناء عن قصص « كورنى » و « راسين » وأساطير « لافونتيه » ؟ إنه ليحضرنى مثلا قصة أبى بصير عتبة ابن أسيد بعد صلح « الحديبية » إنك لتعلم أنها كانت محنة أية محنة حتى لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ يعنى يوم الحديبية ... يأمر الرسول علياً كرم الله وجهه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فيقول سهيل بن عمرو : والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة « يعنى مسيلمة » اكتب باسمك اللهم . ويقول الرسول : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فيقول : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك عن البيت الحرام ، ولكن امحها واكتب محمد بن عبد الله فيأبى الإمام أن يمحوها فيمحوها رسول الله نفسه وبعد لأى يتم الصلح على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لا يردوه . وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام .

ويقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة فرمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، قال الرسول : إنا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل : إذاً لا أصالحك على شىء أبدا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : فأجره لى ، قال ما أنا بمجيره لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، ثم جعل يجره ليرده إلى قريش ، فقال أبو جندل : أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما لقيت ؟ - وقد كان عُذِبَ عذاباً شديداً - قال الرسول : احتسب أبا جندل فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . ويأذن الله أن يجىء الفرج والمخرج على يدى أبى بصير . بينا الرسول بالمدينة بعد أن عاد إليها إذا هو

بأبي بصير وكان ممن حبسوا بمكة فكتبوا فيه إلى الرسول وبعثوا في طلبه رجلين قدما وقالا : العهد الذي جعلت لنا ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا بصير إنا أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا « ذا الخليفة » نزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الرجل وقال أجل إنه والله لجيد لقد جربت به ثم جربت ، قال أبو بصير أرني أنظر إليه فأخذه منه فضربه به حتى برد ، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو ، فقال الرسول ويلك ما لك ؟ قال قتل صاحبي وإني لمقتول فما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف ، فوقف على رسول الله وقال بأبي أنت يا رسول الله أوفى الله ذمتك لقد رددتني إليهم فأعانني الله تعالى عليهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ويْلُمِّه مسعر حرب لو كان معه أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه يرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر وبلغ المسلمين المستضعفين بمكة قول الرسول : ويلمه مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج منهم جماعة إليه . وانفلت أبو جندل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلا فما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يكف عنها أيدي هؤلاء المستضعفين . فمن أتى منهم رسول الله فهو آمن ولا يرد .

قلت : وفيهم نزلت ـ فيما يروى أصحاب التفسير ـ : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم » .

قال : قد تكون فيهم نزلت ، فأما عن تأبط شرا فإنه يوالي حديثه :

ولا أقول إذا ما خلة صرمت	يا ويح نفسي من شوق وإشفاق
لكنما عولي إن كنت ذا عِوَلٍ	على بصير بكسب المجد سباق

إذا قطعت فلتقطع ، فهو لن تتبعها نفسه حسرات ، ولن يدعو ويلا وثبورا ، إنها امرأة ، وليس للرجل أن يعول على امرأة ، وإنما على رجل بصير بكسب

المجد سباق إلى غاياته عنيف يرجع صوته مجلجلا بالأمر والنهى فيما يعرض له ولرفقته من عوارض العيش .

قلت : لا يعول على امرأة . . نغمة جاهلية مرذولة لكأنها من غير الآدميين ولكأن الرجل بالقياس إليها أعلى درجة والله يعلم أنهما شقيقان عدلان ، ولكنه الجور الاجتماعى جعل الرجل فوق المرأة من حيث الوضع ، وإن لم يكونا كذلك من حيث الطبع ، على أنه ظلم آن له أن ينجلى ، وقد انجلى بالفعل إلا فى النذر اليسير من البيئات البدائية التى ستؤول حتما إلى الفناء وعلى آثار من ذهب العفاء .

قال : أما أن الرجل فوق المرأة فليس ذلك فعل الوضع الاجتماعى كما تقول ، ولكنه الطبع كما شاء الله أن يكون ، سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » فالرجال قوامون على النساء ، ولهم عليهن درجة ، تلك هى الحقيقة مجردة من تزويق النسائيين وتنميق المنافقين ، فأما أن تكون ضريبه لا تنقص عنه ولا يزيد عليها شيئا فذلك هو الوضع الاجتماعى التصورى الجافى لصورة الوجود الحقيقى . . غالبوا الطبيعة ما شئتم ، ومدوا بأسبابكم إلى السماء ، ثم اقطعوا ما قدرتم ، فما غالب الفطرة مغالب إلا باء بالخيبة وسوء المصير .

قلت : إذا جاءت الطبيعة بصورة ينفر منها الذوق ، فإنى أستطيع بوسائلى الصناعية أن أهذب الصورة وأحسنها وأنقلها من جفاء الوحشية إلى رقة المدنية .

قال : إنك تستطيع أن تنسق الطبيعة متسقا معها لا مناقضاً إياها ، فالثمرة التى تنضج فى ستة أشهر يمكن أن يتم نضجها فى ثلاثة متى سلطت على أمها المنشطات ، ولكنك إذ تفعل إنما تعين الشجرة وتزيدها غذاءً يعجل تلك الثمرة .

قلت : بل أستطيع أكثر من هذا ، أستطيع أن أكرهها على أن تغير من طبعها فأعمد إلى جذورها النازلة طبعاً فأفرغ ما تحتها من تراب وأجعله إلى أعلى وهكذا أدفع الجذور دفعا إلى أن تتخذ غير طريقها الأصلى ، ثم أعمد إلى فرع الشجرة فأكرهه على أن ينزل إلى الدرك الأسفل وحقه فى الأصل الدرك الأعلى .

قال : أما الجذور فإنها لن تسمو إلا لتنثنى فترجع إلى دركها الأسفل ، وأما الفرع فإنه ان يهبط إلا بقدر ما تنشأ له جذور يعتمد عليها ليذهب إلى دركه الأعلى فأنت ترى وسائلك الصناعية وسائل معوقة لا يبقى منها آخر الأمر إلا التواء هنا واعوجاج هناك ، فكذلك الشئون الاجتماعية إذا عالجتموها علاجا ينبو عن طبائع الأشياء تتمخض لكم فى النهاية عما شئتم من التواء واعوجاج ، واست أدرى وايم الحق لم تبغونها عوجا .

قلت : إنها لنظرية اجتماعية ضالة ، تلك التى تحسب المجتمع كائنا يشبه أن يكون كائنا عضويا له عينان وأذنان ويدان وساقان وروح وجسم إلى آخر ما هنالك عما يترتب عليه الخطأ فى التطبيق إذا اعتل الجسم الاجتماعى مثلا ورجعنا إلى الطبيب الاجتماعى نستأديه تذكرة الدواء . إن المعانى غير المبانى والخلط بينهما غير ممكن ، فلماذا لا نواجه الأمور كما خلقها الله دون أن نضرب الأمثال ، فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

قال : صدق الله العظيم . ولو ذات سوار لطمتنى ، أوقل رمتنى بدائها وانسلت ، لكأنى أنا الذى صدّق علىَّ إبليس ظنه فغيرت خلق الله .

قلت : لقد انتهى عهد كانوا يغيرون فيه خلق الله ويبتكون آذان الأنعام .

قال : ولكن إبليس منتظر إلى يوم الوقت المعلوم ، وما أحسب الوقت المعلوم قد أظلنا ، ولا أحسب إبليس قد تاب وأناب فلم يعد يوسوس فى صدور الناس ويأمرهم أن يغيروا خلق الله ، وإذا لم تكن الناس تبتك آذان الأنعام الآن فإنها تبتك أشياء أخرى كثيرة وتغير خلق الله « ومن يضلل الله فما له من هاد » .

قلت : فكيف أغير خلق الله ؟ .

قال : حين يقول عز من قائل : « الرجال قوامون على النساء » . « وللرجال عليهن درجة » وتقول أنت : النساء قوامات على أنفسهن يعدلن الرجال ، وليس لهم عليهن درجة ، أفليس هذا أبعد مدى فى محاولة تغيير خلق الله من أن تبتك آذان

الأنعام ، أقول محاولة تغيير خلق الله فالحقيقة الواقعة أن تغيير خلق الله ليس في حيز الإمكان .

قلت : إن الآية من القرآن الكريم لتصلح حجة لكلا الطرفين المتخاصمين ، فالرجال قوامون على النساء إذا تحقق فضلهم وإنفاقهم عليهن ، فإذا كانت هي ذات الفضل والانفاق على الرجل أفيظل قواما عليها ، وإذا أجبت إيجاباً أفلا تكون معبرا عن غير الواقع عملا ، إذ العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدما ؟ إن في مجتمعنا الحديث لطائفة كثيرة من النساء الفضليات اللواتي برزن في ميدان الخدمة العامة والخاصة ، وأصبحن عن جدارة موجهات ومديرات لأعمال ذات خطة في الحياة ، وقد تكون الواحدة منهن زوجا لرجل نكرة في الرجال ، أفلا تسمعون أسماء كثيرة لسيدات مشرقات ولا تسمعون أسماء أزواجهن إلا أن تضاف إليهن أفترون سيدة هذا شأنها حرية أن يقوم عليها رجل نكرة هي أداة تعريفه ؟ .

قال : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . . . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » .

أفليست هذه آيات بينات محكمات حاكمات لسلوك النساء المسلمات فيما شئت من مجتمعات ... أو ترى المرأة التي تحيا تحت ظل هذه الأحكام مستطيعة أن تبرز في ميدان الأعمال العامة والخاصة ، فتتزوج رجلا هي أداة تعريفه وذات الفضل والإنفاق عليه ، وبالتالي هي القوامة عليه ؟ إن آيات « النور » و « الأحزاب » هي الأصول التي تتفرع عنها الأحكام الخاصة بالمرأة : حقوقها والتزاماتها ، فإذا أهملتم هذه الأصول فغير منطق أن يكون الرجال قوامين على النساء ولهم عليهن درجة ، وللذكر مثل حظ الأنثيين ، الى آخره .

ما ذا يا هؤلاء أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون .

قلت : مهلا سيدى الشيخ ، ولماذا تلغون حرية الناس وتريدونهم على أن يلتزموا تفسيركم القرآن ، إنهم ليفهمونه على خلاف فهمكم ولكل فقهه .

قال : فأنا أرفض فقه أولئك الذين لا يفقهون « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » فى أحوالها الثلاث إنها عندهم حال واحدة سواء رفعت تشرب أو نصبتها أو جزمتها . قل لأحدهم وأنت صادق : إنى قاتل أبيك أو إنى قاتلٌ أباك ، فليس يدرى أمعترف أنت بالقتل أم به تتوعد ، أفهؤلاء السادة فيما ترى أصحاب فقه يفسرون القرآن ويرون فيه الرأى على خلاف ما يرى أولئك الذين قضوا حياتهم الجادة فى البحث والدرس والاستقراء والاستنباط أنا لا ألغى حرية الناس كما تقول ومنها حرية الجهل ، بيد أنى أرجو إلى الأحرار الجاهلين ألا يلزمونى فقههم ، ولهم حريتهم كاملة غير منقوصة أن يجهلوا فقهى .

قلت : وهل من فقهكم أن يرتبط المسلمون بأحكام دائمة ثابتة أبدية لا تتغير ولا تتطور والدنيا متغيرة متطورة ، ومتى صح أن الشريعة الاسلامية شريعة كل زمان ومكان ، فهل فى الامكان أن تكون كذلك مع أبدية تلك الأحكام ؟ .

قال : إن فى الحنيفية السمحة « ثوابت » أو إن شئت أحكاماً أبدية لن تزول أو تزول البشرية نفسها ، إنها أحكام تستمد وجودها وعللها من الطبيعة الانسانية ذاتها . فالانسانية تتغير وتتطور دون شك ، ولكنها على تغيرها وتطورها هى الانسانية بطابعها الدائم المميز . وبجانب الثوابت متحركات ، أعنى أحكاماً متحركة متطورة متغيرة مع الانسان فى الزمان والمكان ، هذا إجمال يتطلب تفصيله مجلداً ضخما وهو مع هذا واضح بين .

اقرأ القرآن تجد العقوبة على العمل بعينه تتدرج من مجرد الإيذاء ـ وقد يكون قولا لا يتعداه ـ إلى القتل أو الاعدام . والحرية التعاقدية أو قاعدة « العقد شريعة

المتعاقدين ، لا تجدها أوفى مما هي في شرع الاسلام ، والقاضي ، اقطع ولا تبال بأن سيادته القضائية لا تتحقق مطلقة مقدسة تحققها له قاضياً مسلماً بين المسلمين ، إنه ، القاضي الشارع ، بأدق وأوسع ما تحمل العبارة . تأمل الحدود وكيف تدرأ بالشبهات ، والتعزير وكيف يتسع لما يضيق به كل شرع غير شرع الاسلام .

قلت : واضح وضوح الصبح لذى عينين ، فماذا من الثوابت البواقي على كر الغداة ومر العشى ؟ .

قال : منها وفي صدارتها حكم الوحدة وحدة المسلمين ، إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، لتدل الدول والنظم لتقوم نقائضها وليشمل التغيير والتبديل ماشئت من مرافق العيش وشئون الحياة العامة والخاصة ، ولكن الأمة الاسلامية تظل أمة واحدة بحكم الله الدائم الذى لا يجوز بحال أن يمسه تغيير أو تبديل . . . أمة واحدة تعبده وتتقيه ، أنا ربكم فاعبدون ، و ، أنا ربكم فاتقون ، :

قلت : تعلمون أن نظم الحكم مختلفة ، فثم الملكية الفردية والملكية البرلمانية ، والجمهورية الرياسية والجمهورية البرلمانية ، والأمة الاسلامية تتقاسمها دول كثيرة متباينة النظم ، فكيف تتأتى الوحدة وكل دولة تحرص على نظامها ولا ترضى أن تستبدل به بديلا ؟ .

قال : جاء أقيال اليمن أى ملوكها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلمين نافرين ليتفقهوا في الدين ، فخاطبهم الرسول الأمين بخطاب الملك ، لم ينكر عليهم ولا على غيرهم سلطانا أو إمارة ، فإن شيوخ القبائل قد استمرت رياستهم بعد الإسلام كما كانت قبله ، كان لكل قبيلة كيانها الخاص ، أو كما تقولون اليوم بشخصيتها المعنوية والقانونية ، والقرآن الكريم نفسه لم يمنع بل افترض أن تكون الأمة الاسلامية دولا أو مجموعات مستقلة كل عن الأخرى ، حتى ليمكن أن يحارب بعضها بعضاً .

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله .

فهذه الآية الكريمة نص مثالى لما تسمونه القانون الدولى ، فالمسلمون دول يربطها الإسلام ، فإذا بغت إحداها على الأخرى التزمت الدول الاسلامية الاصلاح بينهما وقتال الباغية أو ترجع عن بغيها . فالدول الاسلامية فى عصرنا هذا وعلى اختلاف نظمها ليست إلا الأمة الاسلامية أمة واحدة ، ولا تنافى بين استقلال كل منها استقلالا تاماً وبين الوحدة الاسلامية ، إنك لتظلم تعدد الدول الاسلامية إذا أنت حملته وزر شق عصا الجماعة ، ولكنها الطائفية أو المذهبية تعدت حدودها أو فروعها إلى الأصول التى تربط الجميع ويرضاها الجميع لامرية فيها ولا خلاف ولا شبه خلاف .

قلت : هذه مسلمات أو بديهيات يعرفها رؤساء الطوائف وشيوخ المذاهب أجمع ، فليس منهم من ينكر الوحدة الاسلامية أو يتنكر لها ، وكيف وهى القاعدة الكبرى التى قام عليها الاسلام الذى لا تفرق فيه بنص كتابه المبين ، أفليس أعجب العجب إذاً أن تتفرق كلمة المسلمين ، ثم تمر القرون تلو القرون ولا تجتمع ؟ .

قال : الواقع أنه أعجب العجب ، ولعلها عقوبة فرضها الله على المسلمين بما اكتسبت أيديهم ، فلا ريب أنه سبحانه وتعالى أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته واستخلفهم فى الأرض ، أفتراهم رعوا الخلافة حق رعايتها ؟ لست أدرى على يقينى بأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وأنه سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ؟

الشرق والغرب
قبل الإسلام وبعده

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

يبتدىء الخلاف بين الشرق والغرب بالحروب التى قامت بين الفرس واليونان أولا ، فلما ظهر الرومان فى الغرب بعد اليونان ورثوا عنهم هذا الخلاف ، وقامت به الحروب بينهم وبين الفرس إلى ظهور الإسلام ، فليس الخلاف بين الشرق والغرب وليد هذا العصر الحديث ، وإنما هو خلاف قديم بدأ من ذلك الحين . واستمر بين أهل الشرق وأهل الغرب بعوامل سياسية صرفة ، ترجع إلى طمع كل من الفريقين فى السيادة والسلطان على الآخر ، وقد تأصل هذا الخلاف بينهما بقدم الزمن ، حتى ذهب بعض فلاسفة السياسة فى العصر الحديث إلى أن الشرق شرق والغرب غرب ولا يجتمعان ، فذهبت كلمته مثلا بين أهل الغرب ، حتى إنهم لا ينظرون إلى أهل الشرق الآن إلا بعين الاستعمار ، فلا يرون لأهل الشرق حقاً فى استغلال خيرات بلادهم ، وإنما هم أصحاب هذا الحق وحدهم ؛ ولأهل الشرق من هذه الخيرات فضلات موائدهم .

وقد ظهرت المسيحية فى الشرق قبل الإسلام ، والرومان متحكمون فى كثير من بلاد الشرق ، وكانت بلاد اليهودية التى ظهر المسيح عليه السلام فيها واقعة تحت حكمهم ، ولكنها كانت شريعة زهد لا تتطلع إلى أمر الدنيا ، ولا تهمها أطماع السياسة بين الشرق والغرب ، لأنها لا تعنى بالسياسة الدنيوية ، ولا تلتفت إلى تلك الخلافات السياسية بين دول الأرض ، وإنما يهمها أمر الآخرة لا غير ،

فلما سئل المسيح عليه السلام من أتباعه عما يفعلونه مع قيصر الرومان : أيخضعون لحكمه أم يثورون عليه ؟ قال كلمته المشهورة : اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وقيصر فى ذلك الوقت من حماة الوثنية ، والمسيح واليهود يدينون بالتوحيد ، ومع هـذا قدم حقوق قيصر على حقوق الله حتى لا تغريهم نفوسهم بالتقصير فيها ، أو يؤثر فيهم أصحاب السياسة فلا يؤدوها له .

فلما ظهر الاسلام لم يشأ أن يغضى عن هـذا الخلاف بين الشرق والغرب ، لأن طبيعته تخالف طبيعة المسيحية فى ذلك الزهد الذى تغالت فيه ، فقد جاء بالزهد فى الدنيا أيضاً ، ولـكنه زهد معتدل لا يؤدى إلى إهمالها فى حسابه ، ولا يصير إلى نسيانها فى تشريعه ، وإنما يراد منه الوقوف عند حد الاعتدال فى أمرها وأمر الآخرة ، حتى لا يطغى فيه أمر الآخرة على الدنيا ، ولا أمر الدنيا على الآخرة ، ليستقيم أمرهما معاً ، ويحسن حال المسلمين فيهما جميعاً .

ولـكن الاسلام حينما نظر عند ظهوره إلى هذا الخلاف بين الشرق والغرب لم ينظر إليـه من ناحية العصبية التى تجعل إصلاحه متعذراً ، وتقضى بأن الشرق شرق والغرب غرب ولا يجتمعان ، كما ذهب إليه بعض فلاسفة السياسة فى العصر الحديث ، بل نظر إليه من ناحية يمـكن بهـا الجمع بين الشرق والغرب ، وإزالة ما بينهما من هذا الخلاف السياسى الذى باعد بين أهلهما ، وأقام بينهما ما أقام من الحروب التى تتصل ولا تنقطع ، بل تزيد شدة على توالى الزمن ، وتؤجج نار العداوة والإحن ، وهو دين رحمة للعالمين كافة ، ولا يهمه إيمـان الناس به بقدر ما يهمه نشر راية السلام بينهم ، حتى لا يكون هناك عداوات ولا إحن ، بل يكون هناك سلام بينهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .

وكانت الحرب بين الفرس والروم عند ظهور الاسلام قد وصلت الى أشد حالاتها ، فلم ينظر الإسلام فى هذه الحرب كما ينظر الناس قديماً وحديثاً إلى المنتصر والمهزوم ، يهللون للمنتصر ويكبرون ، ويخلعون عليه من ألقاب البطولة ما يخلعون ، وينظرون إلى المهزوم بعين الاحتقار ، ويكيلون له من أوصاف الجبن ما يكيلون ، وهى عادة متأصلة فيهم كما قال الشاعر العربى :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأمِّ المخطىء الهبلُ

ولم ينظر الإسلام أيضاً فى هذه الحرب بين الفرس والروم إلى أن الفرس من أهل الشرق مثل العرب الذين ظهر بينهم ، والروم من أهل الغرب الذين يعادون أهل الشرق عصبية منهم ، فيقابل عصبيتهم لأهل الغرب بعصبيته لأهل الشرق ، عصبية آثمة بعصبية آثمة ، وسياسة جاهلية بسياسة جاهلية ، فينتصر بهذا للفرس الشرقيين ولو كانوا غير أهل لانتصاره لهم ، ويتعصب على الروم الغربيين ولو كان من مصلحة الإنسانية فى ذلك الوقت الوقوف بجانبهم

كلا ثم كلا ، لم ينظر الإسلام إلى شيء من هذا أو ذاك ، لأن رسالته أولا رسالة أخلاق فاضلة يريد نشرها بين الناس ، فلا يمكنها إلا أن تقف عند حد المروءة والإنصاف فيما يكون بين المنتصر والمهزوم ، فتزن كلا من النصر والهزيمة وتنظر إلى ما يترتب عليهما من المصلحة أو المفسدة ، فإذا كان النصر يؤدى إلى مفسدة لم تقف بجانب المنتصر ، وإن كان نصره يثير الإعجاب فى النفوس ، ويدل على ما يمتاز به المنتصر من القوة والحزم ، بل تقف فى جانب المهزوم تؤازره وتواسيه ، وتتمنى له النصر على عدوه ، وتبث فى نفسه الأمل والرجاء ، حتى لا يستسلم ولا يستيئس ، ولا تقطع الأمل فى النصر بعد الهزيمة .

ولأن رسالته ثانياً رسالة إنسانية عامة ، ليست للشرق وحده ، وليست للغرب وحده ، وليست لجنس من البشر دون جنس ، فلا يمكنها أن تنظر لما بين الشرق والغرب بعين أهل الشرق أو بعين أهل الغرب ، لأنها إذا نظرت إليه بعين أحدهما تعصبت على الآخر ، وأعماها التعصب عن غايتها السامية من كونها الإنسانية عامة ، لا لأهل الشرق وحدهم ، ولا لأهل الغرب وحدهم ، ولا لجنس من البشرية دون جنس .

ثم نظر الإسلام إلى أهل الغرب فوجد أنهم يدينون بالمسيحية ، وهى لا تجعل من ملوكها آلهة يعبدون ، ووجد أن قيصر الروم لا يدعى أنه أعظم الآلهة كما يدعى كسرى الفرس .

فلم يجد الإسلام بدأ من أن يكون فى جانب الروم على الفرس ، وكان هـذا فى بدء ظهوره وهو لايزال ضعيفاً بمكة ، وقريش تضطهده وتحاول أن تقضى عليه قبل أن ينتشر بين الناس ، فتعجز عن القضاء عليه بعد انتشاره بينهم ، فلم يكن له قوة يستطيع أن يؤيد بها الروم فى محنتهم ، وإنما كان يملك الأسى لما أصابهم فى تلك الحرب ، ولا يجد إلا أن يتمنى لهم النصر بعـد تلك الهزيمة ، وكانت قريش قـد أظهرت الفرح لنصر الفرس عليهم ، مع أنها لم يكن لها فى هذه الحرب ناقة ولا جمل ، وإنما هو شأن الجاهلية الجهلاء دائما ، تفرح للغالب ولو لم يكن لها شأن بما ناله من نصر ، وتشمت بالمغلوب ولو لم يكن لها شأن بما ناله من هزيمة ، وقد زادت هـذه الشماتة من قريش بهزيمة الروم فى ألم المسلمين ، وضاعفت من حزنهم لانتصار الفرس على الروم ، حتى أنزل الله تعالى فى ذلك قرآنا يسليهم ويعدهم بأن هذه الهزيمة للروم سيكون بعدها نصر لهم ، وأن هذا لا يتأخر كثيرا بل يكون بعد بضع سنين « الم ، غُلبتِ الرومُ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيَغلِبُون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ - س ٣٠

وكان أن قام بعد هذا هرقل قيصر الروم بست حملات بين سنتى : ٦٢٢ — ٦٢٧ م ، أخرج فيها الفرس أولا من آسيا الصغرى ، ثم هاجم كسرى فى بلاده ، وقـد انقضّ بقرب مدينة نينوى على الجيش الفارسى وأنزل به هزيمة ساحقـة ، ولم يستطع كسرى أن ينشىء بعـده جيشاً جديدا ، فسار هرقل حتى استولى على دستجرد ، وكان فيها قصر عظيم لكسرى فاستولى على جميع ما فيه ، وغنم غنائم لم ير أحد مثلها منذ استولى الاسكندر المقدونى على مدينة سوسة .

ثم جاءت لحظة الانتقام من كسرى على طغيانه وجبروته وادعائه أنه أعظم الآلهة وسيد العالم كله ، فقد تراجع بعد سقوط دستجرد إلى المدائن قاعدة مملكته ،

فتبعه هرقل بجيشه إليها ، ففر منها عند اقتراب هرقل بجيشه منها ، وهنا قبض عليه ابنه شيرويه وكبار رجال دولته ، ووضعوه فى الأصفاد ، وقد مات بعد القبض عليه بعدة أيام من الغضب واليأس ، وقيل إنهم تركوه من غير طعام حتى مات من الجوع .

وقد أرسل شيرويه إلى هرقل أذل الرسائل ، وناداه فيها بقوله : ياوالدى - واعتذر عن كل ما فعله والده ببلاد الروم ، فاستقبل هرقل رسله بالعطف ، ورضى بما طلبه من الصلح ، على شرط أن يترك كل شبر من الأرض الرومية ، ويفك جميع أسرى الروم ، ويرد جميع ما أخذوه من بيت المقدس ، ويدفع غرامة حربية قدرها له ، فرضى شيرويه بجميع ما شرطه هرقل ، وتم الصلح بينهما سنة ٦٢٨ م ، فختمت بها الحروب التى مكثت قائمة بين الفريقين ستاً وعشرين سنة .

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبر نصر الروم على الفرس فى يوم الحديبية ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بد بعد هذا أن يؤدى رسالته إلى كسرى وقيصر ، لأنه كلف من ربه بتبليغها إلى الناس كافة ، ومن حقه أن يبلغها إلى هذين الملكين فى حدود التبليغ فقط ، لأنه لا يملك إلزامهما بها ، وعليهما أن يستمعا هذا التبليغ منه ، حتى يمكنهما أن يحكما له أو عليه أو يسكتا عنه ، ولا يصح أن يقل هذا شأناً عما يجب عليهما من سماع شكوى صغيرة من أحد رعاياهما .

وقد بلغهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الرسالة بكتابين منه تلطف بهما فى التبليغ ما تلطف ، ولم يجاوز حدود رسالته الدينية فى هذا التبليغ ، فلم يطلب منهما أرضاً ولا ملكا ولا غيرهما من أمور الدنيا ، وإنما طلب منهما أن يؤمنا بما جاء به من الهداية ، ليسلما من عذاب الآخرة .

فأما كسرى فزق كتابه حين وصل إليه عتواً واستكباراً ، ثم أرسل إلى عامله باليمن أن يوجه إلى من أرسله إليه فيأتى به إليه ليعاقبه عليه ، وبهذا ساءت

العلاقة بين المسلمين والفرس ، فقامت بين الفريقين حروب انتهت بزوال ملك كسرى ، ولم يلبث الفرس أن دخلوا فى الإسلام ، فتخلصوا به من العبودية لجبابرة ملوكهم ، ودخلوا فى الحرية التى يستوى فيها المسلمون جميعا ، لأنهم لا يدينون بالألوهية إلا لله تعالى ، ولا يوجد عندهم ملوك آلهة مثل الأكاسرة .

وأما هرقل ؛ فكان عليه أن يفهم الغرض من كتاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم على حقيقته ، لأنه لم يكن يريد إلا أن يبلغه رسالة ربه إليه ، فإن شاء آمن بها ، وإن شاء لم يؤمن ، لأنه لا إكراه فى الإسلام على الإيمان به ، ولكنه كان يريد أن تدخل العلاقة بين الشرق والغرب فى طور جديد ، يقوم على أساس ما يسمى الآن بالتعايش السلمى ، فلا يفرق بينهما خلاف دينى ولا خلاف عنصرى وإنما الشرق أخ الغرب ، والغرب أخ الشرق فى الإنسانية ، وقد خلقنا الله شعوباً وقبائل لنتعارف لا لنتناكر ، وقد مهد لهذا بما أبداه من ميل حسن نحو الروم فى حربهم مع الفرس ، فقد آثر فيه جانب الحق والعدل ، ولم يتعصب للفرس لأنهم مثله فى الشرق ، فلم يفهم هرقل هذا التجديد فى العلاقة بين الشرق والغرب ، وأبى إلا أن يمضى فى آثام السياسة التى فرقت بين الشعوب الشرقية والغربية ، وبهذا جمد الروم على سياستهم القديمة نحو الشرق ، ثم ورثت أوربا الحديثة عنهم هذا الجمود ، والإسلام برىء منه لأنه دين تجديد ؟

في التاريخ والأدب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى الأستاذ فى كلية اللغة العربية

— ٥ —

يزيد بن المهلب :

كانت ولاية يزيد بن المهلب العراق حدثا كبيراً ، إذ أنه أول يمانٍ اضطلع بهذه الولاية ذات الشأن حينذاك ، وما عَهِد الشعب الإسلامى بها منذ عقد لواءها معاوية لزياد إلا أن يحمل لواءها مضرى مهوب من : عبيد الله بن زياد ثم الحجاج ثم قتيبة بن مسلم ، فساورت النفوس أن استوى يزيد على العراق هواجس ترددت فى جنباتها ، أن يلى شؤونهم من ليس مضرياً ؟ لكنهم كظموا غيظهم وكتموا ما فى نفوسهم ذعراً من سلطان القوة وسوط الحكم ، وتربصوا بيزيد الدوائر حتى يبدوا ما فى دخائلهم وينفثوا ما فى صدورهم ، فلا مرية أن ولاية يزيد هى التى لفتت المضريين إلى الاستصراخ بالخلفاء فى إقصاء اليمنيين وإدناء المضريين : قيسيين وخندفيين ، حتى ملأت الخندفية الأفواه ، وتحركت بها ألسن العامة والخاصة ، وما كان لها كثير ذكر من قبل ، فسترى بعد قتل يزيد ودولان دولته كثرة المناداة بهذه العصبية التى صارحوا بها بعد كبتهم أمداً بعيداً .

على أنه من الإنصاف أن يزيد لم يسند إليه الخليفة سليمان بن عبد الملك هذه الولاية عفواً ، بل منحه إياها بعد بلاء حسن فى الدولة المروانية قدمه المهلب وبنوه فشارك يزيد فى مظاهرتها مشاركة تستوجب المجازاة بهذه الولاية الجدير بها مثله .

وإنه ليجمل أن نذكر كلمة مجملة عن المهلب وبنيه تتعرف منها كفاية المهالبة وأنهم خليقون أن تضاف إليهم المهام من الشئون ، وأن يزيد جدير بالعراق .

المهلب وبنوه :

وهب الله المهلب بنين كثيرة ، نشأهم على عرفان المكارم ، وأخذهم بالحزم إلى ارتيادها ، وصرفهم عما يشين الرجولة أيا كان : صغر أم كبر ، وله في هذا التوجيه السديد نوادر مأثورة ، نجتزىء بواحدة منها تطلعك على شدته في دفع أبنائه للمعالي ، وعلى تقدير رعايته لما دق من الأمور كما جل ، في وقت مزاح أو شهر سلاح ، وعلى بعد نظره للنتائج والحرص على حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

وما من شك أن من يعنى بتعويد أبنائه يافعين على كريم الشيم ، فإنهم سوف يشبون عليها ويشيبون .

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وتلك النادرة نرويها عن أبي الفرج الأصبهاني ، قال في الأغاني .

(كان المهلب بن أبي صفرة بخراسان فخرج إليه زياد الأعجم فمدحه ، فأمر له بجائزة ، فأقام عنده أياما ، قال : فبينما هو يشرب مع حبيب بن المهلب في دار له فيها دالية عليها حمامة إذ سجعت الحمامة فقال زياد :

تغنّىْ أنت في ذمي وعهدي وذمة والدي من أن تضاري
وبيتك فاصلحيه ولا تخافي على صُغر مزغبة صغار
فإنكِ كلما غنيتِ صوتا ذكرت أحبتي وذكرت داري
وإما يقتلوك طلبت ثأراً يباءً به لأنك في جواري

فقال حبيب : يا غلام هات القوس ، فقال زياد : وما تصنع بها ؟ قال : أرمى جارتك ، قال : والله لئن رميتها لأستعدين الأمير عليك ، فأتى بالقوس فنزع له سهما فقتلها ، فدخل زياد على المهلب فحدثه الحديث ، فقال المهلب : على بأبي بسطام فأتى بحبيب ، فقال له : أعط أبا أمامة دية جارته ألف دينار ، فقال : أطال الله بقاء الأمير إنما كنت ألعب ، قال : أعطه كما آمرك ، فأنشأ زياد يقول :

فلله عينا من رأى كقضية قضى لي بها قَرمْ العراق المهلب
رماها حبيب بن المهلب رمية فأثبتها بالسهم والسهم يقرب

فألزمه عقل القتيل ابن حرة وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال زياد لا يُرَوَّع جارُهُ وجارة جارى مثل جارى وأقرب

قال : فحمل حبيب إليه ألف دينار على كره منه ، وشرب معه ثانية فعربد عليه حبيب وقد كان مضطغنا عليه فشق قباء ديباج كان عليه ، فقال :

لعمرك ما الديباج خرقت وحده ولكنما خرقت جلد المهلب

فأحضر المهلب حبيباً وقال : صدق زياد ما خرقت إلا جلدى ، تبعث على هذا فيهجونى ، وأمر لزياد بمال وصرفه) (١) .

فما كاد بنو المهلب يبلغون مبلغ الرجال حتى ملئوا العيون وتكونت منهم قومية ، عنت لها جباه البغاة ، وخمدت لها نيران الفتن ، وفاضت عطاياهم فى ظلال الاستقرار والأمن ، فازدهرت بلاد المشرق بمآثرهم ، إذ كانوا فى الدولة المروانية كما كان بعدهم البرامكة فى الدولة العباسية ، قال ابن خلكان : « وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن فى دولة بنى أمية أكرم من بنى المهلب ، كما لم يكن فى دولة بنى العباس أكرم من البرامكة والله أعلم ، وكان لهم فى الشجاعة أيضاً مواقف مشهورة » (٢) .

ولذلك يقول بعض المادحين من شعراء الحماسة :

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان فى الزمن المحل
فما زال بى معروفهم واقتفاؤهم وإلطافهم حتى حسبتهمو أهلى

والشىء العجاب أن يفوز فى هاتين الدولتين العظيمتين فى الإسلام بالذكر الحسن والثناء المستطاب المهالبة والبرامكة ، والأولى غير عدنانية والثانية غير عربية ، ورجالات الدولتين على كثرة عديدهم وقوة البأس فيهم ووفرة النعيم لديهم فى قبائلهم المنتشرة لا يسجل لهم ما للوافدين عليهم من خوالد المحاسن التى طار بها أولئك .

على أننا بعدئذ إذا ما عدلنا بين المهالبة والبرامكة فإنا نرى بعد هذا التوافق

---

(١) الأغانى ترجمة زياد حـ ١٤ ص ١٠٠ « ساسى » .
(٢) وفيات الأعيان ترجمة يزيد بن المهلب ج ٥ ص ٣٢٦ مطبعة السعادة .

فى المجادة ورفعة الشأن التوافق بينهما فى التنكيل بهما من الخلفاء ومحاولة استئصال شأفتيهما من الوجود ، لكنهما بعد النكبتين النازلتين بهما اختلف مآلهما ، فإن المهالبة بعد ما حل القضاء بهم كاد نسلهم يختفى من الدنيا وإن لم تنس مآثرهم ، والبرامكة استعادت ذريتهم ماضيهم وولى من حفدتهم بعض الأمصار والوزارات فى الدولة العباسية . وسنعرض لهذه المعادلة قريباً عند المناسبة .

فإننا الآن بصدد الحديث عن المهالبة والتنويه بقدرهم ، ولهذا أرى لزاما أن نذكر قصة نلتمس منها الأسباب التى هيأت للمهالبة هذه المكانة المرموقة حتى تبوأ يزيد عرش العراق ، ونقف منها على مدى قوة المهالبة فى البأس والنجدة والحزم عند اشتداد الهول واحمرار الخطب وتشمير الحرب عن ساقها ، فما يعترف به التاريخ الصادق أن المهالبة صدوا سيل الخوارج العرم الذى تزلزل منه بناء الدولة الأموية ، ولولا هم لا نتقض بناؤها ، وبعد الانتهاء من هذه القصة نفرغ للحديث عن يزيد المقصود لنا بالذات إذ هو مثار تألب المضريين : عوام ، وخواص : شعراء وأدباء على اليمنيين .

المهالبة :

فى غمرات الهيجاء بين جيش الجماعة بقيادة المهلب والقوى المتكاثفة من الخوارج بزعامة قطرى بن الفجاءة المازنى ثم عبد ربه الكبير ، أرسل المهلب كعب بن معدان الأشقرى إلى الحجاج الثقفى والى العراقين يوقفه على جلية الأمر ويعرض عليه صورة الأحداث والغارات المتتابعة ، فتوالت الأسئلة من الحجاج عن المهلب وبنيه وعن جيش المسلمين وعن عامتهم ، وتلتها الإجابات من كعب بما يملأ النفوس إعجابا بمواقف البطولة من المهالبة مع كمال شيمهم فى مناحى الحياة العامة والخاصة بين ظهرانى المتصلين بهم عن قرب وعن بعد ، وهذه القصة رويت بروايات يختلف بعضها عن بعض لكنها تتلاقى فى نهايتها على وصف المهالبة بالمحامد والمكارم ، وسنعمد إلى رواية المبرد روما للاختصار وجنوحا منا إلى رجحانها على ما عداها مع إردافها بالتنبيه إجمالا إلى المصادر الأخرى الموافقة لها فى رسول الحجاج والمخالفة لها فيه .

قال المبرد « . . . فقال الحجاج له : أخبرنى عن بنى المهلب ، قال المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارساً شجاعا ، وجوادهم وسخيهم قبيصة ، ولا يستحى الشجاع أن يفر من مدركة ، وعبد الملك سم ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ، قال خلفتهم بخير ، قد أدركوا ما أمّلوا ، وأمنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيهم كان أنجد ، قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخذوا يئسنا منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطرى ، قال : كدناه ببعض ما كادنا به فصرنا منه إلى الذى نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ، قال : كان الحدُّ عندنا آثر من الفَلِّ ، قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ، قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد ، قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : فشا فيهم الأمن وشملهم النفَل ، قال : أكنت أعددت لى هذا الجواب ، قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : فقال هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك (١) .

وقد اختلفت الروايات فى رسول المهلب إلى الحجاج ، فتقدمت رواية المبرد التى تعين أن رسول المهلب هو كعب بن معدان الأشقرى ، وتبع المبرد فى هذه الرواية أبو على القالى فى الأمالى (٢) ، وقفاهما النويرى فى نهاية الأرب، مع زيادة بيان فى مجادة بنى المهلب ، وذلك فى مقام : « ذكر ماقيل فى الشجاعة والصبر والإقدام (٣).

وقد خالف كل هؤلاء ابن عبد ربه فى العقد الفريد (الجمانة فى الوفود)

---

(١) الكامل شرح الرغبة ج ٨ ص ١١٤ ، ١١٥ ، الشرح : المال : السائم من الأنعام والبيات : الهجوم على العدو ليلا ، أثرنا الحد على الفل : الحد فى اللغة النفاذ فى النجدة ، والمراد به المجاهدة لعبد ربه الكبير ، وذلك أن الخوارج لما خلعوا قطريا وبايعوا عبد ربه نهض بالجهاد ، وذهب قطرى إلى طبرستان ، فنهد المهلب إلى خوارج عبد ربه ولم يتبع قطريا ، فالحد عبد ربه ، والفل قطرى ، وهذا بيان المبرد فى الكامل ج ٤ ص ٢٨

(٢) الأمالى ج ١ ص ٢٦٥ طبع الدار . (٣) نهاية الأرب ج٣ ص٢٢١ طبع الدار

إذ ذكر أن وافد المهلب للحجاج هو : مالك بن بشير ، وأن الحجاج تفاءل باسمه واسم أبيه ، وفرح لأول نظرة عند المقابلة ، والحديث بينهما ممتع طويل لو نقلناه (١)، وكذا ابن خلكان فى وفيات الأعيان ترجمة (المهلب بن أبى صفرة الأزدى) (٢).

والخلاف فى الرسول لا طائل تحته كما يقولون على أنه سواء أكان الرسول كعبا أم مالكا فإن القصة نفسها صحيحة لا ريب فيها . وهى المسوقة لإعظام بنى المهلب . فى أسلوب جزل : يستهوى الألباب ، ويستلب المشاعر . وفيها هذا التشبيه : « هم كالحلقة المفرغة » الذى ينم عن ألمعية منشئه ومبدعه ، ولحسن وقعه واختصار لفظه تداوله الأدباء وضربوه فيما يشبه مورده إذ صار مثلا (٣) .

هم كالحلقة المفرغة :

ولقد استجاد هذا التشبيه سلف البلاغيين وخلفهم ، لما فيه من عمق المعنى ، وقوة التصوير ، واكتمال الصلة بين الطرفين كما يبغى القائل ، وهنا يحسن الإلماع إليه ملحة بيانية .

قال الشيخ عبد القاهر فى مبحث (التشبيه والتمثيل) بعد أن قسم التمثيل إلى ثلاثة : ما يقرب مأخذه ، وما يحتاج إلى قدر من التأمل والتلطف ، وما يدق ويفحص حتى يحتاج إلى فضل روية ولطف فكر ، شارحا القسم الثالث بشىء من البسط إذ يقول فيه :

(وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، فنحو قول كعب الأشقرى ـ وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه ، وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله فى آخر القصة قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ، قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيهم كان أنجد ، قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ؟

(١) العقد ج ٢ ص ٨٢ طبع لجنة التأليف والترجمة .
(٢) الوفيات ج ٤ ص ٤٤٠ طبع مطبعة السعادة .
(٣) راجع مجمع الأمثال أواخر « الهاء » .

فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة . . .

فأما ما كان مذهبه فى اللطف مذهب قوله : هم كالحلقة ، فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة) (١) .

وقد قلد الشيخُ عبد القاهر فى نسبة التشبيه لكعب الأشقرى المبردَ ومن معه ولكن الخطيب القزوينى لا يتابعه فى هذه النسبة ، بل ينسبه - كالزمخشرى - إلى (الأنمارية) وهاك حديث الخطيب فى الإيضاح :

ذكر الخطيب فى مبحث التشبيه أيضاً بعد أن قسم وجه التشبيه المجمل إلى ظاهر وخفى - القسم الثانى قائلا : « ومنه خفى لا يدركه إلا من له ذهن يرتفع به عن طبقة العامة ، كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم ، وأن أيهم أنجد ؟ : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟ أى لتناسب أصولهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعيين بعضهم فاضلا وبعضهم أفضل منه ؟ كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وسطاً . هكذا نسبه الشيخ عبد القاهر إلى من وصف بنى المهلب ، ونسبه الشيخ جار الله العلامة إلى الأنمارية ، قيل هى فاطمة بنت الخرشب ، سئلت عن بنيها أيهم أفضل ؟ فقالت عمارة ، لا بل فلان لا ، بل فلان ، ثم قالت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ؟ هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ؟ » .

تلك الدقة من القزوينى لا تعود إلا بالإرشاد إلى الصواب فى معرفة المبتكر لهذا التشبيه ، ولا أثر لها من جهة الحكم على نوع التشبيه ، فإنه متفق مع الجرجانى فيه .

ولئن ذكره الجرجانى فى أقسام التمثيل إنه يعده من حيث وجه الشبه مجملا كما قال القزوينى ، ولئن حسبه القزوينى من أضرب المجمل إنه ليجعله تمثيلا ، فهما ملتقيان فى الأمرين : كونه تمثيلا وكونه مجملا إذ لا تنافى بينهما ، فالتمثيل منظور فيه إلى معنى وجه الشبه ، والإجمال مرعى فيه ذكر الوجه وعدم ذكره ، فلا أثر

[١] أسرار البلاغة ص ٧٤ ، ٧٥ طبع دار الكتاب العربى

لهذا الاختلاف من الناحية الاصطلاحية ألبتة ، وإنما الأثر من جهة التحرى فى قائل هذا التشبيه أوّلا ، فلنعد إليه .

قائل هذا التشبيه الأنمارية :

بالتأمل فى كلام الخطيب يستفاد : أن هذا التشبيه التمثيلى قيل فى الجاهلية ، فهو على سبيل اليقين منشأ فى الجاهلية محكى فى الدولة المروانية ، وأن قائله الأنمارية ، وأنها فاطمة بنت الخرشب إحدى المنجبات فى الجاهلية يروى أنه سألها أبو سفيان حين قدمت عليه مكة حاجة فى الجاهلية : أى بنيك أفضل ؟ فقالت الخ ، وأن وافد المهلب ناقل له متمثل به فقط ، وأن ذلك الوافد ليس الأشقرى على وجه اليقين كما قال عبد القاهر .

ويعضد ذلك ما نقله البغدادى فى خزانة الأدب عن الزمخشرى فى مستقصى الأمثال (أنجب من بنت الخرشب) (١) وما ذكره ثانياً للمناسبة فى الخزانة أيضاً (٢) وفاطمة حرية أن تقول ما قالت ، فكانت امرأة برزة ، لها ضيافة وسؤدد بين الناس ، ولقد ذكرنى هذا بمثل آخر لها قالته فى وقت عصيب . وهو :

حسبك من شر سماعه :

وذلك أنه نشأت شحناء بين ابنها الربيع بن زياد العبسى وبين قيس بن زهير العبسى فى شأن درع ساومه فيها ، فلما نظر إليها وهو على ظهر فرسه وضعها على القربوس ثم ركض بها فلم يردها عليه ، فاعترض قيس فاطمة أمه فى ظعائن من بنى عبس ، فاقتاد جملها يريد أن يرتهنها بدرعه ، فقالت له : ما رأيت كاليوم قط فعل رجل ، أين حلمك يا قيس أترجو أن تصطلح أنت وبنو زياد أبدا ، وقد أخذت أمهم فذهبت بها يميناً وشمالا ، فقال الناس فى ذلك ما شاءوا أن يقولوا ، وحسبك من شر سماعه ، فعرف قيس ماقالت فخلى سبيلها ، فقالت ـ وحق ما قالت ـ

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الضارى (٣)

[١] الخزانة الشاهد الثامن والأربعين بعد المائتين .

[٢] الخزانة الشاهد السادس والثلاثين بعد السمائة .

[٣] المثل فى مجمع الأمثال « الحاء » ونهاية الأرب حـ ٣ ص ٣٦ طبع الدار .

وإذا كان الحديث يجر بعضه بعضا ، فبعد أن عرفت أن البيانيين استشهدوا لبديع التمثيل بقول الأنمارية كذلك استشهد النحاة بقول بعض العرب عنها فيمن أنجبت معلناً انفرادهم عزاً وسؤدداً .

شاهد نحوى :

من شواهد النحاة على زيادة (كان) قال الزمخشرى فى المفصل (قسم الأفعال) مبحث أوجه (كان) : « ومن كلام العرب : ولدت فاطمة بنت الخرشب الكملة من بنى عبس لم يوجد كان مثلهم » وقد علق شارحه ابن يعيش على هذا الشاهد بتفصيل علمياً وتاريخياً [١] .

إن الحديث عن الأنمارية لا يمل منه وإن امتد ، إذ ليس يخلو من شذرة علمية أو تاريخية أو أدبية ، بيد أن سيرتها إنما عرضت تبعا للمقال فى وصف المهالبة ، وما يذكر للمناسبة ينبغى أن يقلل فيه ما أمكن التقليل ، على أن المهالبة أنفسهم لم يقتض الإلمام عنهم بكلمة إجمالية تشير إلى ما بلغوا من فخار فى المكارم إلا التمهيد لأحدهم : يزيد بن المهلب ، لترى أنه من الفروع البواسق التى حوتها الدوحة العالية ، فكان حرياً أن يقوم بعظائم الأمور ، وليس عجيباً أن يولى العراقين ، فيغدو مناط الآمال ، ومحط الرحال ، ومنتجع العافين ، وممدوح الشعراء مضريين وغير مضريين ، خندفيين وغير خندفيين ، والناس مجبولون على مصانعة المجدود ، والاحتفاء به دون رعاية للجنسية أيا كانت :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

وما فتى شأنه متزايدا حتى قلبت الأيام ليزيد ظهر المجن ، وقتله بنو مروان فانقلب المداحون له ذامين فيه ، وتألب الشعراء المضريون على ثلب آل المهلب جميعاً ، وربطت بينهم علائق الكراهة لليمنيين ، فهبوا يستغيثون بنى مروان الخندفيين ألا يمكنوا لهم فى التحكم فى المضريين ثانياً .

وشأن يزيد هذا فى مجمله يحتاج إلى التفصيل فى مقال آخر لأنه المقصود بالذات من أول الأمر ، لأنه الذى أرث نار الخندفية واليمنية ؟

---

[١] شرح المفصل ح ٧ ص ٩٨ .

من بحوث معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة

أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى - كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

- ٣ -

أسباب الاختلاف التى تختص بها السنة

بلوغ الحديث أو عدم بلوغه ـ قبول الحديث أو عدم قبوله ـ أمثلة من نقد الحديث : نقد ابن حزم لحديث فى زكاة الفطر ـ نقد الحنفية لحديث المصراة ـ تحقيق فى أساس القبول : لا ينبغى أن ترفض الرواية لمجرد صدورها من مخالف فى المذهب ـ المعول عليه هو كون الراوى صادقا ـ رأى الرازى ـ رأى ابن حزم ـ هل يجب بيان سبب التعديل والتجريح ـ السنة تأخذ برواية الشيعة والشيعة تأخذ برواية السنة والعبرة عند الجميع بصدق الراوى .

* * *

من أهم أسباب الاختلاف فى السنة :

١ ــ بلوغ الحديث أو عدم بلوغه : ٢ ــ قبول الحديث أو عدم قبوله :

(أ) من جهة النظر فى السند : (ب) ومن جهة النظر فى المتن :

أولا : بلوغ الحديث أو عدم بلوغه :

(١) كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين أخذوا منه

ورووا عنه ، وكانوا متفاوتين فى حظهم من الأخذ ، وفى إقبالهم على الرواية ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسأل عن المسألة ، ويَحكم بالحكم ، ويأمر بالشيء أو ينهى عنه ، ويفعل الشيء أو يعرض عنه ، فيعى ذلك من يحضره ، ويغيب عمن غاب عنه .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفرق أصحابه فى البلاد ، فأخذ أهل كل بلد عمن لديهم من الأصحاب ، وفى ذلك يقول ابن حزم : « فقد حضر المدنى ما لم يحضر البصرى ، وحضر البصرى ما لم يحضر الشامى ، وحضر الشامى ما لم يحضر البصرى ، وحضر البصرى ما لم يحضر الكوفى ، وحضر الكوفى ما لم يحضر المدنى ، كل هذا موجود فى الآثار ، وفى ضرورة العلم بما قدمنا من مغيب بعضهم عن مجالس النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى بعض الأوقات ، وحضور غيره ، ثم مغيب الذى حضر أمس وحضور الذى غاب ، فيدرى كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه ، هذا معلوم ببديهة العقل ، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره ، وجهله عمر وابن مسعود فقالا : لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين ، وكان حكم المسح عند علىّ وحذيفة رضى الله عنهما وغيرهم ، وجهلته عائشة وابن عمر وأبو هريرة وهم مدنيون ، وكان توريث بنت الابن مع البنت عند ابن مسعود وجهله أبو موسى . . . » (١) .

(١) فمن أمثلة ذلك ما أخرجه مسلم من أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن ، فسمعت عائشة بذلك فقالت : يا عجبا لابن عمر هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن ، أفلا يأمرهن أن يحلقن رءوسهن . لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إناء واحد ، وما أزيد على أن أفرغ على رأسى ثلاث إفراغات .

(٢) ومنها ما ذكره الزهرى من أن هندا لم تبلغها رخصة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المستحاضة ـ وهى التى ينزل عليها الدم بعد أقصى مدة الحيض ـ فكانت تبكى لأنها لا تصلى .

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٢٦ ، ١٢٧ ج ٢

(٣) ومنها ما روى عن رفاعة بن رافع قال : بينما أنا عنـد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ دخل عليه رجل فقال يأمير المؤمنين ، هـذا زيد بن ثابت يفتى الناس فى المسجد برأيه فى الغسل من الجنابة ، فقال عمر : علىَّ به ، فجاء زيد ، فلما رآه عمر قال : أىْ عدوَّ نفسه ! قد بَلغْتَ أنْ تُفتى الناسَ برأيك ؟ فقال : يأمير المؤمنين ، والله ما فعلتُ ، ولكنْ سمعت من أعمامى حديثاً فحدثت به من أبى أيوب ، ومن أبىّ بن كعب ، ومن رفاعة بن رافع ، فقال عمر : علىَّ برفاعة ابن رافع فقال : قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدُكم المرأةَ فأكسَل أن يغتسل ؟ فقال : قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . لم يأتنا فيه عن الله تحريم ، ولم يكن فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شىء ، فقال عمر : ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلم ذلك ؟ قال : ما أدرى . فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار ، فجمعوا وشاوَرَهم ، فشار الناسُ أنْ لا غسلَ ، إلا ما كان من معاذ وعلىّ ، فإنهما قالا : إذا جاوز الختانُ الختانَ وجب الغسل ، فقال عمر : هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم ، فمَن بعدَكم أشدُّ اختلافا ! فقال علىّ : يأمير المؤمنين إنه ليس أحد أعلم بهذا ـ من شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ من أزواجه ، فأرسل إلى حفصة ، فقالت : لا علم لى ، فأرسل إلى عائشة ، فقالت : إذا جاوز الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل فقال : لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعتُه ضربا ـ يريد عدم الاغتسال من الإكسال ـ (١) .

٢ — ثم جاء بعد ذلك عصر التابعين فأخذ كلٌّ بما علم من رواية عن الصحابة ، وغاب عن بعضهم كذلك ما علمه غيرهم ، ثم أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار ، كأبى حنيفة ، وسفيان ، وابن أبى ليلى ، وابن جريج ، ومالك ، وابن الماجشون ، وعثمان البتى ، وسوار ، والأوزاعى ، والليث ، وزيد بن على ، وجعفر بن محمد ، وغيرهم ، فمنهم من كان فى الكوفة ، ومنهم من كان بمكة ، ومنهم

---

(١) أعلام الموقعين ص ٦٣ ، ٦٤ ج ١

من كان بالبصرة ، ومنهم من كان بالمدينة ، ومنهم من كان بالشام ، ومنهم من كان بمصر . . . الخ .

فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، واجتهادهم فيما لم يجدوه عندهم وهو موجود عند غيرهم (١) .

ثانياً : قبول الحديث أو عدم قبوله :

قد يقبل بعض المجتهدين حديثاً لتوافر شروط القبول في نظره ، ويردّه آخر لعدم توافر شروط القبول عنده ، ويقع ذلك على وجوه منها ما يرجع إلى السند ، ومنها ما يرجع إلى المتن .

١ — فيما يرجع إلى السند :

(١) ما استدل به الشافعية من حديث مروى عن عبادة بن الصامت حيث قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال : إني أراكم تقرءون وراء إمامكم ، قال قلنا يا رسول الله إي والله . قال : لا تفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها » رواه أبو داود والترمذي .

وقد استدل الشافعية بهذا الحديث فيما استدلوا به على وجوب قراءة الفاتحة على المأموم ، وفي هذا الحديث يقول ابن قدامة المقدسي صاحب « المغني » : حديث عبادة لم يروه غير ابن إسحق ونافع بن محمود بن ربيع ، وابن إسحق مدلس ، ونافع أدنى حالا منه .

وهذا النوع كثير ، وهو أساس هام من أسس الخلاف ، ولا سيما بين السنة والإمامية والزيدية ، فكل فريق منهم يرى أحاديث ثبتت عنده لا يراها الآخر ، بسبب تجريحهم من رواها ، أو عدم الأخذ عنه لأمر آخر قام لديهم (٢) .

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٢٦ ج ٢

(٢) لنا في هذا الشأن تعقيب سيمر بك قريباً .

(٢) ومن ذلك اختلافهم فى العمل بالحديث المرسل - وهو قول غير الصحابى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فبعضهم يرى العمل به ، وبعضهم لا يرى ذلك .

قال ابن الصلاح : الاحتجاج به مذهب مالك وأبى حنيفة وأصحابهما فى طائفة ، والشيعة يأخذون بالمرسل إذا علم من حال مرسله أنه لا يرسل عن غير الثقة فينظمونه فى سلك الصحاح ، كمراسيل محمد بن عمير (١) .

ويقول ابن كثير : إن الاحتجاج به محكىّ عن الإمام أحمد بن حنبل فى رواية ، وأما الشافعى فنص على أن مرسلات سعيد بن المسيب ، حسان ، قالوا : لأنه تتبعها فوجدها مسندة ، والذى عول عليه كلامه فى « الرسالة » أن مراسيل كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسلة ، أو اعتضدت بقول صحابى أو أكثر العلماء ، أو كان المرسل لو سمى لا يسمى إلا ثقة ، فحينئذ يكون مرسله حجة ولا ينتهى إلى رتبة المتصل (٢) .

(٣) وقد يقع فى نفس من بلغه الحديث أن روايه قد وهم ولم يحفظ .

وقد نقل مثل هذا عن الصحابة وعمن بعدهم :

ومن أمثلة ذلك على عهد الصحابة : ما فعلته عائشة فى الخبر الذى رواه ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقضت عائشة عليه بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على يهودية يبكى عليها أهلها فقال : « إنهم يبكون عليها وإنها تعذب فى قبرها » فظن العذاب معلولا للبكاء فجعل الحكم عاما على كل ميت .

وشبيه بهذا فيما بعد الصحابة ما رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن محمد الطلحى عن ثابت بن موسى العابد الزاهد عن شريك الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا : « من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » قال الحكم : « دخل ثابت على شريك وهو يملى ويقول : حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال ،

(١) الرسالة « الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العاملى ص ٣ طبع إيران .
(٢) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٣٨ — ٣٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، - وسكت ليكتب المستملي - فلما نظر إلى ثابت قال : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقصد بذلك ثابتاً لزهده وورعه ، فظن ثابت أنه متن ذلك الإسناد فكان يحدث به ، وقال ابن حبان : « إنما هو قول شريك قاله عقب حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعا « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » فأدرجه ثابت في الخبر (١) .

٢ — ومما يرجع إلى المتن :

(١) نقد ابن حزم لحديث قيل إن الحسن رواه عن ابن عباس جاء فيه أنه خطب في آخر رمضان على منبر البصرة فقال : أخرجوا صدقة صومكم ، فكأن الناس لم يعلموا فقال : مَنْ ههنا من أهل المدينة ؟ فقوموا إلى إخوانكم فعلموهم فإنهم لا يعلمون : فرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الصدقة صاعا من تمر أو شعير أو نصف صاع من قمح على كل حر أو مملوك ، ذكر أو أنثى ، صغير أو كبير ، فلما قدم عليٌّ رأى رخصَ الشعير . قال قد أوسع الله عليكم فلو جعلتموه صاعا من كل شيء .

قال ابن حزم : وهذا الحديث قبل كل شيء لا يصح لوجوه ظاهرة .

أولها : أن الكذب والتوليد والوضع فيه ظاهر كالشمس ، لأنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم بالأخبار أن يوم الجمل كان لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ثم أقام عليٌّ بالبصرة في جمادى الآخرة ، وخرج راجعاً إلى الكوفة في صدر رجب ، وترك ابن عباس بالبصرة أميراً عليها ، ولم يرجع عليٌّ بعدها إلى البصرة ، هذا ما لا خلاف فيه من أحد له علم بالأخبار ، وفي الخبر المذكور ذكر تعليم ابن عباس أهلَ البصرة صدقةَ الفطر ، ثم قدم عليٌّ بعد ذلك ، وهذا هو الكذب البحت الذي لا خفاء به ، ووجه ثان أن الحسن لم يسمع من ابن عباس أيام ولايته البصرة شيئاً ، ولا كان الحسن حينئذ بالبصرة ، وإنما كان بالمدينة - هذا مما لا خلاف فيه بين أحد من نقلة الحديث ، وأيضاً وجه ثالث

(١) الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث لابن كثير ص ٧٧ .

فإنه حديث مفتعل لا يصح ، لأن البصرة فتحها وبناها - سنة أربع عشرة من الهجرة - عتبة بن غزوان المازنى - بدرى مدنى - ووليها بعده المغيرة بن شعبة ، وأبو موسى ، وعبد الله بن عامر ، وكلهم مدنيون ، ونزلها من الصحابة أزيد من ثلاثمائة رجل ، منهم عمران بن الحصين ، وأنس بن مالك ، وهشام بن عامر ، والحكم بن عمرو ، وغيرهم ، وفتحت أيام عمر بن الخطاب ، وتداولها ولاته ، إلى أن وليها ابن عباس بعد صدر كبير من سنة ست وثلاثين من الهجرة فلم يكن فى هؤلاء من يخبرهم بزكاة الفطر ، بل ضيعوا ذلك وأهملوه ، واستخفوا به أو جهلوه مدة أزيد من اثنين وعشرين عاما : مدة خلافة عمر بن الخطاب ، وعثمان رضوان الله عنهما ، حتى وليهم ابن عباس بعد يوم الجمل ؟ أترى عمر وعثمان ضيعا إعلام رعيتهما هذه الفريضة ؟ أترى أهل البصرة لم يحجوا أيام عمر وعثمان ، ولا دخلوا المدينة فغابت عنهم زكاة الفطر إلى بعد يوم الجمل ؟ إن هذا لهو الضلال المبين ، والكذب المفترى ، ونسبة البلاء إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، إن هذا الخبر ما يدخل تصحيحه فى عقل سليم ، وما حدث الحسن - والله أعلم - بهذا الحديث إلا على وجه التكذيب له ، لا يجوز غير ذلك (١) .

ولا شك أن هذا نقد جيد يدل على تعمق فى البحث ، وطول باع .

ومن ذلك موقف الحنفية من الحديث المعروف بحديث « المُصَرَّاة » (٢) ، وهو ما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا تُصَرُّوا الإبلَ والغنمَ ، فمن ابتاعها بعد فهو بخَيْر النظرين بعد أن يحلبها : إن شاء أمسك ، وإن شاء ردها وصاعا (٣) من تمر .

---

(١) الإحكام لابن حزم ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) المصراة : هى الدابة التى ربط ضرعها ليجتمع اللبن فيه ، من قولك : صريت الماء فى الحوض - بتخفيف الراء المفتوحة وتشديدها إذا جمعته - والبائع يفعل ذلك ليوهم المشترى أن لبنها كثير ، غشا له .

(٣) الصاع مكيال قديم قدر بقدحين وثلث قدح .

فمقتضى هـذا الحديث أن للمشترى أن يرد ، وعليه فى هـذه الحالة أن يدفع للبائع صاعا من تمر ، سواء أكان اللبن قليلا أم كثيراً ، وأن اللبن لا يرد للبائع كأن التمر بدل منه .

وثبوت الخيـار بالتصرية بين الرد والإمساك هو مذهب الجمهور ، وبه قال عبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وأبو هريرة ، وأنس ، والشافعى ، ومالك ، والليث ، وابن أبى ليلى ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو يوسف ، وزفر ، أخذاً بهذا الحديث .

وقال أبو حنيفة : لا يثبت بذلك خيار ، لأن نقصان اللبن ليس بعيب ، ولهذا لو وجدها ناقصة اللبن عن أمثالها لم يثبت له الخيار .

ولذلك يرد كثير من الحنفية هـذا الحديث ، ولا يثبتون الرد بالتصرية ، ولا يوجبون رد الصاع من التمر ، لأن هـذا يخالف الأصول الفقهية فى نظرهم ، من جهات :

من جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر - والتمر ليس مثليا ولا قيمياً للبن ، والقاعدة أن ضمان المثليات يكون بمثلها ، والقيميات بقيمتها .

ومن جهة أنه قد حدد قدر الضمان بالصاع ولم ينظر إلى كمية اللبن ، والقاعدة عندهم أن الضمان إنما يكون بقدر التالف .

ومن جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر مع بقائه ، والقاعدة أن الأعيان إنما تضمن عند هلاكها (١) .

والشيعة الإماميـة يرون التصرية من قبيل التدليس ، وإن لم تكن عيبا ، ويقولون : إذا ردها رد معها اللبن الذى احتلبه منها ، ولو فقد دفع مثله ، ويعتمدون فى ذلك على خبر آخر رواه أبو داود فى سننه « كتاب البيوع ، الباب ٤٦ » وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من ابتاع محفَّـلة (٢) فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن

[١] راجع نيل الأوطار للشوكانى ص ٢١٦ ج ٥ طبع المطبعة العثمانية ، وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ص ٢٥ ج ٢ ، ثم تذكرة الفقهاء للحلى الإمامى ص ٣٦٦ ج ٧ وفيها رأى الإمامية .

[٢] هى المصراة ، وسميت محفلة لأنه جمع فيها اللبن ، ولهذا سمى اجتماع الناس محافل .

ردها ردّ معها مثلَ أو مثلىْ لبنها قمحا ، وعلى هذا فقد يزيد الواجب على الصاع من التمر وقد ينقص ، وهـذا الحديث الأخير هو الذى يوافق قاعدتهم فى اعتبار التصرية تدليساً يوجب الرد ، وفى رد اللبن أو مثله لأنه ملك البائع ، وحملوا الحديث الآخر - لو ثبت - على صورة ما إذا تعذر اللبن ومثله مع مساواة الصاع لقيمته . فتحصل أن فريقا يعدها عيبا ويثبت بهـا الخيار ، على ما جاء فى الخبر الأول ، وأولئك هم الجمهور ، وفريقا يعدها تدليساً وليست بعيب ، ويثبتون بها الخيار ، واللبن أو قيمته إن لم يكن ، وهم الإمامية ، وفريقا لا يعدها عيباً ولا تدليساً ، وذلك قول أبى حنيفة ومن تبعه .

(٤) وبعضهم يرى عـدم العمل بالحديث الذى تركه أهل الفقه والفتوى مع عدم الطعن فى روايته .

وممن يرون ذلك : أبو حنيفة ومالك والشيعة الإمامية ، لأن إهمال الفقهاء له وعدم عملهم به مع أنه منهم على مرأى ومسمع يكشف عن وجود قرينة تستدعى الإعراض عن ذلك الحديث بالخصوص ، وإن كان الراوى له صادقا (١) ، أما الشافعى فإنه يرى العمل به لقوته .

ومثال ذلك حديث القلتين ، فإنه حديث صحيح روى بطرق كثيرة ، ولـكنه لم يظهر فى عهد سعيد بن المسيب ، والزهرى ، ولم يمش عليه المـالكية ولا الحنفية وعمل به الشافعية (٢) .

هذه أمثلة أردنا أن نبين بها الاختلاف الراجع إلى العمل ببعض الأحاديث من جانب وتركها من جانب آخر ، ولم نرد الاستقصاء فى الأنواع ولا فى الأمثلة .

تحقيق فى أساس القبول والرد من حيث السند :

ونود أن نقول هنا كلمة عن رأينا فى الخـلاف الذى سببه استمساك كل فريق

---

(١) كتاب « مع الشيعة الإمامية » لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنية رئيس المحكمة العليا ببيروت ص ٧٣

(٢) « حجة الله البالغة » للدهلوى ص ١٤٧ ج ١

بما جاء عن طريق رواته ، ورفضه الأخذ بما جاء عن طريق رواة مخالفيه ، فنقول : إن هذا النوع من الخلاف لا مبرر له ، ولا ينبغي أن يعتد به في الفقه ، ونستطيع ـ نحن معاشر المتأخرين من مختلف المذاهب الإسلامية ـ أن نتخلص منه ونسير على أساس آخر هو أن ننظر من حيث السند إلى صدق الراوى وضبطه ، أو كذبه وغفلته ، ولا شأن لنا بكونه يرى كذا في المعارف الكلامية أو في الأمور التى لا تتعلق بأصول الدين ، ما دام لا يعتقد جواز الكذب لتأييد مذهبه ، ونؤيد هذا الرأى بما يأتى :

أولا : انه لا ارتباط بين ما يعتقده الإنسان وما يتصف به من الصدق أو الكذب أو الضبط أو السهو ، فكم من صادق ضابط في روايته ، وهو مع ذلك يعتقد شيئاً هو مخطىء فيه ، وكم من مصيب فيما يعتقد ولكنه مع ذلك معروف بالكذب أو بالغفلة ، ونحن مكلفون بالعمل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أى طريق صحيح منضبط ، لا من طريق معين دون سواه .

نعم إن العلماء يردون رواية الكافر ، وهذا ليس سببه أنهم لا يتصورون الصدق منه ، أو يتصورن غلبة الكذب عليه ، ولكن يتصورون فيه أن عداوته للمسلمين تحمله على محاولة تضليلهم ، وإفساد دينهم ، أما المخالف من أهل القبلة ما دام لا يرى الكذب لنصرة مذهبه جائزاً ، فإن المحققين من العلماء لا يرون رد روايته لمجرد خلافه ، وهذا هو الإنصاف ، لأن كلا من المتخالفين متأول في أمر ليس من الأصول التى لا مناص من الإيمان بها ، فأحدهما لا يكفر الآخر بمخالفته ، فلا يكون منصفاً إلا إذا عذره واحترم حقه في الاجتهاد والنظر ، فله أن يقول لصاحبه : أنت مخطىء في رأيك ، وليس له أن يقول له : أنت كاذب في روايتك لأنك مخطىء في رأيك .

قال الإمام فخر الدين الرازى : « أجمعت الأمة على أنه لا تقبل رواية كافر ، من يهودى أو نصرانى ـ إجماعا ـ سواء عُلم من دينه الاحتراز عن الكذب أو لم يعلم ـ أى لأن مخالفته في الدين تجعله عدواً للمسلم ، وتجعل الشأن فيه عدم النصيحة

وعدم تحرى الصدق - قال : والمخالف من أهل القبلة - إذا كفّرناه كالمجسم وغيره - هل تقبل روايته أم لا ؟ والحق أنه إن كان مذهبه جواز الكذب لا تقبل روايته وإلا قبلناها وهو قول أبى الحسين البصرى (١) » .

هذا كلام الإمام الرازى ، ولا شك أنه رأى منصف بل إننا نستطيع أن نصفه بالتسامح ، لأنه جعل المجسم ممن تقبل روايته فما بالك بمن لا يصل مذهبه إلى القول بالتجسيم ؟.

ولابن حزم فى ذلك كلام جيد قال :

« هل نقبل نقل أهل الأهواء وروايتهم ؟ فقولنا فى هذا - وبالله تعالى التوفيق - أن من يشهد بقلبه ولسانه أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأن كل ما جاء به حق ، وأنه برىء من كل دين غير دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو المؤمن المسلم ، ونقله واجب قبوله إذا حفظ ماينقل ، مالم يمل عن إيمانه إلى كفر أو فسق ، وأهلُ الأهواء ، وأهل كل مقالة خالفت الحق ، وأهل كل عمل خالف الحق ، مسلمون أخطأوا مالم تقم عليهم الحجة ، فلا يكدح شىء من هذا فى إيمانهم ولا فى عدالتهم ، بل هم مأجورون على ما دانوا به من ذلك وعملوه أجراً واحداً ، إذا قصدوا به الخير ، ولا إثم عليهم فى الخطأ ، لأن الله تعالى يقول : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم » ونقلهم واجبٌ قبوله كما كانوا ، وكذلك شهادتهم ، حتى إذا قامت على أحد منهم الحجة فى ذلك من نص قرآن أو سنة ، مالم تخص ولا نسخت ، فأيما تمادى على التدين بخلاف الله عز وجل ، أو خلاف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو نطق بذلك : فهو كافر مرتد ، لقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » الآية - وإن لم يدن لذلك بقلبه ، ولا نطق به لسانه . لكن تمادى على العمل بخلاف

---

(١) راجع حاشية روضة الناظر المسماه (نزهة الخاطر العاطر) للشيخ عبد القادر أحمد بن مصطفى بدران الرومى ثم الدمشقى — ص ٢٨١ ج ١ وما بعدها — طبعة المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٢ .

القرآن والسنة ، فهو فاسق بعمله ، مؤمن بعقده وقوله ، ولا يجوز قبول نقل كافر ولا فاسق ولا شهادتهما ، قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ » الآية ، وقد فرق بعض السلف بين الداعية وغير الداعية - يريد الداعية لمذهبه - وهذا خطأ فاحش ، وقول بلا برهان ، ولا يخلو المخالف للحق من أن يكون معذوراً ، بأنه لم تقم عليه الحجة ، أو غير معذور لأنه قامت عليه الحجة ، فإن كان معذوراً ، فالداعية وغير الداعية سواء ، كلاهما معذور مأجور ، وإن كان غير معذور لأنه قد قامت عليه الحجة ، فالداعية وغير الداعية سواء وكلاهما إما كافر كما قدمنا ، وإما فاسق كما وصفنا وبالله تعالى التوفيق (١) .

ويقول الطوفيّ الحنبلي : إن المحدث إذا كان ناقداً بصيراً في فنه جاز له أن يروى عن جماعة من المبتدعة الذين يفسقون ببدعتهم كعباد بن يعقوب - وكان غالياً في التشيع - وحريز بن عثمان - وكان يبغض علياً رضى الله عنه (٢) .

ومما يتصل بهذا أن أهل الأصول قد تكلموا في قبول التعديل والتجريح ، إذا لم يبين سببهما ، فالتعديل لا يشترط بيان سببه استصحاباً لحال العدالة ، وممن يقول بذلك الإمامان : أحمد بن حنبل والشافعي ، وفي ذلك دليل على أن حال المسلم محمول على العدالة الإسلامية ، ومذهب أبي حنيفة أن مجهول الحال من المسلمين يعتبر عدلا وتقبل روايته من حيث العدالة ، واستشهدوا لذلك بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل شهادة الأعرابي برؤية الهلال ولم يعرف منه إلا الإسلام ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني رأيت الهلال - يعني رمضان - فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ فقال نعم - رواه أبو داود وغيره وروى أيضاً عن عكرمة مرسلا بمعناه وقال : فأمر بلالا فنادى في الناس أن يصوموا وأن يقوموا ، وفي رواية النسائي قال : « يا بلال أذن في الناس فليصوموا غداً » .

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ج ٤ .

(٢) راجع « نزهة الخاطر » في الموضع الذي سبق ذكره .

وأما سبب الجرح فيشترط بيانه ، وممن يقول بذلك الشافعى وأحمد فى أحد قوليه ، وذلك لاختلاف الناس فى سبب الجرح ، واعتقاد بعضهم مالا يصلح أن يكون سببا للجرح جارحا ، كشرب النبيذ متأولا ، فأنه يقدح فى العدالة عند مالك مثلا ، ولا يقدح عند الحنفية ، وكمن يرى إنسانا يبول قائما فيبادر بجرحه لذلك ، ولا ينظر فى أنه متأول مخطىء أو معذور ، لما فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بال قائما لعذر كان به ، فينبغى بيان سبب الجرح ليكون على ثقة واحتراز من الخطأ والغلو فيه ، قال الطوفى رحمه الله تعالى . « ولقد رأيت بعض العامة وهو يضرب يداً على يد ويشير إلى رجل ويقول : ما هذا إلا زنديق ، ليتنى قدرت عليه فأفعل به وأفعل ، فقلتُ ما رأيت منه ؟ فقال رأيته وهو يجهر بالبسملة فى الصلاة (١) .

ثانياً : أنه ليس فى المذاهب الستة (المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة والإمامية والزيدية) من يرى جواز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح عنه أنه قال : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقد جاء هذا الحديث بلفظه أو بمعناه فى روايات صحيحة فى هذه المذاهب ، وقد بلغ من تشديد الشيعة الإمامية فى ذلك أنهم يجعلون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفسداً للصوم ، وأنه إذا وقع عمداً من صائم فى رمضان ، وجب عليه القضاء والكفارة كما يجبان على من تعمد سائر المفطرات (٢) .

ثالثا : قد بينا من قبل أن خلاف هؤلاء جميعاً بعضهم وبعض : ليس من قبيل الخلاف على الأصول التى يكون بها المسلم مسلما ، وبجحودها أو جحود شىء منها يخرج من ربقة الإسلام ، وإذن فينبغى ألا ينظر فى التجريح لمجرد أن الراوى يرى مذهبا من هذه المذاهب ، فكما لا يجوز أن يقول ذلك أحد من الشيعة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥ .

(٢) المراجعات للشيخ شرف الدين الموسوى ص ٥٠ مطبعة العرفان سنة ١٣٧٣ بالمراجعة رقم ١٤ .

عن مخالفه من شافعي أو مالكي الخ ، لا يجوز كذلك أن يقوله السني عن الإمامي أو الزيدي ولا العكس ، ولكن المعول عليه هو كون الراوي كاذباً أو ليس بكاذب .

وهذا عند التحقيق ما يعمل به السنة والإمامية والزيدية ، وإن تراءى من النظرة العاجلة أن كلا من الفريقين يرفض ما عند الآخر :

فالشيعة الإمامية مثلا يشترطون في الحديث الذي يسمونه « الصحيح » أن يكون الراوي إمامياً ثبتت عدالته بالطريق الصحيح وفي الحديث الذي يطلقون عليه لفظ « الحسن » أن يكون الراوي إماميا ممدوحا ، ولم ينص أحد على ذمه أو عدالته ، وهذا إنما هو اصطلاح لهم فيما يسمى « الصحيح » وفيما يسمى « الحسن » وليس كون الراوي إمامياً شرطاً في الصحة أو الحسن بالمعنى المفهوم لغة ، ويدل على ذلك ـ أي على أن الأمر أمر اصطلاح وتسمية ـ أنهم يذكرون إلى جانب هذين النوعين حديثاً يسمونه « الموثق » وهو ما رواه مسلم غير شيعي ولكنه ثقة أمين في النقل ، ويعملون به كما يعملون بالنوعين الأولين (١) وقال أحد محققيهم : « الموثق هو ما رواه العدل غير الامامي الموثوق بنقله ، المعلوم من حاله التحرز عن الكذب والمواظبة على الحديث على ما هو عليه » ثم ذكر المحقق بعضاً ممن عملت الإمامية بروايته وليس بشيعي فقال : « وممن عملت الطائفة بروايته من أهل السنة حفص بن غياث ، وغياث بن كلوب ، ونوح بن دراج السكوني . الخ . وقال الشيخ محمد حسن الصدر في تعليقه على ذلك بكتابه « الشيعة » (٢) « فأنت ترى أن الشيعة كانت ـ ولا تزال ـ تأخذ عن السني إذا عرفت منه الصدق وعلمت منه التحفظ ، ومن المعلوم أن الشيعة لا تفحص عن الحديث عند ما يرويه

---

[١] « مع الشيعة الإمامية » للأستاذ محمد جواد مغنية رئيس المحكمة الجعفرية العليا ببيروت ص ٧٢ وراجع في ذلك أيضا « الرسالة الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العاملي ص ٣ .

[٢] ص ١٣٤ .

المخالف لأنه صادر من غير شيعي ، لأن طريقة الفحص تسير عليها الشيعة مع السني والشيعي من غير أي خصوصية » .

وقد قبل البخاري وغيره من أصحاب كتب الصحاح التي يعتمدها أهل السنة كثيراً من الرواة المعروفين بالتشيع ، وفي ذلك يقول الشيخ شرف الدين الموسوي الشيعي الإمامي في كتابه (المراجعات) (١) « تشهد بهذا - يريد احتجاج أهل السنة برواية الشيعة - أسانيد أهل السنة وطرقهم المشحونة بالمشاهير من رجال الشيعة ، وتلك صحاحهم الستة وغيرها ، تحتج برجال من الشيعة وصمهم الواصمون بالتشيع والانحراف ، ونبزوهم بالرفض والخلاف والتنكب عن الصراط ، وفي شيوخ البخاري رجال من الشيعة نبزوا بالرفض ، ووصموا بالبغض ، فلم يقدح ذلك في عدالتهم عند البخاري وغيره ، حتى احتجوا بهم في الصحاح ، بكل ارتياح » .

ثم ذكر الشيخ الموسوي مائة من الرواة الذين أخذ بهم أهل السنة وهم من الشيعة ، ونحن نورد بعض ذلك ليتبين للقارىء منهج البحث . قال : (*)

أبان بن تغلب بن رياح القاري الكوفي :

ترجمه الذهبي في ميزانه فقال : أبان بن تغلب (م عو) الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق، فلنا له صدقه وعليه بدعته ، قال : وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو حاتم ، وأورده ابن عدي وقال : كان غالياً في التشيع ، وقال السعدي : زائغ مجاهر إلى آخر ما حكاه الذهبي عنهم في أحواله ، وعده ممن احتج بهم مسلم وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه - حيث وضع على اسمه رموزهم ، ودونك حديثه في صحيح مسلم والسنن الأربعة عن الحكم ، والأعمش ، وفضيل بن عمرو ، وروى عنه عند مسلم ، سفيان بن عيينة وشعبة وإدريس الأودي - مات رحمه الله سنة إحدى وأربعين ومائة .

---

[١] ص ٤٩ .

[*] أنظر ص ٥٢ وما بعدها من « المراجعات » .

إسماعيل بن زكريا الأسدى الخلقانى الكوفى :

ترجمه الذهبي فى الميزان قال : إسماعيل بن زكريا ـ ع ـ الخلقانى الكوفى صدوق شيعى ، وعده ممن احتج بهم أصحاب الصحاح الستة ودونك حديثه فى صحيح البخارى عن محمد بن سوقه ، وعبيد الله بن عمر ، وحديثه فى صحيح مسلم عن سهيل ، ومالك بن مقول ، وغير واحد ، أما حديثه عن عاصم الأحول فموجود فى الصحيحين جميعا ، وروى عنه محمد بن الصباح ، وأبو الربيع عندهما ، ومحمد ابن بكار ، عند مسلم ، ومات سنة أربع وسبعين ومائة ببغداد ، وأمره فى التشيع ظاهر معروف . . . الخ .

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى الكوفى :

ترجمه الذهبي فى ميزانية فذكر أنه أحد علماء الشيعة ، ونقل عن سفيان القول بأنه سمع جابراً يقول : انتقل العلم الذى كان فى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى على ، ثم انتقل من على إلى الحسن ، ثم لم يزل حتى بلغ جعفراً (الصادق) وكان فى عصره ـ . . . وكان جابر إذا حدث عن الباقر يقول ـ كما فى ترجمته من ميزان الذهبي ـ حدثنى وصى الأوصياء ، وقال ابن عدى ـ كما فى ترجمة جابر من الميزان ـ عامة ما قذفوه به أنه كان يؤمن بالرجعة ، وأخرج الذهبي فى ترجمته من الميزان بالإسناد إلى زائدة ، قال : جابر الجعفى رافضى يشتم . . . ووضع الذهبي على اسمه رمزى أبى داود والترمذى ، إشارة إلى كونه من رجال أسانيدهما ونقل عن سفيان القول بكون جابر الجعفى ورعا فى الحديث ، وأنه قال ما رأيت أورع منه ، وأن شعبة قال : جابر صدوق وأنه قال أيضاً : كان جابر إذا قال أنبأنا وحدثنا وسمعت ، فهو أوثق الناس ، وأن وكيعاً قال : ما شككتم فى شىء فلا تشكوا أن جابراً الجعفى ثقة ، وأن ابن عبد الحكم سمع الشافعى يقول : قال سفيان الثورى لشعبة لئن تكلمت فى جابر الجعفى لأتكلمن فيك . اهـ كلام الشيخ شرف الدين .

والخلاصة أن المسألة فى رأى المحققين ، وفيما يجب أن نأخذ به ، إنما هى مسألة صدق أو كذب ، وضبط أو عدم ضبط . والحق أحق أن يتبع ؟

في النقد الأدبي :

مستقبل الشعر

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى
المدرس بالأزهر

— ٣ —

عرضت فى الحديثين السابقين لبعض الظواهر التى تشيع فى شعرنا المعاصر ، ولبعض الأسباب التى أدت إلى ضعف هـذا الشعر وتخلفه ، وعبت على طلاب الشهرة من المتشاعرين وأشباههم كسلهم العقلى ، وعزوفهم عن دراسة الآداب القديمة ، ثم نعيت عليهم اندفاعهم وراء مـذاهب الأدب فى الغرب دون أن يتفهموا حقيقة هـذه المذاهب ، وفى هذا المقال نتابع الحديث عن الجريح ، ولـكم كنت أتمنى أن يكون سليما معافى .

ولـكن لعلنا نستطيع أن نقيم بناء شامخا على أطلال متداعية .

وإذا كنا نَنْعَى على شعرائنا التقيد بهذه المذاهب ، ونؤيد تلك المدرسة الحديثة التى تطلق الشاعر حراً يشايع إحساسه الخاص ، ويعـبر عن وجداناته الذاتية ، ونراه شاعراً سواء أحس بمـا يخالج الجماهير ويعيش فى دنياهم ، أو يبقى فى صومعته يغرد لنفسه ويردد مشاعرها كأنمـا يحيا وحده فى هذا الـكون الرحيب وسواء هتف بآمال قومه وآلامهم أم غنىّ للكواكب والنجوم والزعازع والأعاصير ، أقول إذا كنا نؤيد هـذا الاتجاه فإننا نعجب أن يتجاهل الشعراء آمال قومهم ، كأنهم يعيشون فى دنيا غير هـذه الدنيا التى يعيش فيها الناس ، حقيقة إن الشاعر كالطير يغرد على الغصن الذى يروق له ، ولـكن بجانب ذلك حقيقة أخرى ، وهى أن الشاعر رجل ذو إحساس مرهف ، وهو يحيا بين الجماعة لا فى صومعة ولا فى

دير ، وإذا كان يعيش بين الناس ، والدنيا من حوله تموج بالأحداث ، وتضطرب فيها أعاصير الشر ، ثم لا تراه يغنى بآمال قومه وآلامهم ، فإننا نشك فى إحساسه وشعوره ، وكيف يستطيع شاعر - مهما حاول أن يعيش فى برج عاجى - أن يرى وطنه يمر بفترة حاسمة فى تاريخه والدنيا كلها تغلى من حوله غليان المرجل ، والدول تتربص بعضها الدوائر ببعض ، ويرى البؤس والحرمان وكوارث الأيام تحل بقومه ، ثم يظل هائماً فى العيون الدُّعج ، والحواجب الزّجّ ، والصحارى والقفار ، والنجوم والكواكب ، ألا يكون طبيعياً أن يتغنى - بجانب هذه التحليقات فى عوالم الخيال البعيد - بأحلام قومه ، ويعالج مشاكلهم الأساسية الملحة ؟!

لست بذلك أدعو الشعراء إلى الأدب (المُلتَزم) ولا أريد أن يهدفوا فى أشعارهم إلى غاية من الغايات التى يقتتل النقاد حولها ، وإنما أدعو إلى أن يُترك الشاعر حراً ، وإذا كان حقاً صادق الشاعرية ، فسيحس بآلام الآخرين ، وسيُسهم فى بناء المجتمع ، وسيبذل جهده من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسى والاجتماعى والفكرى .

وعندى أن دعاة الأدب الملتزم - وإن أسرفوا فى الدعوة إلى حمل الشعراء على غايتهم التى يرون أن الأدب يجب أن يهدف إليها - إلا أنهم معذورون فى هذا الإسراف ، إذ يرون الشعراء أطلقوا لأنفسهم العنان ، وراحوا يحلقون فى سماوات التجريد ، ويستثيرون الغرائز الدنيا بما ينتجون من شعر مائع رخيص ، ثم لا ينظمون بجانب ذلك فى الموضوعات الكبرى إلا إذا دعوا إليها ، وإلا إذا أقيمت لهم المباريات والمسابقات فى حين أنهم يتطوعون للمناسبات التافهة فينظمون فيها من القصائد والمطولات ما يعتبر عاراً على دولة الشعر .

وما بال شعراء الشباب يحرون فى دائرة ضيقة من عواطفهم الطارئة ، وأخيلتهم المسفه ، فتراهم يهيمون فى الحب ، ويُبدِئون ويعيدون فى النسيب ، وإن أمرهم فى ذلك لعجيب ، فكل واحد منهم له (ليلى) يهيم بها ، وكل ليلى صادة هاجرة ، فليس فى (الليليات) واحدة مخلصة لصاحبها ، مواتية له ، وليس فيهن واحدة دون

الشمس والقمر ، والكواكب الأخر ، إنى لأشك كثيرا فى صدق هذه العواطف ويبدو لى أن هذا الاتجاه فى شعراء الشباب عامة ليس مرجعه إلى صدق الشعور عند الجميع ، وإنما مرجعه التقليد ، فهم يرون الروائع من الشعر العربى القديم ، والروائع من الشعر الغربى ، وكثير منها يتصل بهذه العواطف ، فيظنون أن الشاعر لن يكون شاعراً حتى يردّد هذه المعانى ، وحتى يقول فى التشبيب وإن لم يكن محباً وأن يصور هجر صاحبته وصدها ، وما خلفت على كبده من لاذع الجمر ، وصاحبته بين يديه غير هاجرةٍ ولا مُدلة ، وإنما هى طوع بنانه ، ومن هنا يظهر التزوير فى الشعور فيظهر التزوير فى الشعر ، فيجيء متكلفا باردا .

ولقد اشتهر بيننا أمر صديق أحب وأوشك ـ كما فهمنا ـ أن يوفى به حبه على الهلاك ، فكتبت إليه مرة أهون عليه الأمر ، وأدعوه إلى أن يوفر جهده على درسه وعلى مستقبله ، فكتب إلىّ يقول : « كتبت إلى تسائلنى هل من دليل على أن هاتيك تحبك ؟ وما كنت أحسب أنك إلى اليوم تحتاج لأن تُفَهَّم أنها ذات رغبة فىّ عقلية ، وأننى ذو رغبة فيها عاطفية ، وأنها حاولت أن تفهمنى أن رغبتها وحى القلب ، وحاولت أن أفهمها أن رغبتى وحى الحب ، وكان كل منا كاذبا » .

وليست كثرة الشعر الغزلى شاهداً على أن صاحبه صادق الشعور ، فمن المعروف أن كثير عزّة صاحب التائية الرائعة ، والأشعار الغزلية الأخرى الرقيقة لم يكن محباً مخلصاً ، ولكنّ راوياً كبيراً من رواة الكوفيين يثبت أنه كان صادق العاطفة ببيتين قالها ، وينفى ذلك عن جميل بن معمر العُذْرى الصّادق الصبابة ، رُوِى أن المفضل الضّبى خرج حاجّا فأتاه أهل المدينة فأجمعوا على أن جميلا أشعرُ من كثير قال المفضل فسلمت ، علما بأن جميلا شاعر أهل الحجاز ، ثم أجمعوا على أن جميلاً أعشق من كثير ، وكنت أميل إلى كثير فقلت فأنا أذكر لكم أن كثيراً أعشق من جميل قالوا فباسم الله ـ إذنْ ـ قلتُ : ألستمَ تعلمونه أن بثينة شتمت جميلا فبلغه ذلك فقال :

رمى الله فى عَيْنَى بثينة بالقذى وفى الغُرّ من أنيابها بالقوادح

قالوا : اللهم ، نعم ، قلت : وصنعتْ عزة بكثير مثل صنيع بثينة فقال كثير :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامتٍ إنْ نعل عزة زلت

قالوا : صدقت .

قلت : وليس في هذا الشعر إلا جودة الصنعة ، ومناسبة المعنى للغرض ، وبذلك فخر به كثير على جميل ، ولكن لم يقل له ، إنني أصدق منك هوى ، بل قال : إنني أغزل منك ؟ وشتان بينهما ، وطالما فضّل جميل كثيراً بما هو أدل على الحب الدفين ، وألصق بالهوى العذرى .

فليس شيئا ما يراه بعض النقاد من أن كثرة الشعر من الشاعر في غرض من الأغراض مع التجويد دليل صدق العاطفة ، فإني لأظن إن بعض شعرائنا مرن على أن يجود في غرض خاص ، فإذا تجاوزه أسف ، وهذا وإنْ دَلّ على ضيق الأفق لكنه لا يدل على ضعف الشاعرية ، وقد كان من الشعراء الفحول في القديم من اقتصر في حياته على غرض واحد ، كالعباس بن الأحنف ، ولكن شعره كان - عن طبع - ولم يكن عن صنعة .

ومن أدلة التقليد في شعر ناشئتنا ، هذا الشعر الديني ، فنحن نخالطهم ونتعرف سلوكهم ، فنجد ابتعاداً عُزْفا عن الأخلاق ، وعن الدين وفضائله ، ثم نفاجأ في بعض المناسبات بقصائد دينية ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أنهم يدعون إلى القول في المناسبات الدينية كذكرى الهجرة ، وغزوة بدر ، والمولد النبوي ، فهم لا ينظمون فيها عن رغبة صادقة ، فليس بعجيب - حينئذ - أن نعلم أن شاعراً نظم قصيدة من هذه القصائد ، وهو ثمل يترنح من الخمر ، وكذلك ألقاها ، ولكن العجيب أن يؤكد كاتب (إن الشعر العربي سيكون صيحة الميدان المبشرة بارتفاع للإسلام لا نظير له) ذلك أننا نجد شعراءنا أقرب إلى التحلل من الدين وأميل إلى الاستهانة بمقدساته ، ولقد قرأت كثيراً من هذا الشعر الذي ينفر الرجل الجاد عن سماعه ، بله الرجل المتدين ، وإن روايته وحدها جرم كبير ، ولكن لا بأس أن

نثبت هنا ما دون ذلك الشعر بدرجات ، وإن كان فيه ما يعد عبثا لا يليق ، فن ذلك قول أحدهم : (دعيني أصارع الأقدار) وقول آخر وهو شاعر ظل يعمل حينا في هيئة إسلامية - (تمنيت ما أعيا المقادر) وهكذا حتى بلغ الأمر بشيخ أزهري أن يخاطب ممدوحه قائلا (تخذوك بعد إلهم معبوداً) قال شاعرنا - وقد جرحته قوارص التقريع واللوم - ولكن للعبادة معنى آخر ، فأنا أقصده ، قلت له : كان يلزم أن تضع شرحا وحاشية على البيت حتى لاتذهب به الظنون ، على أنك كنت تحتاج بعد ذلك إلى تقرير ، فإن قولك (بعد إلهم) مما يضيع معه كل دفاع !

على إني أقرر أمراً هو أشد غرابة من كل ما سبق ، فإن شعراءنا لم يقتصر تقليدهم لغيرهم على شعر الغزل ، وعلى الشعر الديني ، وإنما قلدوا في عاطفة أخرى أخطر من هذه العواطف ، قلد شعراؤنا ، في شعر (الألم) فمنذ قال شوقي في إحدى رواياته (وأنبغ مافي الحياة الألم) وهم يضجون بالشكوى ، فما من شاعر أو شويعر إلا له في وصف ما يعانيه أو ما يوهمنا إنه يعانيه من آلام مبرحة أشعار ، وأشعار ، لماذا ؟ أكلهم معمود مهجور ؟ أكلهم اجتمعت عليه الهموم والأحزان ؟ نعم . إن الشباب يمر الآن ، وقبل الآن ، في هذا العصر الثائر البائر بمآزق نفسية واجتماعية قاصمة ، ولكن هنا حقيقة أخرى لا ينبغي أن نغفلها ، وهي أن من الشباب من يتقلب في مطارف النعيم ، ومن يعب من مباهج الحياة ومسراتها ، وهم شباب ، والشباب - وحده - نعمة كبيرة ، فلماذا لا نجد في أشعارهم غير النواح والعويل والشكوى ؟ ومن هنا كثر في هذه الأشعار ألفاظ الزمن والدهر ، والأيام ، والأحداث ، والأشجان ، والآلام ، وما إليها ؟

القرآن والترجمة

رسالة صغيرة الحجم ، عظيمة الفائدة ، ألفها العلامة الأستاذ عبد الرحيم محمد على من النجف الأشرف تحدث فيها عن (القرآن والترجمة) مستعرضا الخلاف في إباحتها ، معدداً تراجمه باللغات العالمية المختلفة مع بيان تاريخها ومن قام بها ، وفيها غير ذلك فوائد جمة .

عناصر القوة فى مجتمعنا

للمهندس الدكتور محمد محمود غالى

مدير عام مصلحة النقل السابق

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية ـ ليسانس العلوم الحرة ـ دبلوم المهندسخانة

العالم الإسلامى قوة باقية على الزمن ـ المجتمع العربى قلب هذا العالم الإسلامى ـ ما هى البلاد العربية ـ امكانياتنا الزراعية عظيمة والصناعية أعظم ـ من الفرات ودجلة إلى حوض النيل العظيم ـ السودان وطن عربى ـ البصرة نهاية الوطن العربى ولكنها بداية لعالم إسلامى أعظم ـ مواردنا وسواعدنا تحتم أن المستقبل لنا ـ نحن الأغنياء وهم الفقراء .

كثيراً ما نتساءل نحن سكان أودية النيل والفرات ودجلة وما حول هذه الأودية : إلى أى المجتمعات ننتمى فى هذا العالم الفسيح الذى يتسابق الناس فيه الرزق ، ويتنافس الخلق فيه لبلوغ لقمة العيش ، وتتضافر الأمم فيه تارة ، وتنقسم على نفسها تارة أخرى .

ونجد الجواب على ذلك فى أننا بحكم العقيدة ننتمى إلى مجتمع إسلامى كبير يبلغ حوالى ٤٠٠ مليون من البشر ، ينتشر من الصين شرقاً ، ويشمل جزءاً هاماً من الهند هى الباكستان ، كما يشمل الأفغان وإيران والبلاد العربية فيمتد به إلى المحيط الأطلسى ، وله رواسب فى روسيا وتركيا ويوغسلافيا بل الأمريكتين ، وكان لهذا المجتمع مجد تالد وقوة جبارة لا تحتاج إلى تبيان هذا المجد وتلك القوة ، وكلنا نعلم أنهما استندا على خلق عظيم وتسامح كريم .

وإننا لنجد جواباً آخر : أننا بحكم اللغة قوم ننتمى إلى مجتمع عربى يبلغ حوالى ٨٠ مليون نسمة ، يمتد من نهرى الفرات ودجلة شرقاً ويشمل حوض النيل ، ثم يمتد إلى المحيط الأطلسى غرباً ، مجتمع يشمل العراق العربى الفسيح . ويضم سوريا ولبنان ، ويشمل شرق الأردن وفلسطين ، كما يشمل الكويت وأراضى الحجاز واليمن ، ويمتد إلى حوض النيل الخصيب ، ثم ينتمى المجتمع ذاته إخوان فى برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهذا المجتمع يُكوّن فى العالم الإسلامى الكبير نواته ، فهو قلب هذا العالم ، كما أن النواة هى قلب الذرة .

وإذا تأملنا المجتمع العربى وجدنا الإسلام قد نشأ فيه وانتشر وحكم العالم ، ووجدنا أنه مجتمع كانت له قوة ومجد ، اتصف أهله بالخلق الكريم والصراحة والإقدام والصدق فى القول ، الشىء الذى يعرفه كل من طالع سيرة هذا المجتمع ووقف على صفاته ، وهو ما لمسته خلال تجوالى فى شبه الجزيرة العربية ، لمست هذه الصراحة فى العمل وهذا الصدق فى القول ، وآمنت بما جبل عليه القوم من صفات الشجاعة والإقدام ، ولمست هذا بين هؤلاء الإخوان الذين يعيشون على الفرات ودجلة وما بينهما ، لمستها فى بغداد عاصمة الرشيد ، وفى الحلة وكربلاء والنجف والكوفة والبصرة وغيرها ، لمستها فى الطلبة والموظفين ورجل الشارع ، ولو أردت أن أفصل بعض الأحداث التى شاهدتها بنفسى خلال عملى هناك كأستاذ للطبيعة فى دار المعلمين العالية ببغداد لما وسعنى كتاب طويل للتنويه بفضل هذا المجتمع ، وما اكتمل له من صفات حميدة ، كتاب قد يكون له من الأهمية ما لرسائلى الأخرى العلمية سواء عن طمى النيل ، أو حركة الكرات ، أو رسائلى فى الذرة فى الأشعة الكونية أو غيرها من الرسائل والنشرات العلمية المنشورة فى الخارج أو فى مصر ، وقد تبدت لى هذه الصفات العظيمة ، ومن جديد خلال مؤتمر الخريجين الذى انعقد فى القدس فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، لمسنا خلقاً رفيعاً فى القدس فى شباب فلسطين ، وفى عمان فى شباب الأردن ، وفى دمشق وبيروت فى شباب سوريا ولبنان ، بل فى شباب العرب عموماً .

* * *

ترى ما الذى أصابنا ، ترى كيف دارت بنا عجلة الزمن فأصبحنا على الحال الذى نحن عليه وفى الوضع الذى ألفينا أنفسنا فيه والذى يعرفه كل مسلم ولا يخفى على فطنة كل عربى ؟ ، ترى ما الذى أصابنا ونحن ننتمى إلى مجتمعين لهما هذه العظمة وهذه الخطورة ، بل لهما هذا المجد التالد وهذا الميراث العظيم ؟ ما الذى أصاب بلاداً كانت أم المدنيات قاطبة ومهبط الأديان جميعها ، ونحن لاندعى ذلك باطلا فأمام ناظرنا المدنية المصرية ومدنية أهل بابل وأشور ومدنية الفرس .

ترى ما الذى أصاب المجتمع العربى الذى هو قلب العالم الإسلامى الذى يعيش فيه بين ظهرانينا أقلية من إخواننا المسيحيين هم من صميم مجتمعنا الإسلامى العربى ، فقد عاشوا وسيعيشون معنا - مدى ما أروتنا أنهارنا وغذتنا أرضنا واشتغلت سواعدنا - إخوة لنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

لنقصر كلامنا اليوم لا على الوحدة الإسلامية الشاملة وهى أقوى بكثير من الوحدة العربية إنما على المجتمع الأصغر المجتمع العربى لنصفه وترى أسباب نكبته ونتلمس مواضع نكسته ، وأعتقد أن دراسة هذا المجتمع العربى لا تختلف كثيراً عن دراسة العالم الإسلامى ، فإن نكبة المجتمعين واحدة ونكستهما متشابهة ، وأساس الداء فيهما واحد ، ولكن فى بحثنا واقعيين ننظر للحقائق حتى يفيد الباحث مما نكتب ويفيد شباب هذه البلاد مما يطالع .

* * *

ترى ما هى موارد هذه البلاد العزيزة علينا ؟ ما ذا جعل منها فى الماضى المجد والعزة والقوة ؟ ماذا كان حالهم حتى إنهم تفوقوا على غيرهم من الأمم واكتسحت مدنيتهم ما حولهم من المدنيات ؟ ما ذا كان بأرضهم ثم بأخلاقهم ثم بدينهم حتى حكموا العالم من بحر الصين إلى المحيط الأطلسى وحتى عاشوا فى الأندلس ستة قرون كاملة ؟ أكانت لهم موارد مادية زالت اليوم ؟ أو نضبت عندهم أبواب الرزق فاضطروا أن ينكمشوا فى بلادهم يعيشون عيشة الكفاف ؟ أم أن هذه الموارد - أنهاراً كانت أو أراضى أو معادن - ما زالت موجودة دون تلف ودون تغيير ؟

كلنا يعرف أن الأرض هى الأرض لم يتبدل فيها شىء ، بل على العكس لقد اكتشف الأجانب فى الوطن العربى موارد النفط الذى هو سر التقدم والصناعة فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، موارد لم يكن ليعرفها سلفنا ولم يكونوا يستخدمونها ، فهى تعتبر عاملا جديداً - كان يجب أن يكون - لتقدمنا على غيرنا من الأمم لا لتخلفنا عن غالبية الشعوب ، موارد كان يجب أن تكون لنا لا علينا .

ولو أننا عرفنا بلادنا وما تتسع له من موارد وما تضم أراضينا من خيرات ، لأمكننا أن نثق فى مستقبلنا وأن نضع إصبعنا على علة تأخرنا فنضع الحلول السريعة فنخرج من ورطتنا ونتقدم بخطى سريعة إلى الإنتاج ونصعد سلم الرقى ، ولتبدلت حياتنا فعشنا فوق هذا الكوكب كما يعيش غيرنا من أرقى الأمم .

ولنبدأ بهذا التساؤل الذى يجول فى خاطر كل مفكر - ما هى البلاد العربية ؟ أو بالأحرى ما هو هذا الجزء من العالم الإسلامى الذى يعتبر الوطن العربى الأصل فيه ؟ والذى أقدر أن تعداده يبلغ حوالى ٧٥ أو ٨٠ مليونا من البشر ، يسكن وادىَ النيل فيه حوالى ٣٠ مليونا ، ويسكن غرب هذا الوادى ٢٥ ، ويسكن شرقه ٢٥ مليونا أخرى - وأقصد بتعريف هذه النواة للعالم الإسلامى ماهى موارده ؟ وهل هى كفيلة أن يعيش أهله فى رخاء وهناء كما يعيش العالم الغربى ؟ وأين تذهب هذه الموارد وكيف تستغل وهل هذه الموارد لأهلها أو هى لغيرهم ؟.

ونظرة إلى البلاد العربية ، نظرة إلى الفرات ودجلة والنيل العظيم ، نظرة إلى حقول البترول فى العراق والكويت والمملكة السعودية العربية ، نظرة إلى جبال لبنان ، إلى الأرز وضهور الشوير وجبال سوريا الشقيقة إلى اليقين وبلودان ، مواضع السياحة النادرة والمناظر الخلابة ، نظرة إلى شمال أفريقيا الممتدة على البحر الأبيض المتوسط بحر المدنيات ؛ تعرفنا أننا - كمجموعه وبالنسبة لعدد السكان الذى ذكرناه - نعتبر من أغنى بلاد العالم ، وإنى أكتب هذا ليطالعه شباب العرب ذوو البأس والقوة وذوو العزة والمنعة ، ليطالعه رجال الفن مهندسين وغير مهندسين ، ليطلع عليه رجال الاقتصاد ومن بينهم من بنى جلدتنا الفطاحل فى هذه

العلوم ، ليتأمل فيه رجال الإحصاء بل جميع الرجال والشباب إيا كانت العلوم والفنون والآداب التى درسوها فى بلادهم أو اكتسبوها فى الخارج ، وليتأملوا الصورة التى نصفها من الذاكرة للبلاد العربية التى جبنا الكثير من أراضيها ليعرفوا إننا كوحدة على هذا الكوكب الدوار من أغنى الوحدات وأن بلادنا بخير وأرضنا غنية ، وأن بلادنا من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى تتسع لأكثر من الذين يسكنونها من الأهل والإخوان ، وإذا تخيل أحد أنى مبالغ فيما أذكره ، أو أنى تحولت عن جادة الحق ، فإنى أرحب بمن يردنى إلى جادة الصواب .

ففى الكويت والبحرين وفى كركوك بالعراق يوجد النفط ، وهناك يتدفق البترول أنهاراً ، وفى المملكة العربية السعودية التى تتمنى لأهلها كل خير لم تصبح بلاداً غير ذى ذرع ، ولم تصبح تلك البلاد الفقيرة التى تعتمد على من يزورنها سنويا من الحجاج هنوداً ومصريين وأندونيسيين وغيرهم ، وبصرف النظر عما عند جارتنا العزيزة إيران من موارد الزيت فإن آبار الزيت فى العراق والكويت والمملكة السعودية من الغنى بحيث إنها تغذى اليوم كل سيارة تجرى فى انجلترا وفرنسا وغرب أوروبا ، بل تغذى أغلبية المصانع التى تدور هناك .

وفى العراق وبين النهرين الفرات ودجلة ، تقع أخصب بلاد فى العالم : ثلاثون مليونا من الأفدنة صالحة للزراعة ، هى التبر بعينه لا ستة ملايين كالتى فى مصر ، والتى يمكن بمجهود شاق أن تزاد إلى ثمانية ، وقد تدهش أن من بين هذه الثلاثين مليونا من الأفدنة فى العراق حوالى ١٥ مليونا فداناً يمكن أن تروى رياً صيفياً ، أى رياً مستديماً بمعنى أنه من الممكن بالاعتماد على مياه النهرين أن تزرع مرتين أو ثلاثا فى السنة كما هى الحال فى غالبية الأراضى المصرية .

صحيح إن المساحة المزروعة من هذه الأراضى الفسيحة التى تصل فى مجموعها إلى ٣٠ مليونا لا تتجاوز المليونين من الأفدنة وقد تقل عن هذا القدر ، ولكن كل مهندس يفهم فى سهولة أن هذا الوضع لابد أن يتغير مع الزمن ، وذلك بالقيام بالمشروعات الهندسية التى أعتقد إنها درست من قبل المسئولين العراقيين والتى

لابد أن يصلوا بها إلى الاستفادة من هـذه المساحات الخصبة الشاسعة فى القريب - وإن أنس لا أنس شط العرب وهو يدخل بين هـذه المساحة ، تصور نهرين يلتقيان ثم يسيران نهراً واحداً إلى أن يصل هذا المجرى الموحد إلى مدينة البصرة وعلى ضفاف هذا النهر وبعرض ٤ كيلو متر وبهذا الطول العظيم الذى يبلغ ٨٠ كيلو متراً توجد أغنى بقعة فى النخيل - شط العرب - كلمة يجب أن تهز أسماع كل عربى ليذكر أن فى العراق ٦٠ ٪ من نخيل العالم .

هذه البصرة ، هـذه النهاية بشط العرب ، هـذه البصرة التى أنشأها عمر ابن الخطاب وإن كانت نهاية البلاد العربية فإنها بداية بلاد إسلاميه أغنى وأقوى ، إيران بحقولها البترولية الغنية وشعبها الإسلامى الصديق ثم أفغانستان فالباكستان ، هذه هى البصرة على الخليج الفارسى تذكرنا بعمر بن الخطاب وتنادينا أبناء العروبة أنه إذا كان هنا آخر البلاد العربية فهى ليست آخر بلاد المسلمين .

وفى مصر من الممكن أن تزداد مساحة الأراضى الزراعية بمقدار الربع أو أكثر دون أن يؤثر ذلك على احتياجات السودان الشقيق الذى يمكن أن يعتمد على الأمطار الغزيرة التى تغمر كل واديه ، والذى لا ينقصه إلا الخبرة والسواعد التى يمكن أن تأتى من هنا ومن هناك طالما نحن بلاد عربية موحدة ، بل إن من الممكن أن تزداد الأراضى التى تروى من الترع كما فى مصر دون أن ينقطع عنا ذلك الرزق من المياه التى تتدفق والتى لم تنقطع عنا من قبل نشأة المدنية المصرية القديمة بأكثر من أربعين ألفاً من الأعوام .

وفى السودان منابع للثروة لا تفنى فأراضيه خصبة وأمطاره غزيرة ، وهو غنى فى الأخشاب بغاباته الفسيحة وأصماغه ، وهو غنى أيضاً بمعادنه ، بحيث إنه مع البلاد العربية يكون ولايات متحدة جديدة فى العالم .

وفى شمال أفريقيا أراض خصبة ، ولقد هزنى ماسمعته من تلك المناطق الشاسعة التى تسمى الجبل الأخضر ، وهى التى أنفق عليها الإيطاليون مائتى مليون من الجنيهات ، ثم تركوها تحت ضغط الاستعمار الإنجليزى تارة ، والأمريكى

تارة أخرى، بل إن دهشتى كانت أعظم عند ما رأيت فى ميناء روان فى شمال فرنسا البواخر لا تأتى بالزيت فحسب بل أيضاً بالنبيذ الذى صنع فى الجزائر ومراكش، وقد كنت أعتقد أن غالبية هذه الكروم من بلادهم، فلما نزلت فى ميناء روان تحت الأرض ورأيت هذه البحور من النبيذ تفرغ من المراكب الضخمة وتنتظر المضخات لترفع بها إلى القطارات واللوارى الذاهبة إلى باريس، أدركت أنها من نتاج هذا الفلاح المسكين من إخواننا سكان شمال أفريقيا: يزرع العنب ويحوله لهم فى بلاده إلى نبيذ فينتقل إلى روان وغير روان بحوراً فى الميناء، يحوله لهؤلاء الأقوام التى تسكن أوربا ـ هؤلاء الذين يعيشون على كد غيرهم من الشعوب.

وفى مصر توجد المعادن وأهمها الحديد يتمركز فى أسوان قريباً من الخزان، وفى الواحات فى الصحراء الغربية، وفى القصير وفى سينا فى الصحراء الشرقية، وهو لا ينتظر إلا سواعد المصريين حيث يُصيرونه حديدا مصنوعا كما صيره الأمريكان والأوربيون.

وفى وادى النيل الفسيح فى مصر والسودان توجد المعادن الأخرى اللازمة للصناعات المختلفة حتى الفحم، بل ويوجد اليورانيوم والتوريوم، تلك المواد المشعة الطبيعية توجد فى مصر فى الفوسفات قريبا من سفاجة وفى الرمال السوداء عند مصب النيل، ولا أشك أنها موجودة فى غيرها من الأماكن الكثيرة فى البلاد العربية، وما على المهندسين والعلماء إلا أن يلتمسوا ذلك فوراً بطائرات الهيلوكبتر وجهاز عداد جيجر وميلر التى يستخدمها الآن فى البلاد الأخرى شباب أقل من الكثير منا علماً ودراسة.

حتى الطبيعة حبتنا بمناخ صالح وسَخَّرت لنا رياحا مناسبة، فالشمس لا تنقطع عن وديانا، وفى الطاقة الشمسية المنفعة والخير، ومن الممكن فى المستقبل القريب أن نُسَخِّرها لإدارة آلات الرفع الصغيرة، بل وأفران الطبخ التى نرجو أن تنتشر فى كل منزل وكوخ وفى كل قرية، وإذا تأملنا نهر النيل ونظرنا إلى هذا العدد العديد من المراكب الشراعية التى تجوبه فى مصر، وهو يربى على الاثنى

عشر ألفاً ، نجد أنها تنساب مع اتجاه المياه التى تتدفق دائماً من جنوب الوادى إلى شماله دون أن تستخدم قلاعها ، فإذا استخدمت هـذه القلاع انسابت فى اتجـاه الرياح من الشمال إلى الجنوب ، هذا التنظيم من الطبيعة دائم لا يتبدل ولا يتغير ، وهو يدل على أن العيش فى هذا الوادى سهل غير عسير .

* * *

تلك هى البلاد العربية نراها بطبيعة أرضها أغنى ممـا كانت فى ماضى الزمان ، وأروع ما تـكون فى كل مكان ، ومع ذلك فإن أكثر من نصفها واقع تحت حكم الأجنبى أو سيطرته الاقتصادية ، وكلما تخلص قطر من حكم دولة أجنبية أو سيطرتها الاقتصادية ، حاولت الدولة المتسلطة بقوتها وبمعونة غيرها من الدول الاستعمارية إرجاع هذا القطر أو غيره إلى دائرتها المرنة وحلقتها الاستعمارية بشتى الوسائل التى لا تخفى اليوم على أحد ، ولهم فى ذلك أساليب عديدة منها تلك الاتفاقات الثقافية وتلك البعوث التى يطلقون عليها المساعدات الفنية ، ومنها الاتفاقات الاقتصادية والثوب الجديد الإشراف أو الهيمنة الدولية .

استمعت فى شتاء هـذا العام لمحاضرة قيمة للأستاذ أوسكار لانج البولندى مدير معهد التخطيط فى بولاندا ، ألقاها فى قاعة جمعية الحشرات بالقاهرة ، لخص فيها قوة الشعوب والأمم ، فذكر أنها تستند على عناصر ثلاثة :

أولها : أن يكون لديها موارد طبيعية سواء فى ناحيـة الأراضى الزراعية أو مساقط المياه أو البترول أو المعادن ، ولا أشك أننا فى هـذه الناحية أغنى من أهل السين أو التامز ، فهم فى هـذا فقراء ونحن الأغنياء ، وغنى عن البيان أن أزمة قناة السويس قد بينت بجلاء أن الثروة الطبيعية هى فى الوقع ثروتنا وأنهـا تستغل فى غير بلادنا .

وثانيها : أن يكون لها من السكان الوفرة للقيام بالأعمال المختلفة ، وأن توزع هذه السكان من ناحية العمل وإجادته أحسن توزيع ، وأعتقد أنه إذا افتقرنا إلى إلى حسن التوزيع فإننا لا تفتقر إلى السكان .

وثالثها : أن تستخدم فى استغلال أراضيها أو معادنها أو فى عمليات التصنيع أحدث الوسائل الفنية وأن تربى جيلا من الفنيين حتى يكون استخدام مواردها على أكمل وجه ، وأعتقد أننا قريبا سنصبح فى هذه الناحيه أيضا أغنياء ، فهذا الموضوع يتعلق بنا وبمجهوداتنا ، ولا يرتبط فى شىء بأى عامل خارجى عن أرضنا أو مواردنا أو إرادتنا .

تلك هى العناصر الثلاثة التى تقوم عليها الأمم ، وإنى أضيف على ما ذكره الأستاذ الكبير أن أهم شروط النهوض بالأمم أن تتحرر بجميع الوسائل من التدخل الأجنبى عسكريا كان أو سياسيا أو اقتصاديا .

ولعلى قصدت من هذا العرض فى وصفى للوطن العربى أننى نظرت إليه كبلد واحد ، وعندما أذكر أننا أغنياء وهم الفقراء إنما قصدت أننا جميعا وكمجموعة من بلاد مترابطة أغنياء ، ولا يمكن اعتبار كل قطر بمفرده غنياً فى ذاته ، فمصر بمفردها ودون السودان ، أو دون العراق غير مصر متحدة مع السودان ومع العراق وما يقال عن مصر يقال عن العراق وسوريا وأى بلد آخر .

على اننى أعتقد أننا حاليا فى طريق استكمال كل عناصر التقدم ، ولا ينقصنا إلا أن نتعاون ونتحد لا تعاونا فى الخطب ولا اتحاداً على الورق وفى اللجان التى تعددت والمؤتمرات التى ملتها جمهرة الشعوب ولكن تعاوناً فعلياً واتحاداً واقعياً ، وأن تقوم الأدلة المحسوسة على ذلك ، وألا يكون أى طرف من هذا الوطن العربى الشاسع لقمة سائغة للغير ، ولقد ذكرنا أن أول علامات تقدمنا هو أن نتخلص جميعا من هؤلاء الذين نكبونا فى الماضى وتحكموا فى مصائرنا من البلاد الأجنبية ، ومن كل من يعاونهم اليوم من الأمم فى هذا السبيل ، لأننى أعتقد أنه لا يوجد بيننا فى الداخل من يكره أن نكون وطناً عربياً قوياً موحداً ـ أما كيف ننهض بشئوننا كدولة عربية موحده وجزء من العالم الإسلامى الأكبر ، أما كيف نفيد من توزيع الفلاحين الكادحين فى هذه السهول الواسعة مع كثرة فى السكان فى جهة وقلة فى جهة أخرى وانعدام فى كثير من البقاع

الصالحة للكسنى والعمل والتعمير ـ كيف يفيد مصر السودان ويفيد السودان مصر ـ كيف يستفيد العراق من المصرى والمصرى من العراق ـ كيف يصبح لسوريا ولبنان والأردن وفلسطين واليمن مكانة مرموقة فى الوطن العربى ـ كيف ننهض بإخواننا وأولاد عمومتنا فى شمال أفريقيا ـ كيف نندمج كلنا فى وحدة اقتصادية وثقافية كبرى فليس المجال فى دراسة كل هذه المواضيع لمقال واحد ، وإنما نحن نفتح الباب على مصراعيه للعلماء والباحثين .

* * *

وهكذا وبعد هذا الوصف للبلاد العربية يجب ألا ينتهى بنا الأمر كما هو اليوم حيث انتهى بنا إلى الجهل والجوع والمرض والعرى والحفاء وإلى محاولة بقاء كثرة من مواطنينا على الاستجداء وطلب المعونة والإحسان ، ولا سبيل للخروج من كبوتنا إلا أن يكون الاتحاد ديدننا والنظام رائدنا والعمل سجيتنا والإخلاص مبدأنا ، وعلينا أن نتذكر دائما أننا أغنياء ، ولا ينقصنا إلا الذهن يفكر فينتج والعقل يُنظم ويُدَبر والسواعد تُشدُّ وتعمل ، والناس تُطيع والإخوة تتعاون والشعوب ممالك وجمهوريات تتحد ، وعلينا إذا طلبنا معونة فنية إلا نطلبها من هؤلاء الذين استعمرونا وقضوا على وحدتنا وفرقونا شيعاً وأحزابا وعملوا لصالحهم دون أن يعملوا لمستقبلنا .

عندئذ ستكون بلادنا من الفرات ودجلة والنيل العظيم إلى المحيط الأطلسى أعظم مما كانت عليه فى ماضى الزمان وأخطر ما كانت على مر الأيام ، وعندئذ تعود لنا الأيام الخالية ، عند ما كان يتنقل الطائر من بغداد إلى البصرة من شجرة إلى شجرة يتنقل فى حقل واحد وحديقة واحدة غير منقطعة ، لا يصادف أرضا بوراً أو مكانا مهجوراً ، وإذا كانت النشرات الأخيرة أشارت أنهم فى روسيا وصلوا فى بعض المعامل إلى حرارة تبلغ بضع ملايين من الدرجات أى قدر درجة الحرارة على السطح الشمسى ألف مرة وقد ذكرنا ذلك فى مقالنا المعنون « الهندسة والطاقة الذرية » الذى نشرته أخيراً رسالة الإسلام ، وإذا كانت النشرات التى طالعناها بعد ذلك أنه يوجد فى روسيا عامل واحد لكل مسافة قدرها

٢٠٠ كيلو متر من السكك الحديدية ، وإذا كانت الصين الشعبية أخرجت هذا الشهر أول نفاثات من صنع بلادها بعد برنامج لم يطل سبع سنوات ، فلندرس نحن معشر العرب ما أصابنا من ضعف وما حل بنا من وهن ، فالأنهار موجودة لدينا ، والبترول متوفر فى حقولنا ، والسواعد تسعى للعمل فى كل مكان فلا تجده ، بل إن البترول يخرج من جديد فى أماكن مختلفة من الوطن العربى والإسلامى ، فبالأمس فى قرة شوك فى سوريا الشقيقة وعلى حدود العراق اكتشفت حقول جديدة للبترول يبلغ طولها ٣٠ كيلومتراً وعرضها عشرة ، وفى هذا الشهر وفى « قم » فى إيران اكتشفت آبار جديدة للبترول أيضا وحاول فريق من خبراء العالم منع خروجه إلى سطح الأرض حتى تستعد الشركات لاستخراجه فكان من القوة أن غطى فى فترة وجيزة مساحة قدرها ٣٠ كيلو متراً مربعاً ـ إن هذا الزيت يخرج إلينا ، إنه يسعى إلينا من أراضى الوطن العربى من سوريا العربية ، ومن أراضى الممالك الإسلامية من إيران الصديقة ، فليكن هذا البترول لنا ، ليكن للعرب والمسلمين ، ليكن لتعمير بلادنا ، وليزل به الحفاء والجوع والجهل والمرض ، ليكن لنا لا علينا .

* * *

علينا أن نعتقد أننا أغنياء فى أوطاننا وسادة فى بلادنا ، وأنه لا ينقصنا إلا الاتحاد والتنظيم ، ولا يعوزنا إلا أن نخلق جيلا من المتعلمين ، وملايين من العمال المهرة والفنيين ، وأن نضع كل مواطن فى المكان الذى يجب أن يوضع فيه ـ إن السواعد عندنا قوية ، وتحتاج إلى من يعمل على تنظيمها واستخدامها لخير الوطن ، وإنى على يقين من أن مصيرنا فى القريب حياة أفضل ، منشؤها النظام ، وديدنها العمل ورائدها الإخلاص والإيمان .

أما أن نكون تابعين لغيرنا فسوف لا يكون ذلك أبداً ، ولنذكر دائما وليذكر غيرنا إننا أصل المدنيات ومهبط الأديان ـ لنذكر وليذكروا أننا فى هذه الإنسانية جمعاء منحة عريقة من الماضى البعيد ، وهدية تدل عليها آثارنا ومجدنا التليد .

إننا الأغنياء وهم الفقراء ! إننا الأقوياء وهم الضعفاء .

من بحوث مجمع اللغة العربية(١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ٢١ —

تذكَّر تذكر يتذكَّر تذكُّراً : ذكَّر مطاوع ذكَّر . ومنه : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » ٣٧ / فاطر ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » ١٥٢/الأنعام ، « إنما يتذكر أولو الألباب » ٩/الزمر .

ادَّكَّر اذكر : تذكر بعد الإبدال والإدغام . ومنه : « وما يذكر إلا أولو الألباب » ٢٦٩/البقرة ، « قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » ١٢٦/ الأنعام .

ادكَر ادَّكر يدكر ادِّكاراً فهو مُدَّكر : تذكر . على إبدال تاء الافتعال دالا وإبدال الذال دالا ثم إدغامهما ومنه : « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة » ٤٥/يوسف : أى تذكر بعد نسيان ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدكر » ١٥/القمر . أى متذكر .

مدَّكِر

ذكَر الذكر : ضد الأنثى : ويبدو أنه إما مأخوذ من الذُّكرة وهى القطعة من الفولاذ تزاد فى رأس الفأس وغيره . ولعلهم أطلقوا على الرجل (الذكر) لأنه أقوى وأصلب من الأنثى . وإما مأخوذ من الذكر بمعنى الحفظ على ما تقدم ، لأن الذكر يذكر به أبوه ويحفظ اسمه ونسبه . أو من الذكر بمعنى الرجل القوى الشجاع . جمعه ذكور وذكران .

---

١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

ذكور — ومنه : « وليس الذكر كالأنثى » ٣٦ / آل عمران ، « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ١٣/ الحجرات .

ذكران — « قل آلذكرين حرم أم الأنثيين » ١٤٣ / الأنعام ، « ويهب لمن يشاء الذكور » ٤٩/الشورى ، « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما » ٥٠/الشورى .

ذ ك و

ذكى — ذكى يذكى تذكية : ذبح والذكاة أيضاً الذبح . مأخوذ من ذكت النار تذكو ذكوا وذكاء : اشتد لهيبها وتوقدها . وذكاها وأذكاها أوقدها . والذَّكْوَة : الجمرة الملتهبة .

وحقيقة التذكية بمعنى الذبح : إخراج الحرارة الغريزية فى جسم الحيوان الذبيح كإخراجها من خشب الشجر والمواد القابلة للالتهاب . لكن خصت التذكية فى الشرع بإبطال الحياة على وجه معين . ويدل على ذلك قولهم فى الميت : خامد وهامد وفى النار الهامدة : ميتة . وقد ورد الفعل فى موضع واحد : « وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب » ٣ / المائدة .

ذ ل ل

(ا) ذلَّ يذِلُّ ذُلاً وذلالة وذلَّة وذَلالة ومذلة : هان عن قهر فهو ذليل وذُلان ، وجمعه ذِلال وأذلاء وأذلَّة .

(ب) وذل يذل ذُلا وذِلا : لان وانقاد بعد تصعب وشماس من غير قهر . فهو ذلول جمعه ذلل وأذلة .

نذل — فمن الأول قوله تعالى : « فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » ١٣٤/طه ،

الذل — « ولم يكن له ولى من الذل » ١١١ / الإسراء أى لم يتخذ وليا يحالفه لذلة به على

الذلة — عادة العرب ، « ضربت عليهم الذلة والمسكنة » ٦١/البقرة .

أذلة — « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ١٢٣/آل عمران وهكذا فى ٦١/البقرة ، ١١٢ / آل عمران ، ١٥٢ / الأعراف ، ٢٦ / يوسف ، ٢٧ / يونس ، ٤٥ / الشورى

٤٣ / القلم ، ٤٤ / المعارج ، ٣٤ / النمل ، ٣٧ / النمل ، ٨ / المنافقون ، ٢٠ / المجادلة .

ومن الثانى قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ٢٤/الإسراء أى جناح اللين والانقياد والخضوع ، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ٥٤/المائدة ، « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » ٢٠ / المجادلة .

ذلول « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض » ٧١/البقرة . أى غير مذللة لحرث الأرض وسقيها ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » ١٥ / الملك : أى ممهدة يسهل السلوك فيها وركوب متنها .

ذللا « فاسلكى سبل ربك ذللا » ٦٩/النحل : أى منقادة سهلة ممهدة .

ذلل ذلّل يذلّل تذليلا : مهد وسوى وسهل . ومنه : « وذللت قطوفها تذليلا » ١٤/الإنسان : أى دليت وسهلت .

أذل أذل يذل إذلالا : قهر وأهان وأخضع ، ومنه : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » ٢٦ / آل عمران .

ذ م م

ذمّه يذُمه ذمّا ومذمة : عابه أو مدحه ـ ضد ـ غير أنه شاع فى العيب . فهو مذموم وذميم .

ذمة « والذمة والذمام : ما يذم الرجل على إضاعته من عهد وكفالة » ومنه : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » ٨ / التوبة ، « لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » ١٠/التوبة أى قرابة وحلفاً وعهداً حقاً يعاب على إغفاله .

« لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » ٤٩ / القلم أى معيب قد لحقه الذم وكذلك فى ١٨و٢٢/الإسراء .

ذ ن ب

ذنبه ذَنَبه يذْنِبه ويذْنُبه ذنبا : تلاه فلم يفارق أثره . وذنب الدابة وغيرها

معروف ، ويعبر به عن المتأخر والرْذل . يقال : هم أذناب القوم ، وأذنب : ارتكب ذنبا .

والذنب : الإثم وهو فى الإصل : الأخذ بِذَنَب الشيء ، ثم يستعمل فى كل فعل تستوخم عقباه ويسترذل اعتباراً بذنب الشيء ، ولهذا يسمى الذنب : « تبعة » اعتباراً لما يحصل من عاقبته ، وجمعه ذنوب .

ومنه : « ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » ١٤ / الشعراء ، أى تبعة .

« فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » ١٣٥ / آل عمران . وهكذا فى سائر الآيات .

والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والدلو التى لها ذنب أو التى فيها ماء أو الملأى ، ثم استعملت فى الحظ والنصيب ، جمعها : أذنبة وذنائب وذناب .

ومنه : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم » ٥٩ / الذاريات . أى نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم .

التحرير والتنوير

أهدى إلينا كتاب (التحرير والتنوير) وهو مقدمات نافعة ، يتلوها تفسير لسورة « الفاتحة » وجزء عم ، من تأليف الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الأعظم وفروعه بتونس ، وقد نشرته دار الكتب الشرقية بتونس ، وهو يتضمن بحوثا جيدة ومقدمات مفيدة للمشتغلين بالتفسير ، وينبيء عن جهد عظيم بذله مؤلفه فى تفسير سور الجزء الأخير من كتاب الله الكريم .

أنباء وآراء

معهد الدراسات الإسلامية :

ابتدأ معهد الدراسات الإسلامية فى منتصف هذا الشهر عامه الدراسى الثانى ، وأصبح يدرس به فرقتان : الفرقة الثانية وهى التى انتسبت إليه فى العام الدراسى الماضى ، وفرقة جديدة هى الفرقة الأولى التى انتسبت إليه هذا العام ، وبذلك تم تكوينه الدراسى، وقد نشط الأساتذة والطلاب إلى دروسهم وحلقات بحوثهم نشاطاً عظيما مقبلين على هذا اللون من الدراسة والبحث الرفيع ، قادرين رسالتهم القادمة حق قدرها ، كحملة للفكر ، ودعاة للنهضة الإسلامية ، باذلين همهم وأوقاتهم لتلك الفكرة لا لشىء سواها ، طالبين من الله التوفيق والهداية تحت راية الإسلام ، فإن التوفيق من عند الله ، والهدى هدى الله .

إننا لنغتبط إذ نرى هذا المعهد يسير فى خطواته إلى الأمام قوياً بعزائم أساتذته وطلابه ، مرموقا بعين الرضا من مختلف البيئات العلمية التى أصبح له فى دوائرها - على قرب العهد به - مكانة ومقام كريم ، ويزيد فى اغتباطنا إن هذا العام الثانى قد اقترن بإسناد منصب العمادة فى المعهد إلى شخصية لها مكانتها ولها أفقها الإسلامى الواسع ، ولها تاريخها الناصع الحافل ، كما اقترن بانتخاب مجلس إدارته الأول من خيرة أعلام الشريعة والقانون ، وكبار رجال العالم الإسلامى .

وإنا لنرجو بعد ذلك مظهراً إن شاء الله .

عبد الله بن سبأ :

هذا عنوان بحث جيد كتبه فضيلة العلامة السيد مرتضى العسكرى بالكاظمية فى العراق ، وقد درس فيه هذه الشخصية التى تعرف باسم : « عبد الله بن سبأ »

ومحص القصة التي تروى في شأن هذه الشخصية منذ عشرة قرون ، وتتبع من عرضوا لها من المؤلفين قديماً وحديثاً ، وانتهى إلى أن القصة ترجع إلى مصدر واحد هو تاريخ الطبرى ، فإن جميع الذين ذكروها إما مستندون إليه أو إلى من أخذ منه ، ثم بين أن الطبرى أورد قصة السبئيين في كتابه « تاريخ الأمم والملوك » منحصراً عن طريق « سيف بن عمر التميمى البرجمى الكوفى المتوفى سنة ١٧٠ هـ » ثم تتبع أمر سيف هذا في كتب الرجال فوجد العلماء يصفونه بأنه (يروى عن خلق كثير من المجهولين ، ضعيف الحديث ، ليس بشيء ، متروك يضع الحديث ، وهو في الرواية ساقط ، يروى الموضوعات عن الثقاة ، عامة حديثه منكره ، متهم بالوضع والزندقة) .

وهذه الأوصاف التي وصفه العلماء بها ثابتة في « الإصابة » و « الاستيعاب » و « ميزان الاعتدال للذهبي » و « فهرست ابن النديم » نقلا عن جماعة من علماء الرجال : كابن معين ، وأبي حاتم ، وأبي داود ، والنسائي ، والدارقطني ، وابن عدى ، وابن حبان ، وعباس بن يحي ، وغيرهم .

ثم تتبع المؤلف أحاديث (سيف) هذا ومروياته ، ناقداً إياها نقداً موضوعياً يتبين منه ما في كثير منها من الخلط وأمارات الوضع ، ومن البواعث التي بعثته إلى ذلك .

إننا لا نذكر هذا لنقرظ الكتاب أو لنشيد به ، وإنما نذكره لأنه تضمن فكرة جديدة هي جديرة بالبحث ، فإن شخصية يشتهر خبرها ، وقصة تتوارد وقائعها ويترتب عليها أحكام تاريخية هامة ، ويتناقلها المؤلفون قديماً وحديثاً من إسلاميين ومستشرقين ، من أمثال الطبرى ، وابن عساكر ، وابن الأثير ، وابن كثير ، ورشيد رضا ، وفريد وجدى ، وأحمد أمين ، وحسن إبراهيم حسن ، وفلوتن ، ونيكلسن ، ودونلدسن ، وغيرهم - إن شخصية يتناقلها أمثال هؤلاء ، ويروون أخبارها ، ويبنون عليها ، ثم لا يكون لها سند إلا راو ضعيف مشهور بالوضع

والاختلاق ؛ ليعد دخولها فى التاريخ أعجوبة بل أكذوبة كبرى ، ويترتب على ثبوت هذه الحقيقة انقلاب فى كل ما بنى عليها .

وقد يكون لنا على هذا البحث بعض المآخذ من ناحية ذكر بعض التفاصيل التى كان من الممكن الاستغناء عنها ، رغبة عما فيها من إثارة وتحريك أضغان وتغذية عصبيات ، تلك النواحى التى تنافى التقريب وما يعمل له من تأليف القلوب وجمع الكلمة ، غير أن هذا لا يغض من قيمة هذا البحث الجيد ، ولا من خطورة شأنه .

١ ــ الكتاب الذى هز الهند :

٢ ــ حقيقة الباكستان :

فى حدود ما أخذنا به أنفسنا من النصيحة للمسلمين دون تفرقة بين شعب وشعب ، ولا طائفة وطائفة .

ورغبة منا فى رعاية مبدأ هام أساسه إيثار الحقيقة ، والاستقامة على الطريقة .

نكتب هاتين الكلمتين :

١ ــ اطلعنا على فصلة من « رسالة الباكستان » فى شكل كتيب مطبوع بعنوان « الكتاب الذى هز الهند » قدمت له هذه المجلة بمقدمة جاء فيها ما نصه :

« نزولا على رغبة قرائنا فى الشرق الأوسط ، يسرنا أن نضع بين أيديهم ترجمة صادقة لذلك الفصل من كتاب « تراجم الزعماء الدينيين » الذى كثر حوله الحديث فى الآونة الأخيرة ، لما احتوى عليه من تعريض بالرسول الكريم ، ولما تسبب عنه فى الأيام القليلة الماضية من حوادث كثيرة . . . وقد قامت بنشر هذا الكتاب دار هندية للنشر . . . وما كاد يعرض فى أسواق الهند حتى احتج عليه المسلمون فى سائر أنحاء الهند ، وعددهم زهاء أربعين مليونا » .

ومما جاء فى هذه المقدمة أيضا : « وكل ما نفعله هنا هو تقديم ترجمة للفصل الذى عقد فى هذا الكتاب حول الرسول الكريم » . « ولقد صرح زعيم هندى

فى المملكة العربية السعودية أخيراً بقوله : « إن الهند تكن كل حب واحترام المسلمين ، ولعل هذه هى الصورة التى يتجلى فيها هذا الحب والاحترام فى الهند ! » .

هذا ما بينت به « رسالة الباكستان » غرضها من نشر هذا الفصل فى أحد أعدادها بعد ترجمته إلى اللغة العربية ، ثم من إعادة طبعه منفصلا فى كتيب غمر به المشتغلون بالعلم والدراسات الإسلامية وغيرها ، ولعل نسخه التى وزعت قد بلغت عشرات الألوف عدا ، وقد قرأنا الفصل المشار إليه الذى تعرض للرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، فوجدناه يمثل لونا من ألوان الانحراف والتعصب الذى لا يعرف الإنصاف على هذا المقام الأقدس ، شأن هؤلاء المستشرقين وأبناء جلدتهم ممن أولعوا بتشويه الإسلام ، ورسول الإسلام .

بَيْد أننا لم نستحسن ما فعلته المجلة من ترجمة هذا الفصل الزاخر بالطعن على الرسول الكريم إلى اللغة العربية ، ثم من نشره ، ثم من تكرار هذا النشر مرة أخرى ، فإن من الواضح إنها قدمت بذلك خدمة كبرى لمؤلف هذا الفصل ولأصحاب المصلحة فى بث فكرته بين المسلمين وغيرهم ، فهل كان يتهيأ لهم بهذه السهولة ما هيأته « رسالة الباكستان » أولا وثانياً ـ ولعلها تعتزم أن تهيئه أيضاً ثالثا ورابعا ـ من هذا النشر الواسع المنظم الذى استدعى كثيراً من الجهود ، وكثيراً من النفقات ؟

إن الفائدة التى تعود على الباكستان من إشاعة خطأ وقعت فيه دار هندية للنشر ، لا تساوى عشر معشار الضرر الذى أصاب المسلمين بتعريض عقول أبنائهم وجمهور مثقفيهم إلى هذا اللون من الطعن والتلبيس ونشر قالة السوء عن رسولهم الكريم بأيد إسلامية ، وأموال إسلامية ! . وإن من الأكرم المسلمين أن يرتفعوا بمقدساتهم عن الزج بها فى معترك الأمور السياسية .

وإذا لم يكن بد من التعرض لمثل هذا الفصل ، وفضح الأغراض السيئة المتصلة به ، أفما كان من الواجب أن يدرس ما جاء فيه علميا ويفند ويرد عليه رداً قويا وينشر هذا الرد معه ؟ .

* * *

٢ – وبهذه المناسبة نذكر إننا اطلعنا أيضا على رسالة بعنوان (حقيقة باكستان يجب أن يعرفها العالم الحر) فوجدناها – مع تضمنها كثير من الحقائق التي يجب أن يفطن لها المسلمون عن الاستعمار وأساليبه – تتحدث عن باكستان حديثا فيه كثير من الإساءة وكثير من التظنن ، ولا شك أن أعداء المسلمين يسرهم أن يروا كتابهم يضرب بعضهم بعضا ، ويثير بعضهم الشكوك والريب عن بعض ، لأنهم وحدهم هم الذين يفيدون من ذلك ، حيث يعينهم على ما يبتغون من تفريق كلمة المسلمين ، وتشتيت أمتهم .

إن الباكستان – ويجب أن لا ننسى هذه الحقيقة – دولة من الدول الإسلامية ناشئة ، وبها يزداد المسلمون قوة وانبعاثاً ، وإذا كان لها أخطاء أو اتجاهات قد يعترض عليها بعض المعترضين ، فإن من الحفاظ على رحم الإسلام ، ومن الوفاء لإخوة الإسلام ، أن يترفق المعترضون ، ولا يثيروا اعتراضاتهم علنا في شكل رسائل مطبوعة منشورة يقرؤها العدو والصديق .

فالذي أخذناه على (رسالة الباكستان) في اهتمامها بنشر الطعن في المقام الأقدس بعد ترجمته إلى اللغة العربية ؛ نأخذه على مؤلف رسالة (حقيقة باكستان) ونسأل الله أن يهب المسلمين من لدنه رحمة ، وأن يوجه قادتهم وأصحاب الأفكار والأقلام فيهم إلى طريق الائتلاف والمحبة والتواصي بالحق والتواصي بالخير في هدوء وإخلاص وحسن تقدير للروابط التي ألف الله بها بينهم .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

* * *

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادىء الاسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

كلمة التحرير	. . . .	٣٣٩
تفسير القرآن الكريم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	٣٤١
حق الله وحق العبد	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه	٣٥٣
المجتمع القرآنى	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره	٣٥٧
أيها أصلح لحالتنا الدينية والاجتماعية	لفضيلة الأستاذ ابن الدين	٣٦٦
كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفه	٣٧٠
نظام البغاء وصمة فى تاريخ بنى الإنسان	الدكتور على عبد الواحد وافى	٣٧٤
قال شيخى	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى	٣٨٠
الشرق والغرب قبل الإسلام وبعده	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى	٣٩٠
فى التاريخ والأدب	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	٣٩٦
[أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية] . . .	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى	٤٠٥
مستقبل الشعر	لفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى	٤٢١
عناصر القوة فى مجتمعنا	للمهندس الدكتور محمد محمود غالى	٤٢٦
معجم ألفاظ القرآن الكريم		٤٣٧
أنباء وآراء		٤٤١
معهد الدراسات الإسلامية ـ عبد الله بن سبأ ـ الكتاب الذى هز الهند ـ حقيقة الباكستان		
رجاء من التقريب		٤٤٦
من القانون الأساسى لجماعة التقريب		٤٤٧

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

صاحب الامتياز : محمد التقى القمى

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة ـ تليفون : ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة احمد على مخيمر ت ٤٧١٩٣